جورج أورويل

ترجمة: مي دنيا

رواية

1984

اسم الكتاب: 1984
تأليف: جورج أوريل
ترجمة: مي دنيا
الإخراج الداخلي: د. شيماء محمد بوطالب
تدقيق لغوي: منى القاضي
تصميم الغلاف: عبدالرحمن محمد خلف
الطبعة الأولى: 2023
رقم الإيداع: 26624 /2022
الترقيم الدولي: 978-977-86417 - 7 -6





مزاج الكتب
ج.م.ع
الإسكندرية
Email: mazagelkotob@gmail.com
Mobile: 01024541339

جورج أوريل..

"إريك آرثر بلير" هو الاسم الحقيقي لـ "جورج أورويل"، وهو الاسم المستعار له والذي أُشتهر به، هو صحفي وروائي بريطاني، عمله كان يشتهر بالوضوح والذكاء، وخفة الدم، والتحذير من غياب العدالة الاجتماعية، ومعارضة الحكم الشمولي وإيمانه بالاشتراكية والديموقراطية.

حياته:

ولد "إريك آرثر" في 25يونيو 1903في ولاية (موتيهاري) في ولاية (بيهار الهندية) لأسرة من الطبقة المتوسطة. كان لـ "إريك" أختان "مارجوري" التي تكبره بخمس سنوات و"أفريل" التي تصغره بخمس سنوات.. حينما كان عمر "إريك" سنة واحدة نقلته أمه مع أخته إلى (إنجلترا)، ترعرع "إريك" في حضن أمه وأختيه، ولم يروا والدهم "ريتشارد" حتى عام 1912. عندما بلغ عمر الخامسة.. أُرسل "إريك" كطالب إلى مدرسة الدير في (هينلي) الواقعة على نهر التايمز، والتي انضمت إليها "مارجوري».. كانت أمه تريد له أن يقوم بتحصيل الدراسة في المدارس الحكومية، لكن عائلته لم تكن تستطيع توفير تكاليف المدرسة، وكان يحتاج الحصول على منحة دراسية، قام مدير المدرسة بمساعدة "إريك" للفوز بمنحة دراسية، وقام بوضع ترتيبات تسمح لأبويّ "إريك" بدفع نصف الرسوم المعتادة. في سبتمبر 1911 وصل "إريك" لمدرسة (سانت قبرص).

درس "إريك" في المدرسة خلال الخمس سنوات التالية، وكان يعود لمنزله في العطل الدراسية.. لم يكن يعلم أي شيء عن الرسوم الدراسية المخفضة، على الرغم من أنه عرف بملاحظته عن نفسه أنه قادم من بيتٍ فقير، "بلير" كره الدراسة.. وكتب في سنواتٍ لاحقة مقال «هذه وتلك مكان الفرحة»، والتي نشرت بعد موته، اعتمادًا على وقته في المدرسة.

أعماله:

أكثر عمل عرف به هو رواية (1984) التي كتبها في عام 1949.

وروايته المجازية (مزرعة الحيوان) عام 1945.

والاثنان تم بيع نسخهما معًا أكثر من أي كتابٍ آخر لأيٍ من كُتاب القرن العشرين.. وقد جمُعت رسائله ومقالاته وأعماله الأدبية في مؤلفٍ من أربعة أجزاء.

الجزء الأول

الفصل الأول

كان يومًا باردًا من أيام أبريل بسمائه الصافية، وكانت الساعة تدق الواحدة بعد الظهر، عندما كان "ونستون سميث" بذقنه المنسدلة على صدره اتقاءً لريحٍ بارد، يسرع عبر الأبواب الزجاجية لمبنى النصر، ولم يمنع اندفاعه السريع دخول دوامة من الريح المحملة بذرات الغبار.

كان الممر الذي يجتازه ممتلئًا بروائح الملفوف المسلوق والفرش المهترئ، وعند نهاية هذا الممر كانت هناك صورة ملونة وذات حجمٍ كبيرٍ لا يتناسب مع ذاك الممر الضيق، وكانت تمثل وجهًا ضخمًا يزيد عرضه عن المتر، وهو وجه رجلٍ في الخامسة والأربعين، ذو قسماتٍ جميلة، وإن كانت لا تخلو من خشونة وصرامة، ويبرز فيه شاربان أسودان كثان. اتجه "ونستون" نحو السلالم للصعود، فالمصعد نادرًا ما كان يعمل، إما بسبب عطل وإما لانقطاع التيار الكهربائي معظم ساعات النهار، انسجامًا مع خطة توفير الطاقة استعدادًا لفعاليات «أسبوع الكراهية». كانت الشقة التي يقصدها "ونستون" في الطابق السابع، وكان عليه أن يصعد سُلمًا طويلًا، ولأنه في التاسعة والثلاثين من عمره ويشكو من دوالٍ فوق كاحله الأيمن، فقد راح يرتقي درجات السلم بخطى وئيدة متوقفًا للاستراحة عدة مرات.. وعند كل منعطف من منعطفات السلم السبعة، وعند كل محطة من محطات المصعد وبمواجهة الباب، كانت تنتصب صورة الوجه الضخم لتُحدّق في وجه كل قادم.

إنها واحدة من تلك الصور المرسومة على نحوٍ يجعل المرء يعتقد أن العينين تلاحقانه أينما تحرك. وكان يوجد أسفل تلك الصورة عبارة بارزة تقول: «الأخ الكبير يراقبك».

سمع "ونستون" صوتًا عند دخوله الشقة، كان هذا الصوت منبعثًا من جهازٍ يُسمى (لوحة السرد) وهو عبارة عن لوحة معدنية مستطيلة كمرآةٍ معتمة معلّقة على الحائط، وكانت تسرد قائمة أرقام تتعلّق بإنتاج الحديد الخام، قام "ونستون" بخفض صوت ذاك الجهاز قليلًا فلم يستطع غلقه.. كان "ونستون" نحيلًا والزي الأزرق الذي يرتديه زاد من ضآلة جسده، وكان شعره مائلًا للشقرة ووجهه شديد الاحمرار، أما بشرته فكانت خشنة متأثرة ببرودة الجو، وشفرات الحلاقة الباردة، والصابون الرديء.

وقف "ونستون" أمام النافذة المغلقة، فكان الجو باردًا خارج النافذة والشوارع مليئة بالرياح المحملة بالأتربة. كانت الرياح شديدة، فكانت تحمل أوراق الشجر المتناثرة فتتصاعد لأعلى في أشكالٍ حلزونية، وعلى الرغم من سطوع الشمس وصفاء السماء إلا أن كل الأشياء باهتة عدا تلك الصورة المعلقة في كل مكان، ومن كل زاوية كان يحدق هذا الوجه ذو الشارب الأسود في المارة.. كما كانت معلقة على المنزل المقابل ومكتوب تحتها نفس العبارة «الأخ الأكبر يراقبك».

فكانت هاتان العينان السوداوان ينفذان إلى أعماق "ونستون"، وفي الأسفل كانت هناك صورة ممزقة تحركها الريح من آنٍ لآخر فيكشف عن كلمة واحدة «اشتنج» ثم يخفيها، وكانت هناك طائرة حوامة على بعدٍ تطير على ارتفاعٍ منخفض من أسكنة المباني. حامت الطائرة للحظة ثم ابتعدت في مسارٍ منحنٍ، كانت دورية من دوريات الشرطة تتجسس على الناس عبر النوافذ، ولكنها لا تشغل البال، فلا خوف إلا من شرطة الفكر.

كان الصوت المنبعث من شاشة الرصد مستمرًا في تكرار إحصائيات إنتاج الحديد الخام، ويعيد خبر تحقق أهداف الخطة الثلاثية التاسعة، وكان الجهاز يرسل ويستقبل في آنٍ واحد، فيستطيع التقاط كل صوتٍ يصدر عن "ونستون"، يتجاوز حد الهمسات الخافتة، بالإضافة إلى أنه يبقى مراقبًا بالصوت والصورة ما دام موجودًا في مدى رؤية هذه الشاشة المعدنية. ولم

يكن هنالك بالطبع من طريقة لمعرفة ما إذا كنت في مرمى المراقبة أم لا في أية لحظة. أما كم مرة أو كيف يمكن أن تخترق شرطة الفكر حياتك الخاصة فهذا أمر لا يمكن التنبؤ به، وإن كان من المفروض أنها ترصد الناس جميعًا بلا انقطاع، إذ باستطاعة هذه الشرطة أن تدخل متى شاءت، على خط أي مكان. وعليك أن تعيش كما اعتدت دائمًا مع فكرة أن كل صوتٍ يصدر عنكَ مسموع، وأن كل حركة مرصودة.

وقف "ونستون" مديرًا ظهره لشاشة الرصد، فقد كان يعتقد أن هذه أفضل عاقبة، بالرغم من أن أمر المرء يمكن أن ينكشف من ظهره أيضًا.. وكان مركز عمله يبعد بحوالي كيلو متر واحد عن (وزارة الحقيقة) التي يرتفع مبناها ذو اللون الأبيض وسط منظرٍ طبيعيٍ كالح. وفكر "ونستون" وفي نفسه شيئًا من التقزز والامتعاض، «أهذه هي «لندن»؟ المدينة الرئيسية في القطاع الجوي رقم واحد؟ وثالث أكبر مقاطعات أوشينيا سكانًا».

حاول "ونستون" جاهدًا استرجاع بعضًا من ذكريات الطفولة، محاولًا أن يتبين ما إذا كانت هذه هي صورة «لندن» في كل الأوقات؟ أكانت بمثل هذه الطرقات المزدحمة والمنازل المتهالكة؟ أكانت على هذه الحال في القرن التاسع عشر، حيث تظهر على جوانبها الدعائم الخشبية، ونوافذها مدعومة بقطعٍ من الكرتون، وسقوفها مصنوعة من صفائح الحديد المنبعج، وأسوار حدائقها مهدمة ومبعثرة في كل الاتجاهات؟ أكانت موجودة تلك الأماكن التي أحدث القصف فيها حفرًا كبيرة تعبق بالغبار، وتبدو للعين أوراق الصفصاف مختلطة بأكوام النفايات، وقد ظهرت هناك مجموعة من الأكواخ الخشبية أشبه بأقفاص الدجاج؟ ولكن عبثًا حاول، فلم يكن باستطاعته أن يتذكر شيئًا عن ذلك الماضي.. إذ لم يبقَ له من ذكريات الطفولة إلا صور غير واضحة المعالم.

كانت تختلف (وزارة الحقيقة) - مينيترو في اللغة الجديدة - اختلافًا واضحًا عما حولها من مبانٍ، فهي مبنى هرمي ضخم من الأسمنت الأبيض

اللامع، وكان باستطاعة "ونستون" وهو في مكانه أن يقرأ ما على الحائط، وهو شعار الحزب المكون من ثلاث جمل وهي:

«الحرب هي السلام».

«الحرية هي العبودية».

«الجهل هو القوة».

كانت (وزارة الحقيقة) تتكون من ثلاث آلاف غرفة فوق الأرض، وعدد من السراديب التابعة لها تحت الأرض، ولم يكن في جميع أنحاء «لندن» سوى ثلاثة مبان أخرى تشبه (وزارة الحقيقة) من حيث المظهر والحجم، وهذه البنايات كانت تحجب ما حولها من منازل، ولذا كان من الممكن لمن يقف فوق سطح مبنى النصر أن يرى البنايات الأربع في آنٍ واحد. وكان يشغل هذه البنايات أربع وزارات تشكل الجهاز الحكومي، فـ (وزارة الحقيقة) تختص بشؤون الأخبار ووسائل اللهو والاحتفالات والتعليم والفنون الجميلة، ثم (وزارة السلام) التي تعني بشؤون الحروب، ثم (وزارة الحب) وهي المسؤولة عن حفظ النظام وتطبيق القانون، ثم أخيرًا وزارة الوفرة وهي ترعى الشؤون الاقتصادية.

كانت وزارة الحب تعتبر مصدرًا للرعب والخوف، فهي عبارة عن بناءٍ بدون نوافذ على الإطلاق. لم يسبق لـ "ونستون" دخول هذه الوزارة، بل لم يحدث أن اقترب منها حتى مسافة نصف كيلو متر، إذ كان لا يسمح بدخولها إلا في مهمة رسمية، وحتى هذا الدخول يكون عبر سياجٍ من الأسلاك الشائكة والأبواب الحديدية، مرورًا بمرابض للمدافع والرشاشات المرعبة، كما أن الطرقات المؤدية إلى المبنى كانت دائمًا مراقبة، من قبل حرس ذوي وجوهٍ صارمة يرتدون ملابس سوداء ويحملون العصي المدببة.

استدار "ونستون" بعد أن رسم ببراعة تعبيرات التفاؤل التام على وجهه، وهو ما كان يستحسن فعله عندما يواجه المرء شاشة الرصد، واجتاز الغرفة متجهًا إلى المطبخ الصغير، إذ فاته موعد تناول طعام الغداء في المطعم لتأخره

في الوزارة.. وكان يعلم أن المنزل خالٍ من الطعام إلا من قطعة خبز سوداء كان تركها لتكون إفطارًا له في صباح الغد، تناول عن أحد الرفوف زجاجة تحتوي على سائلٍ لا لون له، وقد ألصق على الزجاجة ورقة كتب عليها «جن النصر»، وكانت تفوح منه رائحة ممرضة أشبه برائحة الزيت وكأنه كحولٌ مستخرجٌ من الأرز الصيني، وبالرغم من ذلك صب "ونستون" القليل منه في كوب شاي، ثم استجمع قواه ليحتسيه كما لو أنه دواءٌ مرغمٌ على تناوله.

وفي الحال احمر وجهه وسالت الدموع من عينيه، فقد كان مذاقه شبيهًا بحامض الصوديوم، فضلًا عن أنه عندما ابتلعه شعر كما لو أنه ضُرب على مؤخرة رأسه بعصا مطاطية. لكن بعد لحظات قليلة خفّت حدة الألم الذي شعر به في جوفه، ليحل محله الشعور بالراحة والانشراح، وعندها مد يده ليأخذ علبة السجائر، وهي أيضًا تحمل اسم «سجائر النصر» وأخذ منها سيجارة واحدة، يتناثر ما فيها من تبغ على الأرض، فوضعها جانبًا متناولًا سيجارة أخرى أحسن حالًا. ثم عاد إلى الغرفة فجلس إلى طاولة صغيرة كانت إلى يسار شاشة الرصد، وفتح درجًا كان بها فأخرج ماسكة قلم ومحبرة ودفترًا صغيرًا ذا ورقٍ سميك وخلفية حمراء وغلاف رخامي اللون.

ولسببٍ ما، كان الجهاز في غرفة الجلوس موضوعًا في مكانٍ غير اعتيادي، فبدلًا من أن يوضع - كما جرت العادة - عند نهاية الجدار حيث يستطيع كشف الغرفة كلها، وضع الجهاز في الجدار الأطول مقابل النافذة، الذي كان في جانبٍ منه تقعر خفيف جلس فيه "ونستون". ولعل هذا التقعر قد قصد به أن يكون مكانًا لخزانة الكتب، وهكذا بجلوسه في ذلك المكان وظهره مسند إلى الوراء، كان "ونستون" خارج مدى رؤية شاشة الرصد، مع أن الجهاز كان باستطاعته التقاط ما يصدر عن "ونستون" من أصوات.

وقد كان تصميم الغرفة ومظهرها هو ما ألهم "ونستون" ليقوم بذلك العمل الذي كان ينوي القيام به في تلك اللحظة. ولكن هذا الإيحاء كان مصدره أيضًا ذاك الدفتر الذي أخرجه من درج المنضدة، وقد كان دفترًا

جميلًا للغاية، إذ كان ورقه الناعم ذو اللون الأبيض - والذي أكسبه القدم اللون الأصفر- من نوعٍ تم التوقف عن إنتاجه منذ أربعين عامًا على أقل تقدير، ومع ذلك كان بالإمكان التكهن بأن الدفتر أقدم من ذلك، وكان قد عثر عليه معروضًا في واجهة حانوت خردوات صغير في حي من الأحياء الفقيرة - لا يتذكر اسمه أو موقعه -، وما إن وقعت عليه عيناه حتى تملكته رغبة عارمة في امتلاكه، ورغم أنه لم يكن مسموحًا لأعضاء الحزب بالتردد على مثل هذه الحوانيت العادية الكائنة في الأسواق الحرة، كما كانت تسمى، فلم يكن هذا القانون يُطبق بصرامة، لأنه كانت هنالك أشياء كثيرة، مثل أربطة الأحذية وشفرات الحلاقة، يتعذر على المرء الحصول عليها بغير هذه الطريقة.

وكان "ونستون" وهو في طريقة إلى هذا الحانوت يتلفت ذات اليمين وذات الشمال وهو يتوجس خيفة، بل ولم يدلف إليه حتى اطمأن إلى أن أحدًا لا يراقبه، ثم اشترى الدفتر بدولارين ونصف الدولار، دون أن يكون لديه هدف محدد من وراء شرائه، وتأبط الدفتر مخفيًا إياه بعناية وحمله إلى منزله كمن يحمل إثمًا، إذ كانت مجرد حيازة مثل هذا الشيء يدعو للشبهة حتى لو كان خاليًا من أي كتابات.

وهنا راودته فكرة ألا وهي أن يستعمله كمفكرة، ولم يكن في ذلك ما يخالف القانون (ليس لأن ذلك مسموح به، بل لأنه لم يكن هناك قانون في الأصل يحدد ما هي المخالفات)، ومع ذلك إذا ما افتضح أمره فإنه كان حتمًا سيُحكم عليه بالإعدام أو السجن لخمس وعشرين سنة في معتقلٍ من معتقلات الأشغال الشاقة. وضع "ونستون" ريشة في ماسكة القلم ثم مصها قليلًا ليخلصها مما علق بها. كان القلم أداة زخرفية قديمة نادرًا ما استعمله حتى في التوقيع.. لقد حصل عليه بشكلٍ سري وبصعوبة بالغة، إذ كان يشعر أن ورقًا ناعمًا أبيض اللون مثل هذا الورق يجب أن يُكتب عليه بريشة حقيقية لا أن يخربش عليه بقلمٍ جف حبره.. كان "ونستون" في الواقع غير

معتاد على الكتابة باليد إلا في حالة تدوين بعض الملاحظات القليلة، لقد كان معتادًا على أن يملي كل شيء على «الآلة الكاتبة الناطقة»، وهذه بالطبع كان من غير الممكن أن يسجل عليها ما يريد تسجيله في مفكرته، ثبّت الريشة ثم غمسها في المحبرة، وبدا كما لو كان مترددًا في أمرٍ ما للحظة واحدة، وسرت القشعريرة في جسده، فمجرد أن يخط بيده على الورقة كان يُمثل له قرارًا حاسمًا وخطيرًا، وكتب بأحرف صغيرة غير مقروءة جيدًا على صدر الصفحة.. «4 أبريل 1984».

ثم اعتدل في جلسته، وقد تملكه بالعجز التام.. فقبل كل شيء لم يكن متأكدًا أن العام كان 1984، فقد يكون الزمان قريبًا من ذلك التاريخ، لأنه كان متأكدًا أن عمره لم يتجاوز التاسعة والثلاثين، وكان يعتقد أنه من مواليد 1944 أو 1945، ومع ذلك كان من المستحيل في هذه الأيام تحديد أي تاريخ مضى عليه سنة أو سنتان.

بعد ذاك راح يتساءل: "لمن يكتب هذه المذكرات؟ أيكتبها للمستقبل؟ أم للأجيال القادمة؟».

وأطرق للحظة وهو يفكر في هذا التاريخ المشكوك في صحته، والذي دوّنه في صدر الصفحة الأولى، وسرعان ما امتدت يده ليتناول قاموس اللغة الجديدة وبحث باهتمامٍ عن كلمة «التفكير المزدوج»، فلأول مرة يستشعر خطورة ما أقدم أو ما هو مقدم عليه، وتساءل في نفسه: "كيف يمكن أن يتسنى له الاتصال بالمستقبل؟».، إن مثل هذا العمل مستحيل في حد ذاته، إذ إن المستقبل إما أن يكون شبيهًا بالحاضر وبالتالي لن يتجاوب معه، أو مغايرًا له وحينئذ لن يكون لتكهناته التي يعيش من أجلها أي معنى.

مضت لحظات وهو يحدق في الورقة التي أمامه ببلادة.. وكانت شاشة الرصد قد انتقلت لإذاعة موسيقى عسكرية صاخبة، وقد تولاه الفزع، ليس لأنه فقد القدرة على التعبير عما تجيش به نفسه فحسب، بل لأنه نسي كليًا ما كان يحيك في صدره ويهيئ له نفسه منذ أسابيع، لقد كان يظن أنه لن يحتاج

إلى شيءٍ آخر غير الشجاعة والإرادة، إذ الكتابة أمرٌ يسير لا يحتاج إلى كثيرٍ من العناء، وما عليه إلا أن ينقل ما كان يجول بخاطره لسنوات من حواراتٍ طويلة مع النفس إلى الورق، تلك الحوارات التي كانت تعتمل في رأسه وتسبب له القلق وعدم الارتياح، بيد أنه في هذه اللحظة بدا له كما لو أن ينابيع هذه الأفكار قد جفت، بل لقد بدأ يشعر بألم الدوالي في ساقه اليمنى، ولم يجرؤ على حكها خوفًا من أن تلتهب كالسابق.

كانت الثواني تمضي بسرعة، ولكنه لم يكن يعي من حوله غير الصفحة البيضاء التي أمامه، والألم الذي في كاحله، وصوت الموسيقى الصاخبة وشعور خفيف بالدوار بتأثير شراب الجن.

وفجأة وجد نفسه يكتب، وقد تملكته حالة من الرعب. لم يكن يُدرك تمامًا ما كان يفعله. كان خط يده الشبيه بخط الأطفال يميل في تعرجاتٍ إلى أعلى وإلى أسفل، وقد انفصلت الأحرف الأولى والنقط وعلامات الوقف عن الكلمات، وقد كتب ما يلي:

«الرابع من أبريل 1984، ذهبت الليلة الماضية لأحد دور العرض، كانت جميع الأفلام المعروضة حربية، وكان هناك فيلمًا عليه إقبالٌ كبير، فكان يعرض قصة سفينةٍ ضخمة محملة باللاجئين تتعرض للقصف بالقنابل في مكانٍ ما بالبحر الأبيض المتوسط، وقد سُر المشاهدون بمشهد رجلٍ ضخم كانت تلاحقه الطوافات وهو يحاول النجاة بنفسه مبتعدًا عن السفينة، فكان يسبح بصعوبةٍ كالسلحفاة.. إلى أن تم إطلاق وابل من الرصاص عليه، فامتلأ جسده بالثقوب، فتحول البحر من حوله إلى اللون الأحمر وغرق على نحوٍ مفاجئ، كما لو أن الماء تسرب إليه من خلال تلك الثقوب، انفجر المشاهدون ضحكًا عند غرقه، وبعد ذلك رأيتُ قارب نجاة محملًا بأطفال، وكانت هناك طوافة تُلاحقه، وكان في مقدمة المركب امرأة في منتصف العمر يبدو وكأنها يهودية، تحتضن طفلًا في الثالثة من عمره، كان يصرخ خوفًا.. وكان يُخبئ رأسه بين ثدييها، وكأنه يحاول أن يجد لنفسه مكانًا بداخلها،

فكانت تحتضنه بين ذراعيها وتهدّئ من روعه رغم أنها كانت ترتعد خوفًا هي الأخرى ، فكانت تحاول تغطيته بذراعيها طوال الوقت لحمايته من الطلقات، ولكن في تلك اللحظة أُلقيت عليهم قذيفة تزن 20 كيلو جرام، فغرق القارب بمن عليه، ولم يتبقَ منهم سوى ذراع طفل تطاير في الهواء، ويبدو أن الطوافة كانت مزودة بكاميرا في مقدمتها، فكانت تتبع الذراع لأعلى، وهنا علا تصفيقٌ حادٌ من مقاعد رجالِ الحزب، إلا أن امرأة من النساء في مقاعد العمال ظلت تصرخ وتضرب الأرض بقدمها قائلة: "لا يجوز عرض هذه المشاهد في وجود الأطفال».

واستمرت في ترديد ذلك حتى استوقفتها الشرطة وأخرجتها من القاعة، فلا أظن إن حدث لها شيء، فلا يهتم أحد بما يقوله عامة الناس».

هنا توقف "ونستون" عن الكتابة، وأغلب الظن أنه كان يتألم من الدوالي، ولم يكن يدري ما الذي جعله يكتب مثل هذا السيل من الهراء. غير أن الشيء الغريب هو أنه بينما كان يقوم بذلك، إذا بحادثةٍ تلمع بجلاءٍ ووضوحٍ في ذاكرته، إلى حد أنه انكب على كتابتها بلا تردد، وقد كانت تلك الواقعة كما تبين له هي التي دفعته لأن يسرع إلى المنزل ويشرع في تسجيل مذكراته في هذا اليوم.

لقد حدثت تلك الواقعة في صباح ذلك اليوم حينما كان موجودًا بالوزارة، إذا صح أن أمرًا غامضًا كهذا يمكن أن يحدث.

«كانت الساعة الحادية عشر تقريبًا، حينما بدأ الموظفون في قسم السجلات حيث يعمل "ونستون" في جر مقاعدهم من مكاتبهم ليصفوها وسط القاعة في مواجهة شاشة الرصد لبدء فعاليات «دقيقتي الكراهية». اتخذ "ونستون" مكانًا في المنتصف حين دخل إلى القاعة شخصان لا يبدو أن أحد ينتظرهما، يعرفهما "ونستون" من بعيد، ولكن لم يسبق له وأن تحدث مع أحدٍ منهما من قبل، أحدهما فتاة لم يكن يعرف اسمها، فكان كثيرًا ما يلتقي بها في الممرات، ولكن ما يعرفه عنها أنها تعمل في دائرة الإثارة، فكان

يُخمن ذلك لأنه كان دائمًا يرى يديها متسختين بالزيت وتحمل مفك براغي، مما جعله يظن أنها من اللواتي يعملن في قسم الميكانيكا على آلات طباعة الروايات، كانت فتاة في السابعة والعشرين من عمرها تقريبًا، جريئة المظهر، لها شعرٌ طويل ونمش في وجهها، وحركاتها السريعة تدل على أنها رياضية.. كانت تتوشح بحزامٍ قرمزي، فكان ملفوف حول خصرها عدة لفات فوق ملابس العمل، مما يبرز حدود جسدها، وكان هذا الوشاح يرمز إلى رابطة الشباب المناهض للجنس، ومنذ أن رآها "ونستون" وهو ينفر منها، لأنه يعرف ما يحيط بها من أجواء ملاعب الهوكي، وحمامات الماء البارد، والرحلات الجماعية، فكانت تلك عقيدتها التي تعتنقها، فقد كان يكره النساء خاصة الجميلات، فقد كن أكثر أعضاء الحزب إخلاصًا وتمسكًا بمبادئه، ولكن هذه الفتاة بالأخص كانت توحي له بأنها أخطرهن، فعندما التقى بها مصادفة في إحدى المناسبات وألقت عليه نظرة جانبية، فشعر أنها اخترقته وملأت قلبه بالرعب، وظن أنها إحدى عميلات شرطة الفكر، فكلما رآها شعر بعدم ارتياح وخوفٍ ممزوجٍ بعداء».

وأما الشخص الآخر فكان رجلًا يدعى "أوبراين"، وهو عضو في الحزب الداخلي، ويشغل منصبًا ذات أهمية كبيرة وصلاحيات واسعة، ولم يكن لدى "ونستون" فكرة واضحة عن طبيعته أو منصبه.. وما كاد الحضور يرى البزة السوداء التي يرتديها أعضاء الحزب الداخلي حتى خيم الصمت للحظة عليهم... كان "أوبراين" رجلًا ضخم الجسم، قوي البنية، غليظ العنق، وذا وجهٍ وحشي ساخر، ولكنه ورغم مظهره الذي يلقي بالروع في النفس فقد كان يحظى بشيءٍ من الجاذبية ودماثة الخلق، وكان من عادته المبالغة في تحريك وتثبيت نظارته على أنفه بطريقةٍ مهذبة جاذبة، وكانت حركته تلك تشبه ما كان يقوم به أحد نبلاء القرن الثامن عشر عندما يقدم علبة سعوطه إلى رجلٍ آخر. وكان "ونستون" قد التقى "أوبراين" عشرات المرات على مدى سنوات، وكان يشعر في أعماقه بشيءٍ من الانجذاب نحوه، ولم يكن سبب هذا

الانجذاب راجعًا في الأساس للتناقض الواضح بين أخلاق "أوبراين" المهذبة وشكل جسمه الذي يشبه أبطال المصارعة، وإنما كان بسبب اعتقاد داخلي، أو ربما لم يكن اعتقادًا بل مجرد أملٍ يحدوه، بأن ولاء "أوبراين" السياسي للحزب لم يكن تامًا. فقد كان ثمة شيء في وجهه يوحي بذلك إيحاء لا يقاوم، ولكن ربما كان ما يبدو على وجهه ليس انحرافًا عن ولائه للحزب وإنما كان مجرد ذكاء. بيد أنه وعلى أي حال كان يتمتع بمظهرٍ يوحي بأنه شخصٌ يمكنك أن تتحدث إليه مطمئنًا إذا استطعت خداع شاشة الرصد والانفراد به.

ولم يحدث أن كلف "ونستون" نفسه أبدًا أدنى عناء للتحقق من ظنونه ولم يكن في الحقيقة أمامه من سبيل إلى ذلك، وفي هذه اللحظة تطلع "أوبراين" إلى ساعته فرأى أنها قد قاربت الحادية عشرة، فقرر البقاء داخل قسم السجلات إلى أن تنتهي فعاليات «دقيقتي الكراهية». وقد جلس على كرسي في الصف نفسه الذي جلس فيه "ونستون" يفصل بينهما كرسيان، كان يشغل أحدهما امرأة ذات شعرٍ رملي تعمل في مكتبٍ مجاورٍ لمكتب "ونستون"، في حين جلست الفتاة ذات الشعر الأسود خلفه مباشرة.

وفي اللحظة الثانية انبعث صوتٌ مزعجٌ ومخيف من شاشة الرصد في طرف القاعة، كما لو أنه يصدر عن آلة قد جف زيتها. كان صوتٌ تصطك له الأسنان ويقف له شعر الرأس.. ولم يكن ذلك إلا إيذانًا ببدء فعاليات الكراهية.

ظهر على الشاشة كالعادة وجه "إيمانويل غولدشتاين"، عدو الشعب، سرت همسات في القاعة هنا وهناك، في حين صدرت صيحه مملؤة بالخوف والاشمئزاز من المرأة ذات الشعر الذهبي.. كان غولدشتاين هو المرتد الخائن ذات يوم منذ زمن بعيد - لا أحد يتذكر متى تحديدًا كان ذلك -، كان أحد رموز الحزب القيادي، وكان في نفس مكانه الأخ الأكبر تقريبًا. فقد تورط في عدة نشاطات معادية للثورة وتآمر على الحزب، فحُكم عليه بالإعدام، ولكنه استطاع الهروب واختفى على نحوٍ غامض. كانت برامج «دقيقتي الكراهية»

متنوعة وتتغير يوميًا، ولكن كان "غولدشتاين" المحور الرئيسي لأي برنامج، فقد تآمر على الحزب وكان أول خائن للثورة وكل ما يحدث من جرائم وخيانات وأعمال تخريبية وهرطقة وانحرافات عن مبادئ الحزب، كانت نابعة من تعاليمه المباشرة، فما زال حيًا يدبر المكائد من مكانٍ ما فيما وراء البحار تحت حماية الأجانب المسؤولين عن تمويله، فمن حينٍ لآخر يُشاع انه مُختبئ في مكانٍ ما داخل «أوقيانيا» نفسها.

شعر "ونستون" بغُصة، فلم ير وجه "غولدشتاين" إلا ويشعر بمزيجٍ مؤلم من المشاعر. كان وجهه وجه يهودي هزيل، كان هناك هالة من الشعر الأشيب تعلو رأسه، وله لحية صغيرة تشبه لحية (التيس)، ذو وجهٍ يوحي بالذكاء.. ولكنه مثال للخسة، له أنفٌ طويل ترتكز نظارته عليه، وكان أشبه ما يكون بالخراف، وصوته أيضًا كالخراف.

كان "غولدشتاين" يلقي كالعادة خطابه الذي يشن فيه هجومًا شرسًا على مبادئ الحزب، وكان هجومه مليء بالتحامل والمبالغات، حتى أن الطفل ليستطيع أن يفهم ذلك، إلا أنها مع ذلك كانت معقولة لدرجة تثير الفزع لدى المرء، حينما يتنبه إلى أن هنالك أناسًا بسطاء وأقل إدراكًا لحقائق الأمور قد ينخدعون بها. كان يصبح متهجمًا على الأخ الكبير ويستنكر ديكتاتورية الحزب، ويطالب بإرساء السلام مع «أوراسيا» على الفور، كما كان يطالب بحرية التعبير وحرية الصحافة وحرية عقد الاجتماعات وحرية الفكر. وكان يصيح بحماسٍ مندِدًا بالخيانة التي تعرضت لها الثورة من الداخل، كل ذلك بكلمات سريعة متلاحقة في محاكاة للأسلوب الخطابي الذي اعتاده خطباء الحزب، بل وكانت خطبه تتضمن كلمات من اللغة الجديدة تفوق ما اعتاد على استخدامه أي من أعضاء الحزب أنفسهم، وفي أثناء ذلك، ومخافة أن يكون البعض قد انخدع بأكاذيبه الخافية وراء خطبته المنمقة، كانت تظهر على الشاشة وراء رأس "غولدشتاين" جحافل جرارة من جنود «أوراسيا»، صفوف متراصة من رجالٍ ذوي وجوهٍ كالحة وحشية يظهرون على وجه

الشاشة، كتائب متلاحقة ما إن تختفي واحدة إلا وتظهر أخرى أكثر وحشية وهمجية. وكان الإيقاع الرتيب لأحذيتهم العسكرية بمثابة الخلفية الصوتية لخطاب "غولدشتاين" وصوته الثغائي.

وقبل أن تمضي الثلاثون ثانية الأولى من فعاليات الكراهية، بدأت تتعالى صرخات غاضبة منفجرة من نصف الحضور في القاعة، إذ كان الوجه الأشبه بوجه الخروف والمعتد بنفسه لدرجة الغرور فضلًا عن الفزع الذي تثيره مشاهد جيش «أوراسيا» على الشاشة أكثر مما يمكن أن يحتمل، هذا إلى جانب أن رؤية "غولدشتاين" أو حتى مجرد التفكير فيه كانت تملأ قلوب المشاهدين بحالة من الخوف والغضب.. لقد كان ما يثيره من كراهية يفوق تلك التي لـ «أوراسيا» أو «إستاسيا». وقد جرت العادة على أنه عندما تكون «أوقيانيا» في حربٍ مع إحدى هاتين الروايتين فهي في سلامٍ مع الأخرى، ولكن الغريب في الأمر أن "غولدشتاين" هذا ورغم كونه مكروهًا وممقوتًا من الجميع، ورغم أن نظرياته كانت في كل يوم وفي كل لحظة تتعرض للدحض والنقد وتصبح مثارًا للاستهزاء على صفحات الصحف والكتب وشاشة الرصد ومنابر الحزب، كما تقدم للرأي العام باعتبارها هراء وتخرص، بالرغم من كل هذا، كان تأثيره شديدًا لا يعف. فقد كان هناك دائمًا أغرار ينخدعون به، فلا يكاد يمر يوم إلا وتلقي شرطة الفكر القبض على جواسيس ومخربين يعملون تحت إمرته. لقد كان "غولدشتاين" قائدًا لجيشٍ خفي كبير وشبكة سرية من المتآمرين تعمل في الخفاء، ولا هدف لها إلا الإطاحة بنظام الحكم، والتي كان يعتقد أنها تسمى رابطة «الأخوة». كذلك كان أناس يتهامسون ويتناقلون القصص حول كتابٍ مخيفٍ يضم كل الهرطقات التي ألفها "غولدشتاين" والتي يتم تداولها بصورة سرية هنا وهناك. كان كتابًا بلا عنوان، ولذا كان الناس يشيرون إليه، إذا أشاروا إليه أصلًا باسم الكتاب. وكانت الشائعات المبهمة هي المصدر الوحيد لأي معرفة عن هذا الكتاب، إذ لم يكن أي من

أعضاء الحزب العاديين يجسر على الإشارة في حديثه إلى «الأخوة» أو الكتاب إلا اضطرارًا.

وفي الدقيقة الثانية تصاعدت الكراهية حتى صارت سعارًا، وراح الناس يثبون إلى أعلى من مقاعدهم ثم يجلسون وهم يصيحون بأعلى صوتهم حتى يطغى على الصوت الثغائي الصادر عن "غولدشتاين" من الشاشة.

وكان وجه المرأة الصغيرة ذات الشعر الذهبي قد احتقن واكتسى باللون الأحمر القاني، فيما كان فمها يُفتح ويُغلق كسمكةٍ طرحها الموج على الشاطئ، وكذلك احمر وجه "أوبراين" الضخم. أما "ونستون" فكان يجلس منتصبًا فوق مقعده فيما كان صدره يعلو ويهبط مع كل شهيقٍ وزفير، كما لو كان يتأهب لمواجهة موجة عاتية. وراحت الفتاة ذات الشعر الأسود التي تجلس خلف "ونستون" مباشرة تصرخ:

- **«وغد! وغد! وغد!».**

ثم فجأة التقطت معجمًا للغة الجديدة وقذفت الشاشة، به فأصابت "غولدشتاين" في أنفه ثم سقط أرضًا، إلا أن صوت "غولدشتاين" استمر.. وفي هذه اللحظة ألفى "ونستون" نفسه يصرخ مثل الآخرين ويضرب الأرض وحافة المقعد بقدميه في عنف. ولعل أفظع ما في «دقيقتي الكراهية» هو أن المرء لم يكن مجبرًا على تمثيل دورٍ ما، ومع ذلك كان من المستحيل عليه أن يتجنب الانخراط في هذا المشهد، ففي غضون ثلاثين ثانية لن تصبح المشاركة في «دقيقتي الكراهية» بالأمر الضروري، ذلك أن نشوة من الخوف والرغبة في القتل والانتقام والتعذيب وتهشيم الوجوه بالمطرقة كانت تتملك الحضور وتسري في أوصالهم، وكأنها تيارٌ كهربي يدفع بالمرء رغمًا عنه للصراخ والصياح كمن أصابه مس من الجنون.. ومع هذا فإن الغضب الذي كان يشعر به المرء آنذاك كان انفعالًا طائشًا وغير محدد الوجهة ومن الممكن تحويله من وجهة إلى أخرى، مثل لسان لهب متصاعد. وهكذا لم تكن كراهية "ونستون" في لحظة من اللحظات موجهة ضد "غولدشتاين" إطلاقًا، وإنما على النقيض

من ذلك كانت موجهة ضد الأخ الكبير والحزب وضد شرطة الفكر، ففي مثل هذه اللحظات كان قلبه يخفق تعاطفًا مع هذا المنبوذ الذي يظهر على الشاشة متهمًا بالهرطقة ومثارًا للسخرية، وهو الوحيد الذي يقف حاميًا للحقيقة والحكمة في عالمٍ زاخرٍ بالأكاذيب والتزوير. ومع ذلك فقد كان في اللحظة التالية يشعر بما يشعره الآخرون نحو "غولدشتاين"، وبأن كل ما قيل عن "غولدشتاين" هو حقيقة لا ريب فيها. وفي تلك اللحظات كان مقته المكنون للأخ الكبير ينقلب إعجابًا يقارب العبادة، وكان الأخ الكبير حينذاك يعلو مقامًا ويصبح كحامي الحمى الجسور، الذي لا يُقهر وكأنه طود عظيم يقف في وجه جحافل الجيوش الزاحفة من (آسيا)، بينما "غولدشتاين"، ورغم العزلة التي فُرضت عليه، وحالة العجز التي يعيشها، بل ووجوده الذي أصبح موضع شك، فإنه يبدو مثل ساحرٍ شرير قادر بقوة صوته فقط أن يقوض بنيان الحضارة.

لقد كان بمقدور المرء أن يحول كراهيته هذا الاتجاه أو ذاك بمحض إرادته، وفجأة وبالقوة العنيفة التي يرفع المرء بها رأسه من على الوسادة حينما يستولى عليه كابوس، استطاع "ونستون" أن يحول كراهيته من الوجه الظاهر على الشاشة إلى تلك الفتاة ذات الشعر الأسود الفاحم الجالسة وراءه.. وطافت برأسه تخيلات جميلة وقوية، كانت تراوده الرغبة في أن يضربها ضربًا يفضي بها إلى الموت بهراوة من المطاط، أو يقيدها عارية إلى عمود ثم يرميها بزخة من السهام مثل "القديس سباستيان». كم ود لو استطاع أن يغتصبها ثم يحز رقبتها عند بلوغه لحظة النشوة.. والآن أدرك "ونستون" أكثر من ذي قبل سبب كراهيته لها، لقد كان يبغضها لجماله وصغرها وعزوفها عن الجنس، ولأنه كان يمني نفسه بأن يكون معها في فراشٍ واحد لكن ذلك لم يكن ممكنًا، فقد كانت تحيط خصرها الممشوق الناعم، الذي كان يغري المرء أن يلف ذراعه حوله، بحزامٍ قرمزي كريه هو رمز العفة.

وبلغت الكراهية ذروتها، وأصبح صوت "غولدشتاين" ثغاء خروف حقيقي، بل تحول وجهه للحظة إلى وجه خروف. ثم لم يلبث أن تلاشى ليحل محله وجه جندي من جنود «أوراسيا»، كان يندفع كالعملاق فينشر الرعب وهو يحمل في يده بندقية آلية تهدر، ويبدو وكأنه سيثب من الشاشة، حتى أن بعض المشاهدين الذين كانوا في المقاعد الأمامية كانوا يجفون للوراء وهم في مقاعدهم. ولكن وفي اللحظة نفسها تنفس الجميع الصعداء، إذ تلاشت هذه الصورة وحلت محلها صورة الأخ الكبير بشعر رأسه الأسود وشاربه الكث ورزانته الغامضة وقوته الفياضة، وكان وجهه من الضخامة بحيث ملأ الشاشة كلها.. لم يكن ثمة من يسمع ما كان يقوله الأخ الكبير، فقد كانت مجرد كلمات تشجيعية معدودة من تلك التي يتمتم بها في معمعة المعارك لا يستطيع المرء تمييزها، بيد أنها كانت تعيد الثقة إلى النفس بمجرد التلفظ بها، ثم تلاشى وجه الأخ الكبير وظهرت شعارات الحزب الثلاثة بأحرف الكبيرة بارزة:

«الحرب هي السلام»..

«الحرية هي العبودية»..

«الجهل هو القوة»..

لكن وجه الأخ الكبير، ورغم زواله عن الشاشة، بقي منطبعًا عليها لثوانٍ أخر، كما لو أن تأثيره الذي تركه في أعين الحضور أقوى من أن ينمحي دفعة واحدة وعلى الفور.. أما المرأة ذات الشعر الذهبي فقد انحنت في مقعدها إلى الأمام وصدرت عنها همهمة كأنها تقول: «أيها المخلص»، ومدت ذراعيها باتجاه الشاشة، ثم دفنت رأسها بين راحتيها.. وكان يبدو من ذلك أنها تتلو بعض الصلوات.

وفي هذه اللحظة، انخرط جميع الحاضرين في ترديد إيقاعي لترنيمة الكبير.. الكبير، كانوا يرددونها ببطءٍ ووضوح ويتوقفون للحظات بين المرة والأخرى.. كان صوت الهمهمة ثقيلًا ومفعمًا بشيءٍ من البربرية، ومن خلفيته

كان ينبعث صوت يحسبه السامع وقع أقدام عارية أو دقات طبول بعيدة، استمر ذلك الصوت ثلاثين ثانية، إنه عبارة عن لازمة تكرارية كتلك التي تسمع عادة في لحظات الانفعال الغامرة، أو ترنيمة تتغنى بحكمة الأخ الكبير وجلاله، والأرجح أنه شكلٌ من التنويم الذاتي المغناطيسي وحالة من تغييب الوعي من خلال الإيقاعات الرتيبة.. أما "ونستون" فقد بدا أن البرد قد أخذ يسري فيه حتى نفذ إلى أحشائه، ومع ذلك لم يكن أمامه بد من المشاركة في حالة الهيجان العامة. أما تلك الترانيم الكبير.. الكبير.. فقد كانت دائمًا تملأه رعبًا.

نعم، لقد كان يترنم مع الآخرين، فقد كان مستحيلًا أن يفعل غير ذلك، فإن تخفي مشاعرك الحقيقية وأن تتحكم في انفعالات وجهك، وأن تفعل ما كان يفعله كل شخص آخر، كل ذلك كان فعلًا غريزيًا. ولكن هنالك لحظات يمكن فيها أن تكون تعبيرات عينيه قد كشفت حقيقته، وفي هذه اللحظات تحديدًا حدث ذلك الشيء الهام، هذا إن كان قد حدث فعلًا.

لقد التقت عيناه عيني "أوبراين" الذي كان قد انتصب واقفًا وهو يرفع نظارته عن أنفه ثم يعيد تثبيتها بإيماءته المميزة.. ورغم أن أعينهما لم تلتق إلا لأجزاءٍ من الثانية، فقد كان ذلك كافيًا حتى يدرك "ونستون" أن "أوبراين" كان يفكر في نفس ما يفكر فيه "ونستون". لقد كانت تلك النظرة بمثابة رسالة لا يمكن أن يخطئها المرء، وبدا كما لو أن عقل كما منهما قد انفتح على عقل الآخر، فتدفقت الأفكار من واحدٍ لآخر عبر أعينهما. وخُيل لـ "ونستون" أن "أوبراين" يقول له: «أنا معك، إنني على معرفة دقيقة بمشاعرك، وأعرف كل شيء عما تضمره من ازدراءٍ وكراهية واشمئزاز، ولكن لا عليك فأنا في صفك».

عندئذ خبا بريق التخاطر الفكري وبدا وجه "أوبراين" خاليًا من أي تعبيرٍ كسواه من وجوه الآخرين.

هذا كل ما حدث.. ولم يكن "ونستون" متأكدًا من أن كل ذلك قد حدث فعلًا، لأن مثل هذه الحوادث تمر عادة دون أن تكون لها نتائج، وكل ما فعلته

هو أنها أبقت على اعتقاده أو أمله بأن هنالك أيضًا آخرين لديهم مشاعر العداء نفسها نحو الحزب، ولربما كانت الشائعات عن وجود مؤامرات سرية واسعة النطاق صحيحة، بل ربما كانت رابطة «الأخوة» موجودة حقًا. لقد كان من المستحيل عل المرء بالرغم من الاعتقالات اللانهائية والاعترافات المتتالية وأحكام الإعدام، أن يؤمن بأن «الأخوة» إن هي إلا خرافة.

وكان "ونستون" يؤمن أحيانًا بوجوده وأحيانًا بعدم وجودها. لم يكن هنالك دليل، بل مجرد إشاعات قد تعني شيئًا وقد لا تعني شيء، فالمكالمات المسترقة، أو الكتابات المسجلة على جدران المراحيض العامة، أو حتى لقاء غريبين أو إشارة يد تبدو كأنها إشارة سرية للتعارف، كل ذلك مجرد تكهنات، ومن المحتمل جدًا أن يكون الأمر كله محض خيال لا يوجد إلا في مخيلة "ونستون".

عاد "ونستون" إلى مكتبه دون أن يلتفت مرة ثانية إلى "أوبراين"، ولم تخطر بباله فكرة متابعة هذا التواصل العابر. كان الأمر ينطوي على مخاطر شديدة حتى لو عرف كيف يحتاط لها، لقد تبادلا نظرة غامضة وخاطفة لم تدم أكثر من ثانيتين وهذا كان كل ما في الأمر، ولكن حتى ذلك الأمر العابر كان حدثًا يستحق الذكر في مثل هذا الجو الانعزالي الذي كان يتحتم على المرء العيش فيه.

نهض "ونستون" من مقعده ثم جلس منتصبًا، ثم تجشأ، فقد كان الشراب يغلي في معدته.

أعاد التحديق في الصفحة التي أمامه فاكتشف أنه عندما كان مستغرقًا في التفكير كتب على الصفحة شيئًا ما بدافعٍ عفوي لا إرادي، ولم تكن الكتابة هذه المرة كتلك التي كانت حروفها غير مقروءة جيدًا، فقد جرى قلمه هذه المرة بسهولة على الورق الناعم وبأحرف كبيرة أنيقة:

«ليسقط الأخ الكبير..

ليسقط الأخ الكبير..

ليسقط الأخ الكبير..

ليسقط الأخ الكبير».

وظل يكتب هذه العبارة حتى ملأ بها نصف الصفحة.

وما إن استفاق لما يخطه بيده حتى تملكه شعور بالفزع والهلع.. إن الأمر لا يعدو أن يكون هراء إذ إن كتابة هذه الكلمات لم تكن أشد خطرًا من مجرد اقتنائه مفكرة والبدء في تسجيل مذكراته. وقد راودته الرغبة في تمزيق كلمة الأخ التي كتبها ومن ثم التخلي عن مشروع المغامرة ذلك برمته.

ولكنه لم يفعل ذلك لإدراكه أن تمزيقها لن يجدي فتيلًا، وسيان أكتب ليسقط الأخ الكبير أو أحجم عن كتابتها، سواء احتفظ بالمفكرة أو لم يحتفظ بها، فإن شرطة الفكر ستعتقله.. فقد اقترف، وما زال يقترف جرمًا، بل وحتى لو لم يضع القلم على الورق، فقد اقترف أم الجرائم التي تنطوي على جميع الجرائم، إنهم يطلقون عليها «جريمة الفكر»، وهي جريمة ليست بالأمر الذي يمكن إخفاؤه إلى الأبد، فربما يمكنك مواراتها عن الأعين لحينٍ من الزمن أو لسنوات، ولكن إن عاجلًا أو آجلًا لابد أن تقع في قبضتهم.

كانت الاعتقالات تقع دائمًا تحت جنح الليل، حيث يفزع صاحب الجرم من نومه على يدٍ خشنة تهزه بغلظة، فيفتح عينيه على ضوء ساطع مسلط على عينيه، ويجد مجموعة من رجالٍ ذوي وجوهٍ عابسة يتحلقون حوله وهو ما يزال في فراشه. وكانت أغلب هذه الحالات تمر دون محاكمات أو حتى محاضر اعتقال، حيث كان الناس يختفون أثناء الليل. وكان اسمك يشطب من السجلات ويشطب معه كل شيء يتعلق بك أو لك فيه ذكر، حتى إن النكران يطال فكرة وجودك أصلًا ثم يتم نسيانك. لقد انتهيت ثم تلاشى ذكرك وكأنك تبخرت، نعم أنك تبخرت لقد كانت هذه هي الكلمة التي يصفون بها عادة ما حدث.

وانتابت "ونستون" للحظة من الزمن نوبة هستيرية، وراح يكتب بسرعة وبخطٍ متعرج:

«سيرمونني بالرصاص، بيد أنني لا أبالي.. سيطلقون النار عليّ من الخلف غير أنني لا أبالي، وليسقط الأخ الكبير.. إنهم دائمًا يطلقون النار عليك من الخلف، لكنني لا أبالي، ليسقط الأخ الكبير».

ثم اتكأ في مقعده وقد شعر ببعض الخجل من نفسه، ووضع القلم جانبًا. وفي اللحظة التالية استأنف الكتابة بنشاط ولكن سرعان ما سمع طرقًا على الباب.

ظل "ونستون" على سكونه كفأرٍ مذعور في حجره، يحدوه أملٌ واهٍ بأن الطارق سينصرف بعد المحاولة الأولى، بيد أن الطرق توالى.. ولأن أسوأ ما يمكن أن يفعله في مثل هذا الظرف هو التلكؤ في الاستجابة فقد أخذ قلبه يدق كالطبل.. ولكن وجهه كان بحكم العادة جامدًا وخاليًا من أي تعبير. ثم وقف ومشى متثاقلًا صوب الباب.

الفصل الثاني

عندما وضع "ونستون" يده على مزلاج الباب تذكر أنه ترك المفكرة على الطاولة مفتوحة، وعبارة «ليسقط الأخ الكبير» تكاد تملأ الصفحة بأحرف كبيرة بما يكفي لقراءتها عن بعد. وبالرغم من أنه تنبه بأنه ارتكب حماقة كبرى، إلا انه لم يرغب في إغلاق الدفتر قبل أن يجف الحبر تمامًا خشية أن تتلطخ الورقة.

أخذ نفسًا عميقًا مستجمعًا شجاعته.. ثم فتح الباب، وسرعان ما شعر بالارتياح يجتاح جسده، فخلف الباب امرأة شاحبة اللون، ذات شعرٍ أشعث ووجه مغضن بالتجاعيد.

قالت المرأة بصوتٍ مبحوحٍ وحزين:

- «آه، أيها الرفيق، لقد شعرت بقدومك، هل بإمكانك المجيء لمعاينة مغسلة مبطخي، فالبلوعة مسدودة».

كانت هذه المرأة السيدة "بارسونز" زوجة جاره في نفس الطابق. (كانت كلمة «سيدة» كلمة عارضة إلى حدٍ ما في الحزب، وكان من المفترض أن يُدعى أي كان بلقب «رفيق»، ومع ذلك كان يجري استعمالها مع بعض النساء أحيانًا بإيحاءٍ من الفطرة). كانت امرأة في الثلاثين من عمرها على وجه التقريب، ولو أنها تبدو أكبر من ذلك.. وكان من يراها يتولد لديه انطباع بأن غبارًا يتخلل تغضنات وجهها. سارت فتبعها "ونستون" عبر الممر متململًا، فأعمال الصيانة هذه كانت مصدر إزعاج شبه يومي له، لأن كل الشقق في بناية النصر قديمة، حيث يعود تاريخ بنائها إلى 1930 أو ما يقرب من ذلك التاريخ، وكانت بناية متداعية، فالجبصين يتساقط من الأسقف والجدران، والأنابيب تنفجر بفعل الصقيع، والأسطح تسرب المياه إلى الداخل عندما تغطيها الثلوج. وكان نظام التدفئة لا يعمل إلا بنصف طاقته، هذا إذا لم يتم إيقافه كلية بدعوى التوفير. وأما الإصلاحات، فيما عدا تلك التي بإمكان الساكن

إنجازها بنفسه، فكان يجب أن تمر معاملاتها عبر لجان كانت تتلكأ في تنفيذ أي شيء، حتى أن إصلاح لوح من الزجاج كان تنفيذه يحتاج إلى سنتين. ثم قالت السيدة "بارسونز" متعذرة:

- «ما حصل كان بالتأكيد بسبب غياب توم عن البيت».

كانت شقة عائلة "بارسونز" أوسع من شقة "ونستون"، ووضيعة مثلها، ولكن تتميز بأشياء أخرى، فكل شيء مهشم ومحطم كما لو أن حيوانًا هائجًا كان فيها.. والكثير من مستلزمات الألعاب الرياضية ملقاة على الأرض.. كمضارب لعبة الهوكي وقفازات الملاكمة وكرة قدم مفرغة من الهواء فضلًا عن سروالين متسخين، وعلى الطاولة كومة من الأطباق المتسخة والدفاتر الممزقة الزوايا.. أما على الجدران فكانت تظهر أعلام «رابطة الشباب واتحاد الجواسيس» بلونها القرمزي، بالإضافة إلى صورة ضخمة للأخ الكبير. وكانت هناك أيضًا تلك الرائحة المعتادة - رائحة الملفوف المسلوق - التي تنتشر في كل أرجاء المبني، تختلط معها رائحة عرق يفرزه جسم شخصٍ ما، بيد أن هذا الشخص لم يكن في تلك اللحظة موجودًا بالغرفة.. أما في الغرفة الأخرى فقد كان هنالك شخصٌ ما يحمل مشطًا وقطعة من ورق الحمام يحاول أن يعزف بهما، مقلدًا إيقاع موسيقى عسكرية كانت لا تزال تنبعث من شاشة الرصد.

وقد أشارت السيدة "بارسونز" بعد أن أطلت إطلالة خاطفة من باب الغرفة المجاورة:

- «إنهم الأولاد، لم يخرجوا من البيت هذا اليوم، وهذا لسبب...».

يظهر أنه كان من عادتها أن تقطع الجمل في وسطها...

كانت مغسلة المطبخ ممتلئة حتى نصفها بماءٍ متسخ مائل للاخضرار، رائحته أكثر نفاذًا من رائحة الملفوف.. جلس "ونستون" على ركبتيه وراح يتفحص كوع الأنبوب.. كان يكره استعمال يديه، كما يكره الانحناء، لأن ذلك

يسبب له نوباتٌ من السعال، بينما كانت السيدة "بارسونز" تنظر إليه نظرة بائسة.

قالت:

- «لو أن توم كان موجودًا لاستطاع أن يصلحها في لحظة، إنه يهوى القيام بمثل هذه الأعمال، إنه ماهر اليدين، نعم إن توم هكذا».

"بارسونز" هذا هو زميل "ونستون" في (وزارة الحقيقة).. لقد كان رجلًا مائلًا للسمنة، نشيطًا ولكن عليه علامات غباء مستحكم، بل هو كتلة من الحماس الأحمق، وواحد من ذوي الولاء الأعمى الذين يتوقف عليهم استقرار الحزب أكثر من توقفه على شرطة الرصد.. في الخامسة والثلاثين من عمره، ابتعد كارهًا عن رابطة الشباب، وكان قبيل أن ينتسب إلى هذه المنظمة قد التحق باتحاد الجواسيس لمدة سنة بعد السن القانونية، أما في الوزارة فكان يشغل منصبًا ثانويًا لم يكن يتطلب أي قدر من الذكاء، غير أنه من ناحية أخرى كان من القياديين في الهيئة الرياضية، وكل الهيئات المعنية بتنظيم الرحلات الجماعية والاستعراضات وحملات الادخار والتوفير والأنشطة التطوعية الأخرى.. وكان بإمكانه أن يقول لك بكل فخر، وهو يدخن غليونه، إنه ظل على مدى الأربع سنوات الماضية يحضر جلسات الملتقى المجتمعي كل مساء، ورائحة عرقه النفاذة كانت شهادة كافية على نوعٍ الحياة التي يحياها، حيث ترافقه أينما حل، بل ويتركها وراءه بعد انصرافه.

وضع "ونستون" يده على البالوعة باشمئزاز وقال:

- «هل يوجد لديكم مفتاح ربط؟».

- «لا أدري».

أجابت السيدة "بارسونز" على الفور، بينما انحنت لتنظر: «لا أدري أين أجده فالأولاد غالبًا...».

كانت هناك صوت وقع أقدام وجلبة ولعب بأسنان المشط يسمع عندما اندفع الأولاد إلى غرفة الجلوس.. وكانت السيدة "بارسونز" قد وجدت مفتاح الربط وجاءت به، وهكذا تمكن "ونستون" من تسريب الماء من البالوعة بعد أن أخرج وهو متأفف كتلة شعر بشري كانت تتسبب بانسداد الأنبوب.. ثم غسل أصابعه بقدر المستطاع بماء بارد من الصنبور وتوجه إلى الغرفة الأخرى المجاورة للمطبخ.

لكنه فوجئ بصوتٍ وحشي يزعق فيه قائلًا:

- «ارفع يديك فوق رأسك!».

كان الصوت لصبيٍ جميل ذي مظهر خشن، في التاسعة من عمره، اندفع من خلف طاولة، وهو يهدده بمسدسٍ زائف، بينما كانت شقيقته التي تصغره بسنتين تقلده وفي يدها قطعة خشب. كلاهما كان يلبس سروالًا أزرقَ وقميصًا رمادي اللون ورباط عنق أحمر، وهو الزي الرسمي للجواسيس.. رفع "ونستون" يديه فوق رأسه متبرمًا، فقد كان في مظهر الصبي عدوانية شديدة توحي بأن الحكاية ليست مجرد مزحة.

- «أنت خائن».

صاح به الصبي:

- «إنك مجرم فكر.. إنك من جواسيس «أوراسيا»، سأطلق عليك النار، سأزيلك من الوجود، سأرسلك إلى العمل في محافر الملح».

وفجأة بدآ يقفزان من حوله وهما يصيحان:

- «الخائن، مجرم الفكر».

كانت الصغيرة تقلد أخاها في كل حركة أو كلمة يأتي بها.. لقد كان الأمر مخيفًا، إذ ذكره بمن يداعب صغار النمور التي تتحول حينما تكبر إلى آكلة للحوم البشر.. لقد كان يلمح شراسة متنمرة في عيني الصبي ورغبة واضحة في أن يرفس "ونستون" أو يضربه، فضلًا عن شعور بأنه صار في سن تسمح له

بذلك. أدرك "ونستون" بأن من حسن حظه أن المسدس لم يكن مسدسًا حقيقيًا.

كانت السيدة "بارسونز" تجول بناظريها ما بين "ونستون" وولديها وعلامات الارتباك بادية عليها.. وعلى ضوء غرفة الجلوس الأكثر سطوعًا لاحظ "ونستون" باهتمام أن غبارًا حقيقيًا كان يتخلل تغضنات وجهها.

- «إنهما يحدثان جلبة شديدة».

هذا ما علقت به، واستطردت: «لقد استاءا لأنهما لم يخرجا اليوم لمشاهدة أحد أحكام الإعدام شنقًا، هذا كل السبب، فأنا مشغولة ولا يسمح لي وقتي بمرافقتهم، وتوم لا يعود من عمله في الوقت المناسب».

- «لماذا لا نذهب لمشاهدة عملية الشنق؟».

صاح الولد بصوتٍ زاعقٍ وغاضب، وتغنت الصغيرة وهي ترقص مرحًا:

- «نريد مشاهدة الشنق! نريد مشاهدة الشنق!».

لقد كانت ستجري بالفعل عملية شنق بعض الأسرى من «أوراسيا»، أسرى متهمين بارتكاب جرائم حرب، وذلك مساءً في الحديقة العامة. تذكر "ونستون" أن مثل هذا كان يجري مرة كل شهر تقريبًا وكان مشهدًا يحظى بشعبية عالية، ودائمًا يلح الأطفال في طلبهم لحضوره ومشاهدته. استأذن "ونستون" من السيدة "بارسونز" وأخذ طريقه إلى الباب، ولكنه لم يكد يخطو بضع خطوات حتى شعر بأن شيئًا قد ضربه على ظهره ورقبته مسببًا له ألمًا مبرحًا، شعر كأنما سلكًا متوهجًا إلى درجة الاحمرار قد لسع ظهره، فالتفت في اللحظة نفسها ليرى السيدة "بارسونز" تجرجر ولدها إلى الوراء عبر الممر.. بينما كان الولد يهم بإخفاء مقلاع حصى في جيبه.. وما إن أوصد "ونستون" الباب وراءه حتى صرخ الولد: "غولدشتاين"، ولكن ما صدم "ونستون" وآلمه، كان ذلك الخوف البائس الذي ارتسم على وجه المرأة الرمادي.

عاد "ونستون" إلى شقته واجتاز شاشة الرصد إلى كرسي قرب الطاولة وهو يتحسس رقبته. كانت الموسيقى الصارخة التي تنبعث من الشاشة قد توقفت، وحل محلها صوت عسكري جاف، يقرأ بلهجة وحشية بيانًا عن قوة تسليح القلاع العائمة الجديدة التي ترسو بين أيسلندا وجزر فارو.

أدرك "ونستون" أنه مع مثل هذين الطفلين لابد وأن تحيا هذه المرأة التعسة حياة رعب دائم.. فلن تمر سنة أو سنتان إلا ويلتحق الطفلان باتحاد الجواسيس يرصدان أي علامات انحراف عن نهج الحزب قد تظهر عليها. إن معظم الأطفال في هذه الأيام قد تحولوا لمصدر رعب لأهلهم. وأسوأ ما في الأمر أن الصغار بانضمامهم إلى منظمات مثل اتحاد الجواسيس كان يتم تحويلهم بشكلٍ منهجي إلى رعاعٍ صغار صعب السيطرة عليهم، وهذا بدوره يقتل فيهم أي ميل إلى الثورة ضد نظام الحرب، بل على النقيض من ذلك سيصبحون عبيدًا للحزب ولكل ما يتصل به.. إن الأغاني، والمواكب، وحمل الرايات، والرحلات الجماعية، والتدريب على الأسلحة المزيفة، والهتاف، وتقديم فروض الولاء والهتاف بحياة الأخ الكبير، كل ذلك كان نوعًا من اللعب الممتع بالنسبة لهم. أما ضراوتهم وشراستهم فكانتا توجهان إلى الخارج، إلى أعداء الدولة، إلى الأجانب والخونة وزمر المخربين ومجرمي الفكر. وكان أمرا طبيعيًا لمن هم فوق سن الثلاثين أن يخافوا أولادهم، فلم يكن يمر أسبوع إلا وتنشر فيه جريدة «التايمز» قصة تحت عنوان «بطل صغير»، تروي كيف استطاع «البطل» التجسس على والديه ويشي بهما لشرطة الفكر بنقله ملاحظة تضعهم موضع شبهات.

كان ألم حصاة المقلاع قد خف وزال، عندما أمسك بقلمه متململًا، وهو يتساءل عما يكتبه في مفكرته، ولكنه فجأة وجد نفسه يفكر في "أوبراين" مرة ثانية.

قبل سنوات، لا يعلم كم على وجه التحديد، ربما سبع سنوات، رأى فيما يرى النائم أنه كان يجول في غرفة حالكة الظلام، فسمع شخصًا ما، على

مقربة منه، يقول له وهو يجتازه: «سنلتقي يومًا في مكانٍ يغمر النور حيث لا ظلام»، قيلت هذه الجملة بمنتهى الهدوء والاتزان، كانت خبرًا ولم تكن أمرًا، مشى هذا المتكلم دون أن يتوقف.. الغريب أن هذه الكلمات التي سمعها في الحلم لم تكن ذات وقعٍ شديدٍ عليه أول الأمر، بيد أن ما ترمي إليه من معاني أخذ ينجلي له رويدًا رويدًا فيما بعد. إنه لا يتذكر الآن ما إذا كانت رؤيته لـ "أوبراين" للمرة الأولى قد جاءت قبل هذا الحلم أم بعده، ولا هو استطاع أن يتذكر ما إذا كان الصوت صوت "أوبراين" نفسه، ولكن على أية حال كان يظن أنه ميز الصوت، وأن "أوبراين" هو الذي كلمه في الظلام.

لم يكن "ونستون" متأكدًا، وحتى بعد التواصل البصري بينهما في ذاك اليوم، ما إذا كان "أوبراين" عدوًا أم صديق، بل حتى هذا لم يكن ذا أهمية كبيرة له.. لقد جمعهما رباطٌ من التفاهم، رباطٌ أقوى من رباط العاطفة أو الحزبية: «سنلتقي يومًا حيث لا يكون ظلام». لم يكن "ونستون" يفهم ما الذي يعنيه بهذا القول، لكنه كان يعتقد بأنه بطريقة أو بأخرى سيأتي هذا اليوم.

توقف الصوت المنبعث من الشاشة، وملأت هواء الغرفة الساكن موسيقى صوت بوقٍ جميلٍ وصاف.. ثم عاد ذلك الصوت الذي يثير الأعصاب، يقول:

«انتباه، من فضلكم، وردنا نبأٌ هام من جبهة (مالابار)، إن قواتنا في جنوبي الهند قد أحرزت انتصارًا باهرًا. لقد فوضتني السلطات أن أعلن أن تقدمنا على هذه الجبهة، والذي نذيعه لكم الآن، سيمكننا من وضع نهاية لهذه الحرب، فإليكم التفاصيل...».

وهنا قال "ونستون" في نفسه أنها مقدمة لأنباءٍ سيئة.. وبالتأكيد في أعقاب الوصف المخيف لعملية الإبادة التي لحقت بجيوش «أوراسيا»، والأرقام المذهلة لأعداد القتلى والأسرى، أردف البيان بأنه ابتداء من الأسبوع القادم سيتم خفض حصة الفرد من الشوكولا من ثلاثين غرامًا إلى عشرين.

تجشأ "ونستون" ثانية، كان مفعول شراب الجن آخذًا في الزوال تاركًا شعورًا بالخزي. أما الشاشة فكانت تبث نشيد «أوقيانيا، هذا من أجلك»، احتفالًا بالنصر أو للتغطية على نبأ تخفيض حصة الشوكولا.. وكان من المفروض عندما تسمع النشيد أن تقف في حالة الاستعداد، لكن "ونستون" لم يكن في مجال رؤية الشاشة.

انتهى نشيد «يا أوقيانيا، كل هذا من أجلك»، وحلت موسيقى خفيفة.. سار "ونستون" نحو النافذة وظهره إلى شاشة الرصد. كانت السماء ما تزال صافية والهواء باردًا. تناهى إلى سمعه صوت قذيفة صاروخية انفجرت بعيدًا محدثة دويًا رج الأرض رجًا.. لم يكن ذلك غير مألوف، ففي الوقت الحاضر يسقط ما بين عشرين وثلاثين من أمثال هذه القذائف على «لندن» أسبوعيًا.

كانت الريح في الشارع ما تزال تتلاعب بالصورة المعلقة، وكانت عبارة الاشتراكية الإنجليزية المنحوتة بكلمة «اشتنج» كما نُحتت في قاموس اللغة الجديدة تظهر وتختفي مع كل هبة ريح. ومعها المبادئ المقدسة التي تشير إليها: «التفكير المزدوج، إمكانية تغيير الماضي». وقد شعر "ونستون" وكأنه تائه في غاياتٍ قائمة في أعماق البحار، وقد ضل في عالمٍ وحشي، حيث هو نفسه ذلك الوحش.. لقد كان وحيدًا، وكان الماضي ميتًا، وكان المستقبل مجهولًا ولا يمكن حتى تصوره، كيف له أن يتأكد ما إذا كان هنالك إنسان يقف إلى جواره؟ وكيف له أن يعرف أن هيمنة الحزب لن تدوم إلى أبد الدهر؟ وجوابًا عما دار في خلده من تساؤلات، عادت الشعارات الثلاثة المكتوبة على واجهة (وزارة الحقيقة) للظهور أمامه:

الحرب هي السلام..

العبودية هي الحرية..

الجهل هو القوة..

أخرج من جيبه قطعة نقود من فئة الخمسة والعشرين سنتيمًا، كانت قد نُقشت على أحد وجهيها هذ العبارات نفسها وقد نُقشت بأحرفٍ دقيقة

واضحة، بينما نُقش على الوجه الآخر وجه الأخ الكبير. كانت عيناه، حتى من خلال قطعة النقود، تلاحقانك. على العملة، على الطوابع، على أغلفة الكتب، على الأعلام، على ألواح الإعلانات، على علب السكاكر. في كل مكان ودائمًا، عيناه تراقبانك وصوته يحيط بك. وسواء كنت مستيقظًا أو نائمًا، تعمل أو تأكل، داخل منزلك أو خارجه، في الحمام أو في الفراش لا فرق، لا مهرب لك. أنت لا تملك سوى تلك السنتيمترات المكعبة داخل جمجمتك.

كانت الشمس قد مالت نحو الغروب فانحسرت عن نوافذ (وزارة الحقيقة) الكثيرة، والتي بدت كئيبة كأنها شقوق في واجهة قلعة.. كان قلبه يرتجف أمام هذا الشكل الهرمي الضخم. رآه حصنًا منيعًا لا يمكن اقتحامه، حتى إن آلافًا من القذائف الصاروخية تعجز عن النيل منه. مرة ثانية تساءل لمن يكتب ما يكتبه في مفكرته، أتراه يكتب للمستقبل أم للماضي، أيكتب لعصر ربما لن يوجد إلا في خيالاته؟ وأمام عينيه لم يكن الموت فحسب يقف متربصًا، بل الفناء.. والمفكرة ستتحول إلى رماد، وهو نفسه سيموت ويتحول إلى بخار. لن يكون هنالك أحد غير «شرطة الفكر» يقرأ هذه الأفكار وذلك قبل أن تمحوها من الوجود والذاكرة معًا. كيف يمكن أن تكتب للمستقبل، إذا كان لا يمكن لأي أثر لك أن يبقى لهذا المستقبل، ولا حتى كلمة على قصاصة ورق مجهولة الكاتب.

دقت ساعة الشاشة الثانية بعد الظهر، وعليه أن ينصرف في خلال عشر دقائق ليعود لعمله مرة ثانية في الدقيقة الثلاثين بعد الثانية ظهرًا.

الغريب أن دقات الساعة بدت كأنها قد بعثت فيه روحًا جديدة، لقد كان وحيدًا كشبحٍ يتمتم بينه وبين نفسه بالحقيقة دون أن يسمعه أحد على الإطلاق، ولكن ما دام يمكنه الاستمرار في ذلك فإن هذه التمتمة ستتواصل، فيمكنك مواصلة حمل التراث الإنساني، لا عن طريق اسماع صوتك، بل عن طريق البقاء بعيدًا عن الجنون.

عاد "ونستون" إلى الطاولة وجلس على الكرسي ثم تناول القلم وبدأ يكتب:

«إلى المستقبل أو إلى الماضي، إلى الزمن الذي يكون الفكر فيه حرًا، إلى زمن يختلف فيه الأشخاص عن بعضهم البعض ولا يعيش كل منهم في عزلة عن الآخر، إلى زمنٍ تظل الحقيقة فيه قائمة ولا يمكن محو ما جرى..

وإليكم.. من هذا الزمن الذي يعيش فيه الناس متشابهين، متناسخين.. من زمن العزلة، من زمن الأخ الكبير، من زمن التفكير المزدوج، تحياتي».

إنه ميت من الآن، هكذا قال في نفسه، وبدا له أنه في هذه اللحظة قد قام بالخطوة الحاسمة فقط، لحظة بات فيها قادرًا على صياغة أفكاره، قد اتخذ الخطوة الحاسمة. إن عواقب كل عمل تكمن في العمل نفسه، وكتب:

«إن جريمة الفكر لا تفضي إلى الموت، إنما هي الموت نفسه».

الآن وقد أدرك أنه ميت لا محالة أصبح من الأهمية له أن يبقى على قيد الحياة قدر ما يُتاح له ذلك. نظر إلى يده فوجد أن إصبعين من يمناه كانتا ملطختين بالحبر. وهذه هي بالضبط الأشياء الصغيرة التي يمكن أن تشي بك. فربما بسبب ذلك يبدأ بعض المتحمسين للحزب في الوزارة - امرأة مثلًا كتلك المرأة ذات الشعر الرملي أو تلك الفتاة ذات الشعر الأسود التي تعمل في دائرة الإثارة - في التساؤل لماذا، ما الذي يجعله ينصرف إلى الكتابة ساعة الغداء؟ ثم لماذا يستعمل هذا النوع القديم من الأقلام في الكتابة، ثم ما الذي كان يكتبه يا ترى؟ ثم ترسل بتلك التساؤلات إلى المسؤول المختص. فأسرع إذ ذاك إلى الحمام، وراح بحرص يزيل الحبر بتلك الصابونة الخشنة التي تكشط الجلد كشطًا، وكأنها صنعت خصيصًا لهذه الغاية.

وضع المفكرة في درج المكتب، فمن العبث أن يفكر في إخفائها، لكن كان على الأقل قادرًا على معرفة ما إذا كان أحد قد توصل إليها في غيابه أم لا. فوضع شعرة على نهاية تلك الصفحة يمكن كشفها بسهولة، ولذلك التقط بطرف بنانه ذرة غبار أبيض ووضعها على إحدى زوايا الغلاف، حيث يكفي مجرد تحريك المفكرة سقوطها عن الغلاف.

الفصل الثالث

كان "ونستون" يحلم بأمه..

فكان يظن أنها قد اختفت وهو في العاشرة أو الحادية عشرة من عمره.. كانت امرأة طويلة ممشوقة القامة، تميل إلى الصمت، وكانت بطيئة الحركة، ولها شعر أشقر رائع. أما والده فكانت ذكراه أكثر تشوشًا، فما يذكره عن والده أنه أسمر البشرة، نحيلًا ويرتدي دائمًا ملابس سوداء أنيقة، - وأكثر ما يذكره "ونستون" عن والده أنه كان ينتعل حذاءً ذا نعلٍ رقيق - ويضع نظارة على عينيه. وقد قضى والداه نحبهما في إحدى موجات التطهير الواسعة التي جرت في الخمسينات.

في تلك اللحظة كانت أمه تجلس في مكانٍ عميق تحته، وهي تحمل شقيقته الصغرى بين ذراعيها.. وأما شقيقته فلم يكن يتذكر شيئًا عنها على الإطلاق فيما عدا أنها كانت طفلة نحيلة، ضعيفة، دائمة الصمت وذات عينين واسعتين يقظتين. كلتاهما كانتا تتطلعان إليه.. فكلتاهما كانتا في مكانٍ ما تحت الأرض، ربما في قاع بئرٍ مثلًا، أو في قبرٍ عميقٍ جدًا، ولكنه رغم بعد المكان عنه وعمقه، فإنه كان ما زال يتحرك إلى أسفل.. كانتا على سطح سفينةٍ تغرق وتنظران إليه عبر ظلمة المياه. كان ما يزال هناك بعض الهواء الذي تتنفسانه، وما يزال باستطاعته أن يراهما وترياه وكانتا تغرقان.. وتغرقان إلى الأعماق السحيقة حيث المياه الخضراء التي ستواريهما عن الأنظار إلى الأبد. كان هو في الهواء الطلق وتحت أشعة الشمس، أما هما ففي الماء الذي يجذبهما نحو الموت.. لقد كانتا حيث هما لأجل أن يكون هو في مكانه الذي هو فيه، كان يدرك ذلك كما تدركانه، ويراه على وجهيهما. لم يكن هنالك ملامة على وجهيهما أو في قلبيهما نحوه، كأنهما تعرفان أنه كان يجب أن تموتا من أجل أن يظل هو حيًا. وكان هذا جزءًا من مسارٍ لا مفر منه.

لم يكن باستطاعته أن يتذكر ما حدث، لكنه عرف في حلمه بطريقة أنه قد جرت التضحية بحياة أمه وأخته من أجل حياته هو.

لقد كان حلما من تلك الأحلام التي رغم محافظتها على المشهد المميز لأجواء الأحلام، تبقى امتدادًا لحياة الإنسان الفكرية، والتي يصبح المرء مدركًا للحقائق والأفكار التي تبقى محفورة في ذاكرته حتى بعد أن يستيقظ.

أما الشيء الذي صدم "ونستون" بشكلٍ مفاجئ الآن هو أن موت أمه منذ ثلاثين سنة تقريبًا، كان مأساة محزنة بشكلٍ لم يعد موجودًا. فالمأساة كما يفهمها.. أصبحت شيئًا ينتمي إلى العالم القديم، وينتمي لزمانٍ كان ما يزال فيه خصوصية وصداقة وحب، لزمانٍ كان ما يزال أفراد العائلة الواحدة يقفون فيه جنبًا إلى جنب دونما حاجة إلى معرفة السبب. كانت ذكرى وفاة أمه تمزق قلبه، فقد كانت تحبه، وماتت وهي تحبه، فيما كان هو صغيرًا وأنانيًا إلى حدٍ يجعله غير قادر على أن يبادلها حبًا بحب. ولسببٍ لا يعرفه لم يكن يتذكر كيف ضحت بنفسها في سبيل مفهوم من الولاء كان خاصًا بها، وغير قابل لأن يتحول أو يتزعزع. ورأى أن أشياءً كهذه لا يمكن أن تحدث في هذه الأيام التي باتت زمانًا للخوف والكراهية والألم، ولا مكان فيها للعواطف السامية أو للأحزان العميقة أو المعقدة المتشابكة.

كل هذا بدا له أنه يراه في أعين أمه وأخته الواسعة، عندما كانتا تتطلعان إليه عبر المياه الخضراء، وعلى بعد مئات الفراسخ في الأعماق، وهما تغرقان لأسفل وتغرقان.

وفجأة رأى نفسه واقفًا على أرضٍ يكسوها عشبٌ ربيعي في نهاية نهارٍ صيفي، حيث أشعة الشمس المائلة للغروب بلونها الذهبي. إنه المشهد نفسه الذي يتكرر في أحلامه إلى درجة جعلته يشك إن كان قد رأى ذلك في اليقظة أم في المنام. فكان يسمى هذا المشهد في أوقات اليقظة بـ«الريف الذهبي»، إنه مرعى قديم كانت ترعى فيه الأرانب، ويجتازه ملتويًا ممرٌ ضيقٌ وحفر خلد هنا وهناك. أما على السياج في الجانب المقابل من الحقل فقد كانت أغصان

شجر الدردار تتمايل على نحوٍ خفيف مع النسيم، بينما تحف أوراقها متحركة بكتلها الكثيفة مثل شعر النساء.. وعلى مقربة ينساب جدول صافٍ ورقراق حيث تسبح الأسماك في برك تحت أشجار الدردار.

وعبر الحقل، كانت الفتاة ذات الشعر الأسود تسير نحوه. وبحركة واحدة نزعت ثيابها ورمتها جانبًا دون اكتراث. كان جسدها ناعمًا وبشرتها بيضاء، لكن ذلك لم يثر فيه أدنى رغبة، بل إنه بالكاد تطلع إليها. لكن الذي استهواء من ذلك كله هو تلك الحركة التي نزعت بها ثيابها وطوحت بها أرضًا. فبرشاقتها وعدم مبالاتها بدا كأنها تفوض ثقافة كاملة وتنقض نظامًا فكريًا بكليته، كما لو أن الأخ الكبير، والحزب، وشرطة الفكر يمكن أن يذهبوا أدراج الرياح بحركةٍ بارعةٍ كحركة ذراعها. لقد كانت هذه الحركة أيضًا من بقايا الزمن القديم.. واستيقظ "ونستون" وكلمة شكسبير على شفتيه.

كانت شاشة الرصد ترسل صفيرًا يمزق الآذان، استمر على نفس النغمة لثلاثين ثانية. وكانت الساعة السابعة والربع وهو وقت استيقاظ العاملين في المكاتب.. قفز "ونستون" من فراشه عاريًا، إذ كان العضو "الحزب الخارجي" لا يتسلم إلا ثلاثة آلاف قسيمة ملابس سنويًا، وكانت البيجامة تكلف وحدها ستمائة، لبس على عجل بعض الملابس الداخلية المتسخة وسروالًا كان معلقًا على كرسي. كانت فترة التمارين الرياضية ستبدأ في خلال ثلاث دقائق.. وفي اللحظة التالية تملكته نوبة سعال عنيفة، كانت تنتابه تقريبًا بعد استيقاظه، أجهدت رئتيه بشدة حتى أنه لم يكن يستطيع التنفس إلا بعد أن يستلقي على ظهره ويشهق عدة شهقات عميقة. انتفخت أوداجه من أثر السعال كما بدأت قرحة الدوالي تؤلمه.

تعالى صوت أنثوي ثاقب:

- «المجموعات من ثلاثين إلى أربعين.. خذوا أماكنكم من فضلكم، من ثلاثين إلى أربعين».

قفز "ونستون" مستعدًا أمام الشاشة التي ظهرت عليها صورة امرأة شابة نحيفة، لكنها مفتولة العضلات ترتدي سترة قصيرة وحذاءً رياضيًا.

صاحت المرأة:

- «مع ثني الذراعين ومدهما.. تابعوا معي، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، هيا أيها الرفاق، لتكن حركاتكم أكثر حيوية.. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة...».

لم يكن ألم السعال قد أزال تمامًا من ذهن "ونستون" أثار ذلك الحلم داخله.. كما أن تلك الحركات الإيقاعية للتمارين الرياضية قد استعادت هذا التأثير. فبينما كان يحرك بصورة آلية ساعديه إلى الأمام وإلى الوراء، إلى فوق وإلى تحت، متظاهرًا بالانشراح، وهو ما كان يعد أمرًا ضروريًا أثناء التمارين الرياضية، كان يحاول جاهدًا العودة بتفكيره إلى زمن طفولته الأولى الذي أصبح مشوشًا، فبعد الخمسين يتلاشى كل شيء من الذاكرة. وإذا لم يكن هنالك سجلات يمكنك الرجوع إليها، فإن خط حياة الإنسان قد يُمحى أثره من الذاكرة.. قد يتذكر المرء أحداثًا كبيرة، التي من المحتمل ألا تكون قد حدثت، أو تفاصيل أحداث دون أن تكون قادرًا على تذكر الأجواء والظروف التي أحاطت بها. ومن الممكن أن تكون هناك فراغات زمنية كبيرة لا يمكنك أن تملأها بأي أحداث.

لقد تغير كل شيء، حتى أسماء البلدان ومساحاتها على الخرائط تغيرت. فالقطاع الهوائي رقم واحد، على سبيل المثال لم يكن هذا اسمه في تلك الأيام، كان يسمى (إنجلترا، أو بريطانيا)، أما «لندن»، فقد كانت دومًا تسمى «لندن».. هو واثق من ذلك إلى حدٍ كبير.

لا يذكر "ونستون" على وجه التحديد زمنًا لم تكن فيه بلاده في حالة حرب، ولكن من الواضح أنه كان هناك فترة طويلة من السلم خلال طفولته، وذلك لأن من ذكريات طفولته الأولى غارة جوية فاجأت الجميع. ربما كان ذلك

عندما سقطت قنبلة ذرية على (كلوتشستر). فهو لا يذكر الغارة نفسها، لكنه يذكر يد والده الممسكة بيديه بينما كانا يهرعان إلى الأسفل داخل مكانٍ عميق تحت الأرض على سلم حلزوني يقعقع تحت قدميه، مما آلم ساقيه واضطره للتوقف وأخذ قسطًا من الراحة. فيما أمه بحركتها الهادئة الحالمة كانت في صفٍ طويلٍ وراءهما وهي تحمل أخته الصغيرة، أو لعل ما تحمله كان صرة من البطانيات. فهو ليس متأكدًا مما إذا كانت أخته قد ولدت أم لا. أخيرًا وصلوا إلى مكانٍ مزدحمٍ يملأه الضجيج، فأدرك أنه في محطة قطار تحت الأرض.

كان هناك أناس يجلسون على أرض مرصوفة بالحجارة، بينما آخرون يتزاحمون بشدة وهم يجلسون على مقاعد معدنية الواحد فوق الآخر. استطاع "ونستون" وأمه وأبوه أن يجدوا لهم موطنًا. وبالقرب منهم كان رجل وامرأة طاعنان في السن يجلسان جنبًا إلى جنب على مقعد. كان الرجل العجوز يلبس بذلة سوداء وقبعة من القماش الأسود تنحسر للوراء كاشفة عن شعر ناصع البياض. كان وجهه قرمزيًا وعيناه زرقاوين ومغرورقتين بالدموع، وتنبعث منه رائحة الخمر وكأنها تفوح من جسمه وليس من الشراب.. حتى كان المرء ليحسب أن الدموع التي تسيل من عينيه هي خمرٍ صافٍ. ولكنه رغم كونه ثملًا قليلًا، فإنه كان رازحًا تحت أحزان حقيقية لا تحتمل.. وبطريقته الطفولية أدرك أن ثمة واقعة فظيعة، واقعة لا يمكن غفرانها أو علاجها، قد حدثت، وبدا له أيضًا أنه قد عرف السبب. شخصٌ ما كان يحبه العجوز، ربما حفيدة صغيرة، قد قضت نحبها. وكان العجوز يتمتم من حينٍ لآخر قائلًا:

- «ما كان يجب أن نثق بهم، هذا ما قلته.. أليس كذلك؟ هذه نتيجة ثقتنا بهم، لقد قلت هذا بصوتٍ مرتفعٍ.. ما كان ينبغي لنا أن نثق بهؤلاء الأنذال».

لكن من هم هؤلاء الذين ما كان عليهم أن يثقوا بهم؟ أمر لم يعرفه "ونستون". منذ ذلك الوقت كانت الحرب متواصلة، ولو أننا شئنا الدقة، فإنها لم تكن دائمًا الحرب نفسها. فعلى مدى أشهر أثناء طفولته، كان قتالٌ عنيف يدور في شوارع «لندن» نفسها. وهو ما يزال يذكر بعضه بوضوح. ولكن التاريخ لا يأتي حتى على إشارة لتلك الفترة. من كان يحارب من، وفي أي وقت؟ أمر كهذا مستحيل طالما أنه لا سجل مكتوب أو كلمة مسجلة قد أتت على ذكر أي تحالفات غير تلك القائمة في الوقت الحالي. ففي هذه اللحظة مثلا في 1984 - إن كانت هذه اللحظة فعلًا في 1984 -، «أوقيانيا» في حربٍ مع «أوراسيا»، بينما تحالف «شركسيا». لكن ما من بيان عام أو خاص اعترف يومًا بأن القوى الثلاث قد أقامت تحالفات مختلفة عما هو قائم اليوم.. ولكن "ونستون" عرف جيدًا أنه منذ أربع سنوات فقط كانت «أوقيانيا» في حربٍ مع «شركسيا» ومتحالفة مع «أوراسيا». كان ذلك مجرد إدراك مبهم، لأن ذاكرته وأفكاره لم تكن تحت سيطرته بصورةٍ كافية. فعلى المستوى الرسمي لم يحدث أي تغيير في التحالفات. فإذا كانت «أوقيانيا» في حربٍ مع «أوراسيا»، إذن.. فإن «أوقيانيا» كانت دائمًا في حرب مع «أوراسيا». ذلك أن عدو اللحظة الراهنة يمثل الشر المطلق، وهذا ما يؤكد أن وفاقًا في الماضي أو المستقبل كان في حكم المستحيل.

الشيء المخيف، هكذا راح يفكر للمرة الألف، وهو يدفع بكتفيه إلى الوراء متألمًا - بينما يداه على خاصرته ويتحرك حركة استدارية من الوسط، وهي حركة يفترض أنها تقوي عضلات الظهر -، أجل الشيء المخيف هو أن يكون ما انتابه من مخاوف صحيحًا.. لو أن الحزب قادرًا على التدخل في الماضي ليقول إن هذا الحديث أو ذاك لم يحدث أبدًا. لو كان ذلك لكان أمرًا مخيفًتا أكثر من التعذيب أو الموت.

فالحزب يقول إن «أوقيانيا» لم تتحالف مع «أوراسيا»، بينما "ونستون سميث" يعرف أن «أوقيانيا» كانت في تحالف مع «أوراسيا» منذ وقتٍ قريب،

ولكن مثل هذه المعلومات أين يمكن أن نجدها. إنها فقط في ضميره الذي لا يلبث أن يسحق، وإذا قبل الناس الأكذوبة التي ألزمهم بها الحزب، وإذا كانت كل السجلات تحكي القصة نفسها، فإن الأكذوبة تدخل التاريخ وتصبح حقيقة. وأحد شعارات الحزب «من يسيطر على الماضي يسيطر على المستقبل، ومن يسيطر على الحاضر يسيطر على الماضي».

لكن الماضي، الذي هو في طبيعته قابل لإعادة النظر، لم يحدث أبدًا أن تغير. فما هو صحيح اليوم كان صحيحًا منذ الأزل وسيبقى كذلك إلى الأبد. إن الأمر في منتهى البساطة، فكل المطلوب هو سلسة لا تنتهي من الانتصارات على ذاكرتك.. «الاستحواذ على الحقيقة»، أو كما يسمونها في اللغة الجديدة «التفكير الازدواجي».

- **«استرح».**

صرخت المدربة من جديد لكن على نحوٍ أكثر لطفًا.

أرخى "ونستون" ذراعيه وملأ رئتيه بالهواء ببطء، بينما كان عقله ينزلق في غياهب التفكير المزدوج.. أن تعرف ولا تعرف، أن تدرك الحقيقة كاملة، ومع ذلك تقص أكاذيب محكمة بعناية، أن تؤمن برأيين في آنٍ وأنت تعرف أنهما لا يجتمعان، ومع ذلك تصدق بهما. أن تجهض المنطق بالمنطق، أن ترفض الالتزام بالأخلاق فيما أنت واحد من الداعين إليها. أن تعتقد أن الديمقراطية ضرب من المستحيل، وأن الحزب وصي عليها. أن تنسى كل ما يتعين عليك نسيانه، ثم تستحضره في الذاكرة حينما تمس الحاجة إليه، ثم تنساه مرة ثانية فورًا، وفوق كل ذلك أن تطبق الأسلوب نفسه على الحالتين. ذلك هو الدعاء الكامل، أن تفقد الوعي عن عمدٍ ووعي، ثم تصبح ثانية غير واعٍ بعملية التنويم الذاتي التي مارستها على نفسك.. بل حتى إن فهم عبارة التفكير الازدواجي تستدعي منك اللجوء للتفكير المزدوج.

ومرة أخرى طلبت منهم المدربة الانتباه مجددًا. وقالت بصوتٍ حماسي:

- «الآن دعونا نرى من منا يستطيع أن يلمس أصابع قدميه بيديه.. من فضلكم يا رفاق.. انحناء من الوسط، واحد.. اثنان، واحد.. اثنان».

كان "ونستون" يكره هذا التمرين الذي يسبب له آلامًا حادة من كعبيه إلى إليته وغالبًا ما كان ينتهي بنوبةِ سعالٍ حادة. لم يكن له غير تأملاته ما يجعله مسرورًا إلى حدٍ ما. إن الماضي، كما تراءى له، لم يتغير فحسب، بل اجتث من جذوره، إذ كيف يمكن أن تبرهن على أكثر الحقائق جلاء، حينما لا يكون لديك أي سجل لها خارج ذاكرتك؟ هنا حاول "ونستون" أن يتذكر في أي سنة سمع للمرة الأولى بالأخ الكبير. يخيل إليه أن ذلك كان في الستينات، لكنه من رابع المستحيلات أن يتأكد من ذلك. ففي سجلات الحزب يصور الأخ الكبير طبعًا باعتباره زعيم الثورة وحاميها والقيم عليها منذ أيامها الأولى. ومآثره كانت تتوغل تدريجيًا في الماضي حتى وصلت إلى عالم الأربعينات والثلاثينات الخرافي، عندما كان الرأسماليون، بقبعاتهم الأسطوانية الغريبة، ما زالوا يسيرون في الشوارع بسياراتهم الفارهة أو عربات الخيول ذات الجوانب اللامعة. لم يكن أحد يعرف من هذه الأسطورة ما هو الحقيقي وما هو المختلق، بل إن "ونستون" نفسه لم يستطع تذكر التاريخ الذي جاء فيه الحزب إلى الوجود، ويعتقد أنه لم يسمع بكلمة «إنج شك» قبل عام 1960، ولكن قد يكون من الممكن أنها قد اشتقت من «الاشتراكية الإنجليزية» في اللغة القديمة، مما يعني أنها كانت أسبق.

كان الضباب يحجب كل شيء. وكان بمقدورك أحيانًا أن تضع يدك على أكذوبة محددة. فعلى سبيل المثال، تزعم كتب تاريخ الحزب أن الحزب هو أول من اخترع الطائرات، فيما "ونستون" يذكر الطائرات منذ طفولته الأولى، ولكن لا يمكن الحصول على برهان لنقض هذا الادعاء. مرة واحدة في حياته وقعت يداه على دليلٍ وثائقي لا يمكن دحضه، برهان على تزييف حقيقة تاريخية. وفي تلك المناسبة.. هنا قاطعه صوتٌ غاضب آتٍ من شاشة الرصد:

- «سميث، يا سميث رقم 6079، نعم أنت، انحن أكثر إلى الأسفل، إنك تستطيع أن تؤدي أداء أفضل، لكنك لا تبذل جهدًا كافيًا، انحن أكثر رجاءً.. هذا أحسن أيها الرفيق. الآن استريحوا جميعًا وراقبوني».

وفجأة تصبب جسم "ونستون" عرقًا حارًا، ومع ذلك بقي وجهه خلوًا من أي انفعال. فليس له أن يظهر الخوف وليس له أن يظهر الاستياء. رفة عين واحدة يمكن أن تؤدي بك. كان "ونستون" واقفًا يراقب.. بينما رفعت المدربة ذراعيها فوق رأسها ثم انحنت - ليس للمرء أن يقول بلطف ولكن بخفة وإتقان - ثم وضعت أصابع يديها تحت أصابع قدميها.

- «هكذا يا رفاق.. هكذا أريدكم أن تفعلوا.. راقبوني ثانية.. أنا في التاسعة والثلاثين من عمري ولدي أربعة أطفال.. الآن انتبهوا».

وانحنت ثانية:

- «لاحظوا. ركبتاي غير مثنيتين، باستطاعتكم جميعًا أن تفعلوا مثلي إذا أردتم».

قالت ذلك وهي تنتصب ثانية:

- «إن أي شخص لم يتجاوز الخامسة والأربعين يمكنه أن يلمس أصابع قدميه. فنحن الذين لم نحظ بشرف القتال على خطوط الجبهة، علينا على الأقل أن نبقى متمتعين باللياقة. تذكروا أبناءنا على جبهة مالابار، والبحارة على القلاع العائمة، فكروا فقط في كل ما عليهم أن يتحملوه. والآن حاولوا ثانية، هذا أفضل يا رفيق، أفضل بكثير».

قالت مشجعة حين نجح "ونستون" بعد جهدٍ جهيد في ملامسة أصابع قدميه، دون أن يثني ركبتيه للمرة الأولى منذ سنوات عديدة.

الفصل الرابع

مع تنهيدة عميقة ولا إرادية، لم يمنعه حتى قربه من شاشة الرصد من إطلاقها وهو يبدأ يوم عمله، جذب "ونستون" جهاز التسجيل باتجاهه ثم نفخ الغبار عن الميكروفون. وضع نظارته، وأخرج أربع لفافات صغيرة من الورق، وكانت هذه اللفافات قد وصلت عبر الأنبوب الهوائي الموجود إلى يمين مكتبه.

كان في جدران حجرة مكتبه ثلاث فتحات: عن يمين جهاز التسجيل أنبوب هوائي صغير للرسائل المكتوبة، وعن يساره أنبوب أكبر للصحف، وفي الحائط الجانبي في متناول يد "ونستون"، كوة كبيرة مستطيلة الشكل ومغطاة بشبكة سلكية. وهذه الأخيرة كانت للتخلص من الأوراق الزائدة. كان هنالك آلاف أو عشرات الآلاف من هذه الفتحات المتشابهة داخل البناء، ليس في الغرف فحسب، بل حتى على مسافاتٍ قصيرة في الممر. لسببٍ ما كان الناس يسمونها «ثقوب الذاكرة». فعندما كان يعرف المرء أن هنالك وثيقة تقرر إتلافها، أو حتى عندما يرى قطعة ورق تالفة ملقاة هنا أو هناك، كان تلقائيًا يقصد أقرب حفرة من «ثقوب الذاكرة» ويرفع غطاءها ثم يرمي بها داخلها، حيث يحملها تيار من الهواء الدافئ إلى أفرانٍ ضخمة مخفية في جوف البناء.

نظر "ونستون" إلى قصاصات الورق الأربع التي تلقاها.. كانت كل واحدة منها تحتوي على رسالة مؤلفة من سطرٍ واحد أو سطرين مكتوبة بلغة الاختزال.. لم تكن تلك هي "اللغة الجديدة" فعليًا، ولكنها تتألف في معظمها من مفردات من اللغة الجديدة، تستعمل في الوزارة للأغراض الداخلية. وكانت تجري على النحو

التالي:

الزمان، 17 – 3 – 83، خطاب للأخ الكبير نقل مغلوطًا إلى أفريقيا. نقحه.

الزمان، 19 -12 – 83، التوقعات 3، ي ب، الربع الرابع، 83، أخطاء مطبعية، دققوا الإصدار الحالي.

الزمان، 14 – 2 – 84، وزارة الوفرة، حصل خطأ بالشوكولا، تحققوا.

الزمان، 13 – 2 – 83، نقل أمر اليوم لـ خ ك خاطئ جدًا، لا تشيروا إلى أشخاص، أعيدوا الكتابة وأتلفوا الأوراق السابقة.

وضع "ونستون" الرسالة الرابعة جانبًا وهو يشعر بشيءٍ من الارتياح، فكانت على درجة من الأهمية تجعل من الأنسب إرجاءها إلى النهاية. أما الرسائل الثلاث الأخريات فقد كانت أمورًا روتينية الطابع، بينها واحدة توحي بوجوب الخوض في غمار قوائم أرقام مملة.

أدار "ونستون" «أرقامًا خلفية» على شاشة الرصد طالبًا أعدادًا معينة من صحيفة «التايمز».. انزلقت الصحيفة من الأنبوب الهوائي بعد بضع دقائق فقط. وكانت الرسائل التي تلقاها تشير إلى مقالاتٍ أو فقرات إخبارية سيتعين لسببٍ أو لآخر تعديلها، أو على حد قول العبارة الرسمية، تصحيحها. فعلى سبيل المثال نشرت صحيفة «التايمز» في عددها الصادر في السابع عشر من مارس أن الأخ الكبير في خطابه الذي ألقاه قبل يوم، تنبأ أن جبهة جنوبي الهند ستظل هادئة، فيما ستشن «أوراسيا» هجومًا وشيكًا على شمال أفريقيا. ولكن ما حدث هو أن القيادة العليا الأوراسية قد شنت هجومها على جنوب الهند وليس على شمال أفريقيا. لذلك كان من الضروري إعادة كتابة الفقرة الموجودة في خطاب الأخ الكبير بالشكل الذي يظهر أنه تنبأ بما وقع فعلًا. كما أن «التايمز» في عددها التاسع عشر من كانون الأول (ديسمبر) قد نشرت التوقعات الرسمية لإنتاج أصناف مختلفة من السلع الاستهلاكية في الربع الأخير ن العام 1983، والذي كان في الوقت نفسه الربع السادس من الخطة الثلاثية التاسعة.. أما عدد اليوم فقد احتوى على بيان بالإنتاج الفعلي الذي تبين من خلاله أن التوقعات كانت خاطئة إلى حدٍ كبيرٍ من كل جوانبها.

وكانت مهمة "ونستون" تصحيح أرقام التوقعات الأصلية وجعلها تتفق مع الأرقام الجديدة. أما بالنسبة إلى الرسالة الثالثة فقد كانت تشير إلى خطأ صغير جدًا يمكن تصحيحه في غضون دقيقتين. فمنذ فترة وجيزة تعود إلى شباط (فبراير)، كانت وزارة الوفرة قد أصدرت وعدًا - أو حسب العبارة الرسمية «تعهدًا قاطعًا» - بأنه لن يكون ثمة تخفيض في حصة الشوكولا خلال عام 1984. هذا بينما كان "ونستون" على معرفة بأن حصة الفرد من الشوكولا سيتم تخفيضها فعلًا من ثلاثين غرامًا إلى عشرين بنهاية الأسبوع الحالي. ومن ثم كان يتوجب عليه هو استبدال كلمة «الوعد» المشار إليها في البيان بكلمة «تحذير» من احتمال اللجوء اضطرارًا لتخفيض حصة الشوكولا في وقتٍ ما من نيسان (أبريل).

وكلما انتهى "ونستون" من معالجة هذه الرسائل، أرفق تصحيحاته بالأعداد الخاصة بها من «التايمز»، ثم دفعها في الأنبوب الهوائي. وبعدئذٍ، وبحركة يبدو أنها لا إرادية كرمش الرسائل الأصلية وأي ملاحظات كان قد دونها بنفسه، ثم رمى بها جميعًا في أحد ثقوب الذكرة لتلتهمها النيران.

أما ماذا كان يجري في المتاهة غير المرئية حيث ينتهي الأنبوب الهوائي، فأمر لم يكن "ونستون" يعرفه بصورة مفصلة، وإنما كان فقط يلم به إلمامًا عامًا. فما أن يتم اجراء التصحيحات التي يصدف أن تكون لازمة في عدد من أعداد «التايمز»، يعاد طبعه من جديد، ويتم إتلاف النسخة الأصلية، ووضع النسخة المصححة في ملفات المحفوظات محلها. ولم تكن عملية التبديل المتواصلة هذه تطبق على الصحف فحسب، بل كانت تطال أيضًا الكتب والدوريات والنشرات والإعلانات والأفلام وأشرطة والتسجيل وأفلام الكرتون والصور وكذا كل أنواع الأدب أو الوثائق التي يمكن أن تحمل مضامين سياسية أو أيديولوجية. فيومًا بيوم، وربما دقيقة بدقيقة يتم تحديث الماضي بما يجعله يتوافق والحاضر. وهكذا، فإن كافة تنبؤات الحزب يتسنى، بالدليل الوثائقي إظهارها باعتبارها صائبة. كما أن كل فقرة إخبارية أو أي

إبداء لوجهة نظر تتعارض مع مجريات الحاضر كان لا يسمح لها بالبقاء ضمن أي سجلات. فالتاريخ كله كان بمثابة لوح ثم تنظيفه لإعادة النقش عليه بما تستلزمه مصلحة الحزب.

وحينما يتم الانتهاء من عملٍ ما، فإنه يصبح من المتعذر تمامًا على أي كان الإتيان ببرهان على أن ثمة تزييفًا قد جرى. وكان أكبر الأقسام ضمن دائرة السجلات، والذي يكبر بكثير ذاك الذي يعمل به "ونستون"، يتألف من أشخاص مهمتهم هي تعقب وتجميع كافة نسخ الكتب والصحف وأي وثائق حلت محلها أخرى وبات يتعين إتلافها. هناك مجموعة من أعداد «التايمز»، والتي ربما بسبب تغيير في التحالفات السياسية أو نبوءة كاذبة وقع فيها الأخ الكبير، قد تمت إعادة كتابتها عشرات المرات وما زالت محفوظة في ملفاتها حاملة تاريخها الأصلي دون أن تظهر أي نسخ أخرى تناقضها. وحتى الكتب أيضًا كان يتم استردادها وإعادة كتابتها المرة تلو المرة، ثم إعادة طباعتها بصورة مغايرة دون الإشارة إلى أي تغييرات جرت عليها. بل وحتى التعليمات الخطية التي كان يتسلمها "ونستون" والتي كان يتخلص منها فور الانتهاء منها، لم تشر من بعيد أو قريب لأي عمليات تزييف يتعين القيام بها. وكل ما كان يشار إليه دائمًا هو مجرد هفوات أو أخطاء مطبعية، أو اقتباسات مغلوطة يلزم تصحيحها توخيًا للدقة.

ولكن "ونستون" لم يكن يرى في الأمر تزويرًا، كان وهو يعيد ضبط أرقام وزارة الوفرة، بل مجرد استبدال تفاهات بتفاهات. فمعظم المواد التي كان يتعامل معها لم تكن تمت بصلة لما يحصل على أرض الواقع. فالإحصائيات كانت وهمية في نسخها الأصلية شأنها شأن نسخها المعدلة. وفي كثير من الأحيان كان من المفترض أن يخترعها اختراعًا من مخيلته. فعلى سبيل المثال كانت توقعات وزارة الوفرة قد قدرت إنتاج الأحذية الربع سنوي بمائة وخمسة وأربعين مليون زوج من الأحذية، بينما كان الإنتاج الفعلي اثنين وستين مليونًا. ولدى إعادة كتابة التوقعات، خفض "ونستون" الرقم إلى سبعة وخمسين

مليونًا مفسحًا بذلك المجال للادعاء لاحقًا بأن ثمة فائضًا في الحصة المقررة. وعلى أي حال، إن اثنين وستين مليونًا لم تكن أقرب إلى الحقيقة من سبعة وخمسين مليونًا، أو من مائة وخمسة وأربعين مليونًا، ومن الممكن ألا يكون قد تم إنتاج أي أحذية على الإطلاق. بل وعلى الأرجح، لم يكن أحد يعرف ما تم إنتاجه أو حتى يبالي بمعرفة ذلك. فكل ما كان يعرفه المرء عن إنتاج الأحذية هو أرقام فلكية لا توجد إلا على الورق، في الوقت الذي كان زهاء نصف سكان «أوقيانيا» حفاة. وهكذا كان شأن كافة الحقائق المسجلة، صغيرة كانت أم كبيرة. فكل شيء يتلاشى في عالم من الظلال إلى حد يصبح معه حتى تاريخ السنة أمرًا مشكوكًا فيه.

ألقى "ونستون" نظرة عبر القاعة. كان ثمة رجلٍ ضئيل الجسم، دقيق الملامح، ذا ذقنٍ سوداء، يُدعى "تيلوتسون"، يعمل بدأبٍ، واضعًا على ركبتيه صحيفة مطوية، ومقربًا فمه من ميكروفون جهاز التسجيل. وكان يبدو من هيئته أنه يحاول الاحتفاظ بما يقوله سرًا بينه وبين شاشة الرصد. وعندما رفع رأسه لاحظ أن "ونستون" ينظر إليه، فبادله بنظرة عداء.

كان "ونستون" لا يعرف من هو "تيلوتسون" هذا وما كانت لديه فكرة عن طبيعة العمل الذي يقوم به. فالناس في دائرة السجلات كانوا لا يميلون للتحدث عما يُسند إليهم من مهام. ففي القاعة الطويلة الخالية من النوافذ، وحجراتها المصطفة على صفين وحفيف الأوراق الذي لا ينتهي وهمهمة الأصوات التي تهمس أمام أجهزة التسجيل، كان يعمل عشرات الموظفين الذين لم يكن "ونستون" حتى يعرف أسماءهم، مع أنه كان يراهم يوميًا يروحون ويجيئون سراعًا في الممرات أو يلوحون بالإشارات في أثناء «دقيقتي الكراهية».. ولكنه كان يعرف أن في الحجرة المقابلة لحجرته، تعمل المرأة ذات الشعر الرملي، التي تعكف يوميًا على تتبع وحذف ما يرد في الصحف من أسماء لأناسٍ تمت إزالتهم من الوجود، ومن ثم ينبغي اعتبارهم وكأنهم لم يكونوا أبدًا. وكان في ذلك شيء من الملاءمة لحالتها، إذ كان زوجها قد لاقى ذلك

المصير قبل سنتين، وعلى بعد بضع حجرات كان هنالك شخص هادئ غير فعال، ويبدو كأنه يعيش في عالمٍ من الخيال، يُدعى "إمبلفورث"، وذو أذنين مغطاتين بشعرٍ كثيف، ويتمتع بموهبةٍ مدهشة في التعامل مع القوافي والأوزان. كان "إمبلفورث" منهمكًا في إنتاج نسخ محرفة، أو نصوص نهائية - كما كانت تسمى - من القصائد التي أصبحت تتعارض مع أيديولوجية الحزب، ولكن لسببٍ أو لآخر كان ينبغي الاحتفاظ بها في موسوعة المختارات الأدبية. وهذه القاعة التي تضم خمسين عاملًا أو ما يقارب هذا العدد، كانت قسمًا فرعيًا واحدًا، أو خلية مفردة ضمن المنظومة الضخمة المعقدة لدائرة السجلات. بينما كان يوجد فوق وتحت، مجموعات كبيرة من العاملين المنهمكين في كمٍ هائل من أعمال لا يمكن تخيلها.

فهناك قاعات الطباعة الضخمة بخبرائها واستديوهاتها المجهزة بشكلٍ جيد من أجل تزييف الصور. وهنالك قسم البرامج الإعلامية بمهندسيه ومنتجيه وفرق الممثلين الذين اختيروا خصيصًا لمهاراتهم في تقليد الأصوات. كما كان ثمة جيوش من الكتاب المراجعين الذين تقتصر وظيفتهم على وضع قوائم بالكتب والدوريات التي ينبغي مراجعتها. وكان هنالك مستودعات ضخمة حيث تخزن الوثائق المصححة فضلًا عن الأفران المخفية والتي يجري فيها إتلاف النسخ الأصلية. وفي مكانٍ أو آخر، مجهول الاسم، كانت هنالك العقول المدبرة التي يناط بها التنسيق بين الجهود وإرساء الخطوط العامة للسياسة، التي تقرر ما يجب الاحتفاظ به من الماضي، وما يجب تزويره أو محوه.

ولم تكن دائرة السجلات هذه إلا فرعًا من فروع (وزارة الحقيقة) ولم تكن مهمتها الأساسية تتمثل في إعادة بناء الماضي فقط، بل تزويد مواطني «أوقيانيا» بالصحف والأفلام والكتب، وبرامج شاشة الرصد، والروايات والمسرحيات، وبكل أنواع الإعلام أو الإرشاد أو التسلية، من التمثال إلى الشعار، ومن القصيدة الغنائية إلى بحوث علم أحياء، من كتاب التهجئة

الخاص بالأطفال إلى معجم اللغة الجديدة. ولم يكن على (وزارة الحقيقة) أن تلبي الاحتياجات المتنوعة للحزب فقط، بل عليها أيضًا أن تؤدي الدور نفسه، ولكن بمستوى أدنى، لمصلحة البروليتاريا. فهناك سلسلة كاملة من دوائر الوزارة المنفصلة التي تتعامل مع أدب البروليتاريا وموسيقاهم ومسرحهم ووسائل لهوهم بصورة عامة. وهناك تصدر جرائد تافهة لا تحوي شيئًا تقريبًا إلا أخبار الرياضة والجرائم والتنجيم. وتنتج الروايات الجنسية ذات الخمسة سنتات، وأفلام الإثارة الجنسية والأغاني العاطفية التي يتم تأليفها بوسائط آلية مثل ذلك النوع من جهاز «الكاليدوسكوب» المعروف بناظم الشعر. وهناك أيضًا قسم فرعي - اسمه في اللغة الجديدة بورنوسيك - ويعمل على إنتاج أحط أنواع المواد الإباحية، وهذه كانت توزع بمغلفات مختومة لا يسمح لأي عضو من أعضاء الحزب، ما عدا أولئك الذين يعملون فيها، بالنظر إليها.

قذف الأنبوب الهوائي ثلاث رسائل جديدة بينما كان "ونستون" يعمل، لكنها كانت تتعلق بأمورٍ بسيطة، واستطاع بالفعل الانتهاء من أمرها قبل أن يداهمه موعد «دقيقتي الكراهية». وحينما انتهت الكراهية عاد إلى حجرته، وتناول معجم اللغة الجديدة من فوق الرف، وأزاح جهاز التسجيل جانبًا، ثم نظف نظارته وانكب على مهمته الرئيسية في ذلك اليوم.

كانت أمتع الساعات في حياة "ونستون" هي تلك التي يمضيها في العمل. صحيح أن معظم العمل كان مملًا ورتيبًا، ولكن كانت هناك مهام صعبة ومعقدة إلى حد قد ينسى المرء نفسه في غمرتها، كما ينساها وهو منهمك في مسألة رياضية، حيث يطلب منك عملية تزوير دقيقة وليس ثمة ما تسترشد به غير معرفتك بمبادئ «انج سوك» وتقديراتك الشخصية لما يريد الحزب أن يقوله. وكان "ونستون" يجيد مثل هذه المهام، حتى أنه كان يعهد إليه أحيانًا بتعديل المقالات الرئيسية في «التايمز» المكتوبة بكاملها باللغة الجديدة. فض "ونستون" الرسالة وقرأ ما يلي:

«الزمان 3-12-83 نقل الأمر اليومي للأخ الكبير خاطئ جدًا جدًا، عدم الإشارة إلى أشخاص، اكتبه ثانية مصححًا، أرسله إلى فوق، لا تحفظه».

وفي اللغة القديمة تعني:

«أمر الأخ الكبير في جريدة التايمز يوم 3 كانون الأول (ديسمبر) وفيه إشارات لأشخاصٍ غير موجودين فعلًا. أعد كتابته بشكلٍ كامل وابعث بالمسودة إلى مرجع أعلى قبل وضعه في الملف وحفظه».

قرأ "ونستون" المقالة الخاطئة المسيئة، فمن الواضح أن أمر الأخ الأكبر لذلك اليوم كان مخصصًا للإشادة بعمل مؤسسة «إف إف سي سي»، التي كانت تزود البحارة في القلاع العائمة بالسجائر وبعض الكماليات الأخرى. ذكر أحد الرفاق ويُدعى "الرفيق ويذرز" وهو من الأعضاء البارزين في الحزب الداخلي، مثنيًا عليه ومنحه وسام الاستحقاق المتميز من الدرجة الثانية.

وبعد ثلاثة أشهر جرى حل هذه المؤسسة «إف.. إف.. سي.. سي» فجأة. وكان بوسع المرء الظن بأن "ويذرز" وشركاءه قد أصبحوا من المغضوب عليهم، ولكن لم تصدر أي إشارة إلى ذلك، لا في الصحف ولا على شاشة الرصد. كان ذلك هو المتوقع، لأنه لم يكن من المعتاد أن يحاكم السياسيون المنشقون أو حتى يدانون علنًا. فحملات التطهير الكبرى التي تشمل آلاف الناس، وتصحبها محاكمات علنية للخونة ولمجرمي الفكر الذين أقروا بخسة ما اقترفوا من جرائم وجرى إعدامهم فيما بعد، لم تكن سوى عينات خاصة للعرض ولا تحدث غالبًا أكثر من مرة واحدة كل سنتين. أما الأمر المألوف فهو أن الأشخاص الذين يجلبون على أنفسهم غضب الحزب، كانوا يختفون من الوجود ويختفي معهم ذكراهم دون أن يعثر على أي مفتاح يكشف سر اختفائهم. وفي بعض الحالات لا يكون هؤلاء قد ماتوا بعد. وربما يعرف "ونستون" ثلاثين شخصًا، فضلًا عن أبويه، ممن اختفوا في هذا الوقت أو ذاك.

راح "ونستون" يحك أنفه بملقط للورق في يده. وفي حجرة العمل على الناحية الأخرى كان الرفيق "تيلوتسون" ما زال منكبًا على جهاز التسجيل بصورةٍ توحي بسرية ما يفعله. ولما رفع رأسه ثانية باتجاه "ونستون" شعر بنظرة عداء تلمع في عينيه. تساءل "ونستون" عما إذا كان الرفيق "تيلوتسون" منهمكًا في المهمة نفسها التي تم إسنادها إليه. إن ذلك من الجائز تمامًا. فمهمة على هذه الدرجة العالية من الدقة، لا يمكن أن يعهد بها إلى شخصٍ بمفرده، ومن جهة ثانية إذا أوكلت هذه المهمة للجنة معناه بالاعتراف العلني بوقوع التزوير. لذلك من المرجح أن يكون هنالك عشرات من العاملين يعكفون الآن على عمل نسخ لما قاله الأخ الكبير بالفعل. وبعد ذلك يقوم بعض ذوي العقول المدبرة من أعضاء النخبة في الحزب باختيار هذه النسخة أو تلك، وإعادة تنقيحها عبر عمليات معقدة من المراجعة مع الإحالات اللازمة، ثم يتم تمرير الكذبة التي وقع الخيار عليها إلى السجلات الدائمة لتصبح حقيقة.

ما كان "ونستون" على علمٍ بالسبب الذي جعل الحزب يغضب على "ويذرز"، ربما حدث ذلك بسبب الفساد أو عدم الكفاءة. أو ربما لأن الأخ الكبير كان يرغب في التخلص من أحد مرؤوسيه الذين يحظون بشعبية جارفة. أو قد يكون لأن "ويذرز" أو واحدًا من ذويه قد اشتبه في أن لديهم ميولًا انشقاقية، أو ربما، وهو الأرجح، أن ما حصل قد حصل فقط لأن حملات التصفيات والإبادة كانت جزءًا ضروريًا من آليات عمل الحكومة. المفتاح الوحيد الحقيقي لهذا اللغز يكمن في عبارة «لا تشر إلى الأشخاص» وهي ما تنطوي على إشارة إلى أن "ويذرز" قد مات فعلًا. لكن ليس لك أن تفترض دائمًا بأن هذه هي الحال مع كل الذين يتم القبض عليهم، ففي بعض الأحيان يُطلق سراح بعضهم ويمنحون حريتهم لسنة أو سنتين، ثم يُنفذ فيهم حكم الإعدام. وأحيانًا كثيرة قد يظهر بعض من تحسبهم في عداد الموتى منذ أمدٍ طويلٍ ظهورًا خطفًا عبر محاكمة علنية حيث يدلي بشهادة يورط بها مئات آخرين قبل أن يختفي، ولكن للأبد هذه المرة. أما "ويذرز"، فلم يعد شخصًا على أي حال، وهذا يعني أنه لم يكن له أبدًا أي وجود. وهنا قرر "ونستون" أن مجرد قلب

اتجاه خطاب الأخ الكبير لن يكون كافيًا، وأن من الأفضل أن يجعله يعالج مسألة لا علاقة لها أبدًا بموضوعه الأصلي.

كان في وسعه تحويل الخطاب إلى إدانة للخونة ولمجرمي الفكر، ولكن ذلك سيكون مكشوفًا، كما كان يمكنه أن يختلق انتصارًا تحقق على الجبهة، أو نجاحًا في تحقيق فائض إنتاج في الخطة الثلاثية التاسعة، ولكن ذلك قد يعقد السجلات تعقيدًا شديدًا. إن المطلوب هو قطعة من الخيال الخالص. وفجأة خطرت على باله فكرة جاهزة. إنه صورة الرفيق "أوغيلفي" الذي مات مؤخرًا في ميدان المعركة وسط أجواء ملحمية. وما أكثر المناسبات التي كان الأخ الكبير يكرس فيها خطابه اليومي لإحياء ذكرى أحد أعضاء الحزب عديمي الذكر المتواضعين ليجعل من حياتهم ومماتهم مثالًا يحتذى به. واليوم يجب الإشادة بذكرى الرفيق "أوغيلفي».. صحيح أنه لم يكن هنالك وجود سبق لشخصٍ حقيقي اسمه "أوغيلفي"، ولكن بضعة أسطر مكتوبة وصورتين مزيفتين له لكفيلة بأن تجعل له وجود.

فكر "ونستون" لحظة ثم جذب جهاز التسجيل صوبه وراح يملي بأسلوب الأخ الكبير المألوف.. وهو أسلوبٌ عسكريٌ ومتكلف في آنٍ واحد.

وبسبب لجوئه لحيلة طرح الأسئلة ثم تقديم الأجوبة الفورية عليها بنفسه، مثل أتدرون أي الدروس يمكن أن نستخلصها أيها الرفاق؟ إن الدرس - والذي يكون أحد مبادئ الاشتراكية الإنجليزية - هو فقد كان من السهل تقليده.

كان الرفيق "أوغيلفي" قد رفض منذ أن بلغ الثالثة من عمره مختلف أنواع لعب الأطفال، ما عدا الطبل والرشاش ونموذجًا لطوافه. وفي السادسة أو قبل سنة من ذلك، إذا تركنا جانبًا بعض قواعد الحساب، التحق بمنظمة الجواسيس، وفي التاسعة أصبح قائد مجموعة. أما في الحادية عشرة فقد وشى بعمه إلى شرطة الفكر بعدما استرق السمع لحديثٍ كان يبدو أنه يتضمن ميولًا إجرامية. وفي السابعة عشرة أصبح منظم مقاطعة في رابطة مناهضة الجنس، وفي التاسعة عشرة صمم القنبلة اليدوية التي كانت تتبنى مشروعها وزارة السلام، والتي تسببت أولى تجاربها في مصرع واحد وثلاثين أسيرًا من «أوراسيا» عند تفجيرها. وفي الثالثة والعشرين قضى نحبه وهو

يؤدي الواجب. فبينما كانت تلاحقه طائرات نفاثة معادية أثناء تحليقه بطوافته فوق المحيط الهندي حاملًا وثائق هامة، أثقل جسمه بالرشاش وقفز من طوافته إلى أعماق المياه مع ما كان يحمله من وثائق. إنها نهاية بطولية نموذجية، حسبما يقول الأخ الكبير، لا يمكن أن يفكر فيها المرء إلا وتثير لديه مشاعر الحسد. بعدئذ أضاف الأخ الكبير بضع ملاحظات عن الطهر والإخلاص اللذين تمتع بهما الرفيق "أوغيلفي" في حياته. فقد كان لا يقرب الخمر ولا يدخن السجائر، ولا يلتمس الراحة من عمله إلا ساعة واحدة في اليوم يمارس فيها الرياضة، فضلًا عن أنه نذر نفسه للعزوبة معتقدًا أن الزواج ورعاية الأسرة لا يناسبان شخصًا مثله، وهب نفسه للواجب أربعًا وعشرون ساعة في اليوم. ولم يكن له الحديث حول مبادئ الاشتراكية الإنجليزية، ولا هدف له في الحياة إلا إلحاق الهزيمة بالعدو الأوراسي وتعقب الجواسيس والمخربين ومجرمي الفكر والخونة بشكلٍ عام.

فكر "ونستون" في نفسه ما إذا كان سيمنح "أوغيلفي" وسام الاستحقاق، ولكنه عدل في النهاية عن تلك الفكرة لأنها ستجر وراءها مراجعة سجلات هو في غنى عنها. ومرة أخرى التفت إلى منافسه في الحجرة المقابلة، وكان ثمة شيء في نفسه يقول له إن "تيلوتسون" منهمك في العمل ذاته الذي يؤديه هو. لكن لم يكن ثمة طريقة لمعرفة أي عمل سيتم تبنيه في النهاية، غير أنه كانت لديه قناعة راسخة بأن عمله هو الذي سيتم اعتقاده. فالرفيق "أوغيلفي" الذي كان منذ ساعة لا يرد حتى على خيال، أصبح حقيقة راسخة الآن. وفكر "ونستون" كيف أنه يمكنك أن تبعث الحياة في "موتيدون" أن يمكنك ذلك مع الأحياء. فالرفيق "أوغيلفي"، الذي لم يسبق أن كان له وجود في الحاضر، أصبح الآن موجودًا في الماضي، وحينما ينسى الناس عملية التزوير ويطويها النسيان، فلسوف يصبح وجوده يضاهي وجود كل من "شارلمان" أو "يوليوس قيصر" في صحته وثبوته.

الفصل الخامس

كان صف المنتظرين يتحرك ببطء في قاعة الطعام المنخفضة السقف تحت سطح الأرض. كانت تغص بمن فيها والضجيج يصم الآذان. وعلى الشبك المعدني فوق طاولة توزيع طعام الغداء، كانت أبخرة الطعام المسلوق تتصاعد بقوة، مصحوبة برائحة حمضية لاذعة، مع ذلك لم تتغلب على رائحة خمر النصر. وفي الجانب الأقصى من القاعة كان هنالك ثقب صغير في الحائط حيث يستطيع المرء شراء قدح من ذلك الخمر مقابل عشرة سنتات.

صاح صوت يأتي من خلف "ونستون":

- «ها هو الرجل الذي كنت أبحث عنه».

استدار "ونستون" وإذا به يجد صديقه القديم "سايم" الذي يعمل في دائرة البحوث. ربما كانت كلمة «صديق» ليست بالكلمة الدقيقة تمامًا، ففي هاتيك الأيام لم يكن للمرء أصدقاء، بل رفاق. غير أنه كان من بين الرفاق من رفقته ألطف من رفقة غيره.

كان "سايم" لغويًا اختصاصيًا في اللغة الجديدة. إنه بالفعل أحد أعضاء فريقٍ ضخمٍ من خبراء يعكفون الآن على جمع وتصنيف الطبعة الحادية عشرة من قاموس اللغة الجديدة. كان سايم مخلوقًا ضئيل الجسم، أصغر حجمًا من "ونستون"، ذا شعر أسود وعينين واسعتين جاحظتين عليهما مسحة من الحزن المفعم بالسخرية، تبدوان كأنهما تتفحصان وجهك أثناء حديثه إليك.

قال "سايم":

- «كنت أريد أن أسألك ما إذا كان لديك شفرات حلاقة».

قال "ونستون" بعجالة يخالطها الشعور بالذنب:

- «ولا واحدة، لقد بحثت في كل مكان، لكنها لم تعد موجودة الآن».

كان الجميع لا يكفون عن السؤال عن شفرات الحلاقة، وكان "ونستون" في حقيقة الأمر لديه شفرتان لم يستعملهما حتى الآن، إلا أنه يدخرهما لوقت الحاجة. كان هناك نقصٌ حادٌ في الشفرات منذ أشهر مضت.. فدائمًا كان هنالك سلعة من السلع الضرورية التي لم تعد متاجر الحزب تزود المواطنين بها. فمرة تكون الأزرار، ومرة أخرى خيطان الصوف الخاص برتق ملابس، وأخرى أربطة الأحذية، أما الآن فهي شفرات الحلاقة التي لا يمكنك العثور عليها إلا باستجدائها بصورةٍ شبه سرية من السوق السوداء.

تابع "ونستون" كاذبًا:

- «إنني استعمل الشفرة نفسها منذ ستة أسابيع».

تحرك الصف مرة أخرى للأمام. وعندما توقف التفت "ونستون" إلى "سايم" ثانية.. تناول كل منهما صينية معدنية سطحها لزج من أثر الشحوم، من كومة صينيات على حافة الطاولة.

بادر "سايم" بالسؤال:

- «هل ذهبت ورأيت السجناء وهم يُشنقون البارحة؟».

قال "ونستون" بشيءٍ من اللامبالاة:

- «كنت في العمل، الأرجح أني سأشاهدهم على الشاشة».

فرد "سايم":

- «إن ذلك لا يغني أبدًا».

وكانت عيناه الساخرتان تحدقان بوجه "ونستون" وكأنهما تقولان له: «أنا أعرفك، وأرى ما في داخلك، وأعرف جيدًا لماذا لم تذهب لمشاهدة السجناء يشنقون».

على المستوى الفكري، كان "سايم" شديد الولاء لأيديولوجية الحزب، إذ تراه يتكلم بشماتة وبابتهاج كريهين عن غارات شنتها الطوافات على قرى

العدو وعن المحاكمات والاعترافات التي أدلى بها مجرمو الفكر، وعن الإعدامات التي تنفذ داخل زنزانات (وزارة المحبة). أما إذا أردت أن تتكلم إليه، فإن ذلك يتوقف على مدى قدرتك على الانتقال بالحوار لموضوعٍ آخر لإبعاده عن مثل هذه المواضيع واستدراجه، إذا أمكن ذلك، للحديث عن جماليات اللغة الجديدة التي كان مولعًا بها وبارعًا فيها. أشاح "ونستون" بوجهه جانبًا ليتحاشى النظرة الفاحصة لعيني "سايم" الواسعتين السوداوين.

قال "سايم" معقبًا:

- «كانت عملية شنق جيدة، غير أنهم على ما أعتقد أفسدوها بربط القدمين معًا، كنت أحب أن أراهم وهم يرفسون بها.. لكن اللحظة الأكثر إثارة كانت تأتي في النهاية، وذلك حينما يتدلى اللسان إلى الخارج وقد أصبح داكن الزرقة.. إن تلك اللحظة هي التي تحوز إعجابي».

- «التالي من فضلكم».

صاح العامل ذو المريلة البيضاء وبيده مغرفة..

وضع كل من "ونستون" و"سايم" بصينيته تحت القضبان، فوُضع لكل منهما بسرعة الوجبة المقررة: قصعة من طعامٍ مسلوق ذي لون قرمزي رمادي، وكسرة من الخبز، ومكعب من الجبن، وفنجان من قهوة النصر بدون حليب، وقطعة سكر واحدة.

قال "سايم":

- «هنالك طاولة شاغرة تحت شاشة الرصد، لنأخذ في طريقنا إليها قدحين من الخمر».

كانت الخمر تُقدم لهم في أقداحٍ من الصيني ليس لها مقابض. وشقا طريقهما عبر القاعة المزدحمة، ثم وضع كل منهما صينية على الطاولة ذات الغطاء المعدني، والتي كانت تغطي إحدى زواياها مستنقعات صغيرة من حساء خَلَّفَه بعضهم، بدا وكأنه طعام تقيأه شخصٌ ما. أخذ "ونستون" قدحه

من الخمر، وبعد أن توقف لحظة ليستجمع قواه تجرع تلك المادة ذات الطعم الزيتي جرعة واحدة. وعندما نفرت الدموع من عينيه، أحس فجأة أنه كان جائعًا. فأخذ يزدرد الحساء الذي كانت تخالطه مواد لزجة على هيئة مكعبات هلامية ذات لونٍ وردي، ربما كانت بعض مستحضرات اللحم. وإلى أن أتى كل منهما على قصعته دون أن ينطق بكلمة. ومن الطاولة الواقعة إلى اليسار من "ونستون"، وراء ظهره بقليل، كان شخصٌ ما يتكلم على نحوٍ سريع ومستمر، وبجعجعة تشبه صوت بطة، تخترق صخب القاعة كلها.

سأل "ونستون" بصوتٍ عالٍ ليتغلب على جلبة المكان:

- «أين وصلت بالمعجم؟».

قال "سايم":

- «إنني أتقدم ببطء. إنني في فصل النعوت الآن.. إنه عملٌ جذاب».

أضاء وجه "سايم" عند ذكر اللغة الجديدة، فأزاح القصعة جانبًا وتناول كسرة خبز بيد، وباليد الأخرى قطعة جبن، وانحنى برأسه على الطاولة حتى يتسنى له الحديث بصوتٍ منخفض.

وقال:

- «الطبعة الحادية عشرة هي طبعة نهائية، إننا نصوغ اللغة في شكلها النهائي، ذلك الشكل الذي لن يجري حديث بغيره. عندما نفرغ منه، فإنه سيتحتم على الآخرين من أمثالك أن يتعلموا من جديد مرة ثانية. لعلك تظن أن مهمتنا الرئيسية هي ابتكار كلماتٍ جديدة، لكن لا، ليس هذا ما نقوم به البتة، إننا نقوم بتدمير الكلمات - عشرات بل مئات الكلمات كل يوم يجري تدميرها. إننا - نسلخ - اللغة حتى العظام. فالطبعة الحادية عشرة لن تحتوي على كلمة واحدة يمكن أن يبطل استخدامها قبل عام 2050».

ثم أخذ يقضم قطعة الخبز ويبتلعها بنهم، وواصل الحديث بشيء من الحذلقة، قد بدا وجهه الأسمر الرقيق مفعمًا بالحيوية، وقد زالت النظر الساخرة من عينيه، وحل مكانها هدوءٌ حالم.

وأضاف بعد تفكير:

- «إن تدمير الكلمات شيءٌ جميل.. بالطبع فإن نسبة الفقد الأكبر تكون في الأفعال والنعوت، إلا أن هناك الكثير من الأسماء التي يمكن التخلص منها أيضًا، إضافة إلى المترادفات والأضداد. ترى ما هو مبرر وجود كلمة هي مجرد نقيض لأخرى؟ فكل كلمة تحمل نقيضها في نفسها. خذ مثلًا كلمة «جيد» إذا كان لديك كلمة مثل «جيد»، ما هي الحاجة إذن إلى كلمة مثل «رديء»؟ إن كلمة «غير جيد» تؤدي المعنى تمامًا، بل إنها أفضل لأنها تحمل المعنى المضاد تمامًا، بينما لا تؤديه الأخرى بالتمام نفسه. ثم أيضًا إذا أردت تعبيرًا أقوى لكلمة «جيد»، ما فائدة أن يكون لديك كل هذه السلسلة من الكلمات الغامضة غير المجدية مثل «ممتاز» و«رائع» وما شاكلها؟ ألا تغطي كلمة «جيد جدًا» المعنى، أو كلمة «جدًا جدًا» إذا كنت ترغب في معنى أقوى. من المؤكد أننا نستعمل هذه الصيغ، ولكن في الطبعة النهائية من قاموس اللغة الجديدة سوف لن تكون موجودة. وفي النهاية سيكون مفهومنا للجودة والرداءة محكومًا كلية بست كلمات فحسب – أو في الواقع بكلمة واحدة. ألا ترى ذلك أمرًا رائعًا يا "ونستون"؟ لقد كانت الفكرة في الأصل من بنات أفكار الأخ الكبير».

لاح شيءٌ من الحماس المفتعل على وجه "ونستون" لدى سماعه ذكر الأخ الكبير، إلا أن "سايم" استطاع رغم ذلك أن يتبين على الفور فتورًا في هذا الحماس.

وأردف قائلًا وعلى وجهه علائم الأسف:

- «يبدو أنك لا تقدر اللغة الجديدة حق قدرها يا "ونستون". حتى عندما تكتبها فإن تفكيرك يظل محكومًا باللغة القديمة. إنني أقرأ تلك الفقرات التي تكتبها من حينٍ لآخر في «التايمز». إنها جيدة نوعًا ما، غير أنها تظل أشبه بالترجمة. إنك في داخلك تميل إلى استخدام اللغة القديمة، رغم كل ما تحمله من غموض وظلال المعاني غير المجدية. أنت لا تدرك روعة تدمير الكلمات. هل تعرف أن اللغة الجديدة هي اللغة الوحيدة في العالم التي تتناقص مفرداتها عامًا بعد عام؟».

كان "ونستون" يعرف ذلك بالتأكيد.. فابتسم ولم يعلق، آملًا الحصول على بعض التعاطف، وخوف أن يخونه لسانه. قضم "سايم" كسرة أخرى من الخبز الأسمر ثم ابتلعها سريعًا وتابع قائلًا:

- «ألا ترى أن الغاية النهائية للغة الجديدة هي التضييق من آفاق التفكير؟ بحيث تصبح جريمة الفكر في نهاية المطاف جرمًا مستحيل الوقوع من الناحية النظرية، وذلك لأنه لن توجد كلمات يمكن للمرء من خلالها أن يرتكب هذه الجريمة. فكل مفهوم يحتاج إليه الناس سيتم التعبير عنه بكلمة واحدة محددة المعنى وغير قابلة للتأويل، أما معانيها الفرعية فيتم طمسها حتى تصبح على النسيان. إننا في الطبعة الحادية عشرة لن نكون بعيدين عن هذا الهدف. ولكن تلك العملية ستستمر على هذا المنوال إلى أمد، حتى بعد رحيلنا أنا وأنت عن هذا العالم. فالكلمات تتناقص عامًا بعد عام، كما يتضاءل مدى الوعي والإدراك شيئًا فشيئًا. بل وحتى في الوقت الراهن ليس هنالك سبب أو عذر يبرر اقتراف جريمة الفكر. لقد باتت المسألة مجرد انضباط ذاتي وضبط يفرضه المرء على واقعه، وفي النهاية لن تكون هنالك حاجة حتى لذلك. ستبلغ الثورة

أوجها حينما تكتمل اللغة ويتم إتقانها. إن (الانجسوك) هي اللغة الجديدة واللغة الجديدة هي (الانجسوك).

قال هذه العبارة وهو في غاية النشوة، ثم أردف:

- «هل خطر لك أبدًا يا "ونستون" أنه مع حلول عام 2050 على أقصى حد، لن يتبقى على وجه الأرض إنسان يمكنه فهم حديث كهذا الذي نتبادله معًا الآن؟».

وعلق "ونستون" قائلًا:

- «ولكن دعنا نستثني...».

قالها مرتابًا ولم يكملها.

لقد كان على وشك القول: «نستثني عامة الناس»، لكنه تدارك نفسه حينما استشعر أن هذه الملحوظة قد تؤول بطريقةٍ ما باعتبارها نقصًا في الولاء لديه.. ولكن" سايم" مع ذلك قد استشف ما كان يهم بقوله.

وقال غير عابئ:

- «إن أبناء عامة الناس ليسوا بشرًا. لكن مع حلول عام 2050 أو ربما قبل ذلك، سوف تكون المعرفة الحقيقية باللغة القديمة قد تلاشت، وسيكون كل التراث الأدبي القديم قد اندثر. وأما أعمال "تشوسر، وشكسبير، وملتون، وبايرون"، فلن يكون لها وجود إلا عبر تراجم اللغة الجديدة، ولن يقف التغيير الذي سيلحق بها عند مجرد جعلها تختلف عما كانت عليه، بل ستتحول إلى نقيض ما اعتاده الناس. وحتى أدبيات الحزب ستتغير، وشعاراته ستتبدل. إذ كيف يمكن أن تتبنى شعارًا مثل «الحرية هي العبودية»، فيما يكون مفهوم الحرية نفسه قد جرى نسفه؟ إن المناخ الفكري سيكون كله قد تغير. وفي الحقيقة لن يكون هنالك «تفكير» على النحو الذي نفهمه الآن، فالولاء يعني انعدام التفكير، بل انعدام الحاجة للتفكير. الولاء هو عدم الوعي».

وفجأة وبقناعة راسخة فكر "ونستون" أن "سايم" لابد وستتم تصفيته يومًا ما.. إنه متوقد الذكاء، إنه يرى ببصيرة نافذة ويتحدث بصراحة شديدة.. والحزب لا يرغب في وجود مثل هؤلاء، يومًا ما سيختفي من الوجود، ذلك ما أراه مكتوبًا على جبينه.

بعدما أنهى "ونستون" ما كان بين يديه من خبزٍ وجبن، استدار جانبًا وهو على كرسيه ليحتسي قهوته. وعلى الطاولة الواقعة عن يساره ما زال الرجل ذو الصوت الصاخب يتكلم دون رادع أو وازع. وكانت تجلس إلى جواره فتاة شابة، ربما تكون سكرتيرته، وظهرها إلى "ونستون"، كانت تصغي إليه ويبدو عليها أنها توافقه بحماس على كل ما يقوله.. وبين الفينة والأخرى كان "ونستون" يلتقط بعض ما تتلفظ به الفتاة من عباراتٍ مثل: «أعتقد أنك محق تمامًا، إنني أتفق معك كلية»، كانت تقولها بصوتٍ أنثوي سخيف وحي. لكن الصوت الآخر لم يتوقف عن الكلام ولو لحظة واحدة، حتى عندما كانت تتكلم الفتاة. كان "ونستون" يعرف هذا الرجل، لكنه لا يعرف عنه أكثر من أنه يشغل منصبًا هامًا في دائرة الإثارة.

كان يناهز الثلاثين من عمره، ذا رقبة قوية العضلات وفم واسع كثير الحركة. كان من عادته أن يلقي برأسه إلى الوراء قليلًا وهو يتحدث. وبسبب الزاوية التي يأخذها أثناء جلسته كانت النظارتان تلتقطان الضوء وتعكسانه شعاعًا باتجاه "ونستون" مما جعله يرى عينيه كأنهما مجرد عدستين. ولكن المزعج في الأمر أنه كان من المستحيل تقريبًا أن تميز كلمة واحدة من بين ذلك السيل من الكلمات المتدفقة من فمه. ومرة واحدة فقط تمكن "ونستون" من التقاط جملة: «إبادة تامة ونهائية لغولدشتاين». قيلت على نحوٍ سريع جدًا. وأما بقية كلامه فقد كان مجرد ضجيج وجعجعة. وبالرغم من أنك لم تكن تستطيع فعليًا أن تميز ما يقوله الرجل، فإنك لن تكون في ريبٍ من طبيعته العامة. ربما كان يهاجم "غولدشتاين" ويطالب باتخاذه إجراءات أكثر صرامة ضد مجرمي الفكر والمخربين، وربما كان يندد بالفظائع التي ارتكبها الجيش

الأوراسي، وربما كان يثني على الأخ الكبير أو المقاتلين الأبطال على جبهة (مالابار)، إذ ليس هنالك من فرق. وأيًا كان حديثه، فإن ما يمكن أن تكون على يقين منه هو أن كل كلمة من حديثه كانت تنبع من ولاء خالص لمبادئ (الانجسوك) الصحيحة. وفيما كان "ونستون" يراقب ذلك الوجه الخالي من العينين، والفكين المتحركين إلى أسفل وأعلى، أحس "ونستون" شعورًا غريبًا وهو أن هذا الذي يراه ليس إنسانًا حقيقيًا وإنما نوعًا من الدمية؛ إذ لم يكن عقله هو الذي يتكلم، بل حنجرته، ولم يكن ما ينطق به حديثًا بالمعنى الحقيقي، بل ألفاظًا معزولة وصخبًا يصدر عن حالة من اللاوعي وأشبه بصوت بطة.

خيم الصمت على سايم لحظة من الزمن، وبملعقته كان يتتبع البقايا الموجودة في طبق الحساء، فيما واصل الصوت القادم من الطاولة الأخرى الجعجعة بسرعة، وكان يسمعه "ونستون" بسهولة رغم كل الضجيج الذي تعج به القاعة.

وهنا تدخل "ونستون" قائلًا:

- «هناك كلمة في اللغة الجديدة لا أدري ما إذا كانت تعرفها، إنها «يوقوق» أي يجعجع مثل البطة. إنها واحدة من هاتيك الكلمات المثيرة التي تحمل معنيين متناقضين، فإن نُعت بها خصمًا فهي سباب، وإن نُعت بها شخصًا تتوافق معه فهي ثناء».

وجال في خاطر "ونستون" مرة ثانية أن "سايم" ستتم تصفيته.. خامرته هذه الفكرة وشعر بالحزن مع أنه كان يعرف أن "سايم" يزدريه ويكرهه نوعًا ما، ولديه القدرة على الوشاية به بتهمة «جريمة فكرة» إذا رأى دافعًا لذلك. كان لدى "سايم" بعض المثالب. لقد كان يفتقر لخصال الحذر والتحفظ، ويفتقر أيضًا إلى بعض الغباء الذي يحفظ حياة صاحبه. ولا يمكنك القول بأن "سايم" لم يكن صادق الولاء. فقد كان يؤمن بمبادئ (الانجسوك)، ويبجل الأخ الكبير، ويهلل للانتصارات، ويكره المنشقين عن الحزب، ليس

بإخلاصٍ عادي فحسب، بل بحماسٍ شديد، وكان يحرص على الاطلاع على أحدث المعلومات التي لم يكن عضو الحزب العادي يلتفت إليها. بيد أن سمعته كانت تحوم حولها الشكوك؛ فقد كان يقول أشياء يحسن به ألا يقولها، وقرأ كتبًا كثيرة للغاية، وكان يرتاد مقهى شجرة الكستناء، منتدى الرسامين والموسيقيين. لم يكن ثمة قانون مكتوب أو حتى غير مكتوب يحظر التردد على هذا المقهى، ومع ذلك كان مكانًا لا يستساغ الذهاب إليه. لقد كان يلتقي فيه قادة الحزب القدامى الذين تم تشويه سيرتهم قبل أن تتم تصفيتهم أخيرًا. ويقال إن "غولدشتاين" نفسه كان يرى هناك منذ سنين أو عقود. لم يكن التنبؤ بالمصير الذي سيؤول إليه "سايم" أمرًا صعبًا. ومع ذلك كان من الثابت أن "سايم" لو لمح شيئًا عن طبيعة ما يضمره "ونستون" من آراء، فإنه لم يكن ليتردد لحظة عن الوشاية به إلى شرطة الفكر. وكذلك سيفعل أي شخص آخر في موقفه، لكن "سايم" كان أكثر حماسًا للحزب، والحماس وحده لا يكفي، والولاء المطلق يعني انعدام الوعي.

تطلع "سايم" وقال:

- «ها هو ذا بارسونز قادمًا».

وكان يبدو من لهجته وكأنه يود أن يضيف «الأحمق بارسونز». كان "بارسونز"، جار "ونستون" في بنايات النصر، يشق طريقه عبر القاعة. إنه رجلٌ بدين، قصير، متوسط الحجم ذو شعرٍ أشقر ووجهٍ كوجه الضفدعة. كان جسمه يحمل المزيد من الشحوم في رقبته وخاصرته، إلا أنه ظل نشيطًا كصبيٍ كثير الحركة.

مظهره كله عبارة عن مظهر فتى صغير نما بسرعة وكبر، بحيث إنه رغم ارتدائه زي العمل المعتاد ما كان بوسعك أن تفكر فيه إلا وكأنه يرتدي السروال الأزرق والقميص الرمادي ورباط العنق الأحمر، كأحد أعضاء اتحاد الجواسيس. ولدى رؤيته يرى المرء دائمًا صورة ركبتين مجوفتين وكمين يتدليان من ساعدين قصيرين ممتلئين. كان "بارسونز" يعود لارتداء السروال

القصير دائمًا كلما خرج في نزهة جماعية أو أي أنشطة بدنية أخرى تبرر له ذلك. تقدم نحوهما وحياهما مبتهجًا ثم جلس إلى الطاولة تفوح منه رائحة عرق كثيفة، وتغطي وجهه القرمزي حبات من الرطوبة. في «المركز الاجتماعي» كان بوسعك أن تخمن أن "بارسونز" يلعب كرة تنس الطاولة بمجرد إمساكك بيد المضرب التي رطبها عرقه. أخرج "سايم" من جيبه ورقة تحوي قائمة طويلة من الكلمات التي يدققها وقلمه الجاف بين إصبعيه.

وقد علق "بارسونز" على ذلك غامزًا "ونستون":

- «انظر إليه، إنه يدرس حتى في استراحة الغداء، أي حرص هذا؟ ماذا هناك أيها الصبي العجوز؟ شيءٌ ما يصعب عليّ فهمه، على ما أعتقد».

ثم قال لـ "ونستون":

- «أيها الصبي العجوز، هل تدري لماذا ألاحقك؟ إنه التبرع الذي نسيت أن تعطيني إياه».

ورد عليه "ونستون" متسائلًا:

- «لأي شيء هذا التبرع؟».

قالها وهو يتحسس ما لديه من مالٍ في جيبه.. إن ربع الراتب يجب اقتطاعه لسداد التبرعات التي يعجز المرء عن إحصائها.

فأجابه "بارسونز":

- «تبرع.. «لأسبوع الكراهية». لعلك سمعت بصندوق البيوت، إنني أمين صندوق بنايتنا. إننا نبذل جهودًا جبارة لجمع المال من أجل إقامة عرض هائل. أود أن تعلم أنه لن يكون خطئي، إذا لم تظهر بنايات النصر بالمظهر اللائق ولم يعلق عليه أكبر عدد من الأعلام في الشارع كله، من فضلك دولارين».

مد "ونستون" يده إلى جيبه وأخرج دولارين مجعدين ومتسخين، قام "بارسونز" بتسجيلهما في دفتر صغير كُتب عليه بذلك الخط المنمق الذي يكتبه نصف الأمي.

وأردف قائلًا:

- «بالمناسبة أيها الصبي العجوز، لقد علمت أن ولدي المشاغب قد قذفك أمس بمقلاعه الصغير؛ لقد عنفته وعاقبته على تلك الفعلة، وأكدت له أنني سأصادر المقلاع منه إذا عاد لمثل ذلك».

قال "ونستون":

- «أظن أنه كان مستاءً لعدم ذهابه لمشاهدة حفلة الشنق».

فرد "بارسونز":

- «ذلك صحيح، ولكنهما في ذلك يظهران ما لديهما من روحٍ عالية، أليس كذلك؟ يا لهم من صغارٍ ملاعين، لكنها قوة الاندفاع، فكل ما يشغلهما هو الجواسيس والحرب. هل تعرف ماذا فعلت ابنتي الصغيرة السبت الماضي حينما خرجت في رحلة مع مجموعتها على طريق بيركهامستد؟ لقد اصطحبت معها فتاتين صغيرتين وانسللن عن مجموعتين وأمضين كل فترة الظهيرة في تعقب رجلٍ غريب.. لقد ظللن يقتفين آثاره لساعتين عبر الغابة، وعندما وصلن إلى قرية «أميرشم» سلمنه لإحدى الدوريات».

سأل "ونستون" مشدوهًا:

- «ولكن ما الذي دعاهن لذلك؟».

فتابع "بارسونز" حديثه معتزًا وقد أخذته النشوة:

- «لقد تحققت ابنتي من أنه عميلٌ للأعداء ربما أنزلته طوافة. والنقطة اللافتة للانتباه أيها الصبي العجوز، هي ما الذي جعلها تشكك فيه من البداية؟ لقد لاحظت أنه يلبس نوعًا غريبًا

من الأحذية، لم تر أحدًا يلبس مثلها من قبل.. ومن هنا جاء ظنها بأنه أجنبي. إنها ملاحظة ذكية من صغيرة مثلها في السابعة من عمرها، أليس كذلك؟».

قال "ونستون":

- «وماذا حدث للرجل؟».
- «هذا ما لا أعرفه على وجه التأكيد، ولكنني لن أستغرب إطلاقًا إذا...».

وهنا أكمل "بارسونز" بالإشارة جاعلًا أصابعه على شكل مسدس، ثم طقطق بلسانه مقلدًا صوت الرصاص:

- «حسنًا».

علق "ونستون" دون أن يرفع نظره من على الورقة التي بين يديه.

ثم أكمل "ونستون" بنوعٍ من الشعور بالواجب:

- «من المؤكد أننا لا يمكننا الدخول في مخاطرات».

قال "بارسونز":

- «إننا في حالة حرب».

وكما لو أنه تأكيد لحالة الحرب، انبعث نفير بوق من شاشة الرصد التي فوق رؤوسهم مباشرة، غير أنه لم يكن إعلانًا عن انتصارٍ عسكري هذه المرة، بل مجرد بيان من (وزارة الوفرة).

وصاح صوتٌ شبابي متحمس:

«أيها الرفاق، انتبهوا، وردتنا أنباءٌ رائعة لكم. لقد انتصرنا في معركة الإنتاج.. فتقارير الإنتاج التي استكملت الآن لكافة السلع الاستهلاكية تظهر أن مستوى المعيشة قد ارتفع بما لا يقل عن 20% عما كان عليه في العام الماضي. وقد عمت أرجاء البلاد مسيرات عارمة وعفوية هذا الصباح في كل «أوقيانيا»، حيث انطلق العمال من مصانعهم ودوائر عملهم وساروا في الشوارع حاملين الرايات، وهاتفين بحياة الأخ الكبير امتنانًا له على الحياة

الجديدة السعيدة التي وهبهم إياها بفضل قيادته الحكيمة، وفيما يلي بعض هذه الأرقام: المواد الغذائية...».

كانت عبارة «الحياة السعيدة» من العبارات التي تتردد كثيرًا، حيث باتت مؤخرًا من العبارات المحبذة لدى وزارة الوفرة. جلس "بارسونز"، وقد شد انتباهه صوت البوق، مصغيًا وقد ارتسمت على وجهه علائم الجدية المشدوهة والسأم المتعالي. لم يستطع متابعة الأرقام، لكنه كان يدرك أنها تبعث على الرضا، وأخرج من جيبه غليونًا كبيرًا وسخًا كان محشوًا حتى نصفه بالتبغ المفحم؛ فمع تخفيض حصة الفرد من التبغ إلى مائة غرام في الأسبوع، بات من الصعب أن تملأ غليونك حتى حافته. أما "ونستون" فكان يدخن سيجارة النصر التي يمسكها بحذر في وضع أفقي لئلا يتناثر تبغها.. والحصة الجديدة من السجائر لن يشرع في توزيعها إلا صباح غد، وهو لم يعد لديه سوى أربع سجائر. في هذه اللحظة سد أذنيه عن الضجيج الآتي من بعد وأرهف السمع إلى ما تذيعه شاشة الرصد عن مسيرات شكر لل «أخ الكبير» على رفعه حصة الشوكولاتة إلى عشرين غرامًا في الأسبوع. فحدث نفسه: كيف ذلك؟ لم يكن قد مر سوى يومٌ واحد على نبأ تخفيضها إلى عشرين غرامًا أسبوعيًا.. فهل يمكن أن يكون الناس قد تناسوا ذلك وابتلعوه في أربع وعشرين ساعة فقط؟ أجل، لقد تناسوا. لقد تناسى "بارسونز" ذلك الكذب بسهولة وابتلعه بغباء الحيوان. أما ذلك المخلوق الذي لا عينان له والجالس إلى الطاولة الأخرى فقد ابتلعه بحماس وتعصب، ورغبة متقدة في تعقب كل من تسول له نفسه أن يشير إلى أن الحصة كانت ثلاثين غرامًا في الأسبوع الماضي لأجل الوشاية به وتصفيته. بل إن "سايم" نفسه، ولكن بطريقة أكثر تعقيدًا تنطوي على شيءٍ من التفكير المزدوج، ابتلعه هو أيضًا. فهل أنا الوحيد الذي ما زلت أحتفظ بذاكرتي؟

واصلت الإحصائيات الوهمية تدفقها من شاشة الرصد.. فمقارنة بإحصائيات العام المنصرم، هنالك ازدياد في الغذاء والملابس والبيوت

والأثاث وأواني الطهي والوقود والسفن والطائرات والكتب والمواليد، ازدياد في كل شيء ما عدا المرض والجريمة والجنون. وسنة بعد سنة ودقيقة بعد دقيقة، كان كل شيء وكل إنسان آخذ في الصعود بسرعة مطردة.

على غرار ما فعل "سايم" قبل قليل، أمسك "ونستون" بملعقته وغمسها في المرق الأصفر ثم رفعها إلى فمه راسمًا خطًا طويلًا من المرق على الطاولة. وتمعن باستياءٍ في الحياة التي يحياها. وتساءل أهكذا كانت الحياة دائمًا؟ هل كان مذاق الطعام رديئًا كما هو الآن؟ وألقى نظرة حوله في المطعم فوجد قاعة مزدحمة، سقفها منخفض، وقد اكتست جدرانها بالسخام من أثر أيادٍ وأجسامٍ لا تُحصى، وامتلأت بكراسٍ وطاولات معدنية مهشمة وُضعت بشكلٍ متلاصق، بحيث تتصادم أكواع الجالسين أثناء الطعام. كما رأى ملاعق مثنية وصواني منبعجة وأباريق خشنة بيضاء. كانت كل السطوح ذات ملمس لزج من أثر الشحوم، فالوسخ يتخلل ما بها من تشققات، كما كانت تفوح من القاعة رائحة حمضية تنبعث من الخمرة والقهوة الرديئتين ومن الملابس المتسخة. كان المرء يحس دائمًا بأصوات احتجاج تنبعث من معدته ومن تحت جلده، ويشعر بأنه قد سُلب شيئًا كان من حقه الحصول عليه. صحيح أنه لا يذكر أن الأحوال كانت تختلف عن ذلك كثيرًا، فكل ما يمكنه تذكره بصورة واضحة هو أن النقص في الطعام كان دائمًا. لم يكن يوجد جوارب أو ملابس داخلية ليست مليئة بالرتوق. والأثاث كان دائمًا مهشمًا عتيقًا، والغرف بلا تدفئة، وقطارات الأنفاق مزدحمة، والبيوت متداعية آيلة للسقوط. لقد بات الخبز أسود اللون، والشاي نادر الوجود، والقهوة متعفنة، والسجائر غير كافية. ولم يكن من شيء وفير ورخيص سوى الخمر المصنعة كيماويًا. لئن كانت الأوضاع تسير من سيئ إلى أسوا مع تقدمه في السن، فهل كانت هنالك دلائل تشير إلى أن ذلك لم يكن الوضع الطبيعي للأمور؟ فإذا كان قلب المرء يتألم لوجود كل هذه المنغصات: شتاءات طويلة، وقذارة جوارب، ومصاعد معطلة دائمًا، وماء بارد، وصابون خشن، وسجائر

تتفتت، وطعامٌ رديء ذو مذاقٍ غريب... هل كان المرء يضيق ذرعًا بتلك الأوضاع التي لا تُطاق لو لم تكن لديه ذاكرةٌ ما توحي إليه بأن الأمور كانت تختلف عما هي عليه الآن؟

ألقى نظرة أخرى حوله في المطعم، فبدا له أن كل الأشخاص كانوا قبيحي الشكل، وأن هذا القبح لن يزول حتى لو ارتدوا ملابس أخرى وخلعوا الزي الأزرق المعهود. في الجانب الأبعد من القاعة كان رجل ضئيل الجسم مثير للاستغراب يشبه الخنفساء، يجلس إلى طاولة بمفرده ويحتسي فنجانًا من القهوة، وعيناه الصغيرتان ترسلان نظرات مرتابة من جهة لأخرى. وجال بخاطر "ونستون" لو أن النموذج الجسدي الذي حدده الحزب هو النموذج المثالي، حيث يكون الفتيان يافعين ومفتولي العضلات، وتكون الفتيات العذارى مكتنزات الصدور وشقراوات الشعر ومفعمات بالحيوية، وقد أكسبتهن الشمس سمرة وأصبحن متحررات من القلق. أما في الواقع وبقدر ما يستطيع أن يحكم، فإن غالبية الناس في القطاع الهوائي رقم واحد كانوا ضئيلي الأجسام وذوي بشرة سمراء وقبيحي الشكل. وكان مما يبعث على الاستغراب، الكيفية التي تمكن من خلالها ذلك النمط الخنفسائي الشكل من النفاد إلى الوزارات.. حيث ترى فيها رجالًا قصار، سمانًا يسمنون في وقتٍ مبكرٍ جدًا، ذوي سيقانٍ قصيرة وحركاتٍ سريعة زاحفة، ووجوه ممتلئة وأعين صغيرة للغاية. إنه النمط الذي يزدهر بصورة أفضل في ظل هيمنة الحزب.

اختتم بيان وزارة الوفرة ببوقٍ آخر وحلت محله موسيقى خفيفة. وأخرج "بارسونز"، وقد أثاره هول أرقام الإنجازات وحرك فيه حماسه الفاتر، أخرج غليونه من فمه. وقال وهو يهز رأسه هزة العارف:

- «من المؤكد أن وزارة الوفرة قد أبلت بلاءً حسنًا هذه السنة، بالمناسبة أيها الصبي العجوز، هل لديك شفرات حلاقة يمكنك أن تعطيني واحدة منها؟».

أجاب "ونستون":

- «لا، ولا واحدة، إنني استعمل الشفرة نفسها منذ ستة أسابيع، آسف».

وعاد من جديد ذلك الصوت المجعجع الآتي من الطاولة المجاورة بعدما كان توقف مؤقتًا أثناء إذاعة بيان الوزارة. ولسببٍ ما وجد "ونستون" نفسه يفكر في مسز "بارسونز"، بشعرها الملفوف وبالغبار الذي يتخلل تغضنات وجهها. أظن أنه في غضون عامين سيشي بها أطفالها إلى شرطة الفكر. وبعدئذ سيتم تصفيتها، كما ستتم تصفية "سايم، وونستون، و"أوبراين"». أما "بارسونز" فلن يحدث له شيءٌ من ذلك أبدًا. كما أن ذلك المخلوق الذي بلا عينين وصاحب الصوت المجعجع لن تتم تصفيته، وكذلك لن تتم تصفية هؤلاء الرجال القصار شبيهي الخنافس، الذين يتحركون داخل الردهات الملتوية في الوزارات. وأيضًا تلك الفتاة ذات الشعر الأسود التي تعمل في دائرة الإثارة، لن تتم تصفيتها. بدا له أنه يعرف بالفطرة من سيبقى ومن سيفنى بالرغم من أنه لم يكن من السهل التكهن بمن سيقدر له البقاء.

في هذه اللحظة أفاق من تأملاته بهزةٍ عنيفة. فالفتاة الجالسة إلى الطاولة المجاورة التفتت نصف التفاتة وهي تتطلع إليه، وكانت هي نفسها الفتاة ذات الشعر الأسود. كانت تنظر إليه بطرف عينيها ولكن بتركيزٍ مستغرب.. وكلما التقت عيناها بعينيه كانت تحيد بطرفها عنه.

أحس "ونستون" إذ ذاك بالعرق يتصبب من عموده الفقري. وسرت في أوصاله نوبة فزع شديدة. ومع أن هذه النوبة قد تلاشت سريعًا، لكنها خلفت لديه شعورًا بعدم الارتياح. وتساءل، تُرى ما الذي يجعلها تراقبه؟ ولماذا تتبعه إلى كل مكان؟ ولسوء حظه لم يستطع أن يتذكر ما إذا كانت جالسة على هذا المقعد قبل مجيئه، أم أنها قد جاءت لاحقًا. ولكنها كانت، بالأمس، تجلس وراءه مباشرة أثناء «دقيقتي الكراهية» بينما لم يكن ثمة حاجة واضحة تدعوها لذلك. من المرجح تمامًا أن هدفها الحقيقي هو الإصغاء إليه والتأكد من أنه يهتف بصوتٍ عالٍ.

وعاودته فكرته السابقة، فقد لا تكون عضوًا في شرطة الفكرة، وفي هذه الحالة من المؤكد أنها من الجواسيس وهم الأشد خطرًا على الإطلاق. لم يكن يعلم منذ متى وهي تتطلع إليه، لكن ربما كان ذلك لما يروب على الخمس دقائق. ومن الممكن أن تكون قد فضحته ملامح وجهه.. إنه لخطرٌ جسيم أن تدع أفكارك تجري على عواهنها حينما تكون في مكانٍ عام أو ضمن مدى شاشة الرصد. فأهون الأشياء يمكن أن تؤدي بك حتى لو كانت حركة عصبية صغيرة أو نظرة قلق لا إرادية أو همهمة اعتادها المرء، أو أي شيء يوحي بنقصٍ في الولاء. وفي كل الأحوال فإن ظهور تعبير انفعالي غير لائق على وجهك (كأن تبدو عليك علامات الارتياب حينما يتم الإعلان عن أحد الانتصارات) هو مخالفة تستوجب عقابًا، بل لقد اشتق لذلك اسم في اللغة الجديدة: «جريمة الوجه».

عادت الفتاة وأدارت له ظهرها. ففكر ربما أنها لم تكن تلاحقه، وربما كان جلوسها خلفه أو قريبًا منه خلال هذين اليومين محض مصادفة. انطفأت سيجارته، فوضعها بعناية على طرف الطاولة، لعله يعاود تدخينها بعد انتهاء العمل إذا لم يتناثر تبغها. قد يكون الشخص الجالس إلى الطاولة المجاورة جاسوسًا لشرطة الفكر، وربما سيجد نفسه في غضون ثلاثة أيام نزيل إحدى زنزانات وزارة المحبة، لكن عقب السيجارة يجب ألا يذهب هدرًا. طوى "سايم" شريط الورق ووضعه في جيبه بينما بدأ "بارسونز" يتكلم ثانية..

- «هل سبق لي أن أخبرتك أيها الصبي العجوز».

قالها "بارسونز" مبتسمًا وهو يمسك بغليونه:

- «عما فعله الصغيران الشقيان، حينما قاما بإشعال النار في تنورة بائعة عجوز في السوق عندما رأياها تلف بعض النقانق بصورة الأخ الكبير؟ لقد تسللوا خلفها وأشعلوا في تنورتها النار مستخدمين علبة ثقاب. أعتقد أن التنورة قد تضررت كثيرًا من ذلك. آه من هذين الشقيين، إنهما ممتلئان حماسة. لا شك أن

التدريب الأولي الذي يتلقونه في منظمة الجواسيس هذه الأيام، وهو أفضل من ذاك الذي كنا نتلقاه نحن في أيامنا. هل تعرف ما الذي تم تزويدهم به مؤخرًا؟ سماعات بوقية للأذن يتنصتون بها من ثقوب مفاتيح الأبواب. لقد أحضرت ابنتي الصغيرة واحدة منها أمس وجربتها على باب غرفة الجلوس، ورأت أنها تستطيع بواسطتها أن تسترق السمع ضعفي ما تسترقه بوضع أذنها على ثقب المفتاح.. من المؤكد أن ذلك مجرد لعبة. لكن ألا تظن أن ذلك سيوحي لهم بأفكار مناسبة؟

في هذه اللحظة أطلقت شاشة الرصد صفرة عالية إيذانًا بالعودة للعمل. فهب الرجال الثلاثة من فورهم وانطلقوا يشقون طريقهم وسط الزحام الزاحف بحثًا عن مصعدٍ غير معطل، في حين كان ما تبقى من تبغ في سيجارة "ونستون" يتناثر على الأرض.

الفصل السادس

كتب وستون في مذكراته:

" حدث ذلك منذ ثلاث سنوات، وكان الوقت مساءً وقد خيم الظلام، وفي إحدى الشوارع الضيقة بجوار إحدى محطات القطار الكبيرة، عند حائطٍ إلى جانب باب، وتحت ضوء قنديل ينبعث منه نور ضئيل، كانت تقف امرأة ذات وجهٍ صغير وضعت عليه طلاءً كثيفًا من النوع الذي يعجبني في بياضه الذي يشبه القناع، وشفتان حمراوان لامعتان – فنساء الحزب لا يطلين وجوههن أبدًا – وكانت الشوارع حينها خالية من الناس ومن شاشات الرصد أيضًا، مدت المرأة يدها وقالت:

- «دولاران..».

توقف "ونستون" قليلًا، فقد صعب عليه بواسطة الكتابة.. أطبق جفنيه وضغط عليهما بأصابعه محاولًا أن يمحو ذلك المنظر الذي ظل مطبوعًا في مخيلته. وطغت عليه رغبة جامحة في أن يصيح بأعلى صوته متفوهًا بكلامٍ بذيء، أو أن يضرب رأسه بالحائط، ويركل الطاولة ويلقي بالمحبرة خارج النافذة... أو أن يأتي بأي عملٍ من شأنه أن يولد عنفًا، أو يحدث ضوضاء أو يسبب ألمًا، عسى أن يطمس ذلك تلك الذكرى التي كانت تؤلمه.

ثم أخذ يردد بينه وبين نفسه: «إن ألد أعدائك هو جهازك العصبي، وما يعتمل في نفسك من توتر قد يورطك في عملٍ لا تحمد عقباه».

ثم أخذ يردد بينه وبين نفسه: «جهازك العصبي هو ألد أعدائك، وقد يؤدي توترك هذا إلى ما لا يحمد عقباه». تذكر رجلًا مر به في الشارع من عدة أسابيع، كان مظهره عاديًا جدًا عضوًا في الحزب في الخامسة والثلاثين أو الأربعين من عمره، طويل القامة، نحيل الجسم يحمل حقيبة صغيرة، لم يفصل بينهما سوى بضعة أمتار، وعندما رأى الجانب الأيسر من وجه الرجل يتشنج وينقبض على نحوٍ مفاجئ، وتكرر ذلك مرة أخرى عندما مر كل منهما

بالآخر، كانت مجرد رجفة أو ارتعاشة سريعة تشبه حركة مغلاق الكاميرا، وكان من الواضح أن تلك الحركة عادة عنده. خطر في باله حينها أن ذلك الرجل المسكين قد انتهى أمره، فالمخيف في الأمر هو أن تلك الحركة يمكن أن تكون مجرد حركة لا إرادية. أما الأكثر خطرًا من ذلك هو أن يتكلم المرء أثناء نومه، ما من وسيلةٍ للاحتياط في تلك الحالة.

استجمع شجاعته ثم عاد إلى الكتابة:

«مضيت معها عبر البوابة.. ثم اجتزنا الساحة الخلفية إلى مطبخٍ في قبو، حيث كان هنالك سريرٌ قرب الحائط، وعلى الطاولة قنديلٌ خفض نوره إلى أدنى درجة وهي...».

ضغط علي أسنانه، وتمنى أن يستطيع أن يبصق، وفي تلك اللحظة وهو مع المرأة في المطبخ، تذكر زوجته "كاثرين"، لقد كان "ونستون" متزوجًا في وقتٍ ما، وربما يكون لا يزال متزوجًا حتى الآن، فعلى حد علمه أن زوجته لم تمت بعد، بدأ يشم من جديد رائحة الطعام الساخنة المنبعثة من المطبخ، رائحة تختلط فيها رائحة البق القذرة، ورائحة الملابس القذرة والعطر الرديء، ومع ذلك كان مغريًا، فلا يوجد امرأه مطلقًا في الحزب تستخدم العطر، وحتى لم يكن ممكنًا تصور أنها تفعل ذلك، بل كان هذا السلوك مقتصرًا على عامة الناس، بل كانت رائحة العطر مرتبطة في ذهنه بالجنس ارتباطًا وثيقًا، دون أن يعرف سببًا لذلك.

كانت ممارسة الجنس مع تلك المرأة هي هفوته الأولى منذ سنتين أو أكثر.. فمن المؤكد أن مجامعة المومسات كانت من المحظورات، لكنها كانت من المحظورات التي قد يستطيع المرء مخالفتها من حينٍ لآخر، إنها مغامرة محفوفة بالمخاطر، لكنها ليست مسألة حياة أو موت، فإذا ما تم القبض على شخصٍ مع واحدة منهن، فيحكم عليه بخمس سنوات فقط من الأشغال الشاقة، هذا إن لم يكن مُدانًا بجرمٍ آخر، فليس شيئًا صعبًا بشرط ألا يتم القبض عليك متلبسًا بهذا الجرم، كانت أحياء الفقراء ممتلئة بنساءٍ على

استعدادٍ أن يبعن أنفسهن، فكان يمكن شراء إحداهن بزجاجةٍ من الخمر المحظور على عامة الناس، فلقد كان الحزب يشجع الدعارة بشكلٍ غير معلنٍ لأنها متنفس الغرائز التي لا سبيل لكبتها نهائيًا، لم يكن الحزب يعير للدعارة أي اهتمام، طالما تجري مع نساء من الطبقة المحتقرة المسحوقة في الخفاء، ومجردة من أي شعورٍ حقيقي باللذة، بل الجريمة التي لا تُغتفر فهي ممارستها بين أعضاء الحزب.. بالرغم من أن المتهمين في حملات التطهير كانوا مُجبرين دون استثناء على الاعتراف بجرائمٍ من هذا النوع، إلا أن تصوّر أن الأمر قد حدث فعلًا كان أمرًا صعبًا.

لم يكن هدف الحزب مجرد منع الرجال والنساء من تكوين ولاءات فيما بينهم، قد يتعذر السيطرة عليها. لقد كان هدفه الحقيقي غير المعلن هو تجريد العملية الجنسية من كل لذة. إذ ليس الحب هو العدو بقدر ما هي الشهوانية، سواء كانت في إطار الزواج أو خارجه. وكل الزيجات بين أعضاء الحزب كان يجب لكي تتم أن تحصل على موافقة لجنة تشكلت خصيصًا لهذا الغرض. وبالرغم من أنه لم ينص صراحة على ذلك المبدأ أبدًا، فإن الإذن بالزواج كان يحجب دائمًا، إذا ما أظهر الشخصان المعنيان أي ميولٍ جنسية متبادلة فيما بينهما. فالغاية الوحيدة المعترف بها للزواج هي إنجاب الأطفال لخدمة الحزب. وكان ينظر إلى العملية الجنسية على أنها عملية تافهة تدعو للاشمئزاز والتقزز، تمامًا كتعاطي حقنة شرجية. ولم يكن يعبر عن ذلك بكلماتٍ صريحة، وإنما بطريقةٍ غير مباشرة حيث كان ذلك يغرس في كل عضو في الحزب منذ طفولته المبكرة. ولذلك أيضًا أُنشِئَت منظمات مثل رابطة الشباب المناهض للغريزة الجنسية، التي كانت تدعو للعزوبة الكاملة لكلا الجنسين.. فكل الأطفال يجب إنجابهم عبر التلقيح الصناعي، وتسمى هذه العملية في اللغة الجديدة (أرتسيم)، على أن يعهد بهم بعد ذلك لمعاهد عامة.

كان "ونستون" يدرك تمامًا أن هذا لم يكن مقصودًا بشكلٍ جَدي وكُلي، لكنه يتماشى مع أيدولوجية الحزب الذي كان يحاول وأد الغريزة الجنسية،

وإن تعذر ذلك فتشويهها وتحقيرها، ولكنه لم يعلم لماذا كل ذلك، ولكن بدا له أمرًا طبيعيًا أن يكون الأمر كذلك، وبقدر ما كان الأمر متعلقًا بالنساء، فإن جهود الحزب كانت ناجحة إلى حدٍ كبير.

تذكر "كاثرين" مرة أخرى، فقد مرت تسع أو عشر سنوات منذ انفصالهما، أو ربما إحدى عشرة سنة، وتعجب من أنها لا تخطر على باله إلا نادرًا، فكانت تمر عليه أيامٌ كثيرة متواصلة ينسى فيها تمامًا أنه كان متزوجًا ذات يوم، لم يبق معها سوى خمسة عشر شهر، فلم يكن الحزب يسمح بالطلاق، لكنه كان يشجع على الانفصال في حالة عدم الإنجاب.

كانت "كاترين" فتاة طويلة القامة، ناعمة الشعر، هيفاء القد، رشيقة الحركة، ذات وجهٍ لا يتأثر بشيء، وأنف معقوف، كان وجهها يوحي بالنبل لأول وهلة، لكن إذا حدقت فيه لا تجد شيئًا.. بعيد زواجه بها ومعرفتها عن قرب، وأدرك أن عقلها هو الأكثر بلادة وجهلًا وتفاهة إلى حدٍ لم يعرف له مثيل. فلم يكن في عقلها سوى الشعارات، ما من حماقة واحدة على الإطلاق ليست بقادرة على ابتلاعها ما دام الحزب هو الذي يقدمها.

«الكاسيت البشري» هكذا كان يلقبها بينه وبين نفسه. ومع ذلك كان بمقدوره أن يتجشم العيش معها لولا علة واحدة هي الجنس.

كان يُخيل إليه أنها تفزع منه ويتيبس جسدها كلما اقترب منها، فإذا احتضنها فكأنما يحتضن تمثالًا خشبيًا شُد بمفاصل. والغريب أنه كان يشعر وهي تشده إليها، أنها تدفعه بعيدًا عنها في الوقت نفسه بكل قوتها، وكانت صلابة عضلاتها تساعد على نقل ذلك الانطباع إليه. وأخيرًا تستلقي مغمضة العينين فلا تقاوم ولا تتجاوب، بل تستسلم.. وهو الأمر الذي كان في أوله مربكًا له بشدة، ثم تحول بعد فترة إلى شيءٍ فظيع، لو أنها فضت العزوف عن الجنس، لكان "ونستون" رضي بنصيبه وتحمل العيش معها، لكن العجيب أن "كاترين" هي التي رفضت ذلك بنفسها متعللة بالرغبة في إنجاب طفل إذا استطاعا لذلك سبيلًا. ومن ثم استمرت العملية تتكرر بانتظام مرة كل

أسبوع كلما كان ذلك ممكنًا، كما أنها اعتادت أن تذكره بها في الصباح كشيءٍ يتعين القيام به في المساء ولا يجوز نسيانه. وكانت تطلق على هذه العملية اسمين: أولهما «صناعة طفل»، والثاني «واجبنا تجاه الحزب»، وإنه لحق أنها استعملت هاتين العبارتين. وسرعان ما بات ينتابه شعورٌ بالرعب الشديد كلما حان الوقت المضروب لذلك. لكن من حسن الحظ لم تثمر علاقتهما طفلًا، ولذا فقد كفت عن المحاولة، وسرعان ما انفصلا بعد ذلك.

تنهد "ونستون" على الفراش.. وفي الحال وبدون أي نوع من المداعبات وبطريقة في منتهى اللامبالاة والخشونة رفعت تنورتها. وأنا...

ووجد نفسه واقفًا هناك في ضوء المصباح الخافت وقد امتلأت خياشيمه برائحة البق والعطر الرديء، وفي قلبه شعورٌ بالفتور والانهزام، ممزوجًا بالتفكير في جسد "كاترين" الأبيض، الذي تجمد إلى الأبد تحت تأثير قوة الحزب المخدرة. لماذا يجب أن يكون الأمر بهذا الشكل دائمًا؟ لماذا لا تكون له امرأته هو بدلًا من هذه «النزوات» القذرة كل بضع سنين؟ لقد كان وجود علاقة حب حقيقية أمرًا لا يمكن أن يخطر ع البال، فقد كانت نساء الحزب متشابهات وكانت العفة مغروسة فيهن كولائهن للحزب. فمن خلال إعدادهن في عمرٍ مبكر، وممارسة الرياضة واستخدام المياه الباردة والتفاهات التي كانت تُغرس في عقولهن في المدارس، وفي رابطة الجواسيس ورابطة الشباب، والمحاضرات والعروض والأناشيد والشعارات والموسيقى العسكرية، كل هذا كان له تأثير في انتزاع الأحاسيس الطبيعية منهن تمامًا. كان المنطق يقول إن هناك استثناءات لذلك، لكن قلبه لم يصدق ذلك، فجميع نساء الحزب محصنات كما أراد الحزب لهن. فكان كل ما يريده هو إزالة حصن الفضيلة ولو لمرة واحدة في حياته، ولأن ممارسة الجنس على طبيعتها أصبحت عصيانًا، فمجرد الرغبة الجنسية تصبح جريمة فكر، وحتى إذا تمكن من ايقاظ رغبة "كاترين" من سُباتها العاطفي لكان هذا إغواءٌ لها رغم أنها زوجته.

وإن كان لابد من كتابة القصة فقد أخذ القلم وكتب:

«رفعت فتيلة المصباح لمزيدٍ من النور. وعندما رأيتها في الضوء...

فبسبب الظلام الدامس أصبح ضوء المصباح شديد السطوع.. لقد استطاع أن يرى المرأة فعلًا للمرة الأولى، كان قد تقدم تجاهها خطوة ثم توقف مليئًا بالشهوة والذعر معًا. كان مدركًا للمخاطرة التي وضع نفسه فيها بالمجيء إلى هنا إلى حد الألم. وكان من الممكن أن تلقي الدوريات القبض عليه أثناء خروجه من هنا، فلربما ينتظرونه بالخارج في تلك اللحظة، فإن خرج حتى دون أن يفعل ما جاء من أجله..

لابد من كتابة ما جرى، يجب الاعتراف به.. اكتشف عل ضوء المصباح أن المرأة كانت عجوز، وأن الطلاء على وجهها كان كثيفًا إلى حدٍ جعله موشك على التشقق كأنه قناعٌ كرتوني سيقع بمجرد ملامسته، كما أن الشيب قد خط شعرها، ما كان يبعث عن الخوف فعلًا هو عندما فتحت فمها قليلًا فكشف عن فراغ أسود ليس فيه شيء، فقد كانت بلا أسنان.

عندما نظرت إليها في الضوء رأيت أنها عجوز لا يقل عمرها عن الخمسين عامًا، لكني مضيت قُدمًا وباشرتها كالمعتاد».

ضغط بأصابعه على عينيه مرة أخرى. لقد أتم أخيرًا كتابة الحكاية، ولكن دون أن يشعر بأي فرق، فلم يكن هذا علاج ناجح، فلم يخلصه من رغبته الشديدة في الصياح بأعلى صوته مُطلقًا أقذر الكلمات.

الفصل السابع

وكتب "ونستون": «إن كان هنالك من أمل، فالأمل يكمن في عامة الشعب».

إن كان هناك أمل، فلابد أن يكون كامنًا في عامة الناس، فالقوه التي يمكن أن تدمر الحزب تكمن في هذه الكتلة البشرية التي لا يُلتفت إليها، والمهمشة وتمثل 85% من تعداد شعب «أوقيانيا»، فلا يمكن إسقاط الحزب من داخله، فأعداؤه إن كان له أعداء، لا يمكنهم أن يجمعوا صفوفهم أو حتى يتعارفوا، حتى لو كانت أسطورة «الأخوة» موجودة، بل ربما تكون موجودة فعلًا، فمن غير الممكن تصور أن يستطيع أكثر من اثنين أو ثلاثة من أفرادها أن يجتمعوا معًا، فالتمرد يُعرف من نظرة العين أو نبرة في الصوت، أو في الغالب بكلمة يُهمس بها من حينٍ لآخر.. أما عامة الناس إذا استطاعوا أن يدركوا قوتهم، فلا حاجة لهم إلى التآمر، فليس عليهم إلا ان ينتفضوا فيهزون أنفسهم كما يهز الحصان جسمه لطرد الحشرات عنه، فيمكنهم أن يحيلوا الحزب حطامًا بين عشيةٍ أو ضُحاها إن أرادوا ذلك. فلابد أن يخطر ذلك لهم عاجلًا أم آجلًا؟ ومع ذلك...!

تذكّر دوي صياح لمئات الأصوات «أصوات نساء»، من شارعٍ جانبي على مقربةٍ منه، عندما كان يسير ذات مرة في شارعٍ مزدحم.. لقد كانت صرخة غضب ويأس قوية وعميقة وعالية، أخذت تدوي وبكأنها صدى أجراس تدق.. قفز قلبه من مكانه، وقال في نفسه: «لقد بدأ الأمر! إنه تمرد! لقد انفلتت عامة الشعب أخيرًا من عُقالها»، وحينما وصل لهذا المكان وجد حشدًا من الغوغاء، يبلغ عدده مائتي وثلاثمائة امرأة متجمهرة في السوق حول الأكشاك، كانت وجوهٌ مأساوية، كوجوه ركاب سفينة موشكة على الغرق، غير أنه في هذه اللحظة تحول هذا القنوط الجماعي إلى مشاجراتٍ فردية بين المتجمهرين، واتضح له أن أحد الأكشاك كان يبيع أواني الطبخ المعدنية، وقد

كانت مُصنعة من الصفيح رديئة النوع ورخيصة، لكن الحصول على أواني الطهي دائمًا ما كان أمرًا صعبًا أيًا كان نوعها، وقد توفرت فجأة الآن. وكانت النساء الفائزات بالأواني يحاولن الخروج بها وسط تدافع باقي النساء وتزاحمهن. في ذلك الحين أخذت عشرات أخريات في الصياح حول الكشك متهمات البائع بالانحياز واخفاء الأوعية. وتعالت الصيحات من جديد حينما ظهرت امرأتان منتفختان، إحداهما ذات شعرٍ منسدل، ممسكتين بقدرٍ واحد، وكانت كلٌ منهما تحاول انتزاعه من الأخرى، وفي أثناء تجاذبهن للقدر، انخلع مقبض القدر في يدٍ واحدة منهما. كان ينظر إليهما "ونستون" باشمئزاز، لكنه تعجب للحظة من تلك القوة المخيفة التي ظهرت جلية في تلك الصرخة التي انطلقت من حناجر بضع مئات! فلماذا لا يصرخن مثل هذه الصرخات لشيءٍ ذو قيمة؟

ومن هنا عاد إلى مذكرته وبدأ يكتب:

«لن يثوروا حتى يعوا، ولن يعوا حتى وإن ثاروا»..

فكر "ونستون" في أن من المؤكد أن هذا لابد أن يكون مأخوذًا من أحد كتب النصوص التي وضعها الحزب. كان الحزب دائمًا ما يزعُم أنه حرر عامة الناس من العبودية، فقد كانوا يقعون تحت أبشع صور الاضطهاد من الرأسمالين قبل الثورة، وكانوا يُجلدون بالسياط ويجوعون، وكانت النساء يُجبرن على العمل في مناجم الفحم.. (والحقيقة أنهن ما زلن يعملن في مناجم الفحم!). وكان الأطفال في سن السادسة يباعون إلى المصانع، لكن في الوقت ذاته وعلى نحوٍ يتفق مع مبادئ التفكير المزدوج في الحزب، كانت تعاليم الحزب تقول إن عامة الشعب طبقة متدنية بالفطرة، ولابد من إبقائهم خاضعين كالحيوانات، عن طريق تطبيق بعض القواعد البسيطة، وما كان يُعرف عن العامة سوى القليل، وما كان هناك ما يدعو لمعرفة المزيد عنهم، فتصرفاتهم ليس لها أهمية طالما يعملون وينجبون، فقد تُرك لهم الحبل على الغارب كقطيعٍ من الأبقار التي ترعى في سهول (الأرجنتين)، يعيشون حياة

طبيعية بالنسبةِ إليهم، نمط حياة يشبه ما كان عليه أسلافهم، فقد كانوا يولدون ويترعرعون في الأزقة الفقيرة، وفي سن الثانية عشرة يذهبون إلى العمل، ثم يمرون بمرحلة عابرة هي ذروة الجمال والرغبة الجنسية، ثم يتزوجون في العشرين، ويبلغون أواسط عمرهم في الثلاثين، ويموت معظمهم في الستين، كان كل ما يشغل بالهم هو العمل الشاق، ورعاية الأطفال، والعناية بالمنزل، والمشاجرات التافهة مع الجيران، ومشاهدة الأفلام، ولعب الكرة، وشرب الخمر، أضف إلى ذلك.. كانت المقامرة تسيطر على عقولهم، ولذلك لم يكن من الصعوبة السيطرة عليهم. فكان يكفي زرع القليل من شرطة الفكر بينهم، يقومون بنشر الإشاعات المغرضة، لكي يرصد الأفراد القلائل الذين يُعتقد أنهم مصدر خطر ليتم إزالتهم، لكن دون اللجوء لأي محاولة تجعل أيدولوجية الحزب عقيدة لهم، فلم يكن مرغوبًا أن يكون لديهم أي مشاعر سياسية، ولا يحبذ أن يكون لديهم سوى ذلك النوع من الوطنية البدائية التي يمكن استغلالها عند الحاجة لجعلهم يقبلون ساعات عمل أطول أو مخصصات أقل. بل وحتى عندما ينتابهم شعور بالسخط كما يحدث أحيانًا، فلم يؤد بهم إلى نتيجة لأنهم يعيشون بلا مبادئ عامة، ويركزون غضبهم على تظلمات قليلة الأهمية، فلم يعر انتباههم المخاطر الكبرى، بل إن بيوت معظم عامة الناس لا يوجد بها شاشة رصد للمراقبة، ولم تتدخل الشرطة في شؤونهم إلا نادرًا، لقد كان في «لندن» عددٌ كبيرٌ من الجرائم، فكان فيها عالمٌ كامل من اللصوص، وقطاع الطرق، ومحترفي الدعارة، وتجار المخدرات والمحتالين من كل الأنواع، لكن طالما الأمر مقتصر على عامة الناس فلا أهمية له، فكانوا يتبعون أسلافهم في كل ما يتعلق بالأخلاق، ولم يكن يُفرض عليهم التزمت الحزبي في الحياة الجنسية، وكانت تمر الفحشاء دون عقاب، وكان مسموحًا بالطلاق، ولذلك كان يُسمح لهم بممارسه الشعائر الدينية. وإذا أبدوا رغبة أو حاجة لذلك، فهم ليسوا موضع شك، وكان شعار الحزب في ذلك يقول:

«عامة الشعب والحيوانات أحرار»..

انحنى "ونستون" ليحك الدوالي في ساقه، لقد بدأت تؤلمه من جديد، والشيء الذي دائمًا ما كان يتردد في رأسه هو أنه من المستحيل تصور حقيقة الحياة قبل الثورة، وأخرج من الدرج نسخة من نصوص التاريخ الخاصة بالأطفال، كان قد استعارها من السيدة "بارسونز"، وأخذ ينسخ جزءًا منها في مذكراته:

«في الأيام السالفة قبل الثورة المجيدة، لم تكن «لندن» جميلة كتلك التي نعرفها الآن. لقد كانت مكانا بائسًا قذرًا مظلمًا، لا يجد المرء ما يسد رمقه، وكان مئات الآلاف من الفقراء يسيرون حفاة وبلا مأوى، وكان الأطفال اللذين في أعماركم يُجبرون على العمل لاثنتي عشرة ساعة في اليوم من اجل السادة قساة القلوب، فكانوا يجلدونهم بالسياط إذا تباطأوا في العمل، ولا يطعموهم إلا الفتات من الخبز وقطرات من الماء، ووسط هذا الفقر المدقع، كانت هناك بيوت كبيرة وواسعة يسكنها رجالٌ أغنياء يقوم بخدمتهم ثلاثون خادمًا، وكان يُسمي هؤلاء الرجال بالرأسمالين. فكانوا رجالًا سمان ذوي وجوهٍ قبيحة كالصورة التي ترونها في الصفحة المقابلة، ويمكنك عزيزي الطفل أن تراه مرتديًا معطفًا أسود طويل، وقبعة غريبة تشبه مدخنة الموقد (القبعة العالية) كما كانت تسمى، وكان ذلك الزي الرسمي للرأسمالين، ولم يُسمح لأحد غيرهم بارتدائه، وكانوا يملكون كل شيء، وكان الآخرون جميعًا عبيدًا لديهم. نعم قد كانوا يملكون الأراضي والمنازل والمصانع والأموال، وإذا خرج أحد عن طاعتهم، فكانوا يلقوه في السجن ويجردونه من وظيفته ليموت جوعًا. وإذا أراد شخصٌ عادي أن يتحدث إلى رأسمالي، فكان يجب عليه أن يجمع أطراف ثوبه، وينحني خالعًا قبعته ويناديه «سيدي»، وكان يسمى رئيس الرأسمالين بـ «الملك»، و... ».

كان "ونستون" يعرف باقي محتوى الكتاب، بما فيه من ذكر للأساقفة في ملابسهم ذات الأكمام الواسعة، ومعاطف القضاة الفاخرة، ومختلف

أنواع أدوات التعذيب ومآدب السادة رؤساء البلديات، وعادة تقبيل أقدام البابا، هناك ما لا يجب ذكره في كتب الأطفال، كالقانون الذي يعطي للرأسمالي الحق بأن يُجامع أي امرأة تعمل في مصانعه.

كيف لك أن تدرك مقدار الكذب في ذلك؟ فمن الممكن أن يكون حال الإنسان العادي الآن أفضل مما كان عليه قبل الثورة، لكن ذلك الاحتجاج الصامت في قرارة نفسك هو الدليل الوحيد على نقيض ذلك، بالإضافة إلى الشعور الفطري بأن الأوضاع التي تعيشها لا تطاق، ولابد أنها كانت مختلفة عما هي عليه الآن.. وكان يفكر في الشيء الذي يميز الحياة العصرية ليس قسوتها وانعدام الأمان فيها، بل العري والانحطاط واللامبالاة.

فلو نظر المرء حوله وتمعن النظر.. لأدرك أن الحياة لا تشبه تلك الأكاذيب المتدفقة من شاشات الرصد، ولا حتى المُثل التي كان يحاول الحزب تحقيقها، فكانت هذه المُثُل غير مؤثرة حتى على أعضاء الحزب، ولا سياسيه، والدليل على ذلك، التورط في أعمال حقيرة والتزاحم للحصول على مكانٍ في قطار الأنفاق، ورتق جوربٍ بالٍ، أو تسول قطعة سكر، او ادخار عقب سيجارة، كانت المُثُل التي يحاول الحزب تحقيقها شيئًا ضخما مرعبًا ولامعًا. عالمٌ من الفولاذ والقوة والآلات الضخمة والأسلحة المخيفة، وتُشعرك بأنك وسط أمة من المحاربين والمتعصبين، تسير على قدمٍ وساق في وحدةٍ تامة، يحملون نفس الأفكار ويهتفون بنفس الشعارات.. ويعملون دون كلل، ويُقاتلون وينتصرون ويعتدون، فعددهم يتجاوز ثلاثمائة مليون من البشر ذوي الوجوه المتماثلة، أما الواقع الحقيقي فهو المدن البائسة متآكلة المباني، يروح ويجيء فيها أُناس جياع، يُعانون من سوء التغذية، حفاة الأقدام، وثيابهم مهترئة، ويسكنون في بيوتٍ من القرن التاسع عشر متداعية، دائمًا ما تفوح منها رائحة الملفوف المسلوق ممتزجة بروائحٍ قذرة.

بدا له وكأنه يرى «لندن» مترامية ومهدمة، مدينة المليون سلة قمامة، تختلط بصورة السيدة "بارسونز" ذات الوجه المجعد والشعر المنفوش، تحاول دون جدوى إصلاح بلوعة مسدودة.

انحنى مرة أخرى ليحك كاحله، ثم تنقل وأفكاره بين هذه الحياة البائسة، وما ينشره الحزب من أكاذيب، فشاشات الرصد تصم الآذان يوميًا بالإحصائيات التي تُثبت أن الشعب يتوفر له الثياب والطعام ووسائل الراحة، وحياتهم أصبحت أطول، ويعملون ساعاتٍ أقل، وإنهم أفضل وأقوى وأسعد وأذكى وأكثر ثقافة من أسلافهم منذ خمسين عامًا مضت.. لا سبيل إلى إثبات صدق أو كذب أي شيء من ذلك. فكان يزعم الحزب أن 40% من عامة الشعب البالغين يتقنون القراءة والكتابة، أما قبل الثورة فقد كانت النسبة 15% فقط، كما كان يزعم أيضًا ان نسبة وفيات الأطفال بلغت 160 بالألف فقط، في حين أنها كانت 300 بالألف قبل الثورة، وفي هذا الإطار كانت الإحصاءات تجري شبيهه بمعادلة بسيطة مجهولة، فمن الممكن أن تكون كل كلمة في كتاب التاريخ مجرد خيال، بل حتى المسلمات التي يؤمن بها المرء هي أيضًا مجرد خيال، وربما لم يكن هناك ذلك القانون الذي يبيح للرأسمالي مجامعة أي امرأة تعمل معه، أو مخلوق كالرأسمالي، أو قبعة مثل قبعته العالية.

فكان الضباب يحيط بكل شيء، فالماضي قد أزيل من الوجود، وما تم إزالته أصبح طي النسيان، فصار الكذب حقيقة، فلقد امتلك مرة واحدة في حياته دليلًا ملموسًا لا يرقى إليه أي شك، على عملية تزييف وألم به بين يديه لثلاثين ثانية فقط، فكان ذلك عام 1973 وكانت تلك الفترة التي انفصل فيها عن "كاترين" ولكن التاريخ الحقيقي لتلك الحادثة كان قبل هذا التاريخ بسبع أو ثماني سنوات.

بدأت القصة فعليًا في منتصف الستينات، أثناء موجات التطهير الكبرى التي تم فيها تصفية زعماء الثورة الأصليين دُفعة واحدة وإلى الأبد، وبحلول

عام 1970 لم يبق منهم أحد إلا الأخ الأكبر، أما الباقون فقد انكشفوا جميعًا باعتبارهم خَوَنة ومُعادين للثورة، كان "غولدشتاين" قد فر واختبأ في مكانٍ لا يعرفه أحد، وأما الآخرون فقد اختفى فردٌ منهم في حين تم تقديم معظمهم إلى محاكماتٍ صورية اعترفوا فيها بجرائمهم، وكان هناك ثلاثة رجال هم الباقون حتى الفترة الأخيرة، وهم "جونز، وأرونسون، وراذرفورد». وقد تم اعتقالهم في عام 1965، وكالمعتاد اختفوا لمدة عام أو أكثر، ولم يعرف أحد إن كانوا أحياء أو أموات، وبعد ذلك جيء بهم فجأة ليجرّموا أنفسهم بالطريقة المعهودة، فاعترفوا بتجسسهم لصالح الأعداء، وكان العدو في ذلك الوقت أيضًا «أوراسيا»، وباختلاسهم المال العام، وبقتل الكثير من أعضاء الحزب المخلصين، كما اعترفوا أيضًا بتدبير المكائد ضد زعامة الأخ الأكبر للثورة، وذلك حتى قبل قيام الثورة. كما قاموا بأفعالٍ تخريبية أدت إلى قتل مئات الآلاف من الأشخاص، وبعد تلك الاعترافات، تم العفو عنهم.. وأُعيدوا إلى الحزب وتولوا مناصب لا قيمة لها، لكن الألقاب كانت رنانة توحي بالأهمية، وكتب ثلاثتهم مقالاتٍ مطولة يشرحون فيها أسباب انشقاقهم عن الحزب من قبل، وتعهدوا بإصلاح أنفسهم.

لقد رآهم "ونستون" بعد فترة من إطلاق سراحهم في مقهى شجرة الكستناء. وهو يذكر افتتانه الممزوج بالخوف وهو يراقبهم بطرف عينيه. كانوا يكبرونه سنًا.. بقايا من العالم القديم، بل كانوا آخر الشخصيات الكبري الباقية من أيام الحزب المجيدة، حيث كان عالقًا بهم علي نحوٍ خافت عبق النضال السري والحرب الأهلية، وكان إحساسه يخبره أنه يعرف أسماءهم قبل زمنٍ طويلٍ من سماعه باسم «الأخ الأكبر»، رغم ضبابية الحقائق والتواريخ في ذلك الوقت، لكنهم كانوا خارجين عن القانون، أعداء، منبوذين، محكوم عليهم بالفناء في غضون سنة أو اثنين بلا شك، ففي النهاية لم ينج أحد ممن سقطوا في أيدي شرطة الفكر، حيث كان هؤلاء الثلاثة مجرد جثثًا تنتظر إعادتها إلى قبورهم.

لم يكن من الحكمة أن يجلس أحد من رواد المقهى على أي طاولة بجوار هؤلاء الرجال، فكانوا يجلسون يخيم عليهم الصمت وأمامهم كؤوس الخمر المعطرة بالقرنفل الذي يشتهر بها هذا المقهى. وكان مظهر "راذرفورد" هو الأكثر تأثيرًا على "ونستون"، فكان رسام كاريكاتير مشهور، ساهمت أعماله في إثارة الرأي العام قبل الثورة وخلالها، فكانت رسوماته الساخرة تُنشر في «جريدة التايمز» على فتراتٍ متباعدة، وكانت مجرد محاكاة لأسلوبه الأول ولكنها عديمة الروح وغير مُقنعة، فكانت بمثابة استعادة لموضوعات قديمة بشكلٍ جديد، فكان يُصور الأحياء الفقيرة والأطفال على وشك الموت جوعًا، ومعارك الشوارع، والرأسماليين ذوي القبعات العالية، فكانوا يرتدونها حتى وهم في الشرفات، وبمحاولاتهم البائسة التي لا تنتهي من أجل العودة إلى الماضي. كان "راذرفورد" رجلًا ضخم البنية له غرّة من شعرٍ دهني رمادي، ذا وجهٍ منتفخٍ مجعد، وشفتين سميكتين مكتنزتين، ويبدو أنه كان رجلا قويًا في الماضي، أما الآن فجسده الكبير يترهل ويتهدل في كل اتجاه كجبل يتداعى.

لم يستطع "ونستون" تذكر كيف أتى إلى المقهى في مثل هذا الوقت، فكانت الساعة السادسة مساءً، وكان المكان خاويًا، وكانت هناك موسيقى خفيفة صادرة من شاشة الرصد، وكان الرجال الثلاثة يجلسون صامتين في أماكنهم بلا حراك، وكان النادل يحضر لهم كؤوس من الخمر دون أن يطلب أحدٌ منه ذلك، وكان أمامهم على الطاولة رقعة من الشطرنج مصفوفة القطع دون أن يبدأ أحد اللعب، وبعد نصف دقيقة تغير اللحن الصادر من شاشة الرصد وتغيرت الموسيقي، لكنه شيء يصعُب وصفه.. كان لحنًا عدائيًا متكسرًا أسماه "ونستون" «اللحن الأصفر» ثم صدر من الشاشة ما يلي:

تحت شجرة الكستناء الوارفة..

بعتك وبعتني..

وها هم يرقدون هناك ونحن نرقد هنا..

تحت شجرة الكستناء الوارفة..

لم يتحرك الرجال الثلاثة، لكن "ونستون" لاحظ الدموع في عيني "راذرفورد" عندما ألقى إليه نظرة من جديد، ولاحظ لأول مرة رجفة داخلية دون أن يعرف سبب ارتجافته، وقد لاحظ أن أنف كلٍ من "آرونسون، وراذرفورد" كانا مكسورين.

لقد تم القبض عليهم بعد ذلك بوقتٍ قليل، فقد اتضح أنهم تورطوا في مؤامراتٍ جديدة بعد إطلاق سراحهم، واعترفوا بجميع جرائمهم القديمة مرة أخرى، بالإضافة إلى سلسلة من الجرائم الجديدة، وذلك أثناء محاكمتهم الثانية، ثم تم إعدامهم وتم تسجيل مصيرهم في تواريخ الحزب ليكونوا عبرة للأجيال القادمة، وبعد خمس سنوات من هذا التاريخ، أي عام 1973، كان "ونستون" في مكتبه يقلب ملفات كان قد قذف بها إليه الأنبوب الهوائي، فوجد قصاصة من الورق من الواضح أنها نُسيت وانزلقت بين الأوراق الأخرى، وما إن دقق بها حتى أدرك أهميتها، إنها نصف صفحة قُطعت من «جريدة التايمز» الصادرة منذ عشر سنوات، كانت نصف الجريدة الأعلى لذلك عرف التاريخ، وكان فيها صورة لأشخاص موفدين من نيويورك من أجل نشاطات الحزب، وكان من ضمنهم كلٌ من "جونز، آرونسون، وراذرفورد». فلم يكن من الممكن عدم ملاحظتهم فأسماؤهم كانت مكتوبة أسفل الصورة.

كانت أهم نقطة في الموضوع، هي أن الرجال الثلاثة اعترفوا في المحاكمتين أنهم كانوا في «أوراسيا»، لقد سافروا من مطارٍ سري في كندا لينضموا إلى اجتماع في مكانٍ ما في (سيبيريا) حيث التقوا بأعضاءٍ من القيادة العامة لـ «أوراسيا»، فكشفوا لهم عن أسرار عسكرية مهمة، كان التاريخ عالقًا في ذاكرة "ونستون"، لأنه كان يُصادف عيد منتصف الصيف، فالقصة لابد أنها كانت موجودة في عددٍ لا يُحصى من الأماكن الأخرى، وتوصل "ونستون" من ذلك إلى استنتاجٍ وحيد، وهو أن الاعترافات كلها كانت كاذبة وملفقة.

وبطبيعة الحال لم يكن هذا اكتشاف! فحتى في ذلك الوقت، لم يكن "ونستون" يتخيل أن الأشخاص الذين يتم إزاحتهم في التطهير قد قاموا فعلًا بتلك الجرائم التي اتُهموا بها، ولكنه كان دليلًا ملموسًا، أنه جزءٌ من الماضي الذي تم إزالته، مثل عظام الحفريات، تظهر في طبقة غير طبقتها، فيؤدي إلى نظرية جيولوجية كاملة، كان هذا الدليل كافيًا لإحالة الحزب هباءً، كما لو تم عرضة أمام العالم وكشف حقيقته للجميع.

انهمك "ونستون" في عمله عندما رأي الصورة وأدرك ما تعنيه، ثم غطاها بورقةٍ أخرى، ولحسن الحظ.. لم تكن الورقة باتجاه شاشة الرصد حين فتحها.

التقط "ونستون" دفتر الكتابة ووضعه على ركبتيه، ودفع مقعدة للخلف، ليكون خارج رؤية الشاشة، لم تكن المحافظة على تعبيرات وجهك من الأمر الصعب، بل إن التنفس يمكنك التحكم فيه بجهدٍ بسيط، لكنك لا تستطيع التحكم في ضربات قلبك، فكانت شاشة الرصد حساسة لدرجه تجعلها تلتقطها بسهولة. انتظر "ونستون" عشر دقائق، كانت يتمنى انقضاءها، فكان يشعر خلالها بالخوف من أن ينكشف سره بحدوث شيءٍ ما.. شيءٌ ما يمكن أن يفضح أمره، كنفخة هواء تهب على مقعده مثلًا، وعندئذٍ ألقى بالصورة في مقبرة الذاكرة دون أن يكشف عنها مع أوراقٍ أخرى لا أهمية لها، ففي خلال دقيقة ستصبح رماد.

كان ذلك منذ عشرة أعوام أو أحد عشر عامًا مضت، فلو إن ذلك حدث اليوم، لكان من المحتمل أن يحتفظ بتلك الصورة، فعلى الرغم من أن الصورة والحادثة التي سجلتها مجرد ذكرى، إلا أنها أثارت فيه إحساسًا مختلفًا بمجرد إمساكها بين أصابعه. وتسائل: «هل تصبح قبضة الحزب على الماضي أقل قوة بسبب دليلٍ لم يعد موجودًا الآن، قد وجد ذات مرة؟».

ولنفترض أنه من الممكن استعادة الصورة من الرماد، فإنها لم تكن دليلًا، فلم تكن «أوقيانيا» في حالة حرب مع «أوراسيا» عندما اكتشف هذا

الدليل، ولابد أن الرجال الثلاثة قد أفشو أسرار بلادهم لعملاء «شركسيا»، وبعد ذلك الوقت ظهرت اتهامات أخرى لم يكن ليستطيع تذكر عددها، كما أنه من المحتمل أن تكون الاعترافات قد أعيدت كتابتها عدة مرات إلى أن فقدت الحقائق والتواريخ الأصلية معناها إلى الأبد، فالماضي لم يتغير فقط، بل أنه يتغير بشكلٍ مستمر، فأكثر شيء يؤثر عليه وكأنه كابوس أنه لم يفهم أبدًا لماذا يمارسون الخداع، فالفوائد الناتجة عن تزوير الماضي واضحة، لكن الهدف النهائي منها كان غامضًا.

أمسك بقلمه مرة أخرى وكتب:

«إنني أفهم (كيف)، لكنني لا أفهم (لماذا)؟».

تساءل كما تساءل من قبل مراتٍ ومرات، إذا ما كان مصابًا بالمس أو الجنون، فالجنون هو أن تخالف الآخرين، ففي وقت قد مضى كانت من علامات الجنون أن يعتقد المرء أن الأرض تدور حول الشمس، أما اليوم فمن علامات الجنون أن يظن المرء أن الماضي غير قابل للتغير، فربما هو الوحيد الذي يعتقد ذلك، وإن كان هو الوحيد في ذلك فهذا يعني أنه مجنون، فلم تكن فكرة الجنون هي ما تقلقه، بل ما كان يرعبه حقًا هو احتمال أن يكون مخطئ.

أمسك كتاب التاريخ الخاص بالأطفال، وأخذ ينظر إلى صورة الأخ الأكبر التي تغطي الغلاف، فكانت العينان المغناطيسيتان تحدقان فيه، فكان يشعر وكأن قوة كبيرة تضغط عليه، شيءٌ يخترق جمجمته ويضرب دماغه ويُخيفه، ويجعله ينكر على حواسه ما يشعر به، ويجعله ينبذ معتقداته، فمن الممكن أن يلعن الحزب، أن اثنين واثنين يساويان خمسة، وعليك أن تصدق ذلك. سيحدث ذلك عاجلًا أم آجلًا. فالمنطق يتطلب ذلك. لم تكن فلسفتهم إنكارًا لمصداقية التجربة، وإنما تنكر وجود الحقيقة الظاهرة، كذلك كانوا يعتبرون الضلال هو عين العقل والمرعب في ذلك احتمالية قتلك بجريمة الفكر المغاير، بل احتمال أن يكونوا على حق. فمن يستطيع أن يعرف بعد ذلك أن

اثنين واثنين يساويان أربعة؟ أو أن قوة الجاذبية موجودة؟ أو أن الماضي لا يمكن تغييره؟ فإذا كان كلٌ من الماضي والعالم والخارجي موجودين في العقل فقط، وإذا كان العقل نفسه خاضعًا للتحكم فيه، فماذا تكون نتيجة ذلك؟

لكن لا...!

فكر "ونستون" وكأن شجاعته اشتدت وقويت فجأة من تلقاء نفسها، وخطر على باله "أوبراين" دون سببٍ واضح لذلك، كان على يقين أن "أوبراين" في صفه، فكان يكتب مذكراته من أجل "أوبراين" ولأجله، كانت رسالة لا نهائية لن يقرأها أحد، لكنها كانت موجهة إلى شخصٍ بعينه، وكانت تكتسب قيمتها من تلك الحقيقة. فكان الحزب يوصي بأن تُنكر ما تراه عيناك وتسمعه أذناك، كان هذا توجيهه النهائي والأكثر أهمية. غاص قلبه بين ضلوعه عندما فكر في القوة الهائلة التي أمامه، عندما فكر في سهولة أن يهزمه أي مثقف من مثقفي الفكر في الجدال في تلك الحجج الماكرة، التي لن يكون قادرًا على فهمها أو حتى الرد عليها، فعلى الرغم من ذلك.. إلا أنه كان على يقين أنه على صواب، وهم على ضلال، ويجب عليه الدفاع عن البسيط والواضح والحقيقي، فعليك التمسك بالبديهيات الواضحة. إن العالم المادي موجود وله قوانين ثابتة. فالحجارة صلبة والماء سائل، والأجسام التي لا يحملها شيء تسقط نحو مركز الأرض، كتب "ونستون" وهو يشعر أنه يتحدث إلى "أوبراين"، وأنه يقرر حقائق هامة:

«الحرية هي حرية القول إن اثنين واثنين يساويان أربعة، إذا كانت هذه الحرية مضمونة، فكل شيء آخر سيسير في مساره السليم».

الفصل الثامن

كانت رائحة بن محمص تفوح في أنحاء الشارع منبعثة من مكان ما في أسفل الممر – بن حقيقي وليس بن النصر -، توقف "ونستون" رغمًا عنه للحظات ربما عادت به ذاكرته خلالها إلى دنيا طفولته شبه المنسية، وبعدئذ سمعت طقة باب يُغلق لتختفي الرائحة على أثر ذلك فجأة، وكأنما كانت صوتًا وحُجب.

مشى "ونستون" عدة كيلومترات على الأرصفة، فعادت الدوالي تؤلمه، وكانت هذه هي المرة الثانية التي يتخلف فيها عن حضور الأمسيات في المركز الاجتماعي منذ ثلاثة أسابيع، وفي هذا مخاطرة لأن عدد مرات الحضور كان موضع مراجعة دقيقة. فمن مبادئ الحزب ألا يكون لأيٍ من أعضاء الحزب وقت فراغ، وألا ينفرد بنفسه نهائيًا إلا في السرير وقت النوم، وكان من المفترض أن يشارك عضو الحزب أي من الأنشطة الاجتماعية، طالما أنه لا يعمل ولا يتناول الطعام وليس نائمًا. فكان من المخاطرة أن يقوم أحد الأعضاء بعملٍ يوحي بميلٍ للعزلة، حتى لو كان يتنزه بمفرده، وكان يُعبر عن ذلك في اللغة الجديدة بكلمة «حياة خاصة»، وتعني الفردية والتمركز حول الذات. فقد أغواه نسيم نيسان العليل بمتابعة السير تحت السماء عند انصرافه من الوزارة في ذلك المساء، فكانت السما أكثر زرقة ودفئًا من أي وقتٍ مضى في هذا العام. فبدا له على نحوٍ مفاجئ أن تلك الأمسيات الصاخبة التي تقام في المركز العام وما يصاحبها من ألعابٍ مجهدة، ومحاضرات مملة، وصخب الرفاق عند احتسائهم الخمر، كانت كلها أمور لا تُحتمل، فدفعه شيء على نحوٍ مفاجئ إلى مغادرة موقف الحافلات، وأن يهيم في شوارع «لندن» ليس له وجهة محددة، فأخذ يسير شمالًا وجنوبًا، شرقًا وغربًا غير مهتم أين يسير وبأي اتجاه.

وكانت تتردد في ذهنه أثناء سيره كلماتٍ كان قد كتبها في مذكرته «إن كان هناك أمل، فإنه يكمن في العامة»، فقد رأى فيها الحقيقة والعبث. وهنا كان قد وصل إلى مكانٍ ما وسط الأحياء القذرة الواقعة شمال شرق، فكان يُعرف في وقتٍ ما باسم «القديس بانيراس»، كان يسير في شارعٍ مرصوف امتدت على جانبيه بيوتٌ صغيرة من طابقين منفتحة على الرصيف مباشرة لأن مداخلها محطمة..

كانت تشبه جحور الفئران، وكانت تنتشر هنا وهناك بركٌ من الماء بين بلاطات الشارع، وكانت أعداد كبيرة من الناس يمرون من مداخل الأبواب المعتمة، وفي الأزقة الضيقة المتفرعة من جانبي الشارع، كانت أعداد مهولة.. فتيات في ذروة الصبا يضعن أحمر الشفاه بطريقةٍ فجة، وشباب يطاردون الفتيات، ونساء مترهلات متهاديات يسيرن على مهل، وكأنهن نماذج لما ستكون عليه تلك الفتيات بعد عشرة أعوام، ونساء أحناهن العجز تسرن على أقدامٍ مفلطحة، وأطفال حفاة ثيابهم مهلهلة يلعبون في برك المياه رغم صيحات غضب أمهاتهم، فربما ربع النوافذ في تلك الشارع كانت محطمة ومغطاة بالألواح، لم يكن أحد منهم يُعير "ونستون" أي اهتمام سوى القليل منهم، كانوا ينظرون إليه بفضولٍ حَذِر، وكانت امرأتان بدينتان. تعقد كل منهما ذراعيها الحمراوين كالقرميد فوق مريلتها، تتحدثان في الخارج بالقرب من أحد البيوت، التقط "ونستون" بعضًا من حديثهم خلال اقترابه منهما.

- «نعم، لقد لها... أن كل هذا جيد... ولكن لو كنتِ في مكاني لفعلتِ كما فعلت، كما قلت لها انتقاد الناس سهل طالما ليس عندك من المشاكل ما عندي».

وقالت الأخرى:

- «آه! ذلك هو الأمر تمامًا، إنه صحيح».

لاذا بالصمت عندما مر "ونستون" بجوارهما وبدءا يتفحصانه بنظراتٍ عدائية صامتة، فلم يكن عداء بمعنى الكلمة، إنما مجرد حذرٍ وتوجس

لحظي، كالذي يحدث عندما يمر بك حيوان غير مألوف.. فلم تكن ملابس الحزب الزرقاء مألوفة في مثل هذه الشوارع. ولم يكن من الحكمة أن تتواجد في تلك الأماكن إن لم تكن مُكلفًا بمهمةٍ هناك، وإذا حدث واستوقفتك دورية ويسألونك: «هل تسمح لنا أيها الرفيق برؤية هويتك؟ ماذا تفعل هنا؟ متى تركت عملك؟ أهذا هو طريق عودتك لمنزلك؟ وهكذا...». لا يوجد في الحقيقة قانون يمنع العودة إلى البيت من غير الطريق المألوف. لكن يكفي أن سمع شرطة الفكر بذلك الأمر حتى يكون المرء قد لفت انتباهها إليه.

فجأة دبت الحركة في الشارع وامتلأ عويلًا وصراخًا، وتصاعدت صيحات التحذير من كل مكان، وأخذ الناس يندفعون إلى مداخل البيوت كالأرانب. هرعت امرأة شابة من باب أحد البيوت أمام "ونستون" وعلى مسافةٍ قريبةٍ منه والتقطت طفلًا صغير الحجم كان يلعب في بركة من الماء، ثم لفته في صدرها وقفزت به إلى داخل البيت، حصل ذلك في لمح البصر، وفي تلك اللحظة خرج رجلٌ يرتدي بذلة سوداء من زقاقٍ جانبي، وقفز نحو "ونستون" مشيرًا إلى السماء صائحًا في وجهه:

- «بارجا! احذر، إنها تدوي فوقك، انبطح أرضًا بسرعة».

لسببٍ ما.. كان العامة يطلقون على القذائف الصاروخية كلمة «بارجا»، ألقى "ونستون" نفسه على الأرض سريعًا، فكان عامة الناس محقين عندما يُطلقون إنذارًا من هذا النوع، فعلى الرغم من أن سرعة الصاروخ تفوق سرعة الصوت، إلا أنهم كانوا يدركون بغريزتهم المكان الذي سيُصيبه الصاروخ. وضع "ونستون" ذراعيه فوق رأسه، كان هناك أزيزًا مدويًا كما لو أن الأرض ارتجت بقوة، وتساقط على ظهره وابلٌ من أشياءٍ صغيرة، وعندما نهض.. وجد أنه كان مغطى بشظايا زجاج من النافذة القريبة.

ثم تابع "ونستون" سيره، كانت القنبلة قد دمرت مجموعة من البيوت على بعد مائتي متر أمامه في الشارع، وكان هناك عمود من الدخان الأسود متصاعدًا إلى السماء، مع غيمة من الغبار الكثيف غطت الأنقاض الناجمة

عن الدمار. وكان قد تجمع حشودٌ من الناس حول الأنقاض على الرصيف، وكان أمامهم كومة من الجبس، ظهر منها خيطٌ أحمر لامع، وعندما اقترب منها "ونستون" رأى يدًا بشرية مبتورة من المعصم، وقد ابيضت تمامًا بفعل الغبار، حتى أصبحت وكأنها مصنوعة من الجبس عدا العقد الدامية التي فيها.

دفع ذلك الشيء بقدمه إلى بلوعة، ثم استدار متخذًا شارعًا جانبيًا ليبتعد عن الزحام. وكان قد ابتعد عن المنطقة المنكوبة خلال ثلاث أو أربع دقائق، حيث كانت الشوارع كما هي حقيرة بائسة وكأن شيئًا لم يحدث، كانت الساعة الثامنة تقريبًا، وكانت حانات الشرب التي يرتادها عامة الناس مليئة بروادها، فكانت رائحة البول ونشارة الخشب والخمر الحامض تنبعث من أبوابها المتأرجحة بين فتحٍ وغلق. وقف ثلاثة رجال متقاربين جدًا في زاوية ناشئة من نتوء واجهة أحد المنازل، وقد أمسك أوسطهم بجريدة مفتوحة، فيما كان الآخران يتطاولان لقراءتها من فوق كتفيه. وقبل أن يصبح "ونستون" على مسافة قريبة منهم تسمح له برؤية تعابير وجوههم، بدا له اهتمامهم الشديد جاليًا من وضعية أجسادهم، فمن الواضح أنهم كانوا يقرأون خبرًا خطيرًا. وعندما أصبح على بعد خطواتٍ منهم.. تفرقوا على نحوٍ مفاجئ، ودخل اثنان منهم في جدالٍ عنيف، وبدا له أنهما موشكان على تبادل اللكمات.

- «ألا تستطيع أن تستمع لما أقوله لك أيها اللعين؟ لقد أخبرتك من قبل أنه منذ أربعة عشر شهرًا لم يربح أي عدد ينتهي بالرقم 7».

- «بلى.. لقد حدث ذلك مرة».

- «كلا لم يحدث. فأنا أحتفظ في منزلي بكل المجموعات وأدونها بانتظام على قصاصة ورق منذ سنتين، وليس فيها أي عدد ينتهي بالرقم 7».

- «بلى.. لقد ربح رقم 7.. دعني أتذكر الرقم اللعين... إنه أربعة صفر سبعة، وكان ذلك في شهر فبراير، بل الأسبوع الثاني من فبراير».

- «فبراير؟ يا لك من أحمق.. الأرقام جميعها مدونة عندي، وأقول لك لا يوجد ذلك الرقم».

- «كفا عن ذلك».

صاح بها الرجل الثالث.

كانوا يتحدثون عن اليانصيب، التفت إليهم "ونستون" بعد أن كان ابتعد عنهم بثلاثين مترًا، وما زالوا يتجادلون ووجوههم منفعلة مستثارة. كان سحب اليانصيب الأسبوعي على جوائزٍ نقدية كبيرة، فكان هو الحدث الوحيد الذي يهتم به عامة الناس، فالملايين منهم يعتبرون اليانصيب هو السبب الأول والأوحد لبقائهم على قيد الحياة، فكان اليانصيب فرحتهم، وجنونهم، ومُخدرهم، ومُحرك تفكيرهم، فحيثما كان اليانصيب، كنت تجد الناس الذين يقرأون ويكتبون بصعوبة وهم يُظهرون قدرةً على إجراء الحسابات المعقدة والاحتمالات المدهشة، التي تعتمد على الذاكرة. كان يوجد عددٌ كبيرٌ من الرجال الذين يقتاتون من بيع تنبؤات اليانصيب والأوراق وتمائم الحظ. فلم يكن لـ "ونستون" علاقة بإدارة اليانصيب، فقد كُلفت وزارة الوفرة بالإشراف على إدارة هذه العملية. ولكنه كان يدرك كما يدرك كل شخص في الحزب أن الجوائز وهمية إلى حدٍ بعيد، فلم يكن يوزع منها سوى المبالغ الصغيرة.. ولم يكن الفائزون بالجوائز الكبرى إلا أشخاص غير موجودين. وفي غياب التواصل الحقيق بين طرفي «أوقيانيا» لم يكن تمرير هذا التلاعب بالصعب.

"فإن كان هناك أمل فإنه يكمن في العامة، ويجب التمسك بذلك». فيبدو الأمر منطقيًا عندما تعبر عنه بكلمات، وعندما تنظر إلى الأشخاص وهم يمرون على الرصيف، فيصبح الأمر إيمانًا عندك. وعندما انعطف إلى

شارعٍ متفرع، أحس وكأنه جاء هنا من قبل، وأنه يوجد شارعٍ رئيسي بالقرب من هنا. تعالت أصوات بالصياح من مكانٍ ما. انعطف الشارع انعطافة شديدة، انتهى بمجموعة من الدرج تؤدي إلى زقاق، يعرض فيه الباعة خضروات ذابلة، تذكر "ونستون" في هذه اللحظة المكان، فقد كان الزقاق يؤدي إلى الشارع الرئيسي، وبعد أقل من خمس دقائق عند المنعطف الثاني، يوجد حانوت لبيع الأغراض القديمة الذي اشترى منه مفكرته، وقد اشترى أيضًا ماسكة الريشة والحبر من مكتبة صغيرة بالقرب من هنا.

توقف عند أعلى الدرجات لبرهة، فكان هناك في الجهة اليمنى من الزقاق حانة صغيرة قذرة، نوافذها مغطاة بالتراب، وكأن الصقيع قد اكتنفها. فتح رجلٌ عجوزٌ الباب المتأرجح، وكان رجلٌ منحني الظهر دون أن يفقد حيويته، وكان شاربه أبيض أشعث مدبب، يشبه برغوث البحر، وعند مراقبة "ونستون" له، خطر بباله أن ذلك الرجل العجوز كان في أواسط عمره عندما قامت الثورة، فإن هذا الرجل وعدد لا بأس به من الأشخاص هم آخر حلقات الوصل بعالم الرأسمالية الذي اندثر، ولم يكن في الحزب نفسه إلا القليل ممن تشكلت أفكارهم قبل الثورة، فقد تم إبادة أكثر الجيل القديم في موجات التطهير الكبرى التي جرت في الخمسينات والستينات، أما القلة الباقية فقد أجبرهم خوفهم إلى الاستسلام الفكري الكامل، ولو كان هناك أشخاص باقون من هؤلاء، فيمكنهم نقل صورة صادقة عن الأوضاع في الربع الأول من هذا القرن، ولابد أن يكون. من العامة، وفجأة قفز إلى ذهنه العبارة التي نقلها من كتاب التاريخ في مفكرته، وتملكته رغبة جنونية في أن يدخل الحانة ويسأل العجوز عما يحيره من تساؤلات:

- «أخبرني عن حياتك عندما كنت صغير؟ كيف كانت الحياة تلك الأيام؟ هل كانت الأمور أفضل حالًا؟ أم أنها كانت أسوأ؟».

وعلى عجلة من أمره هبط السلم خوفًا من أن يسيطر عليه الخوف، ويجعله يتراجع عن قراره، واجتاز الشارع الضيق، وكان ذلك بالطبع جنونًا، وكالعادة لا يوجد نصٌ قانوني يمنع التحدث مع عامة الشعب أو التردد على حاناتهم، لكن ذلك أمرًا غير عادي إلى الحد الذي يجعله سهل الملاحظة، ففكر في أن يتظاهر بالإغماء إذا مرت إحدى الدوريات، وإن كان ذلك أمرًا لن تصدقه الدوريات. وفاجأته رائحة البيرة الحامضية القذرة حينما دفع الباب. وعندما دخل أحس أن الضجيج قد خف بشكلٍ ملحوظ، وأن الجميع ينظرون إلى ملابسه الزرقاء، كما توقف للحظات مباراة رمي السهام التي كانت تدور في الاتجاه الآخر من القاعة. كان الرجل العجوز يقف على البار منهمكًا في حديثٍ مع الساقي ضخم الجسم، معقوق الأنف ذي ساعدين ضخمين، وكان هناك عددٌ من الرجال ملتفًا حولهم، يشاهدون الموقف حاملين كؤوسهم في أيديهم.

قال الرجل العجوز ناصبًا كتفيه وكأنه سيتشاجر:

- «ألا أبدو لك مواطنًا كاملًا؟ أليس لديك كأس من سعة (الباينت) بين هذه الكؤوس الحقيرة؟».

أجابه الساقي وهو متكئ على البار بأطراف أصابعه:

- «فما هو الباينت هذا بحق الجحيم؟».

- «تبًا لك.. تدعي بأنك ساقٍ ولا تعرف ما هو الباينت؟ فهو نص الربع، وهناك أربعة أرباع من الجالون، فهل من الواجب عليّ أن أعلمك حروف الهجاء مرة أخرى».

- «لم أسمع بذلك من قبل، لأننا نقدم باللتر ونص اللتر، وها هي الأكواب أمامك على الرف».

أجابه النادل باختصار..

قال الرجل العجوز بإصرارٍ شديد:

- «وأنا أريد الباينت، فهل من الممكن أن تملأ لي باينت؟ فلم يكن لدينا تلك الأكواب عندما كنت شابًا».

فأجابه الساقي وهو ينظر إلى الزبائن:

- «عندما كنت في شبابك كنا نعيش فوق الأشجار».

انتابت الزبائن حالة هستيرية من الضحك الشديد، في حين تلاشى القلق الذي تسبب فيه دخول "ونستون"، احمر وجه العجوز الأبيض المليء بالبثور خجلًا، والتفت مبتعدًا وهو يتمتم. لكن "ونستون" بلطفٍ شديد أمسك ذراعه قائلًا:

- «هل تسمح لي أن أقدم لك شرابًا؟».

فرد العجوز وهو يشد كتفيه مرة أخرى:

- «إنك رجل مهذب».

ومن المتضح أنه لم يلحظ ملابس "ونستون" الزرقاء. وأضاف موجهًا حديثه للساقي بطريقةٍ عدائية:

- «باينت... باينت من البيرة».

صب لهما الساقي نصفي لتر من الخمر الغامق اللون في كأسين قد غسلهما في دلوٍ تحت البار، كانت البيرة المشروب الوحيد الذي يُقدم في حاناتٍ عامة. فلم يكن من المسموح أن يتناول عامة الناس الخمر، في حين أن الحصول عليها كان أمرًا يسيرًا. عادت الحماسة في لعبة رمي السهام مرة أخرى، وبدأ الحديث عن اليانصيب يدور بين قلة من الرجال، فقد نسي الجميع وجود "ونستون". كان هناك مائدة خشبية أسفل النافذة، مناسبة لتناقل الحديث دون أن يسمعهم أحد، كان ذلك الأمر بالغ الخطورة، لكن القاعة كانت خالية من شاشة الرصد، هذا ما تأكد منه "ونستون" منذ دخوله الحانة.

استقر الرجل العجوز جالسًا وراء كأسه وتمتم متذمرًا قائلًا:

- «كان بإمكانه أن يعطيني باينت، فنصف اللتر لا يكفي، ولتر كامل كثير جدًا، غير أنه يضر المثانة، ناهيك عن ثمنه».

قال "ونستون" بتردد:

- «لابد وأنك قد لاحظت تغيراتٍ كثيرة منذ أن كنت شابًا».

انتقل الرجل العجوز بعينيه الزرقاوين الشاحبتين داخل القاعة ما بين البار إلى لعبة السهام، ومنه إلى باب المرحاض وكأنه يبحث عن التغيرات داخل القاعة.

وأجاب أخيرًا:

- «كانت البيرة أفضل وأرخص، فعندما كنت شابًا فقد كانت البيرة غير حادة، وكان الباينت منها بأربعة بنسات، وكان ذلك قبل الحرب».

فسأله "ونستون":

- «أي حرب؟».

فأجابه بغموض:

- «كلها».

رفع كأسه وشد كتفيه مرة أخرى قائلًا:

- «في صحتك».

وظلت تفاحة آدم في رقبته النحيلة تتحرك صعودًا ونزولًا بحركة سريعة.. حتى انتهى من شرب الكأس كاملًا. ذهب "ونستون" إلى البار، فأحضر نصفي لتر آخرين، من الواضح أن الرجل العجوز قد نسي ما قاله عن شرب لترٍ كامل.

قال "ونستون":

- «أنت أكبر سنًا مني بكثير، ولابد أنك كنت رجلًا ناضجًا قبل أن أولد، ولديك القدرة على تذكر ما كانت عليه الحياة تلك الأيام قبل الثورة، فكل من هم في نفس عمري لا يستطيعون معرفه

أي شيء عن تلك الفترة، فقط نستطيع أن نقرأ عنه في الكتب، ومن الممكن أن يكون ما نقرأه في الكتب خاطئ. ولهذا أحب أن أعرف رأيك في ذلك. تقول الكتب إن الحياة ما قبل الثورة كانت مختلفة تمامًا عما هي عليه الآن، فقد وصل الاضطهاد والعنف والفقر والظلم إلى أقصى حد، وكان غالبية عمال «لندن» لا يجدون ما يسد جوعهم منذ مولدهم وحتى موتهم، بينما الجزء الآخر حفاة لا يملكون أحذية ينتعلونها، فكانوا يعملون اثنتي عشرة ساعة يوميًا، وكانوا يتركون المدارس من سن التاسعة، وينام عشرة أفراد في غرفةٍ واحدة، وفي نفس الوقت كان هناك قلة من الناس يُقَدَّرون بحوالي بضعة آلاف فقط يسمون بالرأسماليين، كانوا أغنياء وأقوياء، كانوا يملكون كل شيء في المدينة، ويسكنون قصورًا فخمة ذات أبهة، في كلٍ منها ثلاثون خادم، وكانوا يستقلون سيارات أو عربات تجرها الخيول، ويشربون الشمبانيا ويرتدون القبعات العالية».

تهللت أسارير الرجل عند سماعه كلمة «قبعات عالية»:

- «جميل أنك ذكرتني بذلك، فقد تذكرتها بالأمس دون سببٍ واضح، فلم أر أي قبعة منذ سنينٍ طويلة، ولكن آخر مرة ارتديت فيها تلك القبعة كانت في جنازة زوجة أخي، وكان ذلك في... لا أستطيع تذكر التاريخ، لكن كان منذ حوالي خمسين عامًا، وكانت القبعة مستأجرة من أجل المناسبة.. أنت تدرك ذلك».

قال "ونستون" بنفاد صبر:

- «لم تكن القبعات الرسمية أمرًا مهما، فالأمر المهم هو هؤلاء الرأسماليين.. هم قلة من المحامين والقساوسة ومن اعتاشوا عليهم كانوا سادة الأرض، وأن كل ما عليها كان لأجلهم، وكنتم أنتم العمال عبيدًا لهم ويحق لهم أن يفعلوا بكم ما يحلو لهم، فكان بإمكانهم شحنكم على سفنٍ إلى كندا مثلما تشحن الماشية، وكان

بإمكانهم مضاجعة بناتكم إن أرادوا ذلك، وكانوا يأمرون بجلدكم بشيءٍ يسمى «القطة ذات التسعة أذيال»، وكان عليكم رفع القبعات إذا مروا بكم، كما كان لكل رأسمالي منهم بعصابة من الأذناب الذين...».

تهللت أسارير الرجل مرة أخرى وقال:

- «الأذناب! لم أسمع بهذه الكلمة منذ زمنٍ بعيد، فهذا يذكرني بالماضي، ماضي بعيدٍ وسنينٍ طويلة، إنني أتذكر أيام الحمير، فقد كان من عادتي أن أذهب عصر أيام الأحاد إلى «حدائق هايد بارك» لأستمع إلى الخطباء، فكان يأتي إلى هناك أناسٌ كثر على اختلاف مشاربهم، من جيش الخلاص، والروم، والكاثوليك، إلى اليهود والهنود، وكان هناك خطيبٌ لا أتذكر اسمه، لكنه كان متحدثًا قويًا يتحدث عن أذناب البرجوازيين، وخدم الطبقة الحاكمة، وتحدث عن الطفيليين، وكان هذا اسمًا آخر لهم، والضباع أيضًا.. وكان أيضًا يسمونهم الفعلة وكان هذا الاسم يطلق على العمال، لعلك تفهم ذلك».

شعر "ونستون" أن كلًا منهما في اتجاه، وأنهما يتحدثان عن أمرين مختلفين..

فقال "ونستون":

- «ما أود معرفته منك هو: هل تشعر أنك الآن تتمتع بحرية أكبر من حرية تلك الأيام؟ وهل تُعامل الآن كإنسان أكثر من ذي قبل؟ فهل كان الأغنياء في الماضي...».

قال الرجل العجوز متذكرًا:

- «مجلس اللوردات».

فقال "ونستون":

- «حسنًا كما تريد، مجلس اللوردات، ولكن ما أسألك عنه هو، هل كان هؤلاء الناس يعاملونك بتكبر لمجرد أنهم أغنياء وأنت فقير؟ وهل حقًا كان عليك خلع قبعتك عندما يمرون بكم وأن تخاطبهم بـ"سيدي"؟».

ظهر على الرجل وكأنه راح في تفكيرٍ عميق، شرب ربع الكأس وأجاب قائلًا:

- «نعم، كانوا يحبون أن تلمس قبعتك عند مرورهم، فكانت علامة احترام، فلم أكن أحب ذلك، ولكني كنت أقوم بها مضطرًا».

رد "ونستون" قائلًا:

- «هل كان من المعتاد لدى هؤلاء الناس وخدمهم أن يلقوا بك من الرصيف إلى البالوعات؟ أنا أنقل لك ما تم تدوينه في كتب التاريخ».

قال الرجل العجوز:

- «حدث ذلك ذات مرة، فقد رمى بي أحدهم، إنني أتذكر ذلك جيدًا وكأنه بالأمس. كانت ليلة سباق القوارب، وكان سباقهم عنيف جدًا وفظ أشبه بالشجار، اصطدمت بشابٍ في شارع شفتسيري دون قصد، كان سيدًا ويرتدي قميصًا ومعطفًا سوداوين وقبعة عالية، كان يسير متعرجًا على الرصيف، فاصطدمت به دن قصد، فقال: "ألا تنظر أمامك؟». فأجبت: "وهل هذا الرصيف ملكك؟».، فرد قائلًا: "سأفصل رأسك عن جسدك إذا تماديت في حماقتك"، فقلت: "أنت سكران، وسوف ألقنك درسًا لن تنساه"، فوضع يده على صدري ممسكًا بتلابيبي ودفعني، وكاد أن يوقعني تحت عجلات إحدى الحافلات. نعم، لقد كنت شابًا وكنت سأضربه ضربة مماثله، لولا...».

سيطر اليأس على "ونستون"، فالرجل لم يتذكر سوى أتفه الأمور، ولن يأخذ منه معلومات قيمة، فقد يكون تاريخ الحزب صحيحًا، ومع بعض التعديلات البسيطة يكون كل ما فيه صحيحًا، ولكنه قام بمحاولة أخرى وأخيرة.. فقال للعجوز:

- ربما لم يتضح لك ما أقصده، فما أحاول قوله هو الآتي: فأنت تعيش على هذه الأرض منذ زمنٍ طويل، وعشت جزءًا من حياتك قبل الثورة، فقد كنت قد بلغت الرشد عام 1925، فمن خلال ما تتذكر، فهل كانت الحياة برأيك عام 1925 أفضل مما هي عليه الآن أم أسوأ؟ وإذا خُيرت بين هذه الحياة وتلك، فماذا ستختار؟».

نظر الرجل العجوز نظرة تأملية تجاه لعبة السهام، وأكمل حديثه بنبرةٍ فلسفية تسامحية، كما لو أن البيرة كانت قد لينت من طباعه، فقال:

- «إنني أعلم ما تود أن أقوله لك، إنك تريدني أن أقول إني أتمنى أن أعود لسن الشباب، فكل الناس يتمنون ذلك حيث التمتع بالصحة والعافية، عندما تبلغ مبلغي فلن تكون في حالٍ جيد، فإنني الآن أعاني من ألمٍ خبيثٍ في قدمي، كما أن مثانتي في حالة اضطراب، فتضطرني إلى ترك الفراش عدة مرات في الليلة الواحدة، ولكن هناك الكثير من المميزات للتقدم في العمر، فلن يكن هناك من المشاكل ما ينغص عليك حياتك، ولا تكون مهتمًا بالنساء، فلم أقرب النساء منذ ثلاثين عامًا، ولهذا فائدة كبيرة إن كنت تعتب هذا ميزة طيبة، بل إنني لم أرغب في ذلك».

أسند "ونستون" ظهره على النافذة.. فلا فائدة من متابعة الحديث، وكان على وشك شراء المزيد من البيرة، إلا أن الرجل نهض فجأة متجهًا إلى المرحاض، فقد فعل به نصف لتر البيرة الإضافي ما فعل، أما "ونستون" فظل جالسًا محملقًا لدقيقة أو دقيقتين في كأسه الفارغ، ولم يشعر كيف حملته

قدماه خارج الحانة إلى الشارع الجديد، كان "ونستون" يفكر في إجابة هذا السؤال من حوالي ما يقرب من عشرين سنه: «هل كانت الحياة قبل الثورة أفضل مما هي عليه الآن؟»، لكن هذا السؤال ظل بلا جواب حتى الآن، فالباقون من العالم القديم لم تكن لديهم القدرة على مقارنة زمنٍ بآخر، فكانوا فقط يتذكرون التفاهات، شجارٌ مع زميلٍ في العمل، البحث عن منفاخ دراجة مفقود، أو تعبير وجهه، أخته التي توفيت منذ زمنٍ بعيد، أو زوابع الغبار صباح يوم عاصف منذ سبعين عامًا، هذا فقط ما يتذكرونه بينما الحقائق الهامة كانت بعيدة عن مجال رؤيتهم، فكانوا كالنمل، لا يستطيعون رؤية شيء سوى الأشياء الصغيرة، وعندما يؤثر العجز على الذاكرة، وتكون السجلات مزورة، فتصبح ادعاءات الحزب بتحسن الأوضاع بعد الثورة أمرًا قابلًا للتصديق، ولا يمكن أن يوجد أي دليل لإثبات صدق أو كذب هذه الادعاءات.

انقطع حبل أفكار "ونستون" فجأة... وتوقف عن السير ونظر حوله، فإذا به في شارعٍ ضيقٍ منتشرًا بين منازله حوانيت صغيرة معتمة، وتتدلى فوق رأسه مباشرةً ثلاث كرات معدنية بلا لون، يبدو وكأنها كانت ذهبية فيما مضى، وأحس أن المكان مألوف بالنسبةِ له، فقد كان يقف أمام الحانوت الذي اشترى منه دفتر مذكراته.

وسرت في جسده ارتعاشة خوف، فكان شراؤه لهذا الدفتر عملا طائشًا، وأقسم حينها ألا يعود لهذا المكان مرة أخرى، ولكن في اللحظة التي أطلق فيها العنان لأفكاره، قادته قدماه لهذا المكان مرة أخرى، فقد اشترى هذه المفكرة لتبعده عن الأفكار الانتحارية، وقد لفت انتباهه أن الحانوت ما زال مفتوحًا على الرغم من أن الساعة الآن التاسعة. دخل إلى الحانوت.. فشعر أن بدخوله للحانوت سيكون أقل عرضة للريبة والشك من تسكعه على الرصيف.. فإذا سُئل عن سبب تواجده، سيقول بثقة إنه يحاول شراء شفرة للحلاقة!

في تلك اللحظة قام صاحب الحانوت بإشعال مصباحًا زيتيًا يبعث رائحة قذرة، لكنها محتملة، كان الرجل في عمرٍ يناهز الستين ربيعًا تقريبًا، ضعيف البنية أحدب الظهر، له أنفٌ طويلٌ جميل، وعينان هادئتان شوهتهما نظارة سميكة، كان شعره أشيب، أما حاجباه فكانا أسودين كثيفين، فكانت النظارة وحركاته المهذبة وسترته العتيقة المخملية السوداء، تعطيه مظهرًا أنيقًا كرجلٍ مثقف، كما لو كان أديبًا أو موسيقيًا، وكان صوته هادئًا ويتحدث بأسلوبٍ أفضل من أسلوب عامة الناس.

وعلى الفور بدأ الرجل الحديث قائلًا:

- «لقد عرفتك عندما كنت على الرصيف. أنت الرجل الذي اشترى دفتر السيدة الحسناء ذا الورق الجميل. أعتقد أنه لم يتم صنعه منذ خمسين عامًا».

ثم نظر إلى "ونستون" من فوق نظارته قائلًا:

- «هل من خدمة أستطيع أن أقدمها لك؟ أم تريد أن تلقي نظرة فحسب؟».

قال "ونستون" بغموض:

- «كانت مارًا من هنا، وأردت أن ألقي نظرة، ولا أريد شيئًا محددًا».

قال الرجل:

- «حسنًا، ولكن لا يمكنني القول بأن لدي ما يرضيك».

قال ذلك وهو يشير بيده معتذرًا:

- «فكما ترى الحانوت فارغًا يخلو من البضاعة إلا القليل، ولا أخفيك سرًا.. إن تجارة الأشياء القديمة موشكة على الاختفاء، فلم يعد هناك طلبات، كما أنها لم تعد متوفرة، والأثاث والأواني الخزفية والزجاجية تتكسر، كما أن الأدوات المعدنية فُقدت، فلم تقع عيناي على شمعدانٍ نحاسي منذ سنوات».

كان الحانوت ممتلئ بالبضائع، ولكنها أشياء لا قيمة لها، ومساحة المحل صغيرة، فقد علقت على الجدران عددٌ كبيرٌ من إطارات الصور المغطاة بالغبار، كما كانت واجهة العرض تحتوي على أطباقٍ مملؤة بالجوز والمزاليج والأزاميل القديمة والسكاكين مكسورة النصول، وساعات يد باهتة يبدو أنها لا تعمل، بالإضافة إلى أشياءٍ أخرى لا قيمة لها على الإطلاق. وفي إحدى الزوايا كان هناك طاولة صغيرة وضعت عليها أشياءٌ غريبة، كانت علب سعوط مُلمّعة، وحُلي من العقيق، وما شابه ذلك، وهناك بعض الأشياء تبدو وكأنها ذو قيمة، وما أن تحرك "ونستون" باتجاه الطاولة.. حتى لفت انتباهه شيءٌ مستديرٌ أملس يلمع تحت ضوء المصباح، فالتقطه.

كان ذلك الشيء قطعه من الزجاج ثقيلة ومحدبة من جانب، ومسطحة من الآخر، تشبه نصف الكرة، وكان لون الزجاج نقيًا وذا جودة عالية، ونقي كنقاء ماء المطر، وفي داخله شيءٌ غريبٌ أحمر اللون، يشبه وردة أو عشبة البحر، وبسبب السطح الزجاجي المحدب ظهر ذلك الشيء بحجم أكبر من حجمه الحقيقي.

وبإعجابٍ شديد سأل "ونستون":

- «ما هذا؟».

فأجابه الرجل:

- «إنها مرجانٌ من المحيط الهندي، فجرت العادة أن يحفظوه في زجاج، فقد مضى عليها أكثر من مائة عام».

أجاب "ونستون":

- «إنها رائعة حقًا».

فرد الرجل بتباهٍ:

- «إنها رائعة حقًا، لكن لا وجود لمن يقدرون مثل هذه الأشياء هذه الأيام...

سعل الرجل...:

- «والآن.. إذا أردت شراءها فستكلفك أربعة دولارات، أتذكر عندما كان شيءٌ كهذا يساوي ثمانية دولارات، بل أكثر، لا أستطيع أن أحسبها، فقد كانت مبلغًا كبيرًا».

دفع "ونستون" المبلغ في الحال ووضع في جيبه هذه التحفة، لم يكن جمال تلك التحفة هو ما جذبه إليها، لكن ما جذبه إليها حقًا هو العبق الذي يحيط بها، لأنها تنتمي إلى عصرٍ مختلف غير هذا العصر، كان ذلك الزجاج الناعم الملمس ذو اللون الصافي كماء المطر مختلفًا عن أي زجاجٍ آخر رآه، وكانت جاذبيته مزدوجة بسبب عدم فائدتها الواضحة، ولكن من الممكن أن تكون قد استُخدمت كثُقلٍ يوضع على الورق، فعلى الرغم من ثقلها الشديد، إلا أنها لم تسبب بروزًا واضحًا في جيبه، وهذا لحسن حظه، فقد كان شيئًا مثيرًا للشك أن يمتلك عضوٌ من أعضاء الحزب أي شيء عتيق أو جميل، ظهرت على الرجل العجوز بهجة شديدة بعد أن استلم الأربعة دولارات، وهنا أدرك "ونستون" أنه كان سيقبل بثلاثة دولارات، أو حتى دولارين.

وقال الرجل:

- «في الطابق العلوي توجد غرفة، ربما تود أن تلقي عليها نظرة، ليس بها أشياء كثيرة، بل بعض القطع الصغيرة، وسنحتاج مصباحًا إذا صعدنا لأعلى».

أضاء الرجل مصباحًا آخر، وتقدم "ونستون" فصعد السلم البالي بظهرٍ منحنٍ وبخطواتٍ بطيئة، ثم مر في ممرٍ ضيقٍ يقود إلى غرفة لا تطل على الشارع، بل على فناءٍ مرصوف بالأحجار، وغابة من المداخن. لاحظ "ونستون" أن الغرفة مرتبة بشكلٍ يوحي بأن أحدٌ يعيش بها، كان على الأرض سجادة، وعلى الجدران لوحة أو اثنان، وبالقرب من المدفأة كان هناك مقعدٌ بذراعين، وعلى رف الموقد توجد ساعة زجاجية على الطراز القديم، مرقمة باثنتي عشر رقمًا، وكان هناك سريرٌ كبيرٌ تحت النافذة يحتل ربع مساحة الغرفة، وكان الفراش لايزال عليه.

قال العجوز بشيءٍ من الأسف:

- «لقد عشت هنا حتى وفاة زوجتي، وأنا أبيع هذا الأثاث شيئًا فشيء، هلا نظرت إلى ذلك السرير الجميل، إنه من الخشب الزان، أو سيكون كذلك إذا استطعت التخلص من البق الذي يعشش فيه، وإن كنت ستجد في هذ الأمر شيئًا من المشقة».

كان الرجل يرفع المصباح لأعلى حتى تُضيء الحجرة كلها، فظهرت الغرفة مغرية بشكلٍ غريبٍ في ذلك الضوء الخافت، وخطرت لـ "ونستون" فكرة... ألا وهي استئجار تلك الغرفة مقابل بضعة دولارات أسبوعيًا، ولكن كيف يجرؤ على هذه المخاطرة، ويجب عليه التخلي عن تلك الفكرة الطائشة بمجرد التفكير فيها، ولاستحالة تنفيذها. لكن الغرفة أيقظت فيه الحنين إلى الماضي، وتخيل جلوسه على المقعد ذي الذراعين بجوار المدفأة، مادًا قدميه على حافتها، والقهوة على الموقد، شاعرًا بعزلة وأمانٍ تام، دون مراقبة من أحد، أو صوتٌ يطاردك، ولا يشق ذلك الصمت سوى صوت غليان ودقات الساعة اللطيفة.

لم يستطع "ونستون" منع نفسه من التمتمة قائلًا:

- «لا يوجد شاشة رصد هنا».

قال الرجل العجوز:

- «نعم.. لم يكن لدي واحده، فإنها غالية جدًا ولم أشعر أنني بحاجة إليها، وهناك طاولة جميلة قابلة للطي، وإذا أردت استخدامها فستحتاج لمفصلاتٍ جديدة».

وجد "ونستون" نفسه منجذبًا إلى خزانة كتب في الزاوية الأخرى من الحجرة، ولكنه لم يجد فيها سوى بعض النفايات، فقد تم التفتيش عن الكتب وإتلافها بقدرٍ من الدقة في أحياء عامة الناس، كما جرى في كل الأماكن الأخرى. كما كان من المستبعد أن تجد في «أوقيانيا» أي نسخة من كتابٍ

مطبوعٍ قبل عام 1960، ما زال الرجل واقفًا حاملًا المصباح أمام لوحة من الورد معلقة على الجانب الآخر من المدفأة مقابل السرير.

وقال الرجل العجوز برقة:

- «والآن.. إن كنت من محبي اللوحات القديمة...».

اجتاز "ونستون" الغرفة لينظر إلى اللوحة نظرة فاحصة، فكانت عبارة عن نقشٍ من الفولاذ لبناءٍ بيضاوي ذي نوافذ مستطيلة، وبرجٍ صغير في المقدمة، وسياجٍ من القضبان الحديدية تحيط بالبناء، كما يوجد ما يشبه تمثال في النهاية، حدق "ونستون" بضع لحظات في البناء، وبدا وكأنه يعرفه، على الرغم من عدم قدرته على تذكره.

قال الرجل العجوز:

- «إن الإطار مثبتٌ في الحائط، ولكن يمكنني نزع المسامير إن كنت تريده».

رد "ونستون" أخيرًا:

- «أعرف هذا المبني، إنه أنقاض الآن، يقع في منتصف الشارع المؤدي إلى قصر العدل».

أضاف الرجل:

- «نعم هذا صحيح، إنه بالقرب من دار القضاء، وقد تعرض للقصف منذ سنواتٍ طويلة، فقد كان عبارة عن كنيسة تسمى كنيسة القديس كليمنت دان».

ابتسم الرجل ابتسامة اعتذار، كمن يدرك أنه قال شيئًا سخيفًا، ثم أضاف:

- «برتقال وليمون، تقول أجراس كنيسة القديس كليمنت!».

فقال "ونستون":

- «ماذا؟».

- «أوه.. برتقال وليمون تقول كنيسة القديس كليمنت، إنها أغنية كنا نرددها ونحن صغار، ولا أتذكر تكملتها، ولكن ما أتذكره أنها كانت تنتهي بمقطع (ها هنا تجد شمعة تستنير بها حتى الفراش، وها هنا منجل لحز رقبتك)، كانت رقصة من الرقصات، فكانوا يمدون أذرعهم حتى تمر من تحتها، وعندما يصلون إلى (ها هنا منجل لحز رقبتك)، كانت أذرعهم تهبط لتمسك بك.. كانت الأغنية مجرد أسماء لكنائس، فكانت كل كنائس «لندن» مذكورة فيها، بل الكنائس الرئيسية.

تساءل "ونستون" بغموض:

- «إلى أي قرن يعود بناء الكنائس؟ فمن الصعب أن تقدر عمر أي بناية في «لندن»، فأي بناية كبيرة ولافتة للنظر يدعون أنها شُيدت في عهد الثورة، وأي بناء آخر يبدو بوضوح انتماؤه إلى زمن ما قبل الثورة، فكان يُنسب إلى فترة غامضة تسمى القرون الوسطى، وأما عصر الرأسماليين فكان يُعتبر أنه لم ينتج شيئا ذا قيمة على الإطلاق، لذلك لم يستطع المرء معرفة شيئًا عن التاريخ من العمارة، أكثر مما يعرفه من خلال الكتب، فكان يتم تغيير وتحوير كل شيء يلقي الضوء على الماضي بشكلٍ ممنهج، كالتماثيل والنقوش والنصب التذكاري وأسماء الشوارع».

قال "ونستون":

- «لم أعرف أبدًا أنها كانت كنيسة».

قال العجوز:

- «هناك الكثير من الكنائس باقية في حقيقة الأمر، رغم أنها أصبحت مخصصة لأغراضٍ أخرى».

ثم استكمل حديثه قائلًا:

- «لقد تذكرت باقي الأغنية.. "برتقال وليمون تقول أجراس كنيسة القديس كليمنت، وتقول أجراس كنيسة القديس مارتن، أنت مدين لي بثلاثة فارذن"، هذا كل ما تسعفني الذاكرة على تذكره الآن، والفارذن كان عملة نحاسية صغيرة تشبه السنت».

سأل "ونستون":

- «أين كانت كنيسة مارتن؟».

- «سان مارتن؟ إنها ما زالت قائمة، وتقع في ساحة النصر بجوار معرض اللوحات. إنها مبنى له نوعٌ من رواقٍ أمامي مستطيل، وأعمدة في المقدمة، ودرجات كبيرة تصعد إليها».

عرف "ونستون" المكان جيدًا، كان عبارة عن متحفٍ لعرض معروضات دعائية من كل الأنواع كنماذج للقذائف الصاروخية والقلاع العائمة واللوحات الشمعية، تُصور الجرائم التي ارتكبها الأعداء وما إلى ذلك.

قال العجوز مستكملًا حديثه:

- «كانوا يطلقون عليه اسم القديس مارتن في الحقول! لكنني لم أذكر وجود حقول في أي مكان في تلك النواحي».

لم يشتر "ونستون" اللوحة، فقد كان تملكها لا فائدة له سوى إثاره الشكوك أكثر من تملك قطعة الزجاج، كما أنه من الصعب حملها إلى المنزل إلا إذا خرجت من إطارها. لكنه ظل هناك لبضع دقائق يتحدث مع العجوز الذي اكتشف أن اسمه "شارنغتون" وليس "ويكس" كما تفهم من النقوش على واجهه الحانوت. وكان أرمل يبلغ من العمر 63 عامًا، ويسكن ذلك الحانوت منذ ثلاثين عامًا، وطوال هذه المدة كان ينتوي تغيير الاسم الموجود على الواجهة لكنه لم يفعل، وطوال وقت حديثهما ظلت الترنيمة التي لم يتذكر الرجل سوى نصفها تتردد في رأسه.. "برتقال وليمون، تقول أجراس كنيسة كليمنت، وتقول أجراس كنيسة القديس مارتن أنك مدين لي بثلاثة فارذن"، كانت أغنيه غريبة.. لكن عندما ترددها بداخلك، فتشعر وكأنك

تسمع أجراس كنيسة حقًا. أجراس «لندن» المفقودة والتي لا تزال موجودة في مكانٍ ما مخفية ومنسية، ومن برج كنيسة شبحي لآخر، وهيئ له أن أصواتها المنبعثة من برجٍ لآخر تجلجل في أذنيه، ولكنه لم يكن قادرًا على تذكر أنه قد سمع أجراس كنيسة تدق خلال حياته كلها.

ترك "ونستون" السيد "شارنغتون" ونزل السلم بمفرده، حتى لا يراه العجوز وهو يستطلع أمر الشارع قبل الخروج من الحانوت. لقد انتوى أن يزور هذا الحانوت مرة أخرى بعد فترةٍ مناسبة.. شهر مثلًا، فلعل ذلك يكون أقل خطورة من التغيب عن أحد أمسيات المركز الاجتماعي، لقد كانت الحماقة والخطورة تكمن في العودة إلى هذا المكان بعد شراء المفكرة، دون التحقق من إن كان صاحب الحانوت أهل للثقة أم لا، ومع ذلك...!

فبالرغم من ذلك، فكر مرة أخرى أنه سيعود ثانية لشراء قطع أخرى من هذه المهملات، ولكي يشتري لوحة كنيسة القديس كليمنت المنقوشة، ولكن سيخرجها من إطارها ويأخذها إلى المنزل مُخفيًا إياها تحت سترة العمل الزرقاء، بل وسيستخلص تكملة الأغنية من ذاكرة الرجل العجوز، وخطرت على باله مرة أخرى تلك الفكرة الطائشة، فكرة استئجار الغرفة بالطابق العلوي، ولعل تفكيره هذا جعله ينسى حذره، ويخرج إلى الشارع دون أن يتطلع إليه حتى ولو مرة من خلال النافذة.

بدأ يهمهم لنفسه بنغمة مرتجلة: «أجراس كنيسة القديس كليمنت برتقال وليمون، وأنت مدينٌ لي بثلاثة فارذن».

وفجأة شعر وكأن قلبه تهاوى، وتجمد الدم في عروقه، وأن أمعاءه ذابت وتؤلمه كثيرًا، عندما رأى شخصًا قادمًا نحوه من الرصيف المقابل بملابس العمل الزرقاء، وكانت المسافة بينهما عشرة أمتار، إنها الفتاة ذات الشعر الأسود التي تعمل في دائرة الإثارة، كان الضوء خافتًا ولكنه لم يكن من الصعب عليه أن يميزها، حدقت به، ثم سارت وكأنها لم تره.

أحس "ونستون" لثوانٍ أن حركته قد شُلت، استدار يمينًا، ومضى متثاقلًا، ولم يدرك أنه يسير في اتجاهٍ خاطئ. فلقد وجد إجابه لأحد أسئلته، فقد تأكد من أنها تتجسس عليه وتراقبه، بل إنها لحقت به إلى هنا، فلم يكم من المعقول أن يكون سيرها في المساء نفسه، وفي الشارع الخلفي نفسه، بعيدًا عدة كيلومترات عن الأحياء التي يعيش فيها أعضاء الحزب مجرد صدفة. فلم يعد شيئًا مهمًا إن كانت جاسوسة لشرطة الرصد، أو مجرد جاسوسة هاوية دفعها فضولها لذلك، فالأهم أنها تراقبه ولعلها رأته عند دخول الحانوت.

كان مجهدًا جدًا، وكانت قطعة الزجاج تصطدم بفخذيه مع كل خطوه يخطوها، فراودته فكرة أن يلقي بها بعيدًا، وكان الألم في معدته هو الأسوأ وأحس أنه موشكٌ على الموت لو لم يجد مرحاض بشكلٍ فوري، لكن لا يوجد مراحيض عامة في مثل هذه الأحياء، مرت الأزمة تاركة خلفها ألمًا شديدًا.

كان الشارع عبارة عن زقاقٍ مسدود.. فتوقف "ونستون" لثوانٍ يفكر فيما يجب عليه فعله الآن، ثم استدار وعاد من حيث أتي، وحينها خطر بباله أن الفتاة مرت به منذ ثلاث دقائق فقط، وإذا أسرع الخطى يمكنه اللحاق بها وتتبعها إلى مكانٍ هادئ بعيدًا عن الأنظار فيحطم رأسها بحجر، أو بقطعة الزجاج التي في جيبه، فإنها ثقيلة بالقدر الكافي للقيام بهذه المهمة، لكنه استبعد هذه الفكرة لأنه لا يستطيع القيام بأي جهد جسدي، ولا يستطيع توجيه ضربة واحدة، وإضافة إلى ذلك.. فإن الفتاة قوية ويمكنها الدفاع عن نفسها، ثم خطر له فكرة أخرى، وهي أن يذهب مسرعًا إلى المركز الاجتماعي ويبقى فيه إلى أن يغلق أبوابه كدليلٍ على أنه كان متواجدًا هناك هذا المساء، لكن هذا ما كان مستحيلًا، فقد سيطر عليه التعب الشديد، وعليه أن يعود إلى المنزل ليستلقي في هدوء.

عاد إلى شقته وكانت الساعة قد تجاوزت العاشرة مساءً، وكانت تطفأ أنوار المدخل الرئيسي في تمام الحادية عشرة والنصف. دخل المطبخ فشرب حوالي ملء فنجان شاي من خمرة النصر، وتوجه إلى الطاولة في الزاوية،

وأخرج دفتره من الدرج، لكنه لم يفتحه، فكان ينبعث من شاشة الرصد صوت أنثوي نحاسي يصدح بأغنية وطنية، جلس يحدق في الغلاف المرمري محاولًا إبعاد الأغنية عن رأسه، لكن دون جدوى.

"كانوا يأتون ليلًا، ومن الأفضل أن تقتل نفسك قبل القبض عليك، ومن المؤكد أن الكثير سبقوك لذلك، فمعظم حالات الاختفاء كانت عمليات انتحار حقيقية، لكن الأمر يتطلب شجاعة ويأس، حتى تقتل نفسك في زمنٍ يصعب فيه الحصول على سلاحٍ ناري، او سم سريع المفعول».

راح يفكر بشيءٍ من الدهشة في عدم جدوى الخوف والفزع.. وفي تخاذل الجسد الذي تضعف قواه في اللحظات الحاسمة، فكان بإمكانه إخراس الفتاة لو كان تصرف بسرعة كافية، ولكن فقد القدرة على التصرف بسبب الخطر الذي أحاط به. وأدرك أن مواجهه الجسد أصعب بكثيرٍ من مواجهة العدو الخارجي، وحتى هذه اللحظات، وعلى الرغم من تناوله الخمر، إلا أن الألم في جوفه أفقده القدرة على التفكير بشكلٍ منطقي.

وأدرك أيضًا أن الإنسان يكون في مثل هذه الحالة في المواقف البطولية والمأساوية، ففي ساحة القتال، أو غرفة التعذيب، أو على متن سفينة تغرق، فإن القضايا التي تحارب لأجلها تصبح طي النسيان، لأن الجسد ينتفخ ويتضخم حتى يملأ الكون، فلا تستطيع أن ترى غيره، وحتى إذا لم تصب بالشلل من الرعب وألم التعذيب، فالحياة تصبح صراعًا في مواجهة الجوع والبرد والأرق، أو مواجهه تقرح المعدة أو ألم الأسنان.

فتح مفكرته، وشعر بأن هناك أمرًا مهمًا عليه تدوينه، لكن الصوت الأنثوي في الشاشة بدأ أغنية جديدة، وأحس أن صوتها يصطدم برأسه كشظايا من الزجاج، فحاول التفكير في "أوبراين" الذي بدأ الكتابة من أجله أو إليه، ولكن بدلًا من ذلك بدأ يفكر فيما سيحدث له بعد أن تقبض عليه شرطة الفكر. ليس القتل أمرًا مهمًا، فهذا شيءٌ متوقع، ولكن المهم هو أحداث ما قبل الموت.. (فأي أحد يتحدث عن تلك الأمور على الرغم من

معرفة الجميع بها)، فعليك أن تمر بمرحلة الاعتراف، فتبدأ بالزحف على الأرض صارخًا مرتجيًا الرحمة، وطقطقة العظام المتكسرة، والأسنان المحطمة، ونزع خصلات الشعر من رأسك حتى تدميه. فلماذا تحتمل كل ذلك طالما النهاية واحدة؟ ولماذا لا يمكنك اقتطاع بضعة أيام أو أسابيع من حياتك؟ فلم يفلت أحد من المراقبة، ولا مفر من الاعتراف. وبمجرد اعترافك بجريمة فكر، فمن المؤكد أن يصبح موتك مسألة وقت، فلماذا إذًا ذلك الرعب؟

نجح بعض الشيء في استجلاب صورة "أوبراين"، فقال له "أوبراين" في حلمه: «سنلتقي في مكانٍ لا ظلمة فيه»، كان يعرف معاناة "أوبراين" أو هُيئ له ذلك، فالمكان الذي لا ظلمة فيه هو المستقبل الذي يتخيله، ولا يمكنه أن يراه، ولكن يمكنه استشراقه والمشاركة فيه سرًا، إلا أنه عجز عن متابعة تسلسل أفكاره بسبب الصوت الصادر عن الشاشة، والذي كان يُصفر أذنيه. وضع سيجارة في فمه، ولكن سرعان ما تناثر نصف تبغها على لسانه كالغبار اللاذع، الذي كان من الصعب إخراجه من فمه مرة أخرى. راح وجه الأخ الأكبر يلوح في ذهنه بدلًا من وجه "أوبراين"، وكما فعل قبل أيام قليلة، قام بإخراج قطعة نقود معدنية من جيبه، فنظر إليها.. فحدق إليه ذلك الوجه بنظرة هدوء ورزانة وحماية، ولكن أي ابتسامة تلك التي يخفيها تحت هذا الشارب الأسود؟ وترددت في ذهنه أصداء كلماتٍ كدقات الناقوس:

«الحرب هي السلام»..

«الحرية هي العبودية»..

«الجهل هو القوة»..

الجزء الثاني

الفصل الأول

كان الوقت منتصف النهار عندما غادر "ونستون" مكتبه ذاهبًا إلى المرحاض.. وكان شخصًا مقبلًا نحوه من الطرف الآخر للممر الطويل ذي الإنارة الساطعة. إنها الفتاة ذات الشعر الأسود. قد انقضت أربعة أيام منذ صادفها قرب حانوت الخردوات. عندما اقتربت منه رأى أن ذراعها اليمنى معلقة في رقبتها برباط، لم يستطع أن يراه عن بعد لأن لونه شبيه بلون ملابس العمل. ربما كانت قد سحقت يدها وهي تحاول إدارة واحدة من تلك الآلات الضخمة «كاليدوسكوب»، التي تتم فيها الحبكة القصصية. وكان هذا الحادث أمرًا شائعًا في دائرة الإثارة.

كانت تفصل بينهما مسافة أربعة أمتار تقريبًا عندما تعثرت الفتاة وسقطت على وجهها فصرخت صرخة ألم مدوية، لابد أنها سقطت على ذراعها المصابة. توقف "ونستون" عن سيره في حين كانت الفتاة قد نهضت على ركبتيها وقد شحب وجهها وبدت شفتاها أكثر احمرارًا، وكانت عيناها تحدقان بوجهه وقد ارتسمت فيهما نظرة تطلب منه أن يساعدها، نظرة هي أقرب إلى الخوف منها إلى الألم.

خفق قلب "ونستون" بعاطفةٍ غريبة، فالتي أمامه هي عدوٌ كان يسعى للفتك به، لكنها أيضًا مخلوقة بشرية تتألم، ولربما يكون ساعدها قد كُسر مرة أخرى. وبغريزته الإنسانية تقدم نحوها ليأخذها بيدها. فحينما رآها تسقط فوق ذراعها المضمدة شعر كما لو أن الألم قد سرى إلى جسده هو. وسألها:

- «ألم تتأذ من كسر؟».

- «لا، لا شيء.. إنني بخير.. سوف تصبح على ما يرام في الحال».

كانت تتكلم وقلبها يخفق بشدة، أما وجهها فقد شحب شحوبًا شديدًا.

ومدت يدها السليمة إليه، فساعدها على الوقوف. كانت قد استعادت بعضًا من لونها وبدا أنها صارت أحسن حالًا بكثير.

رددت باقتضاب:

- «لم يحدث شيء، فكل ما في الأمر أن معصمي ارتطم بالأرض.. شكرًا لك يا رفيق!».

ثم مضت في الاتجاه نفسه الذي كانت تسير فيه من قبل، سارت بخطى ثابتة وسريعة كما لو لم يصبها شيء.

لم تستغرق هذه الحادثة أكثر من نصف دقيقة. لقد كان الحرص على عدم سماح المرء لمشاعره على وجهه بمثابة عادة صارت أشبه بالغريزة، فقد كانا يقفان أمام شاشة الرصد مباشرة عندما وقع الحادث، ومع ذلك كان من العسير جدًا على "ونستون" أن يكتب شعور الدهشة الذي ارتسم على وجهه، إذ أثناء الثانيتين أو الثلاث التي أعان خلالها الفتاة على النهوض، حدث أنها دست شيئًا في يده، ولم يكن هناك شك في أنها فعلت ذلك عن قصد. كان هذا الشيء صغيرًا ومنبسطًا، وعندما ولج من باب المرحاض نقله من يده إلى جيبه حيث تحسسه بأطراف أصابعه. كانت قصاصة من الورق مطوية. وعندما كان واقفًا أمام المبولة فتح الورقة وقال في نفسه: «من الواضح أن تلك الورقة تحمل رسالةً ما»، وراودته نفسه للحظة أن يقرأ الرسالة في التو والحال، لكن من شأن هذا أن يكون غباءً فظيعًا.. كان يعرف ذلك! فمن المؤكد أن شاشات الرصد تعمل ليل نهار في هذا المكان، فقفل راجعًا إلى مكتبه. جلس وألقى بقصاصة الورق بغير اهتمام بين الأوراق الأخرى المرصوصة فوق مكتبه، وأحس بقلبه يخفق خفقاتٍ مدوية، وكان من حسن حظه أن المهمة المسندة

إليه في تلك اللحظة كانت عملًا روتينيًا محض، إذ كان يصحح قائمة مطولة من الأرقام، وهو الأمر الذي لا يتطلب انتباهًا شديدًا.

وقال في نفسه أيًا كان ما هو مكتوب في الرسالة، فلا بد أنه سيكون ذا مغزى سياسي. فكر في تلك اللحظة باحتمالين.. أولهما، هو الأكثر رجحانًا، أن الفتاة تعمل جاسوسة لحساب شرطة الفكر، وهو ما كان يخشاه، لكنه لم يفهم لماذا لم تلجأ شرطة الفكر لهذه الطريقة لتوصيل رسائلها، لعل لديهم من الأسباب ما يفسر ذلك. فلربما في الرسالة تهديد أو استدعاء أو أمر بالانتحار أو فخٌ ما يُنصب له. أما عن الاحتمال الآخر، فقد كان أكثر جنونًا، كان يساور "ونستون" رغم أن "ونستون" قد حاول دون جدوى أن يكبته، ومفاده أن هذه الرسالة ليس ثمة ما يربطها بشرطة الفكر على الإطلاق إذ أنها مرسلة من إحدى المنظمات السرية.

فلعل لجماعة «الأخوة» وجود، ولعل الفتاة منضوية في عضويتها. لا ريب في أن هذه الفكرة كانت عبثية، ولكنها انبجست في خاطره منذ شعوره بالورقة في يده.. ولم تكد تمر دقيقتان حتى كان التفسير الأول والأرجح قد خطر بباله ثانية. وحتى الآن ورغم أن عقله أوحى إليه أن هذه الرسلة قد تعني موته، فإنه لم يصدق ذلك وظل متشبثًا بأهداب أملٍ واهٍ، في حين يدق بعنف محاولًا كبت أثر ارتعاشة على صوته وهو يهمهم بالأرقام إلى آلة التسجيل.

لف رزمة كاملة من أوراق العمل ثم زج بها في الأنبوب الهوائي..

ثماني دقائق كانت قد مضت حين أعاد تثبيت نظارته فوق أنفه وتنهد، ثم جذب مجموعة أخرى من أوراق العمل وقد وضعت قصاصة الورق فوقها، وما إن فضها حتى رأى الكلمة التالية مكتوبة فوقها بخط كبير:

- «أحبك».

تملكه ذهولٌ شديد لعدة لحظات، حتى أنه نسي أن يلقي بأداة الجريمة في قبور الذاكرة. وحينما فعل ذلك، ورغم إدراكه للخطر الذي ينطوي عليه

إبداء أي اهتمام زائد، فإنه لم يقدر على منع نفسه من قراءتها مرة ثانية، وفي الحال، حتى يطمئن قلبه إلى أن الكلمة موجودة حقًا.

وكان من العسير عليه أن يواصل العمل لما تبقى من وقتٍ في ذلك الصباح. ولم يكن أشق عليه من التركيز على ما بين يديه من مهامٍ مزعجة، إلا ضرورة إخفائه لما يختلج وجهه من انفعال أو اضطراب عن شاشة الرصد، وشعر كأن نارًا أشعلت في ضلوعه. كان تناوله لطعام الغداء في المطعم الحار والغاص بالموظفين والمليء بالضوضاء بمثابة عملية تعذيب. فقد كان يأمل أن يختلي بنفسه أثناء ساعة الغداء، لكنه ولسوء حظه، فإن الأحمق "بارسونز" قد حشر نفسه بكل سماجة بجانبه، وقد فاقت رائحة عرقه الكريهة رائحة الطعام المسلوق، ومضى "بارسونز" يثرثر حول الاستعدادات لأسبوع الكراهية مبدٍ حماسته بشكلٍ خاص لنموذج لوجه الأخ الكبير، عرضه متران ويجري إعداده بواسطة فرقة الجاسوسات، التي تنتمي إليها ابنته، خصيصًا لهذه المناسبة. ولم يكن "ونستون" يستطيع سماع ما يقوله "بارسونز" وسط الضوضاء مما يضطره إلى تحمل إزعاج تكرار "بارسونز" لبعض ملاحظاته السخيفة. وقد لمح الفتاة ذات مرة وهي جالسة مع فتاتين أخريين حول إحدى الموائد في الطرف الآخر من قاعة الطعام. ويبدو أنها لم تره، أما هو فلم يكرر النظر في اتجاهها.

كانت فترة الظهيرة أهون عليه بعض الشيء. فقد أسند إليه عمل دقيق صعب بعد الغداء مباشرة، يتطلب عدة ساعات ويستلزم منه تركيزًا، حيث يتطلب تنحية كل ما عداه جانبًا. كان العمل هو تزوير بعض تقارير الإنتاج الصادرة منذ سنتين بطريقة تثير علامات استفهام حول نزاهة عضو بارز في قيادة الحزب، وقد غدا في وضعٍ مزعزع. كان "ونستون" يجيد أداء مثل هذا اللون من العمل، بالتالي فقد تمكن من إبعاد الفتاة عن ذهنه لأكثر من ساعتين. ولكن عادت ذكراها ترتسم أمام عينيه، وحلت به رغبة جامحة غير محتملة في الانفراد بنفسه حتى يتمكن من التفكير في هذا التطور الجديد،

وهو ما سيكون مستحيلًا دون أن يختلي بنفسه. كانت تلك الليلة هي إحدى الليالي التي يتعين عليه فيها الذهاب إلى المركز الاجتماعي. ازدرد وجبة طعام أخرى لا طعم لها، ثم سارع إلى المركز وشارك في سخافة من سخافات «مجموعة النقاش»، ثم لعب شوطين من كرة الطاولة وشرب عدة كؤوس من الخمر، وجلس نصف ساعة يستمع لمحاضرة بعنوان «علاقة الانجسوك - الاشتراكية الإنجليزية بالشطرنج»، تلوت روحه ضجرًا، لكنه هذه المرة لم تكن لديه الرغبة في التهرب من قضاء تلك الليلة في المركز. إذ بعد رؤيته لكلمة «أحبك»، شعر برغبة تنبجس بين حناياه في أن يظل على قيد الحياة، وبدا له فجأة أن من الحماقة أن يجازف نفسه في مثل هذه المجازفات البسيطة. لم تكن ساعة قد بلغت الحادية عشرة مساءً حينما عاد إلى شقته واستلقى على فراشه في الظلام، حيث يكون بمأمن من شاشة الرصد إن هو التزم الصمت، لكن كان في مقدوره أن يسترسل في التفكير دون أن ينقطع تفكيره.

وكانت هناك مشكلة مادية تتطلب حلًا هي: «كيف يتصل بالفتاة ليرتب لقاءً معها؟»، لم يضع في حسبانه أبدًا احتمال أنها تنصب له فخًا من نوعٍ ما، وقد تأكد له ذلك بسبب ما اعتراها من اضطراب حينما أودعته القصاصة. فقد كان جليًا أن نوبة من الهلع قد انتابتها إلى درجة أخرجتها عن صورتها المعروفة، ولم يخطر على باله البتة أن يتمنع عن قبول هذه البادرة منها، رغم أنه كان يفكر قبل خمس ليال في تهشيم رأسها بحجر. لكن ذلك لم يعد ذو أهمية الآن. وراح يفكر في جسدها العاري البض مثلما رآه في الحلم. كان يتصور أنها حمقاء كبقية فتيات جيلها، وأن رأسها محشو بالحقد والأكاذيب وجوفها مملوء بالجليد، ولذا فقد انتابته نوبة من حمى الخوف حينما خطر بباله احتمال فقدانه لها، وإفلات جسدها الأبيض البض من بين يديه! وكان أخشى ما يخشاه هو أن يتغير رأيها إذا هو لم يبادر إلى الاتصال بها. ولكن الصعوبات العملية التي كانت تحول دون تحقق ذلك اللقاء كانت جمة. كان أمره أشبه بأمر من يحاول تحريك قطعة شطرنج فيما الموت يحاصر الملك.

فأينما تول وجهك تر شاشة الرصد. وفي واقع الحال فإن كافة وسائل الاتصال بها قد خطرت بباله خلال خمس دقائق من قراءته للرسالة، ولكنه الآن وبعدما أصبح لديه متسعٌ من الوقت للتفكير، أخذ يستعرضها واحدة تلو أخرى كما لو كان يصف مجموعة من الأدوات على مائدة.

من الواضح أن تكرار اللقاء على النحو الذي جرى هذا الصباح كان أمرًا مستحيلًا.. فلو أن عملها كان في دائرة السجلات لكان الأمر هينًا نسبيًا، لكنه لم يكن يملك إلا فكرة غامضة جدًا عن موقع دائرة الإثارة في المبنى، ولا يملك ذريعة للذهاب إلى ذلك القسم. ولو أنه كان يعرف أين تقطن وفي أي وقت تنصرف من العمل لتعمد مقابلتها في طريق عودتها إلى منزلها. بيد أن تتبعها إلى منزلها لم يكن أمرًا مأمونة عواقبه، لأن ذلك يعني التسكع خارج الوزارة، وهو أمر يحتمل أن يلفت إليه الأنظار. وأما فكرة أن يبعث لها برسالة عبر البريد فأمر غير ممكن بتاتًا، إذ كانت الرسائل تفتح عند نقلها طبقًا لنظام متبع ومعلن، ومن ثم كان يقدم على كتابة خطابات إلا قلة من الناس. وحينما تستدعي الضرورة إرسال بعض الرسائل كان الناس يلجأون إلى بطاقات مطبوعة تتضمن قائمة من العبارات الجاهزة، ويكفي المرء آنذاك أن يشطب على العبارات التي لا تتناسب مع موضوع رسالته. وفي نهاية المطاف استقر رأيه أن آمن مكان يلتقيان فيه هو المطعم. فإذا استطاع أن يشير إليها لكي تجلس بمفردها إلى منضدة في منتصف قاعة الطعام بعيدًا عن شاشة الرصد، ووسط ضجيجٍ كافٍ من الأصوات ليغطي على الحديث بينهما، إذا أمكن تحقيق هذه الشروط في مدى 30 ثانية فبإمكانهما أن يتبادلا بعض الكلمات.

كانت الحياة تشبه حلمًا مضطربًا طيلة أسبوعٍ كامل بعد ذلك اليوم. ففي اليوم التالي لم تظهر الفتاة في المطعم إلا لحظة انصرافه، وكانت صافرة بدء العمل قد سُمعت، فظن أنها غيرت نوبة عملها إلى نوبةٍ أخرى. واجتاز كلاهما الآخر دون أن يرفع إليه ناظريه. وفي اليوم الذي تلى ذلك، كانت الفتاة

في المطعم في الوقت نفسه، لكنها كانت بصحبة ثلاث فتيات أخريات، وكن يجلسن أسفل شاشة الرصد مباشرة. ثم مرت عليه ثلاثة أيام ثقيلة لم تظهر خلالها على الإطلاق، وبدا له أن عقله وجسده قد أصيبا بحساسية مفرطة أو بنوعٍ من الشفافية جعل كل لفتة وكل صوت وكل تماس وكل كلمة، كان لزامًا عليه أن ينطق بها أو يصغي إليها، لونًا من ألوان العذاب. وحتى في نومه لم يكن قادرًا على تجنب صورتها. وفي خلال هذه الأيام لم يمس مفكرته، وإذا كان من راحة فقد كان يلتمسها في أوقات عمله حين يكون بمقدوره أن ينسى نفسه في غمرة العمل لمدة أقصاها عشر دقائق. كان واضحًا أنه ليس لديه أي دليل أو تفسير لما قد لحق بالفتاة، ولا يمكن أن يسأل عنها. ربما تكون قد راحت ضحية عملية تصفية، أو ربما تكون قد انتحرت أو نُقلت إلى الطرف الآخر من «أوقيانيا». لكن الأسوأ من هذا كله، والأكثر احتمالًا وأرجحها على الإطلاق أنها قد غيرت رأيها وقررت أن تتجنبه.

وفي اليوم التالي عاودت الفتاة الظهور وقد حررت ذراعها من رباطه مكتفية بوضع ضمادة حول معصمها. وكانت رؤيته لها مبعثًا لارتياحٍ غامر لديه، حتى أنه لم يستطع مقاومة الرغبة في النظر إليها مباشرة لعدة ثوان. وفي اليوم التالي كان قاب قوسين أو أدنى من إمكانية التحدث إليها، إذ عندما دخل المطعم كانت تجلس إلى مائدة بعيدة عن الحائط وكانت بمفردها. وما كان الوقت مبكرًا، فإن المطعم لم يكن ممتلئ. وتحرك الطابور إلى الأمام حتى أصبح "ونستون" أمام طاولة تسليم الطعام، ثم توقف لدقيقتين لأن شخصًا من الذين يتقدمونه في الصف راح يشكو من عدم تسلمه قرص السكر. ولكن الفتاة كانت لا تزال بمفردها عندما أكمل "ونستون" صينيته وبدأ يسير متظاهرًا بعدم الاكتراث، بينما كانت عيناه تبحثان في المكان عن مائدة تقع خلفها. وسار نحوها حتى بات لا يفصله عنها سوى ثلاثة أمتار. ولم يبق غير ثانيتين ويتحقق مراده. وعندئذ سمع صوتًا قادم من خلفه ينادي "سميث».. فتظاهر بعدم سماع الصوت. فعاد الصوت يكرر النداء "سميث».. فأدرك

أنه لا فائدة من التظاهر بعدم السماع، واستدار يتطلع وراءه فإذا به يرى ذلك الشاب الأشقر الشعر الغبي، الذي يُدعى "ويلشر" والذي بالكاد كان يعرفه، يدعوه مبتسمًا لمكانٍ شاغرٍ بجانبه، ولم يكن رفضه لتلك الدعوة بمأمون العاقبة. فبعد أن عرفه بعض من في المطعم لم يعد بمقدوره أن يذهب ويجلس قبالة مائدة تجلس إليها فتاة بمفردها، فقد كان ذلك لافتًا للأنظار ولذا جلس مع "ويلشر" وعلى شفتيه ابتسامة غير ودية، وتهلل لذلك وجه الشاب الغبي. وعندئذ تراءى لـ "ونستون" أن يحطم هذا الوجه بفأسٍ فيشقه نصفين.. وما هي إلا دقائق قليلة حتى كانت مائدة الفتاة قد امتلأت.

ولكن لابد أنها رأته مقبلًا صوبها، ولربما فهمت ذلك كإشارة منه.. وفي اليوم التالي حرص "ونستون" على المجيء إلى المطعم مبكرًا، كانت جالسة بمفردها في المكان نفسه. وكان يتقدمه في الطابور مباشرة رجلٌ ضئيل الجسم سريع الحركة، أشبه بالخنفساء ذو وجهٍ منبسط، وعينين صغيرتين مريبتين، وما أن ابتعد عن طاولة التوزيع وهو يحمل صينيته حتى اتجه إلى مائدة الفتاة مباشرة، فضاعت آمال "ونستون" الذي تبعه وقد تجمد الدم في عروقه، ولكن لا جدوى من لقائه بالفتاة ما لم يكن على انفراد. في هذه اللحظة سمع صوت ارتطام.. وإذا بالرجل الضئيل قد هوى أرضًا على أطرافه الأربعة بينما طارت الصينية في الهواء وجرى منها جولان من الحساء والقهوة فوق أرضية القاعة. نهض الرجل على قدميه وهو يرمق "ونستون" بنظرات عدائية. كان واضحًا أنه يشك في أن "ونستون" هو الذي جعله يتعثر في مشيه، لكن الأمر مضى على خير.. وبعد خمس ثوان كان "ونستون" يجلس إلى مائدة الفتاة.. كانت دقات قلبه ترتفع كالرعد.

لم يرفع نظره إلى عينيها.. بل أخذ ينقل أوعية الطعام من الصينية إلى الطاولة، وشرع في التهام طعامه على الفور. كان أمرًا بالغ الأهمية أن يبادر بالحديث إليها قبل مجيء أي شخص آخر، ولكن شعورًا فظيعًا بالخوف قد انتابه، فقد انقضى أسبوع كامل على أولى بوادرها نحوه، ولربما تكون قد

غيرت رأيها، بل لابد أنها قد غيرت رأيها! كان من المستحيل أن تكلل مثل هذه العلاقات بالنجاح. إن ذلك لا يحدث على أرض الواقع. ولعله كان سيحجم عن الحديث إليها لولا رؤيته "إمبلفورث" في تلك اللحظة، الشاعر ذا الأذنين كثيفتي الشعر، وهو يتجول في أنحاء قاعة المطعم على مهل.. ومعه صينية باحثًا عن مكانٍ شاغر. كان ثمة وشيجة غامضة تربط "إمبلفورث" بـ "ونستون" ومن المؤكد أنه لن يتردد في الجلوس معه إن هو رآه. لم يكن أمام "ونستون" غير دقيقة واحدة للعمل. كان "ونستون" والفتاة منهمكَيْن في التهام الطعام دون توقف. وكان ما يتناولانه عبارة عن حساء فاصوليا. وبصوتٍ هادئ وأشبه بالغمغمة كسر "ونستون" حاجز الصمت بينهما دون أن يرفع أي منهما عينيه عن صينيته مواصلين تناول الحساء. وبين ملعقة وأخرى تبادلا بعض الكلمات الضرورية بصوتٍ خفيض ودون أن يعتري وجههما أي انفعال.

- «أي وقت تغادرين عملك؟».
- «السادسة والنصف مساءً».
- «أين نستطيع اللقاء؟».
- «ساحة النصر.. قرب النصب».
- «إنها مليئة بشاشات الرصد».
- «لا أهمية للشاشات إذا كان المكان مزدحمًا بالناس».
- «هل من إشارة؟».
- «كلا، لا تقترب مني إلا إذا رأيتني بين حشدٍ من الناس، ولا تنظر نحوي.. بل ابق على مقربة مني».
- «في أي ساعة؟».
- «السابعة مساءً».
- «لا بأس».

لكن "إمبلفورث" لم ير "ونستون"، فجلس إلى مائدة أخرى. أما "ونستون" والفتاة فلم يتبادلا كلمة واحدة بعد ذلك، وكانا يتحاشيان تبادل النظر ما استطاعا إلى ذلك سبيلًا. فرغت الفتاة من غدائها على عجل وانصرفت، في حين بقي "ونستون" يدخن سيجاره.

وصل "ونستون" إلى ساحة النصر قبل الموعد المضروب، وراح يتجول حول النصب الهائل الحجم ذي الشكل الأسطواني، الذي ينتصب على قمته تمثالٌ للأخ الكبير محدقًا نحو الجنوب.. في السماء.. حيث عقد له النصر على الطائرات الأوراسية - قبل سنوات كانوا يقولون طائرات شركسيا - في معركة خاضتها المحطة الجوية رقم (1) في الشارع، وأمام التمثال كان هناك تمثالٌ آخر لرجلٍ على صهوة حصان.. من المفترض أنه "أوليفر كرومويل"، مضت خمس دقائق على الموعد ولم تظهر الفتاة.. فانتاب "ونستون" خوفٌ شديدٌ من جديد، إذ ظن أنها لن تأتي وأنها قد غيرت رأيها.. راح يتقدم ببطءٍ إلى الطرف الشمالي من الساحة، وقد علا وجهه نوعٌ من السرور الباهت عندما وقعت عيناه على كنيسة «القديس مارتن» التي كانت أجراسها، حينما كانت لها أجراس، تدق نغمات «أنت مدينٌ لي بثلاث فارذن». ثم فجأة رأى الفتاة واقفة عند قاعدة التمثال وهي تقرأ، أو تتظاهر بقراءة ما كُتب على قاعدة التمثال، ولم يكن من المأمون أن يقترب منها قبل أن يتجمع المزيد من الناس حولها، فشاشات الرصد تملأ المكان.. بيد أنه في هذه اللحظة انبعث صوت هتافات وسمع أزيز عربات ثقيلة تنطلق من الناحية اليسرى. وفجأة سادت حالة من الهرج والمرج في الساحة. تسللت الفتاة من بين تماثيل الأسود عند قاعدة النصب، ثم غرقت في الزحام.. وتبعها "ونستون" بينما كان يعلن أن قافلة من أسرى الحرب الأوراسيين كانت تمر.

كانت جماهير كثيفة من الناس قد تقاطرت على الساحة حتى أغلقت طرفها الجنوبي. فرأى "ونستون" نفسه، وهو الذي في الأوقات العادية ينأى عن كل أشكال العراك، وقد راح يشق طريقه بالمناكب، ويدفع ويلكز ليشق

طريقه إلى وسط الحشود. وسرعان ما بات على مبعدة ذراعٍ واحدة من الفتاة. ولكن الطريق كان مسدودًا برجلٍ ضخم الجثة من العامة، وامرأة بحجمه تقريبًا، ربما تكون زوجته، وكأنهما يشكلان معًا حائطًا بشريًا لا يمكن اختراقه. شق "ونستون" طريقه بصعوبة حتى حشر كتفه بينهما بعنف. للحظة من الزمن أحس وكأن أحشاءه قد انسحقت بين هاتين الكتلتين من اللحم، لكنه نجح في اختراقهما وقد تصبب عرقًا. أخيرًا وجد نفسه إلى جانب الفتاة كتفًا لكتف، وكلاهما يحدق أمامه دون أن يلتفت إلى الآخر.

كان هناك رتلٌ طويلٌ من الشاحنات، تحمل حراسًا ذوي وجوهٍ خشبية ومسلحين بالبنادق الآلية، يقفون منتصبين في كل زاوية من زوايا الشاحنات، يمر ببطء في الشارع.. وفي الشاحنات كان يجلس رجال ضئيلو الأجسام ذوو بشرةٍ صفراء وثيابٍ خضراء رثة، اكتظت بهم الشاحنات وراحت وجوههم المنغولية البائسة تحدق من فوق جوانب الشاحنات فاغرين أفواههم غير عابثين بشيء. وكنت تسمع من حينٍ لآخر قعقعة الأغلال الحديدية التي سُربلوا بها كلما تأرجحت شاحنة. شاحنات تلو شاحنات من الأسرى المساكين كانت تمر.. وكان "ونستون" يشعر بوجود هذه الوجوه لكنه كان يراهم على نحوٍ متقطع، إذ كانت الفتاة تقف بجانبه وقد التقت ذراعها اليمنى بمرفقه، وكانت وجنتها قريبة منه بحيث كان يحس حرارتها. وسرعان ما أمسكت الفتاة بزمام الموقف مثلما فعلت حينما كانت في المطعم. وبادرته بالكلام وبالصوت نفسه الخالي من الانفعالات كالعادة، حيث كانت شفتاها لا تتحركان إلا بالكاد.. ولا يخرج منهما إلا همسٌ يكاد يضيع وسط طنين الأصوات وقرقعة الشاحنات.

- «هل تسمعني؟».
- «نعم».
- «هل يمكنك التغيب عن العمل بعد ظهر الأحد؟».
- «نعم».

- «إذًا، أصغ إليّ جيدًا.. وانتبه جيدًا لكل ما سأقوله، اذهب إلى محطة بادنجتون».

وبدقة عسكرية أدهشته، أخذت تشرح له تفاصيل الطريق الذي يجب أن يسلكه كالتالي: "رحلة بالقطار تستغرق نصف ساعة، ثم الانعطاف يسارًا خارج المحطة، ثم السير كيلو مترين على امتداد الطريق حتى يصل إلى بوابة نُزع قضيبها العلوي.. اعبرها إلى ممرٍ عبر الحقوق يؤدي إلى دربٍ مغطى بالعشب عبر شجيراتٍ صغيرة، إلى أن تصل إلى شجرةٍ ميتة عليها طحالب كثيرة. بدا الأمر كما لو كانت تحمل خريطة داخل رأسها.

تمتمت أخيرًا:

- «هل تستطيع أن تتذكر هذا كله؟».
- «نعم».
- «انعطف يسارًا ثم يمينًا، فيسارًا ثانية، لتجد بوابة نُزع قضيبها العلوي».
- «نعم.. لكن في أي وقت؟».
- «في حدود الثالثة، ربما ستضطر للانتظار.. فسوف أصل عبر طريقٍ آخر. هل تثق أنك تتذكر جيدًا كل ما قلت؟».
- «نعم».
- «إذًا، ابتعد عني بأسرع ما يمكن».

لم تكن تحتاج إلى قول ذلك.. فقد ظلا لفترة من الزمن عاجزين عن تخليص نفسيهما من الجماهير المحتشدة. كانت الشاحنات لا تزال تتابع والناس فاغرين أفواههم دهشة وعجبًا.. في البداية كان هناك قليل من صيحات الاستهجان والصفير، وكانت تنبعث من أعضاء الحزب فقط، ولم تلبث أن توقفت.. فقد كانت غريزة حب الاستطلاع تخيم على الأجواء. فالأجانب سواء كانوا من «أوراسيا» أو «شركسيا»، ينظر إليهم كنوعٍ من الحيوانات الغريبة. إذ لم يكن المرء يراهم إلا في ثياب السجناء، وحتى في ذلك

لم يكن يستطيع أن يراهم إلا للحظاتٍ عابرة، كما أن مآلهم كان يظل مجهولًا، فباستثناء تلك القلة منهم الذين يُشنقون باعتبارهم مجرمي حرب، كان الباقون يختفون تمامًا عن الأنظار، ولعلهم يرسلون إلى معسكرات الأشغال الشاقة. وغابت الوجوه المنغولية المستديرة لتحل محلها وجوه أوروبية قذرة ذات لحى يظهر عليها أثر الإرهاق. ومن فوق خدود ناتئة العظام كانت أعينهم تنفذ إلى عيني "ونستون".. فتارة تكون نظراتهم قاسية وتارة تذهب بعيدًا. وبينما كان رتل الشاحنات يقترب من نهايته رأى "ونستون" في آخرها عجوزًا كهلًا، وقد اكتسى وجهه بشعرٍ أشيب كثيف، يقف منتصبًا وقد عقد معصميه معًا بشكلٍ متقاطع أمام صدره، كما لو كان قد اعتاد أن يجدهما موثوقين معًا. وكان الوقت قد حان لافتراق "ونستون" والفتاة. ولكن في اللحظة الأخيرة.. وفيما كانت الجماهير ما زالت محتشدة.. شبكت يده بيدها وضغطت عليها.

لم يستغرق هذا التشابك بين يديهما أكثر من عشر ثوانٍ، ومع ذلك بدا زمنًا طويلًا كافيًا لأن تلتحم كفاهما معًا. وكان وقتًا كافيًا حتى تعرف كفّه كل تفصيلة من تفاصيل كفها. فقد تلمس الأصابع الطويلة والأظافر الرشيقة، وراحة اليد التي اخشوشنت من أثر العمل، وتلمس اللحم الناعم عند المعصم. وكان مجرد تحسسه لها قمينًا بأن يعرفها لاحقًا مع أنه لم يرها. وفي اللحظة ذاتها خطر بباله أنه لم يعرف لون عينيها. ربما كانتا بنيتين. ولكن ذوي الشعر الأسود قد تكون أعينهم زرقاء اللون أحيانًا. وكان من الحمق الشديد أن يلتفت لينظر إلى عينيها. فقد ظلا يحدقان أمامهما باستمرار حتى حين تشابكت يداهما. وبدلًا من أن يتطلع "ونستون" في عيني الفتاة، رأى عيني الأسير الكهل تحدقان بكآبة في عينيه من خلال شعر وجهه الكثيف.

الفصل الثاني

وجد "ونستون" طريقه في الدرب عبر فسحاتٍ من الضوء والظل، وكان عندما يسرع الخطى تزل به قدمه في برك من الماء أكسبتها أشعة الشمس المتسربة من خلال أغصان الأشجار لونًا ذهبيًا. وكانت الأرض تحت الأشجار التي عن يساره تكتسي بزهورٍ زرقاء تشبه الجرس في تكوينها. وكان يبدو أن الهواء يداعب الوجوه، لم لا، واليوم هو الثاني من أيار. ومن مكانٍ ما في قلب الغابة كان ينبعث هديل الحمام.

قد وصل "ونستون" إلى مكان اللقاء مبكرًا بعض الشيء دون أن تواجهه أي صعوبات أثناء الطريق. فمن الواضح أن الفتاة كانت ذات خبرة واسعة تجعلها موضع ثقة في تخير الأماكن الآمنة، فقد كان أقل خوفًا مما كان يمكن أن يحصل عادة. ومع ذلك ليس للمرء أن يحسب أنه أكثر أمانًا في الريف مما هو في «لندن».. فبطبيعة الحال يخلو الريف من شاشات الرصد، غير أن خطرًا آخر يكمن فيه، ألا وهو الميكروفونات المخبأة عن الأعين والتي يمكنها التقاط صوتك وتمييزه، بالإضافة إلى أنه لم يكن من السهل أن تقوم برحلة بمفردك دون أن تلفت إليك الأنظار. وبالرغم من أنه لم يكن من الضروري أن تحصل على جواز مرور ما دامت رحلتك لا تتجاوز المائة كيلو متر، ولكن هناك دوريات تتجول أحيانًا حول محطات السكك الحديدية، فإذا ما صادفت هنالك أحد أعضاء الحزب، فإنها تستوقفه لفحص أوراقه واستجوابه بأسئلة محرجة. غير أنه لم تعترض "ونستون" في رحلته أي دوريات، ومع ذلك كان وهو في طريقه من المحطة يأخذ جانب الحذر، ويتلفت خلفه مرة تلو أخرى، خشية أن يكون ثمة من يقتفي أثره. كان القطار مزدحمًا بالعامة الذين تخيم عليهم أجواء الانتعاش المصاحبة للعطلة في طقس صيفي لطيف. وكانت العربة ذات المقاعد الخشبية التي استقلها "ونستون" تغص بأسرةٍ واحدة كبيرة العدد، تراوح أعمار أفرادها ما بين جدة طاعنة في

السن وطفلٍ رضيع ابن شهر واحد. كانت هذه الأسرة ذاهبة لقضاء بعض الوقت لدى بعض أصهارهم في الريف وأيضًا، وحسبما عبروا بصراحة لـ "ونستون"، الحصول على قليلٍ من الزبد من السوق السوداء.

اتسع الدرب قليلًا أمامه، ووصل بعد دقيقة واحدة إلى الطريق الذي حدثته عنه الفتاة. فما هو إلا دربًا للماشية يمتد بين شجيرات قصيرة. لم يكن "ونستون" يحمل ساعة، ولكنه كان يقدر أن الوقت لم يبلغ الثالثة مساء بعد. وكانت الزهور الزرقاء التي تشبه الأجراس تكسو الأرض بشكلٍ كثيف للغاية، إلى حدٍ يستحيل معه ألا يطأها المرء بقدميه. ركع "ونستون" على ركبتيه وجعل يقطف بعضها ليقتل الوقت من ناحية ولأنه من ناحية أخرى كانت تراوده فكرة غامضة، وهي أن يقدم للفتاة باقة من الزهور لحظة لقائه بها. وكان "ونستون" قد جمع باقة كبيرة وراح يشم رائحتها الزكية عندما أتاه صوت من ورائه جمد الدم في عروقه. كان الصوت صوت وقع أقدام تطأ الحشائش. ولكنه تجاهله وواصل قطف الزهور غير مهتم، فكان ذلك هو أفضل ما يمكنه عمله. وراح يفكر فيمن يكون هذا القادم، لعلها الفتاة وربما كان شخصًا آخر يتعقب خطاه. ولأن تلفته حواليه كان من شأنه أن يثير الشكوك حوله، فقد راح يقطف زهرة تلو أخرى حتى أحس بيدٍ تربت على كتفه برقة.

رفع وجهه فرأى الفتاه.. هزت رأسها محذرة من أن يتفوه بكلمة، ثم شقت طريقها عبر الشجيرات لتنفذ إلى داخل الغابة عبر ممرٍ ضيق. لم يكن ثمة شك في أنها سارت في هذا الممر من قبل، إذ كانت تروغ من البقع الموحلة كما لو كانت تفعل ذلك كما لو أنها معتادة. وتبعها "ونستون" وهو ما يزال يقبض على باقة الزهور، في البدء شعر "ونستون" بالارتياح، بيد أن مراقبته لهذا القوام الممشوق القوي وهو يتبختر أمام عينيه، وقد شد على الخصر ذلك الوشاح القرمزي شدًا يبرز مفاتن الردفين قد كرست لديه الشعور بالدونية، وخُيل إليه أنها ربما تراجع نفسها فيما هي مقدمة عليه إن هي

استدارت ونظرت إليه.. لكن عذوبة الهواء وخضرة أوراق الربيع كانتا قد ملأتاه رهبة. وكانت شمس أيار في المسافة التي قطعها من المحطة قد أثارت لديه شعورًا بالخجل من قذارته وشحوبه، كمخلوقٍ لا يرى الشمس، وقد انسدت مسام جلده بفعل سخام «لندن» الذي يكسوها. وتنبه إلى أن الفتاة ربما لم تره حتى الآن في وضح النهار، حيث الضوء الساطع، وصلا إلى الشجرة المتداعية التي حدثته عنها. فتجاوزتها الفتاة وباعدت بين الأغصان التي بدت مسدودة، وسار "ونستون" في أثرها، وسرعان ما وجد أنهما يقفان في مرجة من العشب الأخضر الصغير، تحيط بها أشجار وارفة الظلال تحجب الرؤية. هنا توقفت الفتاة ثم التفتت قائلة:

- «ها قد وصلنا».

كان مواجهًا لها، على مسافة عدة خطوات. لم يجرؤ على الاقتراب منها حتى الآن.

واستطردت تقول:

- «لم أكن أريد أن أحدثك بشيء ونحن في الدرب، تحسبًا لوجود ميكروفون مخبأ في مكانٍ ما. وإن كنت أعتقد أن ليس هناك شيء من ذلك، ولكن يجب أخذ الحيطة على أي حال، فاحتمال التقاط صوتك وتمييزه من قبل أحد الأوغاد يظل احتمالًا قائمًا على الدوام.. نحن آمنان هنا.

ولم يجد "ونستون" في نفسه من الشجاعة ما يكفي ليتجرأ به على الدنو منها حتى الآن.

فجعل يردد عبارتها في غباء:

- «نحن آمنان هنا..».
- «نعم.. انظر إلى الأشجار».

كانت أشجار دردار صغيرة قطعت في يومٍ من الأيام، ثم عادت فنبتت من جديد مكونة غابة من القضبان التي لا تزيد سماكة واحدها على سماكة معصم اليد. وأضافت الفتاة:

- «لا توجد أشجار كبيرة يمكن إخفاء ميكروفون فيها. ثم إنني أتيت إلى هنا من قبل».

كانا يتحدثان فحسب.. وتغلب "ونستون" على ما تملكه من رهبة ودنا منها. كانت تقف أمامه منتصبة القامة وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة باهتة ومفعمة بالسخرية، وكأنها تتساءل عن سبب إحجامه عن أي فعل حتى الآن.. وهنا حدث أن سقطت باقة الزهور التي بين يديه أرضًا، وبدا أنها قد سقطت من تلقاء نفسها، فأمسك بيدها وقال:

- «هل تصدقين أنني لم أكن، حتى هذه اللحظة، أعرف لون عينيكِ؟».

ولاحظ للتو أنهما بنيتان، أو بالأحرى فيهما ظلال بنية خفيفة أما أهدابهما فكانت سوداء. وسألها:

- «الآن، بعد أن رأيتِ شكلي الحقيقي، هل لا زلتِ قادرة على النظر إليّ؟».

- «نعم، بسهولة!».

- «إنني في التاسعة والثلاثين من عمري، لديّ زوجة لا أستطيع التخلص منها، وأعاني من الدوالي، وعندي خمسة أسنان اصطناعية».

فقالت الفتاة:

- «لا يهمني هذا أبدًا».

وفي اللحظة التالية، ودون أن يدري من منهما بادر بذلك، كانت الفتاة بين ذراعيه.. في البداية لم يكن "ونستون" يصدق ما يجري. فها هو الجسد الغض مشدود على جسده، والشعر الأسود يغطي صفحة وجهه، ورفعت

الفتاة وجهها فأخذ يمطر شفتيها الحمراوين بالقبلات، وأحاطت عنقه بذراعيها وهي تناديه بمعسول الكلمات.. جذبها إلى الأرض فلم تبد أي مقاومة، فكان باستطاعته أن يفعل بها ما يحلو له، لكن الحقيقة أنه لم يكن لديه أي رغبة جسدية تذهب إلى ما هو أبعد من مجرد التماس بينهما. فقد استولت عليه مشاعر الزهو وعدم التصديق. كان مسرورًا بما يحدث، لكنه لم يكن يشعر بأية رغبة جسدية. لقد حدث كل شيء بسرعة خاطفة إلى حد أن شبابها وجمالها قد أرهباه، بعد أن كان قد ألف العيش بدون نساء – وهو يجهل سبب ذلك، وقامت الفتاة عن الأرض واستلت زهرة من شعرها، وجلست ملاصقة له وهي تلف ذراعها حول خصره وقالت:

- «لا تهتم عزيزي! لسنا في عجلة من أمرنا. لدينا فترة بعد الظهر كلها. أليس هذا مكانًا رائعًا للاختباء؟ لقد عثرت عليه عندما تهت مرة في إحدى الرحلات الجماعية. ولو أتى أحد إلى هنا لاستطعنا سماعه قبل وصوله إلينا، بمائة متر».

سألها "ونستون":

- «ما اسمك؟».

فأجابت:

- «جوليا". إنني أعرف اسمك، إنك "ونستون"، "ونستون سميث"».

- «وكيف عرفتِ اسمي؟».

- «أظن أنني أبرع منك في اكتشاف الأشياء يا عزيزي. هل أخبرتني بمشاعرك نحوي قبل أن أعطيك الرسالة في ذلك اليوم؟».

لم يشعر "ونستون" بأي دافع للكذب عليها، وكان يعتقد أن أفضل بداية لحبهما هو أن يفضي إليها بأسوأ ما كان يكن لها.

فأجاب:

- «كنت أكره رؤيتكِ.. لقد أردت اغتصابك ثم قتلك بعد ذلك. ومنذ أسبوعين، فكرت جديًا في تحطيم رأسكِ بحجر. وإذا أردتِ أن تعرفي سبب دلك حقًا، فقد كنت أعتقد أن لكِ علاقة بشرطة الفكر!».

ضحكت الفتاة مبتهجة، إذ اعتبرت ذلك ثناء على براعتها في التخفي. وقالت:

- «هل حقًا ظننت أنني أعمل مع شرطة الفكر؟ أو كنت جادًا في ذلك الظن؟».

فأجاب:

- «قد لا يكون ذلك بالضبط. ولكن مظهرك العام وكونك في ريعان شبابك ومتعافية وجميلة، جعلني أظن أن ذلك محتمل».

قالت:

- «إذن كنت تظن أنني عضوة بالحزب، وصادقة في قولي وفعلي. ولعلك اعتقدت أنني من الذين يشاركون في حمل الأعلام وترديد الشعارات والسير في المسيرات، والخروج في الرحلات الجماعية وكل ما شابه ذلك. وظننت أنه لو سنحت لي أدنى فرصة للوشاية بك كمجرم فكر، لفعلت ذلك حتى يقتلوك؟».

- «نعم لقد خامرتني أشياء من هذا القبيل. فكما تعلمين هناك فتيات كثيرات يقدمن على ذلك».

فقالت وهي تخلع الوشاح القرمزي، وشاح رابطة اتحاد الشباب المناهض للجنس، وتعلقه على غصن شجرة:

- «إنها شرطة الفكر اللعينة، هي التي تبث هذا الانطباع».

بعدئذ، وكما لو أن ملامستها لخصرها قد ذكرته بشيءٍ ما، تحسست جيب معطفها وأخرجت منه قطعة شوكولا وقسمتها شطرين، وأعطت "ونستون" أحدهما. وقبل أن يمد يده أدرك من رائحتها أنها من نوعٍ نادر، فقد

كانت ذات لونٍ غامق ولامع وملفوفة بورقٍ فضي. فالشوكولا التي يعرفها كانت ذات لون بني كئيب ومتفتتة، وكان طعمها أشبه ما يكون بطعم الدخان المنبعث من حرائق أكوام القمامة. ومع ذلك فقد كان من حينٍ لآخر يتذوق شوكولا مثل تلك الشوكولا. ولقد أهاجت من رائحتها ذكرى لم يستطع أن يستحضرها، رغم كونها قوية ومربكة.

سألها:

- «من أين لك هذا؟».

فأجابت غير عابئة:

- «من السوق السوداء».

ثم استطردت:

- «إنني من الفتيات اللواتي يلفتن إليهن الأنظار.. إنني رياضية، كما أنني كنت قائدة زمرة في منظمة الجواسيس، وكنت أقوم بثلاث مهمات تطوعية كل أسبوع ضمن اتحاد الشبيبة المناهض للجنس، لقد كنت أمضي الساعات تلو الساعات أجوب أنحاء «لندن» لألصق ملصقاتهم اللعينة، وفي المواكب كنت دائمًا أحمل طرفًا من الراية، وكانت مشاعر البهجة بادية على محياي دائمًا، ولم يحدث أن تهربت يومًا من شيءٍ يسند إليّ، وأشارك الجماهير في هتافها، إن هذه وحدها هي طريق السلامة».

وذابت أول قضمة من الشوكولا على لسان "ونستون". كان الطعم لذيذًا. لكن ثمة ذكرى ظلت تتحرك في أطراف وعيه، ذكرى شيء يستشعره بقوة، دون أن يستطيع قولبته في شكلٍ محددٍ تمامًا مثل جسم يراه المرء بطرف عينيه. وكان يحاول أن يطردها عنه وهو يعي أنها ذكرى شيءٍ ما ورد لو لم يفعله لكنه لم يستطع ذلك.

قال لها:

- «إنكِ لا تزالين في مقتبل عمرك. فأنتِ أصغر مني بعشر أو خمس عشرة سنة. فما الذي أعجبك في رجلٍ مثلي؟».

ردت قائلة:

- «إنه شيءٌ ما في وجهك شجعني على خوض المغامرة. إنني ماهرة في اكتشاف الأشخاص الذين لا انتماء لهم. فما إن رأيتك حتى أيقنت أنك ضدهم».

وأدرك "ونستون" أنها تعني الحزب بقولها (ضدهم)، وبالأخص قيادة الحزب التي كان حديثها عنها ينم عن كراهية ممزوجة بالسخرية، وهذا ما جعل "ونستون" يشعر بالقلق رغم علمه بأنهما أكثر أمانًا في هذا المكان من أي مكانٍ آخر. بيد أن ما أدهشه هو خشونة عبارتها. فقد كان من المفترض أن أعضاء الحزب لا يتلفظون بالسباب، حتى إن "ونستون" نفسه كان نادرًا ما يفعل ذلك بصوت عالم على الأقل. أما "جوليا" فقد بدا أنها لا تستطيع أن تأتي على ذكر الحزب، وعلى الأخص قيادة الحزب، دون أن تستخدم ذلك اللون من الكلمات التي ترى مرسومة بالطباشير على جدران الأزقة الضيقة الفقيرة. ولم يستقبح "ونستون" منها ذلك، فهذا علامة على ثورتها على الحزب وكل أساليبه، بل ويبدو دليلًا على العافية والصحة، إنه أشبه بالحصان، يعطس حين يشم رائحة دريس فاسد. كانا قد تركا تلك البقعة الطبيعية وأخذا يجولان ثانية عبر الظلال المتقطعة وقد لف كل منهما ذراعه حول خصر الآخر كلما كان بإمكانهما أن يسيرا جنبًا إلى جنب. ولاحظ أن خصرها قد غدا أكثر ليونة بعدما خلعت عنه الزنار القرمزي. كانا يتحدثان همسًا. فخارج البقعة وحسبما قالت "جوليا"، يحسن بهما أن يتلزما الهدوء. وكانا قد بلغا حافة الغابة الصغيرة فاستوقفته قائلة:

- «لا تخرج إلى الأرض المكشوفة، فقد يكون هنالك شخص يترصدنا. إننا نظل في أمان ما دمنا وراء أغصان الأشجار».

لقد كانا واقفين في ظلال شجيرات البندق، بينما كانت أشعة الشمس المتسربة عبر أوراق الشجر الغريزة تلفح وجهيهما. نظر "ونستون" إلى الحقل الممتد أمامه، حتى أخذت جسمه رجفة بطيئة وغريبة، فقد عرف هذا الحقل. عرفه بمجرد أن رآه. كان مرعى قديمًا مغطى بالعشب ويتخلله ممشى، وتلال الخلد هنا وهناك. وعلى الجانب الآخر من الحقل تدلت أغصان أشجار الدردار متمايلة مع النسيم وتتحرك أوراقها ببطء وكثافة، وكأنها خصلات شعر امرأة. وفي مكانٍ قريب، لكن خارج مجال النظر، لابد أن هناك جدولًا ذا برك خضراء تسبح فيها الأسماك؟

وهنا همس متسائلًا:

- «ألا يوجد جدول ماء في مكانٍ ما قريب من هنا؟».
- «هذا صحيح، ثمة جدول هناك. عند حافة الحقل التالي. وفيه أسماك كبيرة الحجم، حتى ليمكنك أن تراه فوق صفحة البرك يحرك ذيله تحت أشجار الصفصاف».

فتمتم قائلًا:

- «إنه الريف الذهبي، تقريبًا».
- «الريف ذهبي؟».
- «لا شيء، في الحقيقة. إنه مشهدٌ أراه في أحلامي أحيانًا».

همست "جوليا":

- «انظر!».

كان طائرٌ مغردٌ يقف على غصنٍ لا يبعد أكثر من خمسة أمتار عنهما، وعلى مستوى وجهيهما تقريبًا. ويبدو أن الطائر لم يرهما، فقد كان هو في الشمس وكانا هما في الظل. فتح الطائر جناحيه ثم أعادهما بعناية إلى موضعهما، وحنى رأسه للحظة، كما لو كان يؤدي فرضًا من فروض الطاعة والتبجيل للشمس، وأخذ يشدو بأغانيه. ووسط هدأة ما بعد الظهيرة، بدا أن الصوت قد جعل "ونستون، و"جوليا" يجفلان، فاحتضن كل منهما الآخر

مبهورين بذلك الصوت العذب. وانسابت الموسيقى دقيقة تلو أخرى مع تنويعات تبعث على الدهشة، فلم يكرر أي نغمة طوال ذلك، وكأنما كان يتعمد استعراض براعته في الغناء. وكان الطائر يتوقف لثوانٍ أحيانًا لينشر جناحيه ثم يضمهما ثانية، ويملأ صدره بالهواء ثم ينطلق في التغريد ثانية. كان "ونستون" يراقبه ولديه شيءٌ من التبجيل الغامض، وتساءل في نفسه تُرى لمن كان الطائر يغرد ولماذا؟ لم يكن بجواره رفيق أو غريم.. وما الذي يجعله يحط على غصنٍ من أغصان غابة مهجورة كهذه، ويصدح بموسيقاه في العراء وما من أحد يسمعه؟ وتساءل أيكون هنالك بعد كل هذا ميكروفون مخبأ في مكانٍ ما على مقربةٍ منهما؟ إنه و"جوليا" قد حرصا على أن يكون كلامهما همسًا، ولن يستطيع الميكروفون التقاط ما قالاه، لكنه حتمًا سيلتقط تغريد الطائر. لعل على الطرف الآخر من الميكروفون رجلًا ضئيلًا يشبه الخنفساء ينصت باهتمام إلى ذلك. غير أنه وبالتدريج استطاع فيض الموسيقى المنسابة أن يطرد كل الهواجس من ذهنه. وكان هذا الفيض أشبه بسائلٍ ينسكب فوق جسمه ممتزجًا بأشعة الشمس المتسربة عبر أوراق الشجر.

وهنا توقف "ونستون" عن التفكير مكتفيًا بما يعتمل في داخله من أحاسيس. كان خصر الفتاة الذي يحيطه بذراعيه لينًا ودافئًا. جذبها نحوه حتى صار صدره ملاصقًا لصدرها وأحس بجسدها يمتزج بجسده. وأينما تحسست يداه كان جسدها مستسلمًا كالماء. وتلاقت شفاههما بقبلاتٍ مختلفة تمام الاختلاف عن تلك الجافة التي تبادلاها قبل ذلك. وعندما انفك ذلك العناق وتنهد كلاهما تنهيدة عميقة، جفل الطائر وفزع فأطلق لجناحيه العنان.

واقترب "ونستون" من أذن "جوليا" وهمس:

- «الآن؟».

فهمست هي أيضًا:

- «ليس ها هنا، فلنعد إلى المخبأ. إنه أكثر أمانًا».

ومع طقطقة الأغصان تحت أقدامهما راحا يشقان طريقهما نحو الخلوة. وعندما دلفا إلى حلقة أشجار الدردار استدارت نحوه وكان كلاهما يتنفس أنفاسًا سريعة متلاحقة ولكن لم تلبث الابتسامة أن ارتسمت على ثغر الفتاة من جديد. أخذت تتمعن في وجهه للحظة ثم تحسست أزرار ثيابها. أجل! كان الموقف أشبه بما رآه في الحلم. فبسرعة كتلك التي تخيلها نزعت عنها ثيابها وحينما طرحتها جانبًا كان ذلك بالحركة الرائعة نفسها التي بدا وكأنها تقوض أركان حضارة بكاملها. بدا جسدها ناصع البياض تحت ضوء الشمس، ولكنه لم يتطلع إلى جسدها من فوره فقد كانت عيناه معلقتين بذلك الوجه الأنمش ذي الابتسامة الخافتة الجريئة. ركع أمامها وأمسك يدها بيده.

- «هل فعلت هذا من قبل؟».
- «بالطبع مئات المرات.. لا بأس، عشرات المرات على أي حال».
- «مع أعضاء في الحزب؟».
- «نعم، دائمًا مع أعضاء في الحزب».
- «مع أعضاء من الحلقة الداخلية في الحزب؟».
- «ليس مع أولئك الخنازير. لكن هناك الكثير منهم ممن لن يتأخروا أبدًا لو سنحت لهم أدنى فرصة. ليسوا بهذا العفاف الذي يتظاهرون به».

قفز قلب "ونستون" ابتهاجًا. إذن لقد أتت ذلك الفعل عشرات المرات، وتمنى لو أنها قد فعلته مئات أو آلاف المرات. فكل شيء يشير إلى الفساد كان يملأه بأملٍ مجنون. من يدري، ربما كان الحزب يواري فسادًا مستشريًا تحت هذه القشرة، وما تعاليمه عن التقشف ونكران الذات إلا ستارٌ يخفي وراءه ألوان العسف والجور. وكم ستكون سعادته لو استطاع أن ينقل لهم العدوى

بالبرص أو الزهري وأن يفعل كل ما من شأنه أن ينشر الفساد والانحلال في الحزب حتى يمكن تقويضه، ثم جذبها نحو الأرض بحيث أصبحا وجهًا لوجه وقال لها:

- «كلما ازداد عدد الذين يضاجعونك، ازداد حبي لكِ.. هل تفهمين ما أعني؟».
- «نعم تمامًا».
- «إنني أكره التبتل، وأمقت القداسة، ولا أريد بقاء لأي فضيلة في أي مكان.. أريد أن يستشري الفساد في كل شخص حتى النخاع».
- «حسنًا، لا بد إذن أنني أناسبك يا عزيزي، فالفساد موغل في حتى نخاعي».
- «هل تحبين إتيان ذلك الفعل؟ لست أعني معي فقط، وإنما أعني الفعل في حد ذاته».
- «إنني أحبه حبًا جمًا».

كان ذلك هو عين ما أراد أن يسمعه منها. ليس مجرد حب شخص لآخر، وإنما هي الغريزة الحيوانية والرغبة التي يستوي فيها الناس، إنها القوة التي ستمزق الحزب إلى أشلاء. ومددها فوق العشب وبين الزهور المتساقطة. ولم يصادف صعوبة هذه المرة وعادت أنفاسهما إلى الحالة الطبيعية، ثم انفصلا بعدما انتابهما إعياءٌ مفعم باللذة. وكانت الشمس قد اشتدت حرارتها. وأحسا بنعاسٍ يغالبهما. مد "ونستون" يده إلى معطفها الذي ألقته جانبًا وغطى به بعض جسدها. وراحا من فورهما يغطان في نومٍ عميق، امتد بهما زهاء نصف ساعة.

كان "ونستون" هو من استيقظ أولًا فراح يتأمل ذلك الوجه الأنمش، الذي لا يزال نائمًا في سلامٍ متوسدًا راحة يدها. ولم يكن فيها من جمالٍ يلفت النظر سوى جمال ثغرها. فهنالك خط أو خطان حول عينيها إذا دققت

النظر. أما شعرها القصير الأسود الفاحم فكان غزيرًا وناعمًا بشكلٍ غير عادي. وتنبه في تلك اللحظة إلى أنه لا يزال يجهل اسمها كاملًا أو عنوانها.

أثار هذا الجسد الغض القوي، الذي ما يزال ساكنًا في نومه، شعورًا بالأسى والرغبة في حمايتها. ولكن الرقة المتناهية والتي استشعرها وهو تحت شجرة البندق حينما كان طائر الحسون يغرد لم تعاوده ثانية. وحسر الثوب عن جسدها وراح يتفحص خصرها الغض. وتذكر أن الجل في الأيام السالفة كان ينظر إلى جسد الفتاة بشهوة ثم يكتفي بذلك. أما في هذه الأيام فلا يمكن أن تحس بالحب الخالص أو الشهوة النقية، فلم تعد هنالك عاطفة نقية لأن كل شيء بات يخالطه الخوف والكراهية. لقد كان عناقهما معركة ونشوتهما نصرًا. كانت صفعة على وجه الحزب بل فعل تحدٍ سياسي.

الفصل الثالث

قالت "جوليا":

- «نستطيع أن نعود إلى هنا مرة واحدة فقط. يكون مأمونًا عمومًا استخدام المخبأ مرتين. لكن ذلك لن يكون قبل شهر أو اثنين على أي حال».

حين أفاقت "جوليا" بدلت هيئتها، وأصبحت أكثر تنبهًا وحيوية، فارتدت ثيابها وشدت حزامها القرمزي حول خصرها ثم أخذت ترسم خطة الإياب، وبدا من الطبيعي أن تترك لها مثل هذه المهمة، فقد كانت تمتلك ما يفتقده "ونستون" من خبرة ودهاء يتطلبهما مثل هذا الأمر، كما كان لديها معرفة شاملة بالريف المحيط بـ «لندن»، تراكمت لديها عبر الرحلات الجماعية الكثيرة التي قامت بها.. كانت طريق الإياب الذي رسمتها له غير تلك التي سلكها في مجيئه، حيث جعلته يستقل القطار من محطة غير تلك جاء منها عند ذهابه. وقالت له كمن يرسي مبدأ عامًا وهامًا:

- «لا تعد أبدًا إلى البيت من نفس الطريق».

وحسب الخطة كانت ستغادر المكان أولًا، فيما سينتظر "ونستون" نصف ساعة قبل أن يتحرك عائدًا.

وقد حددت له مكانًا يستطيعان اللقاء فيه بعد العمل، في الليلة الرابعة من ذلك التاريخ. كان شارعًا في أحد أفقر الأحياء، حيث توجد سوق مكشوفة مزدحمة دائمًا، وكان من المقرر أن تتجول بين الحوانيت متظاهرة بأنها تبحث عن رباط نعل أو الخيوط المستخدمة في الخياطة، وحين ترى أن المكان آمن فسوف تعطس حينما يقترب منها، وإن لم تفعل فعليه أن يمر بها كما لو كان لا يعرفها. وإذا ما حالفهم الحظ سيكون من المأمون أن يتبادلا أطراف الحديث لربع ساعة مستغلين الزحام الحاصل وعندها يمكنهما ترتيب لقاءً آخر.

وبعدما انتهت من تعليماتها، قالت:

- «عليّ أن أذهب الآن. يجب أن أصل هناك في السابعة والنصف، يجب أن أقضي ساعتين في رابطة الشباب المناهضة للجنس، أمضيهما في توزيع المنشورات وما شاكلها. أليس هذا مقرفًا؟ من فضلك انفض لي ثيابي. ألا زالت هناك أغصان عالقة بشعري؟ هل أنت متأكد؟ إلى اللقاء إذًا يا حبيبي، إلى اللقاء».

قالت هذا وألقت بنفسها بين ذراعيه وأمطرته بقبلات عنيفة، ثم انسلت من بين ذراعيه لتشق طريقها عبر أشجار الدردار وتختفي في الغابة دون أن تحدث صوتًا. وحتى هذه اللحظة لم يكن "ونستون" قد عرف اسمها كاملًا أو عنوانها بعد. لكن ذلك لم يكن ذا أهمية، لأنه من المستبعد أن يلتقيا داخل منزل أو أن يتبادلا أي شكلٍ من أشكال الرسائل فيما بينهما.

لم يعودا مرة أخرى إلى ذلك المكان من الغاب. وعلى مدى بقية شهر أيار لم تتح لهما سوى فرصة واحدة لممارسة الحب.. وكان ذلك في مخبأ آخر تعرفه "جوليا"، إنها غرفة برج كنيسة مهدمة في منطقة ريفية شبه مهجورة، حيث سقطت قنبلة ذرية قبل ثلاثين عامًا.. كان مخبأً آمنًا، لكن بلوغه كان في غاية الخطورة. أما بقية اللقاءات فكانت تتم في الشارع مساءً، وفي مكانٍ مختلف كل مرة دون أن يتجاوز لقاؤهما الواحد نصف الساعة. ففي الشارع كان بإمكانهما أن يتبادلا الحديث بشكلٍ ما. وكانا عندما يسيران على الأرصفة المزدحمة يحرصان على ألا يسيران متجاورين أو يلتفت أحدهما إلى الآخر، وفي أثناء ذلك يتبادلان حديثًا متقطعًا بصورة تبعث على الاستغراب، حيث كان الحديث أشبه بضوء منارة يومض ويخبو، فمثلًا قد يضطرهما مرور أحد أعضاء الحزب بزيه الرسمي أو اقترابهما من شاشة رصد إلى صمتٍ مفاجئ ومطبق ثم يستأنفان حديثهما بعد دقائق قليلة مبتدئين من وسط جملة كانا قد قطعا حديثهما عندها. ثم فجأة يمسكان عن الحديث عندما يفترقان في المكان المتفق عليه ليواصلا ما انقطع من حديث في اليوم التالي دون مقدمات

ومن حيث انتهيا. وبدا أن "جوليا" متمرسة تمامًا على ذلك النوع من الحديث، والذي كانت تسميه (الحديث بالتقسيط)، كما أنها كانت تتمتع ببراعة فائقة في الحديث دون أن تحرك شفتيها، ولم يتمكنا إلا مرة واحدة من خلال شهر من اللقاءات الليلية من تبادل قبلة، وذلك عندما كانا يسيران في شارع جانبي يخيم عليه الصمت، - كانت "جوليا" لا تتحدث مطلقًا إلا عندما تكون في شارع رئيسي - وعندما سمعا صوت زئير يصم الآذان، واهتزت الأرض من تحت أقدامهما، وعبق الجو، وكان "ونستون" ممددًا على الأرض وقد أثخنته الجراح وانتابته حالة من الهلع، لا بد أن قذيفة صاروخية قد سقطت بالقرب منهما. وفجأة لم يشعر إلا ووجه "جوليا" لا يفصله إلا بضعة سنتيمترات عن وجهه. وكان وجهًا شاحبًا شحوب الموتى حتى إن شفتيها الحمراوين اصطبغتا باللون الشاحب نفسه، وظن أنها لقيت حتفها، فضمها إليه وحينما جعل يقبلها تبين له أنه يقبل وجهًا حيًا دافئًا. لكن بعضًا من مادة غبارية حالت بين تلائم شفاههما، إذ كان كلا الوجهين مغطيين بطبقة من الملاط.

وكان يحدث في بعض المرات أن يبلغا مكان اللقاء ثم يضطران إلى المرور ببعضهما دون أن يتبادلا ولو إشارة، وذلك إما لأن إحدى الدوريات قد ظهرت في المكان، أو لأن حوامة أخذت تحلق فوق الرؤوس. وحتى لو كانت لقاءاتهما لا تنطوي على مثل هذه الأخطار، فقد كان يتعذر عليهما أن يجدا وقت فراغ يلتقيان فيه، لأن "ونستون" كان يعمل ستين ساعة أسبوعيًا في حين كانت "جوليا" تعمل أكثر من ذلك، كما كانت أيام عطلاتهما تتباين حسب ضغوط العمل ونادرًا ما تتوافق. وفي كل الأحوال كان من النادر أن تحصل "جوليا" على أمسية خالية تمامًا من الواجبات، لأنها كانت تمضي وقتًا طويلًا للغاية في الاستماع للمحاضرات، والمشاركة في التظاهرات، وتوزيع المنشورات الخاصة برابطة الشبيبة المناهض للجنس، وإعداد الرايات الخاصة بأسبوع الكراهية، وجباية الأموال لحملة الادخار وما شاكل ذلك من نشاطات. وكانت تقول في ذلك أنه يفيد كتمويه: «فإذا التزمت بصغائر القواعد يمكنك خرق

كبائرها».. ومن ثم فإنها حثت "ونستون" على أن يتطوع بأمسية أخرى يمضيها في إعداد الذخائر، وهو ما كان يضطلع به أعضاء الحزب شديدو الحماس. وهكذا كان "ونستون" يمضي أمسية من كل أسبوع، أربع ساعات من الملل القاتل في تجميع قطع معدنية صغيرة، ربما كانت فتائل قنابل في ورشة باردة وسيئة الإضاءة حيث تختلط طرقات المطارق على نحوٍ باعث على الكآبة، بالموسيقى المنبعثة من شاشات الرصد.

وعندما التقيا في برج الكنيسة كان حديثهما المتقطع يتصل بعد وصل ما تخلله من فجوات. وقد حدث ذلك في عصر يوم حار حيث كان الهواء في الغرفة المربعة الصغيرة التي تعلو الأجراس راكدًا وحارًا، وتفوح منه رائحة نفاذة لزَرق الحمام. وقد جلسا لساعاتٍ يتحدثان فوق أرضية الغرفة المغطاة بالغبار وبأوراق الشجر المتساقطة، ومن حين لآخر كان ينهض أحدهما ليلقي نظرة عبر فتحات إطلاق السهام في ذلك البرج كي يتأكد من عدم قدوم أحد.

كانت "جوليا" في السادسة والعشرين من عمرها، وكانت تعيش مع ثلاثين فتاة أخرى في نزل.. وكان لديها مقولة تكررها: "دائمًا في مستنقع النساء! لكم أكره النساء». كانت تعمل - كما كان يظن - على آلات كتابة الروايات في قسم الخيال، وتستمتع بعملها الذي يقوم أساسًا على إدارة وتشغيل محرك كهربائي قوي. وبالرغم من أنها لم تكن «بارعة»، فإنها كانت مغرمة باستعمال يديها وتشعر بالارتياح كلما وقفت أمام الآلة، وكان بوسعها أن تصف المراحل التي تمر بها عملية تأليف رواية ابتداءً بالتوجيه العام الذي تصدره لجنة التخطيط، وانتهاءً باللمسات الأخيرة التي تضعها الفرقة المنوط بها إعادة الكتابة. غير أن "جوليا" لم تكن تهتم كثيرًا بشكل المنتج النهائي، إذ كانت تقول إنها لا تأبه كثيرًا بالقراءة، فالكتب في نظرها ليست سوى سلعة يتم إنتاجها مثلها مثل المربي وأربطة النعال.

ما كانت لديها ذكريات عما قبل أوائل الستينات، وكان الشخص الوحيد الذي أتيح لها أن تعرفه، وكثيرًا ما يتحدث عن أيام ما قبل الثورة فكانت

جدتها التي اختفت عندما كانت "جوليا" في الثامنة. وقد كانت في المدرسة قائدة فريق الهوكي، وفازت بميدالية ألعاب الجمباز لدورتين متتاليتين. كما كانت قائدة فريق في (اتحاد الجواسيس) وأمينة سر أحد فروع رابطة الشبيبة قبل أن تلتحق برابطة الشباب المناهضة للجنس. لقد كانت دائمًا تتمتع بشخصية ممتازة، بل إنها اختيرت - وهي علامة أكيدة تدل على السمعة الطيبة - لكي تعمل في أحد الأقسام الداخلية لقسم الخيال الذي كان ينتج روايات إباحية للعامة. وكان العاملون في هذا القسم ينعتونه بـ «ماك هاوس». ولقد أمضت فيه سنة.. حيث كانت تساعد في إنتاج كتيبات مغلفة ومختومة تحمل عناوين مثل (قصص مثيرة) أو (ليلة واحدة في مدرسة البنات) تسوق بين شباب العامة في الخفاء فيبتاعونها باعتبارها من المحظورات التي حصلوا عليها.

سألها "ونستون" بفضول:

- «وكيف هي تلك الكتب؟».
- «تفاهات مقززة! إنها في الحقيقة تبعث على الملل.. فهي جميعها تقوم على ست حبكات فقط تدور حولها، ولكنهم يحورونها قليلًا في كل مرة، بالطبع أنا لم ألتحق بفريق إعادة الكتابة أبدًا، فدوري يقتصر على العمل على المكشاف «الكاليدسكوب»، كما أنني لست أديبة يا عزيزي ولا حتى مؤهلة لذلك.

أصابته الدهشة عندما عرف أن جميع العاملين في هذا القسم ما عدا رئيسه من الفتيات. والفكرة كانت أن الرجال أقل قدرة على كبح غرائزهم الجنسية من النساء، ومن ثم كانت المواد التي يتعاملون معها تجعل الرجل أكثر عرضة للفساد.

وأضافت قائلة:

- «إنهم حتى لا يحبون وجود المتزوجات من النساء ضمن القسم، فهم يفترضون أن الفتيات دائمًا عفيفات شديدات الطهارة والنقاء. ولكن أمامك الآن تقف واحدة منهن».

في السادسة عشرة أقامت "جوليا" أول علاقة لها، وكانت مع عضو من أعضاء الحزب في الستين من عمره، وانتحر لاحقًا ليتجنب القبض عليه. وأضافت:

- «لقد أسدى لي بذلك صنيعًا طيبًا، وإلا لكانوا قد عرفوا اسمي منه فيما سيدلي به من اعترافات».

وبعد ذلك عرفت الكثيرين غيره، فقد كانت الحياة من وجهة نظرها بسيطة للغاية، فالمرء يود لو يمضي أوقاتًا طيبة، بينما هم، وتعني الحزب، يريدون لو يحولوا دون ذلك. ولذا فإن المرء يلجأ لخرق هذه القواعد قدر استطاعته. وبدا أنها تعتقد أن من الطبيعي أنهم يريدون أن يسلبوك ملذاتك بقدر ما هو من الطبيعي أن يحاول المرء الإفلات من قبضتهم. وكانت تكن كرهًا للحزب ولا تتردد في التعبير عن ذلك بأشنع الكلمات. لكنها لم تكن توجه له انتقادات تعميمية إلا حينما يمس الأمر حياتها الشخصية فساعتئذٍ لم تكن تأبه مطلقًا بعقيدة الحزب. ولاحظ "ونستون" أنها لا تستعمل مطلقا أيًا من مفردات اللغة الجديدة، ما عدا تلك المتداولة في الاستخدام اليومي للغة. فمثلًا لم تسمع مطلقًا بما يسمى «الأخوة» بل وأنكرت وجودها. وكانت ترى أن أي شكل من أشكال الثورة المنظمة ضد الحزب محكوم عليه بالفشل، ولا يقوم به سوى الأغبياء والحمقى، وأما الحذاقة في نظرها فهي أن يخرق المرء القواعد، ويظل على قيد الحياة بعد ذلك. وتساءل "ونستون" في نفسه عن عدد الذين يفكرون على شاكلتها من الجيل الأصغر، إنهم أناس تربوا في عهد الثورة ولم يعرفوا عهدًا سواه، حيث يسلمون بالحزب كما لو كان قدرًا مقدرًا لا يتغير مثله مثل السماء، فلا يتمردون على سلطته وأقصى ما يتجرؤون عليه هو أن يروغوا منه كما يروغ الأرنب من الكلب.

ولم يتطرقا في حديثهما إلى إمكانية زواجهما، فقد كان ذلك أمرًا صعب المنال، ويجب حتى عدم التفكير فيه. إذ لا يمكن حتى تخيل فكرة أن تسمح اللجنة المعنية بمثل هذا الزواج وحتى لو أمكن التخلص من "كاترين" - زوجته السابقة - بطريقةٍ ما، فإن زواجهما كان سيظل أمرًا مقطوعًا منه الرجاء تمامًا كحلم يقظة.

وسألته "جوليا":

- «كيف كانت زوجتك؟».

فأجابها:

- «كانت... هل تعرفين تعبير «ذو تفكير صالح» في اللغة الجديدة؟ والتي تشير إلى الشخص ذو العقيدة القويمة.. الشخص الغير قادر على التفكير في أشياءٍ سيئة».

- «كلا، لم تمر عليّ هذه الكلمة، ولكني على معرفة بمثل هذا النمط من الأشخاص».

وبدأ "ونستون" يروي لها حكاية زواجه، وكانت دهشته شديدة حينما اتضح له أنها على علمٍ بتفاصيلها الرئيسية بالفعل، فراحت تشرح بدلًا عنه وأخذت تصف له، كما لو كانت قد رأت جسد "كاترين" أو تحسسته، كيف أنه يتيبس بمجرد ملامسته لها، وكيف أنها تدفعه عنها بكل ما أوتيت من قوة حتى حينما تكون ذراعاها تطوقان عنقه. ولم يجد "ونستون" أي صعوبة في الحديث عن مثل هذه الأمور مع "جوليا". فعلى أي حال لم تعد "كاترين" وذكراها تقض مضجعه منذ زمنٍ طويل، إذ غدت مجرد ذكرى بغيضة، لا أكثر.

قال لها:

- «لقد كان في استطاعتي احتمالها لولا شيءٌ واحد».

وأخبرها عن ذلك الطقس الذي كانت "كاترين" ترغمه على ممارسته في الليلة نفسها من كل أسبوع. وأضاف:

- «لقد كانت تمقت هذا الطقس ولكن لم يكن لأي شيء في الوجود أن يجعلها تكف عنه. لقد دأبت على تسميته... هل لكِ أن تخمني؟».

قالت "جوليا":

- «واجبنا تجاه الحزب».

قال لها:

- «وكيف عرفتِ هذا؟».

- «لقد ذهبت إلى المدرسة يا عزيزي، حيث يتلقى من هم فوق السادسة عشرة درسًا في الجنس مرة في الشهر. أما داخل حركة الشبيبة فهم يغرسونه فينا غرسًا على مدى سنوات، بل وأجرؤ على القول إن ذلك كان يترك تأثيرًا عميقًا لدى كثير من الفتيات، ولكن لا أحد يمكنه التصريب بذلك فالناس منافقون جدًا بخصوص ذلك».

وراحت "جوليا" تسترسل حول الموضوع. فمع "جوليا" كل شيء يرتبط بغريزتها الجنسية، فحالما يلامس أحد هذه الغريزة فإنها تصبح حادة الذكاء. وهي خلافًا لـ "ونستون" كانت قد فطنت إلى المعنى الباطني للطهر الجنسي الذي يحث عليه الحزب. فهذه الغريزة لا تني توجد عالمًا خاصًا بها خارج سلطان الحزب، ومن ثم كان يتعين استئصالها إذا أمكن، بل الأهم من ذلك أن الحرمان الجنسي يفضي بعضو الحزب إلى حالة من الهستيريا، وهو أمر مرغوب فيه حيث يمكن تحويله إلى نوعٍ من حمى الحرب وعبادة الزعيم. وقد بسطت فكرتها على النحو الآتي:

- «إنك تستخدم طاقة عند فعل الحب. تشعر بسعادة بعد ذلك فلا تهتم لأي شيء، لأنهم يريدونك أن تكون مفعمًا بالطاقة والنشاط طوال الوقت. وكل هذه المسيرات التي لا تهدأ والهتافات والتلويح بالرايات، ليس إلا تنفيسًا لطاقة جنسية مكبوتة. فلو كان

المرء مبتهجًا في قرارة نفسه فما الذي يدفعه للاهتمام بالأخ الكبير، وبالخطط الثلاثية، ودقيقتي الكراهية، والبقية الباقية من ذلك العفن البائس لديهم».

واعتبر "ونستون" أن ما قالته "جوليا" صحيح جدًا، فهناك صلة وثيقة ومباشرة بين إجبار المرء لنفسه على العفة والالتزام بالعقيدة السياسية القويمة. إذ كيف يمكن للحزب أن يحافظ على مستوى الخوف والكراهية والتصديق المطلق لدى أعضائه عند الحد المطلوب، إلا من خلال قمع وتقييد بعض الغرائز القوية لاستخدامها فيما يعد كقوة دافعة؟ ولأن الحافز الجنسي كان مصدر خطر على الحزب، فقد كان يحول لمصلحته، وكذلك كانوا يلعبون لعبة مماثلة مع غريزة الأبوة والأمومة، فمع أن مفهوم الأسرة ظل قائمًا، وظل يتم تشجيع الآباء والأمهات على إبداء حبهم لأطفالهم بالطريقة نفسها المتبعة في العهد القديم تقريبًا، فإن الأطفال على الجانب الآخر كان يتم تحويلهم، وبطريقة ممنهجة، للعمل ضد آبائهم كما يدربون على التجسس عليهم والإبلاغ عن أي انحرافات تظهر. وهكذا أصبحت الأسرة امتدادًا لشرطة الفكر، ووسيلة لضرب نوعٍ من الحصار حول كل فرد بواسطة عملاء يحصون عليه كل حركاته وسكناته ليلًا نهارًا.

وعلى نحوٍ مفاجئ.. عاود التفكير في "كاترين" والتي كانت ولا شك مستعدة للوشاية به إلى شرطة الفكر، لولا أنها كانت من الغباء إلى حد يجعلها لا تدرك الانحرافات الحاصلة في آرائه عن عقيدة الحزب، لكن الشيء الذي جعلها تخطر بباله حقيقة هو حرارة الجو الخانقة في ذلك التوقيت والتي جعلت العرق يتصبب من جبينه، راح يخبر "جوليا" عن شيءٍ قد حدث، أو بالأحرى فشل في الحدوث في عصر صيفٍ آخر منذ إحدى عشرة سنة.

كان ذلك بعد ثلاثة أو أربعة أشهر من زواجهما، حينما ضلا طريقهما خلال رحلة جماعية في مقاطعة «كِنت»، ولم يتخلفا عن الآخرين سوى دقيقتين إذ سلكا منعطفًا خاطئًا، وسرعان ما وجدا نفسيهما عند حافة

محجر قديم للحجارة الكلسية، بلغ ارتفاعه ما بين عشرة أو عشرين مترًا وفي القاع كانت تتراكم كتل من الصخور. وقد ضلا طريقهما، لم يكن في المكان أحد يستطيعان سؤاله عن الطريق، وعندما أدركا ذلك بدت "كاترين" شديدة الانزعاج، فقد كان مجرد بعدها عن الضجيج المنبعث من أصوات الرفاق كفيلًا بأن يشعرها بأنها قد ارتكبت إثمًا.

وكانت تريد العودة سريعًا من الطريق الذي سلكاه خطأ ثم تبدأ البحث في الاتجاه الآخر. بيد أنه في هذه اللحظة استرعى انتباه "ونستون" بعض الزهور التي تنمو وسط شقوق الجرف الذي تحتهما. وكان بعضها ذا لونين، رغم أنهما ينبتان من الجذر نفسه.

ولأن "ونستون" لم يكن قد رأى زهورًا كهذه من قبل، فقد صاح:

- «انظري كاترين! انظري إلى هذه الزهور.. تلك التي تنمو قرب القاع. إنها ذات لونين مختلفين؟».

كانت "كاترين" قد ولت وجهها نحو طريق العودة، ولكنها اضطرت مغتاظة أن تعود. وانحنت برأسها فوق حافة الجرف لتنظر إلى حيث يشير، كان "ونستون" يقف خلفها على بعد مسافة قليلة منها، وقد وضع يده حول خصرها خشية أن تفقد توازنها. وفي هذه اللحظة خطرت بباله فجأة فكرة أنهما وحيدان تمامًا؛ فما من مخلوق بشري حولهما وما من ورقة شجر تهتز بل ولا طائر يرفرف بجناحيه. وفي مكانٍ كهذا المكان كان احتمال وجود ميكروفون مخبأ احتمالًا جد ضئيل، وحتى لو وجد ميكروفون فإنه لن يلتقط إلا الصوت. لقد كانت تلك الساعة أشد ساعات الظهيرة قيظًا وأكثرها إغراءً للنوم، حيث كانا يصطليان تحت أشعة الشمس، وتتصبب حبات العرق على وجه "ونستون". وسرعان ما خطرت له الفكرة...

سألته "جوليا":

- «ولماذا لم تلق بها من فوق الجرف؟ لو كنت مكانك لفعلت».

فقال:

- «نعم عزيزتي، كنتِ ستفعلين. بل إنني كنت سأفعل، أو ربما كنت سأفعل، ذلك أيضًا لو أنني كنت على ما أنا عليه الآن. إنني لست متأكدًا على أية حال».

- «هل أنت آسف على أنك لم تفعل؟»

- «أجل، إجمالًا أنا آسف».

كانا يجلسان جنبًا إلى جنب على الأرض المغطاة بالغبار، فجذبها إليه وضمها ثم أراح رأسها على كتفه فشم رائحة شعرها الجميلة التي غطت على رائحة زَرق الحمام. قال في نفسه إنها كانت في ميعة الصبا، ولا تزال تنتظر الكثير من الحياة، لم تدرك بعد أن دفع شخص لا يعجبنا من فوق الجرف لن يحل المشكلة.

قال:

- «الواقع أن ذلك لم يكن ليحدث أي فرق».

قالت "جوليا":

- «فلماذا تأسف لأنك لم تفعلها؟».

قال:

- «فقط لأنني أفضل التصرف الإيجابي على السلبي، ففي هذه اللعبة التي نلعبها ليس في استطاعتنا أن نفوز، إذ كل ما في الأمر أن بعض الفشل أهون من بعض».

أحس بكتفيها يتحرك حركة تنم على عدم موافقتها على كلامه، إذ كانت تعارضه دائمًا عندما يقول شيء من هذا القبيل. فهي لا تقبل إطلاقًا فكرة أن الفرد دائمًا مهزوم. وبطريقةٍ ما كانت تعلم أن مصيرها إلى زوال، ذاك أن شرطة الفكر، إن عاجلًا أو آجلًا، ستلقي القبض عليها وتزيلها من الوجود. لكنها من وجهة نظر أخرى كانت تؤمن أنه من الممكن، بشكلٍ من الأشكال، إقامة عالم يعيش في الخفاء، ويمكنك العيش فيه حيثما تشاء وتختار. وكل

ما تحتاج إليه لتحقيق ذلك العالم هو حظًا ودهاء وجرأة. بيد أنها لم تدرك أنه ليس ثمة ما يسمى بالسعادة، وأن النصر الوحيد الذي يمكن تحقيقه قابع في المستقبل البعيد الذي سيأتي بعد موتك بأمدٍ طويل، كما لم تكن تدرك أنه يجدر بالمرء أن يعتبر نفسه جثة بلا روح منذ اللحظة التي يعلن فيها الحرب على الحزب.

علق:

- «إننا في عداد الموتى».

فقالت "جوليا" بإصرار:

- «نحن لم نمت بعد».

قال:

- «أوافقك أننا لم نمت جسديًا. لكن بعد ستة أشهر، سنة، خمس سنوات حسبما أتصور سنكون من الموتى. إنني أخاف الموت، وأنت أصغر مني سنًا وربما تخافين الموت أكثر مني. لا ريب أننا سنحاول إرجاء قدومه قدر المستطاع، وإن كان ذلك لن يغير من حقيقة الأمر شيئًا، فما دام الإنسان هو الإنسان، فإن الموت والحياة لديه يصبحان وجهيّ عملة واحدة».

قالت "جوليا":

- «إن هذا لهراء.. ترى مع أي منا تحب أن تنام الآن، معي أم مع هيكل عظمي؟ ألا تستمتع بكونك على قيد الحياة؟ ألا تحب أن تتحسسني؟ ها أنا ذا، وهذه يدي، وهذه ساقي، أنا حقيقة، أنا موجودة، إنني حية! ألا تحب هذا؟».

ودنت منه لتضغط بصدرها على صدره. أحس نهديها ناضجين وبارزين من خلال معطفها. وبدا جسدها كما لو كان يصب بعضًا من عنفوانها وحيويتها في جسده.

فأجاب:

- «نعم، أحب ذلك».

قالت:

- «إذن كف عن حديث الموت إذًا. والآن استمع يا عزيزي، علينا أن نتفق على موعد لقائنا القادم، يمكننا العودة إلى مكاننا في الغاب، فقد تركناه فترة طويلة، ولكن يجب علينا أن نسلك طريقًا آخر هذه المرة.. لقد حددت كل شيء. عليك أن تأخذ القطار.. لكن أنظر، سوف أرسم لك المخطط».

وبطريقتها العملية مسحت جزءًا صغيرًا من الأرض المغطاة بالغبار، واستلت قشة من عش حمام وراحت ترسم خريطة الطريق.

الفصل الرابع

راح "ونستون" يقلب نظره في أرجاء الغرفة الوضيعة الصغيرة فوق متجر السيد "شارنغتون"». كان فيها سريرٌ ضخم ينتصب مرتبًا بجوار النافذة وعليه بطانيات بالية ووسادة من غير غطاء. وكان فوق الرف العلوي للمدفأة ساعة عتيقة من ذات الاثني عشر رقما تسمع دقاتها. وفي زاوية الغرفة شبه المعتمة كان يلمع وعلى نحوٍ ضعيفٍ ثقل الورق الزجاجي الذي اشتراه في آخر زيارة له إلى ذلك الحانوت.

وعلى سياج المدفأة كان هنالك موقدٌ زيتي صغير، وإبريق، وفنجانان، أمده بها السيد "شارنغتون"». أشعل "ونستون" الموقد الزيتي، ثم وضع فوقه إبريق الماء ليغلي، وكان قد أحضر معه عبوة من «قهوة النصر» وبعض قطع السكر. كانت عقارب الساعة تشير إلى الخامسة والثلث مساءً، فيما هي في الحقيقة السابعة والثلث. أما "جوليا" فسوف تأتي في السابعة والنصف.

راح قلبه ينبض خوفًا بكلمات: "إنها لحماقة! إنها لحماقة، إني أجرجر نفسي متعمدًا إلى موتٍ زؤام مجاني، فالجريمة التي أوشك على ارتكابها هي من الجرائم التي لا يمكن لعضو الحزب أن يخفيها. لقد انبعثت في ذهنه هذه الفكرة للمرة الأولى وإثارتها في مخيلته رؤيته للثقل الزجاجي الذي انعكس على سطح الطاولة المطوية. وكما توقع فإن السيد "شارنغتون" لم يجد مشكلة في أن يؤجر الغرفة له، وبدا جليًا أن حفنة الدولارات التي سيدرها عليه ذلك قد سرته كثيرًا حتى أنه لم يظهر عليه أي أثر لصدمة أو شعور بالانزعاج عند معرفته بأن "ونستون" ينوي أن يتخذها ملاذًا لممارسة الحب، بل وعلى النقيض من ذلك راح يتظاهر بقدرٍ من اللامبالاة وجعل يسترسل في الحديث عن مبادئ عامة وبلهجة لطيفة تعطي انطباعًا بأنه ليس له وجود بالغرفة. وقال لقد كانت الخصوصية شيئًا ثمينًا جدًا، فالمرء يحتاج من وقتٍ لآخر إلى مكانٍ يختلي فيه بنفسه، فمن حسن اللياقة الاجتماعية أن يحتفظ كل من

تناهى إلى معرفته هذا الأمر بالمعلومات لنفسه، بدا وكأنه يتلاشى نهائيًا ويلغي وجوده وهو يضيف قائلًا:

- «إن للمنزل مدخلين، أحدهما يمر عبر الساحة الخلفية ويطل على الزقاق».

وتحت النافذة كان هنالك شخص يغني، فاسترق "ونستون" النظر محتميًا وراء ستار الموسلين، وكانت شمس حزيران لا تزال في كبد السماء، حيث كان ينظر في الساحة التي غمرتها الشمس إلى تلك المرأة الضخمة التي جعلها بنيانها المتين أشبه بعمود نورماندي، فكانت ذات ساعدين حمراوين مفتولي العضلات، تلف حول خصرها مئزرًا، كما كانت تروج وتجيء بين وعاء الغسيل والحبل، حيث كانت تعلق أشياء صغيرة بيضاء اللون، أدرك "ونستون" أنها حفاضات أطفال، وكانت كلما انتهت من مشابك الغسيل التي تحملها بين شفتيها تنطلق بالغناء بصوتٍ جهوري:

«كان مجرد حلم لا رجاء فيه..
مر مثل يوم من نيسان..
لكنهم سرقوا قلبي مني..
بنظرة وكلمة وأحلام أثاروها»..

ظلت أصداء هذ الأغنية تتردد في أنحاء «لندن» على مدى أسابيع، لقد كانت واحدة من عددٍ لا يُحصى من أغنياتٍ مشابهة لها، يوجهها أحد فروع قسم الموسيقى إلى العامة، وكانت كلماتها تؤلف دون أي تدخل بشري بواسطة جهاز يعرف باسم «الناظم». لكن المرأة كانت تغنيها بطريقة لحن حي، ما جعل هذه السخافات الكئيبة تتحول إلى أصواتٍ تبعث على السرور. كان "ونستون" يسمع المرأة وهي تغني، كما يسمع وقع احتكاك حذائها وهي تجرجره على أحجار الشارع، مختلطًا بصراخ الأطفال في الشارع. كما كان يتناهى إلى السمع هدير خافت لحركة الشاحنات يأتي من أفق بعيد، ومع ذلك

ظل سكون عجيب يخيم على الغرفة، وربما كان مرد ذلك عدم وجود شاشة رصد في الغرفة.

وعاد يحدث نفسه:

- يا لها من فكرة حمقاء، إنه لمن المستبعد التردد على هذا المكان لأكثر من بضعة أسابيع بغير افتضاح سترهما. ولكن فكرة أن يمتلكا مكانًا مغلقًا وآمنًا وفي متناولهما كانت تمارس على كليهما إغراء لا يقاوم، إذ تعذر عليهما لفترة بعد لقائهما في برج الكنيسة ترتيب لقاءات جديدة، فقد ازدادت ساعات العمل بشكلٍ لا يحتمل، استعدادًا لفعاليات «أسبوع الكراهية».. ومع أنه كان لا يزال هناك شهر قبل حلول هذا الأسبوع فإن الاستعدادات الهائلة والمعقدة التي تسبقه، ألقت بمزيدٍ من الأعباء على كاهل كل شخص. وأخيرًا تمكن كل منهما من تدبير نصف يوم عطلة في اليوم نفسه، وكانا قد اتفقا على أن يعودا إلى مخدعهما في الغاب. وفي المساء الذي سبق الموعد المضروب التقيا على نحو خاطف في الشارع، وكالمعتاد لم يتطلع "ونستون" مباشرة إلى "جوليا" وهما يسيران وأحدهما في اتجاه الآخر في قلب الزحام، بيد أنه مع ذلك لاحظ من خلال هذه النظرة الخاطفة أن "جوليا" أكثر شحوبًا من ذي قبل.

وحينما رأت أن الوضع آمنًا للكلام، تمتمت قائلة:

- «لقد تم إلغاء الموعد، أقصد موعد الغد».

أجاب "ونستون":

- «ماذا؟».

قالت:

- «بعد ظهر الغد. لن أستطيع المجيء».

قال:

- «ولم لا؟».

أجابت:

- «أوه، للسبب المعتاد، لقد بدأت الاستعدادات أبكر في هذه المرة».

وللحظة استبد بـ "ونستون" غضبٌ عارم. فخلال الشهر الذي مضى تغيرت طبيعة رغبته نحوها. في أول الأمر كانت مفعمة بالقليل من الشهوة الحقيقية، وكان أول لقاء حب يضمهما مجرد إرادة لا رغبة. لكن ذلك تغير في المرة الثانية، إذ إن رائحة شعرها ومذاق فمها وملمس بشرتها قد تغلغلت في جوانحه، وملأت الهواء الذي يحيط به وأصبحت ضرورة بالنسبة إليه، بل استحالت شيئًا لا يريده فحسب بل يشعر أيضًا بأن من حقه الحصول عليه. ولذلك فعندما قالت إنها لن تستطيع المجيء انتابه شعور بأنها تخونه، ولكن في هذه اللحظة ازداد ضغط الزحام فالتقت أيديهما مصادفة، وشعر بها تضغط على أطراف أصابعه بشكلٍ لا يثير الرغبة بل يحرك العاطفة. فقال في نفسه أن المرء حينما يعيش مع امرأة يجب أن يعتبر خيبة الرجاء هذه أمرًا عاديًا وحدثًا متكررًا، وهنا شعر بعاطفة نحوها لا اشتهاءً كما لم يشعر من قبل. فتمنى لو أنه قد تزوجها قبل عشر سنوات، ولو أنه كان يستطيع أن يمشي معها في الشوارع كما يفعلان الآن ولكن علانية ودون خوف، ويتبادلان أطراف الحديث حول التفاهات ويشتريان معًا احتياجات بيتهما. وفوق كل ذلك تمنى لو كان لديهما مكان يختليان فيه معًا دون رقيب أو حسيب، وبغير أن يكون لزامًا عليهما أن يمارسا الحب في كل مرة يلتقيان فيها. لم تكن فكرة استئجار غرفة السيد "شارنغتون" قد خطرت له في تلك اللحظة، بل حدث ذلك في اليوم التالي، ولم يكد يعرضها على "جوليا" حتى قبلتها بسرعة لم يتوقعها. كان كلاهما يعي أن هذا عملًا طائشًا، إذ كانا كمن يحفران قبريهما بمحض إرادتهما. وبينما كان يجلس على حافة السرير راح يفكر ثانية في زنزانات وزارة الحب. إنه لأمر غريب أن هذا الفزع المحكوم به على الإنسان

يجتاح وعيه حينًا ويختفي حينًا، فهو يكمن هناك في المستقبل، ويستبق الموت تمامًا مثلما يسبق الرقم 99 المائة.

فالمرء لا يستطيع تحاشيه وإن كان يستطيع تأجيله، ومع ذلك فإن على المرء من حينٍ لآخر أن يختار بمحض إرادته أن يقصر الفترة التي تسبق وقوعه.

سمع "ونستون" صوت أقدام سريعة على السلم في تلك اللحظة. اندفعت "جوليا" إلى داخل الغرفة، وكانت تحمل حقيبة أدوات من قماش خشن بني اللون مثل تلك التي كان يراها تحملها في الوزارة. فنهض وتقدم نحوها ليحتضنها بين ذراعيه، ولكنها انفلتت منه سريعًا، ربما لأنها كانت لا تزال تحمل الحقيبة.

وقالت:

- «لحظة من فضلك، دعني أريك ما أحضرت معي. هل أحضرت معك قهوة النصر البغيض؟ لابد أنك فعلت. يمكنك أن ترمي بها بعيدًا لأننا لن نحتاج إليها بعد الآن. انظر».

جثت على ركبتيها وفتحت الحقيبة وأخرجت ما بها من مفاتيح ومفكات معدنية، كانت في القسم العلوي من الحقيبة حيث كانت تضع تحتها عبوات ورقية أنيقة. وكانت العبوة الأولى التي ناولتها إلى "ونستون" ذات ملمس غريب وغامض بعض الشيء، لقد كانت معبأة بمادة ثقيلة أشبه بالرمل.

قال:

- «ما هذا؟ سكر؟».

- «إنه سكر حقيقي لا مكعبات السكرين. وهذا رغيف من الخبز من الخبز الأبيض الرائع، لا الخبز الكريه الذي نأكله. وها هي علبة صغيرة من المربى. وهذه علبة حليب. لكن انظر هذا هو الشيء الذي أفخر به حقًا، لقد اضطررت للفه بقطعة من الخيش لأن...».

لكنها ما كانت في حاجة لأن تشرح له سبب تغليف هذا الشيء، لقد ملأت رائحته الغرفة بالفعل، وكانت رائحة غنية ودافئة بدت وكأنها منبعثة من عالم طفولته الأولى: رائحة لا تصادف المرء في الوقت الراهن، إلا عرضًا حينما تفوح من خلف باب موصد يطل على ممر، أو تنبعث بطريقة ما في شارع مكتظ بالناس حيث يستنشقها المرء للحظة، ثم تختفي ثانية.

همس "ونستون" بدهشة:

- «إنها قهوة، قهوة حقيقية».

- «إنه البن الذي يشربه أعضاء الحزب الداخلي. إليك كيلو كاملًا منها».

- «ولكن كيف تمكنتِ من الحصول على مثل هذه الأشياء؟».

- «إنها كلها من مواد الحزب الداخلي. ليس هناك ما ينقص هؤلاء الأوغاد، ولكن بطبيعة الحال يستطيع الخدم والندل أن يسرقوا بعضًا منها خلسة.. انظر! لقد حصلت على عبوة صغيرة من الشاي أيضًا».

جلس "ونستون" القرفصاء بجانبها، ومزق إحدى عبوات الشاي ثم صاح قائلًا:

- «إنه شاي حقيقي، لا أوراق شجر العليق».

وقالت "جوليا" بغموض:

- «لديهم الكثير منه في الآونة الأخيرة، كما لو كانوا قد احتلوا الهند أو شيئًا من هذا القبيل. والآن أصغ إلي عزيزي: إني أريدك أن تدير ظهرك لثلاث دقائق. اذهب واجلس على الجانب الآخر من السرير ولا تقترب من النافذة، ولا تستدر نحوي قبل أن أقول لك ذلك».

وراح "ونستون" يحدق من خلال ستار الموسلين وهو غائب الذهن، وكان يبدو أن المرأة ذات الساعدين حمراوي اللون لا زالت تروح وتجيء في الساحة بين وعاء الغسيل وحبل الغسيل. وأخرجت مشجبي غسيل من فمها وهي تغني بحسٍ عميق:

«يقولون إن الزمن يشفي كل الجراح..

يقولون إنك تستطيع أن تنسى دائمًا..

لكن الابتسامات والدموع عبر السنين

ما تزال حتى الآن تمزق نياط قلبي»..

كان يبدو أن المرأة تحفظ جميع مقاطع هذه الأغنية عن ظهر قلب، وأخذ صوتها يعلو محمولًا على أجنحة نسيم الصيف العليل، وعلى لحنٍ رقيقٍ مفعم بشعورٍ ينم عن سعادة تخالطها الكآبة. وكان الناظر إليها يخامره شعور بأنها ستكون راضية كل الرضا لو أن أمسية حزيران هذه قد امتدت بلا نهاية، ولو أن ما لديها من ثيابٍ مغسولة لا ينفد حتى تظل على حالها هذه، الألف عام تعلق فيها حفاضات الأطفال، وتردد الأغنيات التافهة. وتنبه إلى أن من غريب الحقائق أنه لم يسبق له أن سمع عضوًا من الحزب وهو يغني وحده وبهذه التلقائية، إذ كان ذلك قمينًا بأن يبدو شكلًا من أشكال عدم الولاء وانحرافًا عن مبادئ الحزب وشذوذًا خطيرًا يرقى إلى مستوى كلام المرء إلى نفسه.. وربما لم يكن الناس يبحثون عن شيءٍ للتغني به، إلا حينما يصبحون على شفير الموت جوعًا.

مرت الدقائق الثلاث، فقالت "جوليا":

- «يمكنك أن تستدير الآن».

استدار "ونستون"، وللحظة بدا له أنه لا يعرفها. وكان في الحقيقة يتوقع أن يراها عارية، بيد أنها لم تكن كذلك، فالتحول الذي جرى عليها كان أكثر إثارة للدهشة من التعري. ذلك أنها كانت قد طلت وجهها بمساحيق الزينة وتلويناتها.

لا بد أنها قد انسلت إلى أحد الحوانيت الكائنة في أحياء العامة واشترت لنفسها مجموعة من أدوات الزينة. كانت شفتاها قد ازدادتا احمرارًا ووجنتاها قد توردتا، وأنفها قد طاله شيء من المسحوق، بل وكان هناك أثر لشيءٍ ما تحت عينيها يجعلهما أكثر بريقًا. نعم، لم يكن قيامها بذلك كله قد تم ببراعة، ولكن مقاييس "ونستون" أيضًا في مثل هذه الأمور لم تكن رفيعة، إذ لم يسبق له أن رأى أو حتى تخيل امرأة من الحزب تصبغ وجهها بمساحيق الزينة. لقد كان التغيير الذي طرأ على مظهرها مثيرًا للدهشة، فهي لم تصبح أكثر جمالًا فحسب بل أيضًا، وهو الأهم، أكثر أنوثة. وقد زاد من روعة مظهرها هذا شعرها القصير وزيها الصبياني. وما إن ضمها بين ذراعيه حتى غمرت أنفه رائحة زهور بنفسج صناعي، وعادت به الذاكرة في الحال إلى العتمة التي كانت تخيم على المطبخ شبه المعتم سيئ الذكر، وإلى المرأة ذات الفم كالمغارة. ورغم أن عطر "جوليا" هو نفسه العطر الذي كانت تستعمله تلك المرأة، لكنه في هذه اللحظة كان ذا أثرٍ مغاير.

وصاح:

- «وعطر أيضًا!».
- «أجل يا عزيزي، عطر أيضًا. هل تدري ما أنوي عمله في المرة التالية؟ سوف أحصل على ثوبٍ نسائي حقيقي، وألبسه هنا بدلًا من هذه البنطلونات اللعينة! سوف ألبس جوربًا حريريًا وحذاءً عالي الكعب. أريد أن أكون في هذه الغرفة امرأة لا رفيقة حزبية».

خلعا ملابسهما وقذفا بها بعيدًا واعتليا السرير الخشبي الضخم. كانت هذه هي المرة الأولى التي يتجرد فيها من ثيابه كاملة مع "جوليا"، فحتى تلك اللحظة كان ما يزال يشعر بخجلٍ شديدٍ من جسمه النحيل الشاحب، وتلك الدوالي البارزة في بطتي ساقيه وكذلك البقعة المشوهة اللون فوق كاحله، ولم يكن فوق السرير أي شراشف سوى تلك البطانية البالية التي كانت خيوطها

قد بليت حتى أصبحت ملساء، وما إن رقدا عليها حتى تملكتهما الدهشة من ضخامة السرير ومرونة نوابضه.. وقالت "جوليا":

- «لا ريب أنه محشو بالبق، لكن ذلك لا يعنينا في شيء».

لم يعد المرء يرى سريرًا مزدوجًا هذه الأيام، اللهم إلا في بيوت العامة. لقد نام "ونستون" في واحدٍ منها في طفولته، أما "جوليا" فلا تتذكر أن فرصة كهذه أتيحت لها من قبل.

وللتو راحا في نومٍ عميقٍ لفترة وجيزة. وعندما استيقظ "ونستون" كانت عقارب الساعة قد زحفت حتى قاربت التاسعة مساءً، لكنه لم يتحرك لأن "جوليا" كانت لا تزال نائمة متوسدة ذراعه. كانت معظم مساحيق زينتها قد انتقلت إلى وجهه فضلا عن الوسادة، لكن ثمة بقعة خفيفة من اللون الأحمر كانت لا تزال تبرز جمال وجنتها. وفوق مؤخرة السرير كان شعاع أصفر من أشعة الشمس الغاربة يسقط، فينعكس ضوؤه على موقد النار حيث يغلي الماء في الإبريق. أما في الأسفل، في الساحة، فكانت المرأة قد كفت عن الغناء، إلا أن صياح الأطفال في الشارع كان يتناهى إلى مسامعه عبر النافذة. وأخذ "ونستون" يتساءل في غموض عما إذا كان أمرًا طبيعيًا في ماضي الأيام الغابرة أن يناما معًا في سرير مثل هذا، ووسط الجو المنعش لأمسية صيفية كهذه، رجل وامرأة وهما متجردان من كل ثياب، يمارسان الحب متى شاءا ذلك، ويتبادلان الحديث متى شاءا، ودون أن يشعرا بأن ثمة ما يضطرهما إلى مغادرة فراشهما. هل كان أمرًا عاديًا أن يضطجعا بكل بساطة لا يشغلهما إلا الإصغاء إلى الأصوات الهادئة الآتية من الخارج؟ لا ريب أن شيئًا من ذلك لم يكن عاديًا في يوم من الأيام. وهنا استيقظت "جوليا" وفركت عينيها ثم رفعت نفسها متكئة على مرفقها ونظرت إلى الموقد الزيتي.

وقالت:

- «لقد تبخر نصف الماء، سأنهض وأعد بعض القهوة خلال لحظة. ليس أمامنا سوى ساعة فقط. متى يقطعون الكهرباء عن شققكم؟».

- «في الحادية عشرة والنصف ليلًا».

- «إنهم يقطعونها في الحادية عشرة في النزل الذي أقيم فيه، ولكن علينا أن نكون هناك قبل ذلك، لأن... آه ما هذا؟ اخرج أيها الحيوان القذر!».

وألقت ببعض جسمها فجأة من فوق السرير حيث التقطت حذاءً من على الأرض، وقذفت به بحركةٍ صبيانية نحو زاوية من زوايا الغرفة، تمامًا كما رآها تلقي بالقاموس في وجه "غولدشتاين" في ذلك الصباح أثناء «دقيقتي الكراهية».

سألها بدهشة:

- «ما هذا؟».

- «إنه جرذ رأيته يمد أنفه اللعين من ثقبٍ في خشب الأرضية. لقد أخفته على أي حال».

تمتم "ونستون":

- «جرذان! حتى في هذه الغرفة».

فقالت "جوليا" غير مهتمة وهي تعاود الاضطجاع:

- «إنها موجودة في كل مكان. حتى في مطبخ نزلنا، كما أن بعض المناطق في «لندن» تغص بها غصًا. هل تعلم أنها تهاجم الأطفال؟ نعم إنها تفعل.. وفي بعض الشوارع لا تجرؤ أم على ترك طفلها بمفرده لدقيقتين. إن الجرذان الضخمة بنية اللون هي التي تهاجم، وأقبح ما يفعله هذا النوع من الجرذان هو أنها دائمًا...».

فقاطعها "ونستون" مغمضًا عينيه تمامًا:

- «كفاكِ حديثًا في هذا الموضوع».

- «ما بالك يا حبيبي، لقد شحب لونك. ما الأمر؟ هل تصيبك رؤيتها بالغثيان؟».

- «إن أكثر ما يرعبني في هذا العالم هو الجرذان».

فضمته إلى جسدها وأحاطته بأطرافها كأنما أرادت أن تثبت فيه الطمأنينة بدفء جسدها. لكنه لم يفتح عينيه مرة أخرى مباشرة، فقد مرت به لحظات تملكه خلالها شعور بأن ذلك الكابوس الذي كان لا يفتأ ينتبه من حينٍ لآخر طوال حياته قد عاوده من جديد. لقد كان دائمًا الكابوس نفسه الذي يرى فيه نفسه واقفًا أمام جدار من الظلام وعلى الجانب الآخر كان ثمة شيء لا يمكن احتماله، إنه شيء كريه على النفس لا يمكن للمرء مواجهته. وفي ذلك الحلم الكابوس كان ما يستحوذ عليه وشعوره بأنه يخادع ذاته، لأنه في واقع الأمر كان يعلم ما وراء هذا الجدار، وبجهد جهيد، وكأنما ينتزع قطعة من مخه، كان يمكنه أن يخرج هذا الشيء إلى النور. بيد أنه كان دائمًا يستيقظ دون أن يكتنه هوية ذلك الشيء: رغم أنه كان يبدو وكأن رابطًا ما يربطه بما كانت "جوليا" تتحدث عنه حينما قاطعها.

- «إنني آسف، لا شيء، إنني لا أحب الجرذان، هذا كل ما في الأمر».

- لا تقلق يا حبيبي، فلن نسمح لهذا الحيوان القذر بالوجود هنا، سأحشو هذا الثقب بقطعة من الخيش قبل أن ننصرف، وفي المرة التالية عند قدومنا سأحضر معي بعض الأسمنت وأسده كما يجب».

كانت نوبة الفزع التي انتابت "ونستون" قد أخذت في الزوال، ولشعوره بالخجل من نفسه جلس متكئًا على مقدمة السرير، في حين كانت "جوليا" قد نهضت وارتدت زيها الرسمي وأعدت القهوة. كانت الرائحة المتصاعدة من الغلاية قوية ونفاذة حتى أنهما أوصدا النافذة خشية تسربها إلى الخارج، لئلا تلفت الأنظار وتصبح الغرفة مثارًا للشكوك. ولم يكن ثمة ما هو ألذ مذاقًا

من القهوة، إلا ذلك الطعم الحريري الملمس الذي أكسبها إياه السكر، الذي كاد "ونستون" ينساه بعد أن ظل لسنواتٍ لا يستعمل إلا السكرين. أما "جوليا" فقد أخذت تتجول في الغرفة وقد دست إحدى يديها في جيبها، فيما الأخرى تمسك بقطعة خبز بالمربى وهي تتطلع بلا مبالاة إلى رف الكتب، في محاولة لاستكشاف أفضل الطرق لإصلاح قوائم الطاولة المطوية، ثم ألقت بنفسها فوق المقعد البالي ذي المسندين لترى ما إذا كان مريحًا أم لا؟ ثم مضت تتفحص الساعة ذات الاثني عشر رقمًا عتيقة الطراز بارتياح من يتسلى بشيء، ثم حملت الثقل الزجاجي إلى السرير لتمعن النظر فيه. ولكنه أخذها من يدها مأخوذًا كالعادة بمنظر الزجاج الناعم الذي يشبه ماء المطر.

فسألته "جوليا":

- «ما هي في رأيك؟».

- «لا أظن أنها شيء مهم، أقصد أنه لم يسبق لها أن كانت ذات فائدة في يومٍ من الأيام. وهذا هو ما أحبه فيها. إنها أثر من الماضي فإنهم أن يمحوه. إنها رسالة يعود تاريخها إلى مائة عام، هذا إن استطاع المرء أن يقرأها».

وأومأت "جوليا" صوب الصورة المحفورة المعلقة على الحائط قائلة:

- «وماذا عن هذه الصورة؟ هل عمرها مائة عام أيضًا؟».

أجاب "ونستون":

- «أكثر من ذلك، ربما مائتي عام. لكن هذا ما لا يستطيع أحد أن يجزم فيه، فقد بات من المستحيل على المرء أن يحدد عمر أي شيء في هذه الأيام».

ودنت "جوليا" من الصورة لتمعن النظر فيها، ثم قالت وهي تركل الغطاء الخشبي للحائط أسفل الصورة مباشرة:

- «ها هو الثقب الذي أطل الجرذ اللعين بأنفه منه.. ما هذا المكان؟ أذكر أنني رأيته قبل ذلك».

قال "ونستون":

- «إنها كنيسة، أو على الأقل كانت كنيسة القديس سانت كليمنت دان».

وحينئذ كانت أصداء مقطع الأغنية التي لقنه إياها السيد "شارنغتون" قد عاد يتردد في ذاكرته وأضاف بلهجة مفعمة بالحنين إلى الماضي:

- «برتقال وليمون، تقول أجراس سانت كليمنت».

ولدهشته أكملت "جوليا":

- «فارذن، تقول أجراس سانت مارتن، فمتى ستدفعينها؟ تقول أجراس أولد بايلي...».

وأضافت تقول:

- «لا أذكر ماذا تقول الأغنية بعد ذلك. ولكني أذكر أنها تنتهي على النحو الآتي: ها هي شمعة تستضيء بها إلى فراشك، وها هو سيف لحز رقبتك».

- كان الأمر أشبه بمقطعين تتألف منهما كلمة سر، ولكن كان لا بد أن يكون ثمة شطر آخر بعد «أجراس أولد بايلي»، ربما يمكن انتزاعه من ذاكرة السيد "شارنغتون" إذا أمكن تذكيره به على نحو مناسب.

سألها: «لكن من علمكِ هذا؟».

- «إنه جدي، لقد اعتاد أن يرددها لي وأنا بعد فتاة صغيرة. لقد تبخر عندما كنت في الثامنة أو اختفى على أي حال».

وأضافت بشكلٍ غير متجانس:

- «ترى ماذا كان شكل الليمونة؟ لقد رأيت البرتقال، إنه فاكهة مستديرة صفراء اللون ذات قشرة سميكة».

قال "ونستون":

- «أنا أستطيع تذكر الليمون، لقد كان شائع الانتشار في الخمسينات، وكان شديد الحموضة إلى حدٍ يجعلك تصرين صريرًا على أسنانك بمجرد أن تتذوقيه».

قالت "جوليا":

- «أراهن أن هذه الصورة تأوي بقًا خلفها. سوف أنزلها من مكانها وأنظفها جيدًا في يومٍ من الأيام. أظن أن وقت انصرافنا قد حان. يجب أن أبدأ في إزالة هذه الزينة عن وجهي، يا له من عملٍ مزعج.. وسوف أزيل أحمر الشفاه عن وجهك فيما بعد».

ولم ينهض "ونستون" رغم مرور بضع دقائق أخرى. كان الظلام قد بدأ يسدل ستاره على الغرفة، فاستدار ناحية انبعاث الضوء، وراح يحدق في الثقل الزجاجي. وما كان يثير لديه دهشة لا تنقطع، ليس قطعة المرجان، بل لُب الزجاج الذي يحيط بها، والذي كان يبدو شفافًا كالهواء رغم عمقه السحيق.. وبدا كما لو أن سطح الزجاج قوسًا سماويًا يضم عالمًا صغيرًا بكل أجوائه. وانتابه شعور بأنه يمكنه أن يدلف إلى هذا العالم، بل إنه في الواقع موجود بداخله مع السرير الخشبي، والطاولة المطوية والساعة والقضبان المحفورة والثقل الزجاجي ذاته. فالثقل بمثابة الغرفة التي تحتويه وقطعة المرجان هي حياة "جوليا" وحياته، وهما مثبتتين بنوعٍ من الروابط الأبدية في قلب البلور ذاته.

الفصل الخامس

اختفى "سايم».. ففي صباح أحد الأيام تغيب عن عمله، ولم يتساءل عن سبب اختفائه إلا بضعة أشخاص طائشين. وفي اليوم التالي، لم يذكره أحد.. وفي اليوم الثالث ذهب "ونستون" إلى قاعة قسم السجلات، ليُلقي نظرة على لوحة الإعلانات، وكانت إحداها تحمل لائحة بأسماء أعضاء لجنة الشطرنج التي كان "سايم" عضوًا فيها، وبدت اللائحة كما كانت تبدو من قبل تمامًا، إلا أنها نقصت اسما واحدًا. وكان في ذلك دلالة كافية على أن سايم لم يعد له وجود، بل لم يكن له وجود من قبل على الإطلاق.

كان الطقس حارًا جدًا، حافظت الغرف المكيفة عديمة النوافذ في متاهات الوزارة على حرارتها الطبيعية، أما في الخارج فكان لهيب الحرارة على الأرصفة يلفح أقدام المارة، كما كانت رائحة قطارات الأنفاق المزدحمة في ساعات الذروة فظيعة، وكانت الاستعدادات لأسبوع الكراهية في أوجها، وموظفو كافة الوزارات يعملون وقتًا إضافيًا، كان لابد من تنظيم المواكب والاجتماعات والاستعراضات العسكرية، والمحاضرات والتماثيل الشمعية والعروض السينمائية وبرامج شاشات الرصد، نُصبت الحوامل للتماثيل وصنع دمي لشخصيات معينة ونقش الشعارات وصياغة الأغاني وإطلاق الشائعات وتزييف الصور. ولذلك توقفت وحدة "جوليا" في قسم الخيال عن إنتاج الروايات من أجل الإسراع في إصدار سلسلة من المنشورات التي تصور الفظاعات التي يقترفها الأعداء. أما "ونستون" فكان، إضافة إلى عمله المعتاد، يقضي الساعات الطوال كل يوم في مراجعة ملفات الأعداد القديمة من صحيفة التايمز، وذلك من أجل تغيير المواد الإخبارية، فكان يجب الاستشهاد بها في الخطابات. في تلك الأيام، كانت المدينة في حركةٍ محمومة حيث تنزل الجموع المثيرة للشغب من العامة لتطوف في الشوارع في أوقاتٍ متأخرة من الليل، كما كانت القذائف الصاروخية تتساقط على المدينة

بمعدل يفوق أي وقتٍ آخر، وكان دوي انفجارات هائلة يسمع عن بعد، دون أن يجد أحد تفسيرًا له، الأمر الذي كان يسمح بتطاير شائعات لا معقولة حولها.

تم تأليف اللحن الجديد لأغنية أسبوع الكراهية - وكانوا يطلقون عليها أغنية الكراهية - يبث عبر شاشات الرصد دون توقف. لحن كان في عمومه أبعد ما يكون عن الموسيقى بسبب ما كان يميزه من إيقاعٍ وحشي، يجعله أقرب إلى نباح الكلاب وأشبه بدق الطبول، كما كان يزرع الذعر في النفوس حينما تزأر به مئات الحناجر على وقع أقدام الجند وهي تضرب الأرض. أما العامة فقد أغرموا بها حتى أنها دخلت في المنافسة مع الأغنية القديمة التي كانت لا تزال تحظى لديهم بشعبية كبيرة، والتي تقول «كان حلمًا مقطوع الرجاء»، كما كان أطفال "بارسونز" يعزفونها ليل نهار وبصورة لا تحتمل على أسنان مشط وقطعة من ورق الحمام. وهكذا أصبحت أمسيات "ونستون" أكثر ازدحامًا بالمهام من أي وقتٍ مضى، كما شكلت فرق من المتطوعين يقودها "بارسونز"، كانت مهمتها هي تجهيز الشوارع من أجل أسبوع الكراهية، فتنصب الرايات ويرسمون الصور وتعلق اللافتات وينصبون صواري الأعلام فوق المنازل، ويمدون الأسلاك عبر الشوارع، بشكلٍ يُعرضهم للخطر، لاستقبال المحتفلين من حملة الأعلام. وكان "بارسونز" يباهي وهو في أوج نشاطه وسعادته، بأن بنايات النصر وحدها ستعرض أربعمائة متر من قماش الرايات، كما بدا أن شدة الحرارة والعمل اليدوي قد أعطاه الذريعة للعودة إلى ارتداء السروال القصير والقميص المفتوح في المساء، كما أصبح شعلة من النشاط والحركة إذ تراه دافعًا شيئًا وجارًا آخر، ناشرًا أو طارقًا بمطرقة، يلاطف هذا ويمازح ذاك بطريقة رفاقية، ويقوم بما تمليه عليه المواقف. وهو في كل ذلك كان يطلق من كل طية من طيات جسمه ما بدا معينًا لا ينضب من عرف كريه الرائحة يزكم الأنوف.

وفجأة ظهر ملصق جديد في كافة أرجاء «لندن»، لم تكن تحمل أي كتابات أو تسمية بل كانت تمثل صورة مخيفة لجندي أوراسي يراوح طوله ما بين ثلاثة إلى أربعة أمتار، وهو يخطو إلى الأمام بوجهٍ منغولي جامد الملامح منتعلًا حذاءً ضخمًا، ومتأبطًا مدفعًا رشاشًا. ومن أي زاوية نظرت إلى الملصق بدت فوهة المدفع على نحوٍ أكبر وأقرب وهو يسددها نحوك مباشرة. ولم يترك مكانًا خاليًا على جدار في «لندن»، إلا وعلقت عليه هذه الملصقة حتى أنها فاقت صور الأخ الكبير عددًا، بل لقد كانت تدفع بالعامة الذين يقفون في العادة موقفًا لا مباليًا من الحرب، إلى الانخراط في نوباتٍ من السُعار الوطني. وانسجامًا مع هذه الأجواء.. كانت القذائف الصاروخية تتساقط مسببة في إزهاق الأرواح بأعدادٍ أكثر من المعتاد، وحدث أن سقطت إحداها على قاعة سينما غاصة بروادها في حي «ستيبني»، فدفنت مئات الضحايا تحت الأنقاض، فخرج جميع سكان الجوار للتشييع في جنازة ضخمة، سارت لساعاتٍ طويلة وقد كانت في الحقيقة مسيرة غضب. كما سقطت قذيفة أخرى على قطعة أرض خربة كان يستخدمها الأطفال كملعب، فمزقت العشرات منهم إلى أشلاء.

فخرجت مظاهرات غاضبة تجوب الشوارع تحرق فيها تماثيل "غولدشتاين" ومُزقت المئات من الملصقات التي تصور الجندي الأوراسي، ويقذف بها جميعًا لألسنة اللهب، نُهبت المتاجر أثناء أعمال الشغب التي تترافق مع المظاهرات. وسرت في الأنحاء شائعات مفادها أن الجواسيس كانوا يوجهون هذه القذائف الصاروخية عبر موجات لاسلكية، فقام المتظاهرون بإشعال النيران في أحد المنازل العائدة لزوجين عجوزين من أصلٍ أجنبي، كانت الشكوك قد ثارت حول ضلوعهما في ذلك.. فماتا اختناقًا بالدخان.

وفي الغرفة الكائنة فوق حانوت السيد "شارنغتون"، عندما يستطيعان الذهاب إليها، كانت "جوليا" ومعها "ونستون" يضطجعان جنبًا إلى جنب فوق السرير المجرد من الأغطية تحت النافذة عاريين جراء شدة الحرارة. وبالرغم

من أن الجرذان لم تعاود الظهور، فإن البق قد تكاثر على نحوٍ مخيف بسبب الحرارة الشديدة، ولكن يبدو أن أيًا من ذلك لم يكن ينتقص من سعادتهما، فقد كانا يعتبرانها جنة، سواء أكانت قذرة أو نظيفة، وكانا بمجرد وصولهما إلى الغرفة يرشان كل شيءٍ بفلفل أسود ابتاعاه من السوق السوداء، ثم يخلعان ملابسهما سريعًا ويمارسان الحب معًا، والعرق يتصبب من جسديهما حتى يستغرقا في نومٍ عميق، فإذا ما أفاقا وجدا البق وقد جمع صفوفه واحتشد لشن هجومًا مضاد.

وقد بلغ عدد مثل هذه اللقاءات خلال شهر حزيران ما بين أربعة إلى سبعة. وفي هذه الأثناء كان "ونستون" قد أقلع عن عادة شرب الجن تمامًا، وكأنه لم يعد بحاجة إلى ذلك، كما غدا جسمه أكثر امتلاءً ولم تعد دوالي ساقيه ظاهرة عدا بقعة بنية فوق كاحله، وزالت عنه نوبات السعال التي كانت تنتابه كل صباح، كما لم يعد يرى الحياة حملًا ثقيلًا لا يطاق، أو يشعر بالحاجة الماسة لأن ينظر بغضب نحو شاشة الرصد أو يطلق اللعنات بأعلى صوته. والآن وقد أصبح لديهما ملاذٌ آمن هو بمثابة المنزل لهما، فقد باتا لا يشعران بالضيق من كونهما لا يلتقيان إلا مراتٍ قليلة، ولا يمكثان معًا في كل مرة سوى ساعتين. إذ كان همهما منصبًا على أن الغرفة الكائنة فوق الحانوت ينبغي أن تظل موجودة، وكان مجرد أنها موجودة ولم تنتهك حرمتها يشعرهما بارتياح يكاد يضاهي ذلك الذي يشعرانه حينما يكونان بداخلها، إذ كانت الغرفة تمثل لهما عالمًا خاصًا كما باتت جيبًا من جيوب الماضي، تستطيع الحيوانات المنقرضة أن تسير فيه، وكان "ونستون" يرى في السيد "شارنغتون" حيوانًا منقرضًا هو الآخر.

وقد اعتاد "ونستون" أن يتوقف كلما هم بالصعود إلى الغرفة، لدقائق قليلة يتجاذب فيها أطراف الحديث مع السيد "شارنغتون" الذي كان نادرًا ما يغادر حانوته ولا يأتيه إلا القليل من الزبائن، فقد كان يعيش حياة أشبه بحياة الأشباح تبدأ من ذلك الحانوت المعتم الضيق وتنتهي في المطبخ الخلفي

الأشد ضيقًا، حيث كان يعد فيه وجباته والذي كان يحتوي من بين ما يحتوي، على مذياعٍ قديم جدًا – غرامافون - ذي بوقٍ هائل. وكان ذلك العجوز يسر كلما سنحت له فرصة للحديث مع "ونستون"، وكان في تجواله بين متاعه عديم القيمة بأنفه الطويل ونظارته الغليظة وكتفيه المقوستين في معطفه المخملي، يبدو كهاوٍ لجمع التحف أكثر منه تاجرًا. وبشيءٍ من الحماس الفاتر كان يشير بأصابعه إلى هذه القطعة من الخردة أو تلك – كسدادة قنينة من الصيني أو غطاء مطلي لعلبة سعوط مكسورة، أو علبة مغلقة تحتوي على خصلة من شعر طفل مات منذ زمن طويل، وكل هذا دون أن يسأل "ونستون" إن كان لديه رغبة في شراء أي منها، فكل ما يطمح إليه هو أن تحوز إعجاب "ونستون". أما الحديث معه فكان أشبه بالإصغاء إلى رنين صندوق موسيقي اهترأت أوتاره حيث كان يستحضر من زوايا ذاكرته بعضًا من القصائد المنسية، فكانت إحداها تدور حول أربعة وعشرين شحرورًا، وأخرى حول بقرة ذات قرنٍ مكسور، وثالثة عن موت الديك روبن المسكين. وكان كلما استذكر بعض المقاطع يقول بضحكة خافتة مستنكرة:

- «لقد خطر لي أنك ربما تهتم بذلك، بيد أنه لم يكن يستطيع أن يتذكر أكثر من أبيات قلائل من كل قصيدة».

وكان "ونستون" و"جوليا" يدركان تمامًا، ولم يغب عن بالهما أبدًا، أن دوام حياتهما على هذه الحال أمرٌ لن يستمر طويلًا، وكانت تمر أوقات تبدو فيها حقيقة أن موتًا وشيكًا يحدق بهما تماما كالسرير الذي يرقدان فوقه، فيتعلق أحدهما بالآخر، وقد تملكتهما شهوانية يائسة مثل روح هالكة محكوم عليها بالفناء، وتريد إشباع شهواتها وملذاتها قبل أن تدق ساعة هلاكها. وفي أوقات أخرى كانا يعيشان شعور أن حالهما هذه ليست آمنة فحسب، وإنما أيضًا ذات ديمومة، كما كان يشعران بأنهما ما داما في هذه الغرفة فلن يصيبهما مكروه. ومع أن الوصول إلى الغرفة كان شاقًا ومحفوفًا بالمخاطر، إلا أنها كانت ملاذًا آمنًا. لقد كان "ونستون" ينتابه فيها شعور كذاك الذي يشعر

به عندما يحدق في قلب الثقل الزجاجي، ويحس بأن في مقدوره الدخول إلى ذلك العالم الزجاجي، وبأنه بمجرد أن يدخل إليه فإن بوسعه أن يوقف دوران الزمن. وكثيرًا ما كانا يتركان نفسيهما أحيانًا لأحلام اليقظة.. أحلام عن الهرب! فقد يظل الحظ حليفًا لهما إلى أجل غير منظور، فيستطيعان مواصلة مؤامراتهما على هذا النحو في البقية الباقية من حياتهما الطبيعية، أو قد تموت "كاترين" ويفلحان بمناورة بارعة في الحصول على إذن بالزواج، أو قد ينتحران معًا، أو قد يتواريان عن الأعين ويغيران هيئتيهما بحيث لا يعرفهما أحد، ويتعلمان الكلام بلهجة البروليتاريا، ويحصلان على عملٍ في أحد المصانع ويعيشان ما بقي لهما من حياة في شارعٍ خلفي بعيدًا عن الأعين. وبيد أن كل تلك الأحلام كانت محض هراء، ولم يكن ذلك يغيب عن إدراكهما. ففي واقع الأمر لم يكن أمامهما من مهرب، فحتى الخطة الوحيدة القابلة للتطبيق، وهي انتحارهما، ما كان في نيتهما وضعها موضع التنفيذ. لقد كانت حياتهما من يومٍ إلى يوم، ومن أسبوعٍ إلى أسبوع، وهما يغزلان خيوط حاضر لا مستقبل له، تبدو أمرًا غريزيًا لا يمكنهما صده، تمامًا مثلما تظل الرئتان تجذبان النفس تلو النفس ما دام الهواء موجودًا.

كانا يتحدثان أحيانًا عن الاشتراك في ثورة حقيقية على سلطان الحزب، ولكن دون أن يكون لديهما أدنى تصور عن كيفية القيام بالخطوة الأولى في ذلك.. وحتى لو كانت حركة «الأخوة» الخرافية حقيقة، فإن صعوبة اختراق عالمها يظل عقبة، وقد تحدث "ونستون" إلى "جوليا" عن تلك الألفة الموجودة، أو التي يخيل إليه أنها موجودة بينه وبين "أوبراين"، وعن ذلك الدافع الذي كان يراوده أحيانًا في أن يلتقي "أوبراين"، ويفصح له عما يكنه من عداوة للحزب ويطلب منه العون في ذلك. ومن الغريب حقًا أن "جوليا" لم تكن تعتبر ذلك عملًا متهورًا يتعذر الإقدام عليه، إذ كانت اعتادت أن تحكم على الناس من وجوههم، ولذا بدا لها طبيعيًا أن يقتنع "ونستون" بأن "أوبراين" جدير بالثقة لمجرد ذلك التلاقي الذي حصل مرة واحدة لديهما في

لمحة واحدة من عينيه. وفضلًا عن ذلك فقد كانت تعتقد اعتقادًا راسخًا بأن كل شخص تقريبًا يضمر في قريرته نقمة على الحزب، وأنه لن يتردد في خرق القواعد متى أمن عاقبة ذلك. ولكنها رفضت أن تؤمن بأن معارضة واسعة النطاق ومنظمة موجودة أو يمكن أن يكتب لها الوجود. إذ كانت ترى أن ما يتداول من حكايات عن "غولدشتاين" وجيشه السري ما هي إلا خرافات اختلقها الحزب خدمة لأغراضه، وعليك أن تتظاهر بأنك تؤمن بها. وفي مرات لا يُحصى عددها كانت تجد نفسها في تجمعات الحزب وفي تظاهراته العفوية، تهتف بأعلى صوتها مطالبة بضرورة إعدام أشخاص لم تكن قد سمعت بأسمائهم من قبل، كما لم تكن تصدق أي من الجرائم المزعومة التي نسبت إليهم.

وعندما تنعقد المحاكمات العلنية، كانت تأخذ مكانها بين مفارز اتحاد الشبيبة، التي تحيط بقاعات المحاكم منذ الصباح وحتى المساء، وهي تردد من حين لآخر «الموت للخونة». أما خلال دقيقتي الكراهية فكانت دائمًا تبرز رفيقاتها في كيل الإهانات وصب اللعنات على "غولدشتاين"، مع أنها لم يكن لديها أدنى فكرة عمن يكون "غولدشتاين" هذا، أو عن معتقداته وما يمثل. لقد أدركت الحياة في عهد الثورة، أما قبل الثورة فكانت صغيرة ولا يمكنها أن تتذكر شيئًا عن المعارك الأيديولوجية التي دارت رحاها في الخمسينات والستينات. وكان وجود شيء مثل الحركة السياسية المستقلة أمرًا لا يمكن تصوره، وكانت تؤمن بأن الحزب قوة لا تقهر، وأنه سيظل قائمًا كما هو أبد الدهر. وكل ما في استطاعة المرء فعله هو أن يتمرد عليه بالعصيان سرًا أو على الأكثر بأعمال عنف متفرقة كقتل شخص أو نسف بناية ما.

وكانت "جوليا" أحَدَّ ذهنًا من "ونستون" وأقل تأثرًا بدعاية الحزب. فذات مرة، عندما عرج في حديثه معها على الحرب ضد «أوراسيا»، هاله قولها بأنها تعتقد أنه لم يكن هنالك من حرب، وأن القذائف الصاروخية التي تتساقط يوميًا فوق «لندن» ربما كانت تطلقها حكومة «أوقيانيا» بنفسها لا لشيء إلا

«لإبقاء الشعب في حالة من الفزع»، وهذه فكرة لم تكن قد خطرت ببال "ونستون" إطلاقًا، كما أنها أثارت في نفسه شيئًا من الحسد عندما أخبرته بأن العقبة الكبرى التي كانت تواجهها خلال دقيقتي الكراهية هي تحاشي الضحك عاليًا. وكانت تتشكك في تعاليم الحزب، غالب الأحوال على استعداد لقبول الأساطير المؤسسة للحزب وذلك لأن الفرق بين الحقيقة والزيف أمرٌ لم يكن يهمها من بعيدٍ أو قريب، فمثلًا كانت تصدق ما تعلمته في المدرسة من أن الحزب هو الذي اخترع الطائرات. أما "ونستون" فكان يذكر أنه في أيام دراسته في أواخر الخمسينات تعلم أن الحزب اخترع طائرات الهليكوبتر فقط. ولكن بعد مرور اثني عشر عامًا، عندما كانت "جوليا" في المدرسة، ادعى الحزب أنه اخترع الطائرة، ولا بد أنه بعد مرور جيل آخر سيدعي اختراعه للمحرك البخاري. وعندما أخبرها أن الطائرات كانت موجودة قبل أن يولد، بل وقبل أن تقوم الثورة بوقتٍ طويل، وجد أنها لا تعير هذه الحقائق انتباهًا، فمهما يكن، ما هي أهمية أن نعرف من الذي اخترع الطائرات؟ بل وراعته الصدمة أكثر حينما اكتشف من ملاحظة عابرة وردت في حديثها أنها لا تذكر أن «أوقيانيا» كانت في حرب ضد «شركسيا»، وفي سلام مع «أوراسيا» منذ أربع سنوات. صحيح أنها كانت تعتبر مسألة الحرب برمتها ادعاءً زائفًا، ولكن من الواضح أنها لم تنتبه إلى أن اسم العدو قد تغير، إذ قالت بغموض:

- «كنت أظن دائمًا أننا في حرب مع أوراسيا».

وقد أخافه ذلك.. فاختراع الطائرات يعود إلى ما قبل مولدها بزمنٍ طويل، ولكن التحول في الحرب لم يحدث إلا قبل أربعة أعوام، أي بعد أن كانت قد نضجت ووعت الحياة. ودخلا في حجاج حول ذلك الموضوع زهاء ربع الساعة، وفي النهاية نجح "ونستون" في إرجاع ذاكرتها إلى الوراء، حتى تذكرت على نحوٍ غير واضح أنه في وقتٍ من الأوقات كانت «شركسيا» لا «أوراسيا» هي العدو. ولكنها ظلت ترى أن هذه المسألة عديمة الأهمية. وقالت بصبرٍ نافد:

- «وماذا يهم؟ إنها دائمًا حرب دموية تتلوها حرب دموية أخرى، والكل عرف أن هذا كله محض أكاذيب».

أحيانًا كان يحدثها عن قسم السجلات وعن التزويرات الوقحة التي تتم. وقد أدهشه أن معرفتها بمثل هذه الأشياء لم تفزعها، ولم تكن تشعر بالهوة السحيقة والرعب، عندما علمت أن الأكاذيب هناك تتزين بزي الحقائق. وقص عليها ما كان من أمر "جونز، وآرونسون، ورازرفورد" وقصاصة الورق الخطيرة التي حدث ووقعت بين يديه ذات مرة. إلا أنها لم تتأثر كثيرًا بذلك، بل ولم تفطن في بداية الأمر إلى مغزى ما يورده من شواهد في القصة فسألته:

- «هل كانوا أصدقاءك؟».

- «كلا، فأنا لم أعرفهم أبدًا، لقد كانوا أعضاء في الحزب الداخلي، فضلًا عن أنهم كانوا أكبر مني سنًا، وكانوا من بقايا الأيام الغابرة التي سبقت الثورة، ولا أكاد أميزهم بالنظر».

- «إذن ما الذي يقلقك؟ فالناس دائمًا يلقون حتفهم ويقتلون، أليس كذلك؟».

حاول أن يجعلها تفهم استثنائية الوضع، وأن الأمر ليس مجرد قتل شخص، فسألها:

- «هل تعلمين أن الماضي ابتداءً من الأمس، قد تم محوه محوًا تامًا؟ وحتى إذا كان له أي وجود فقد يكون في أشياءٍ قليلة مصمتة، لا كلماتٍ عليها مثل ذلك الثقل الزجاجي. إننا نكاد لا نعرف شيئًا محددًا عن الثورة والسنوات التي سبقتها، فكل السجلات تم إتلافها أو تحريفها، وكل كتاب أعيدت كتابته، وكل صورة أعيد رسمها، واسم كل تمثال وشارع وبناية جرى استبداله، وكل تاريخ جرى تحريفه، وما زالت هذه العملية متواصلة يومًا بيوم ودقيقة بدقيقة. لقد وصلنا إلى نهاية التاريخ، وانتفت صفة الوجود عن كل شيء عدا الحاضر الذي لا نهاية له، والذي ينطق بأن الحزب دائمًا

على حق. إنني أعلم بالطبع أن الماضي يُزَيَّف ولكن لن يكون بمستطاعي إطلاقًا أن آتي ببرهانٍ على ذلك، حتى لو كنت أنا الذي قمت بالتزييف. فبمجرد الانتهاء من التزييف يجري إحراق كل دليلٍ حي. والدليل الوحيد هو ذلك الذي يبقى داخل عقلي ولا أعرف يقينًا إن كان هنالك إنسانٌ آخر يشاركني فيما أحمل في ذاكرتي أم لا. وطوال حياتي لم أعثر على دليلٍ ماديٍ وملموس، إلا مرة واحدة وبعد أن كان الحدث قد مضى عليه سنوات».

- «لكن وما النفع من ذلك؟».

- «لم يكن ذا نفع، لأنني ألقيت به في المحرقة بعد بضع دقائق. لكن لو أن ذلك حدث اليوم لكنت احتفظت به».

فقالت "جوليا":

- «أما أنا فلم أكن لأحتفظ به، إنني على أتم الأهبة للمجازفة، ولكن فقط من أجل شيء جديد بهذه المجازفة، لا من أجل قصاصة من صحيفة قديمة. ماذا كان باستطاعتك أن تفعل لو أنك احتفظت بها؟».

أجاب قائلًا:

- «ربما لم أكن لأفعل الكثير، ولكنه كان دليلًا على أي حال، دليلٌ قد يزرع بعض الشك هنا وهناك على افتراض أنني كنت سأتجرأ على إطلاع البعض عليه. إنني لا أتخيل أنه سيكون بمقدورنا أن نغير أي شيء في حياتنا الراهنة، ولكن بوسع المرء أن يتخيل إمكانية ظهور جيوب صغيرة للمقاومة تظهر هنا وهناك، في شكل جماعات صغيرة من الأفراد يشد بعضها إزر بعض، وتأخذ في التكاثر تاركة وراءها ولو بضعة سجلات حتى يتسنى للجيل التالي أن يبدأ من حيث انتهينا».

فقالت:

- «إنني لست مهتمة بالجيل التالي يا عزيزي. ما يهمني هو نحن».

فقال لها:

- «إنك ثائرة من خصرك فما دونه فحسب».

رأت في ذلك دعابة لطيفة منه فعانقته ضاحكة، وهي في غاية البهجة.

لم تكن "جوليا" لتعير أدنى اهتمام لعقيدة الحزب وتفرعاتها. وحالما كان "ونستون" يبدأ الحديث عن مبادئ الاشتراكية الإنجليزية والتفكير المزدوج وسيرورة الماضي وإنكار الواقع الموضوعي، ويأخذ في استخدام كلمات من اللغة الجديدة، كان يبدو عليها الملل والارتباك، وتقول إنها لم يسبق أن أبدت اهتمامًا بمثل هذه الأمور. فالمرء يعلم أنها كلها محض سخافات، فعلام يقلق نفسه بها؟ كانت تعلم متى يجب عليها الهتاف ومتى يجب السباب، وذلك هو كل ما كان يحتاج إليه المرء. وإذا ما أصر "ونستون" على الحديث عن مثل هذه الموضوعات كانت تستسلم للنوم، فقد كانت من النوع الذي يستطيع أن ينام في أي ساعة وفي أي وضعية. ومن حديثه معها أدرك أنه من السهل أن يتظاهر المرء بالولاء للحزب وهو لا يدرك حتى معنى الولاء. وبطريقة ما، فرضت نظرة الحزب نفسها على أناس لا يقدرون حتى على فهمها، فجعلتهم يقبلون انتهاكاته الفاضحة للحقيقة لأنهم لم يستطيعوا أبدًا أن يفهموا ذلك، كما أنهم لم يكونوا يبدون القدر الكافي من الاهتمام بما يحدث، حتى يمكنهم فهم التنوير لوقائع الحياة. ولقد كان لافتقادهم للفهم فضل في جعلهم بمأمن من الجنون. لقد كانوا ببساطة يبتلعون كل شيء ولم يكن ما يبتلعونه ليصيبهم بأي أذى، لأنه لا يترك أي رواسب، بل يمر كما تمر حبة القمح في جوفٍ طار دون أن يهضمها.

الفصل السادس

وأخيرًا حدث ما كان "ونستون" يترقبه، لقد جاءته الرسالة المرتقبة والتي خُيل إليه أنه أمضى كل حياته منتظرًا مجيئها.

فبينما كان يسير عبر الممر الطويل بالوزارة قرب النقطة التي وضعت فيها "جوليا" رسالتها خلسة في يده، شعر بأن شخصًا يفوقه في الحجم يسير وراءه مباشرةً. وقد سعل هذا الشخص سعلة خافتة توطئة لبدء حديثه.. فما كان من "ونستون" إلا أن توقف فجأة واستدار، فإذا به أمام "أوبراين".

وأخيرًا أصبح "ونستون" وجهًا لوجه مع "أوبراين"، وبدا لـ "ونستون" أن حافزًا واحدًا يحركه الآن، وهو أن يلوذ بالفرار. وأخذ قلبه يخفق خفقانا شديدًا، وانعقد لسانه عن الكلام، ولكن "أوبراين" واصل سيره في الاتجاه نفسه وربت على كتف "ونستون" بلطف حتى يتسنى لهما أن يسيرا جنبًا إلى جنب. ثم استهل كلامه بأسلوبٍ ينم عن وقارٍ واحترامٍ فريدين، كانا يميزانه عن غالبية أعضاء الحزب الداخلي.

وقال:

- «لقد كنت أتحين فرصة للحديث معك، فقد قرأت بالأمس إحدى مقالاتك باللغة الجديدة في صحيفة التايمز، وبدا لي أنك تولي هذه اللغة اهتمامًا علميًا أكاديميًا، أليس كذلك؟».

كان "ونستون" قد استعاد بعضًا من رباطة جأشه، فقال:

- «لا أستطيع أن أقول إنه اهتمام علمي، فأنا هاوٍ لها فقط، كما أنها ليست موضوع اختصاصي، ناهيك عن أنني لم أشارك من قريب أو بعيد من يدرسون تركيباتها الفعلية».

فقال "أوبراين":

- «ولكنك تكتبها ببراعة وأسلوبٍ واضح، وهذا ليس رأيي وحدي، فقد كنت أتحدث مؤخرًا مع أحد أصدقائك وهو لا شك من الخبراء بها. ولكن لا تسعفني ذاكرتي باسمه في هذه اللحظة».

عاد قلب "ونستون" يخفق بشدة من جديد، إذ لم يكن ذلك إلا إشارة إلى "سايم"، و"سايم" لم يكن قد مات فحسب، وإنما مُحي وكأنه لم يكن له وجود. وباتت أي إشارة محددة إليه تنطوي على خطر قاتل. ولذلك ظن "ونستون" أن ملاحظة "أوبراين" هي بمثابة إشارة أو شفرة، وكونه يشترك معه في جريمة من جرائم الفكر مهما صغرت، فإن ذلك يجعلهما شريكين. وتابعا السير ببطء عبر الممر إلى أن توقف "أوبراين" لبرهة، وبحركته المعهودة الغريبة والمفعمة بودٍ تأتلف له القلوب، أعاد تثبيت نظارته فوق عينيه. ثم استطرد:

- «إن ما أردت فعلًا قوله هو.. أنني لاحظت أنك قد استخدمت في مقالك كلمتين بطل استعمالهما، إلا أن ذلك لم يحدث إلا مؤخرًا جدًا، تُرى هل اطلعت على الطبعة العاشرة من معجم اللغة الجديدة؟».

قال "ونستون":

- «كلا، أظن أن هذه الطبعة لم تصدر بعد، فنحن ما زلنا نستخدم الطبعة التاسعة في قسم السجلات».

فقال "أوبراين":

- «أعتقد أن الطبعة العاشرة لن تظهر قبل عدة شهور إلا أن بضعة نسخ تجريبية قد وزعت ولدي واحدة منها.. ولعله يهمك أن تطلع عليها؟».

وعلى الفور أجاب "ونستون".. وقد تراءى له أنه أدرك ما يرمي إليه "أوبراين":

- «نعم يهمني جدًا».

فقال "أوبراين":

- «إن بعض التحسينات الأخيرة التي أجريت على اللغة الجديدة تدل على إبداع حقيقي، فتخفيض عدد الأفعال مثلًا هو إحدى النقاط الجديدة التي ستحوز إعجابك على ما أظن. هل أرسل لك المعجم مع أحد السعاة؟ ولكني أخشى أن أنسى شيئًا مثل هذا كعادتي، ولعله من الأفضل أن تأتي إلى شقتي في وقتٍ يناسبك لتأخذه؟ انتظر ريثما أعطيك عنواني».

كانا يقفان أمام إحدى شاشات الرصد، وبحركة عفوية تحسس "أوبراين" جيوبه ثم أخرج مفكرة مبطنة بالجلد وقلمًا حبر مذهب، ووقف أسفل شاشة الرصد مباشرة يكتب العنوان في وضعية تتيح لمن يراقب على الطرف الآخر من الشاشة أن يقرأ ما يكتبه، ثم نزع الورقة التي كتب عليها وسلمها لـ "ونستون".

وقال:

- «إنني في العادة أكون في المنزل مساءً. فإن لم تجدني، فسيعطيك خادمي المعجم».

ومضى "أوبراين" تاركًا "ونستون" ممسكًا بقصاصة الورق التي لم يكن بحاجة إلى إخفائها هذه المرة. ومع ذلك فقد حفظ بعناية ما كان مكتوبًا فيها. وبعد بضع ساعات ألقى بها في مقبرة ثقب الذاكرة مع مجموعة من الأوراق الأخرى.

استغرق حديثهما دقيقتين على الأكثر، ولم يكن لهذا الحدث غير مغزى واحد محتمل. لقد حاكه "أوبراين" بطريقةٍ تجعل "ونستون" يتعرف على عنوانه.. ولم يكن من ذلك بد، فبدون الاستعلام المباشر يستحيل أن يتعرف المرء على عنوان سكنى أي شخصٍ آخر. فما من دليل لذلك من أي نوع. «إذا ما أردت مقابلتي، فهذا هو العنوان الذي يمكنك أن تجدني فيه». كان هذا هو ما قاله "أوبراين" لـ "ونستون". وقال "ونستون" في نفسه ربما تكون هناك

رسالة مخبأة بين صفحات المعجم. ولكن مهما يكن من أمره، هناك شيء واحد بات مؤكدًا، وهو أن المؤامرة التي كان يحلم بها جارية بالفعل وأنه يقف على أعتابها.

كان يعلم أنه سيلبي دعوة "أوبراين" إن عاجلًا أو آجلًا.. ربما كان ذلك غدًا، أو بعد زمنٍ أطول، فذلك ما لم يكن يعرفه على وجه الدقة.

لكن الذي حدث في هذا اليوم لم يكن سوى حصاد لعملية بدأها منذ سنوات. فالخطوة الأولى التي خطاها كانت مجرد فكرة سوية لا إرادية، وأما الثانية فكانت المفكرة وكتابة المذكرات. لقد انتقل من الأفكار إلى الأقوال، والآن ها هو ينتقل من الأقوال إلى الأفعال. وأما الخطوة الأخيرة فهي شيءٌ ما سيحدث في وزارة الحب وعليه أن يتقبله. فالنهاية توجد في طيات البداية، ولكنها نهاية مخيفة أو بعبارة أدق، هي أشبه بتذوق مسبق لطعم الموت قبل أن يجيء، وأشبه بكونك حيًا ولكن لا معنى لحياتك. وحتى عندما كان يتحدث مع "أوبراين" ويفطن لمعاني كلماته، كانت تعتريه رعدة يرتجف لها جسمه، وينتابه إحساس بأن قدميه تهويان به نحو رطوبة القبر، ولم يكن هذا الإحساس جديدًا عليه لأنه كان يدرك دائمًا أن القبر هنالك في انتظاره.

الفصل السابع

استيقظ "ونستون" وعيناه مغرورقتين بالدموع، وكانت "جوليا" تتقلب بجواره وهي شبه نائمة، وغمغمت بكلماتٍ ربما كانت «ما الخطب؟».

فقال:

- «كنت أحلم أنني...».

انعقد لسانه ولم يكمل القول، فقد كان الأمر أكثر تعقيدًا من أن يستطيع التعبير عنه بكلمات، إنه الحلم نفسه والذكرى المرتبطة به خطرت على ذهنه في اللحظات التي أعقبت استيقاظه.

ظل "ونستون" مستلقيًا وهو مغمض العينين اللتين كانتا غارقتين في أجواء الحلم، فقد كان حلمًا ممتدًا، صافيًا، بدا له فيه حياته كاملة كمشهدٍ طبيعي في أمسية صيفية ممتدًا إلى الأفق على جبلٍ قد غُسل بماء المطر. حدث كل ذلك داخل ثقالة الورق الزجاجي، وكان سطحه قبة السماء، وكان كل ما بداخلها مغمورًا بضوءٍ صافٍ يستطيع المرء أن يرى من خلاله مسافاتٍ لا نهاية لها، كما رأى في الحلم ذراع أمه وهي تحتض أخته الصغيرة، وهذا المشهد كان قد تكرر للمرة الثانية، لكن بعد ثلاثين سنة من امرأة يهودية، شاهدها في إحدى الفقرات الإخبارية وهي تحاول حماية صغيرها من طلقات الرصاص، ولكن دون جدوى، فانقضت عليهما الهيلوكوبتر وحولتهم إلى أشلاء.

فقال لها:

- «هل تعلمين أنني حتى هذه اللحظة كنت أظن أنني قتلت أمي؟».

قالت "جوليا" وهي تقاوم النعاس:

- «ولماذا قتلتها؟».

فأجابها:

- «أنا لم أقتلها. لم أقتلها جسديًا».

فقد تذكر في هذا الحلم النظرة الأخيرة التي القاها على أمه، وما هي إلا لحظاتٍ قليلة بعد استيقاظه حتى تذكر تفاصيل ذلك المشهد كاملة. إنها الذكرى التي طالما حاول أن يبعدها عن ذهنه، وإن كان لا يذكر تحديدًا متى حدث ذلك، فمما يذكره هو أن عمره كان لا يقل عن عشر سنوات، أو اثنتي عشرة سنة آنذاك.

فقد اختفى والده قبل وقوع الحادثة، ولكن لا يذكر تحديدًا توقيت اختفائه.. فما كان يذكر إلا الأجواء التي كانت تخيم على تلك الفترة من قلقٍ وصخب. فكان يذكر دوي الغارات الجوية وما تسببه من هلع، وعلى إثرها كان يهرع الناس إلى محطات قطارات الأنفاق، كما كان يذكر الأنقاض المكومة في كل مكان وسدت كل المنافذ، والإعلانات غير المفهومة التي كانت تُعلق في كل زاوية من زوايا الشوارع، وجماعات الشباب ذوو القمصان الموحدة اللون، والأعداد الهائلة من الناس مصطفة أمام الأفران، والأصوات المتقطعة لطلقات المدافع الرشاشة التي تُسمع من على بعد. بالإضافة إلى ذلك، فقد كان يذكر أن الناس لم تكن تمتلك ما يسد جوعهم، كما يذكر الساعات الطويلة التي كان يقضيها حول أكوامٍ مع الصبية بحثًا عن عروق الملفوف وقشور البطاطس، أو حتى كسر الخبز المتعفن، فيمسحون ما عليها من غبارٍ بعناية. أو يقضونها في انتظار شاحنات نقل علف المواشي على الطرقات، على أمل أن يتساقط منها البعض على الأرض فيتناولونه.

وعندما اختفى والده.. لم تُظهر أمه أي مظهرٍ من مظاهر الحزن أو الفجع على اختفائه، ولكن ظهر عليها تغير آخر، وكأن روحها قد أزهقت. وكان واضحًا حتى لـ "ونستون" أنها تنتظر شيئًا كانت على يقين أنه سيأتي. كانت تقوم بكل واجباتها المنزلية.. تطبخ، تغسل، تصلح الأشياء، ترتب السرير، وتكنس الغرفة، وتمسح الغبار. وكانت تقوم بكل هذه المهام ببطءٍ وسأمٍ شديدين، وكأنها تمثالٌ يتحرك ذاتيًا، ويبدو أن بنيانها الضخم حَسِن الشكل،

كان يرتد إلى حالة من السكون، فكانت تقضي ساعاتٍ طويلة على السرير، لا تحرك ساكنا إلا العناية بأخته الصغيرة. تلك الطفلة ضئيلة الجسم معتلة الصحة ساكنة الحركة، كانت تبلغ الثانية أو الثالثة من عمرها، وكان وجهها شبيهًا بالقرود من شدة هزلها. وكانت قليلًا ما تأخذ "ونستون" بين ذراعيها وتضمه إلى صدرها وقتًا طويلًا دون تنطق بكلمة. ورغم صغر "ونستون" وأنانيته إلا أنه كان على وعيٍ تام بأن تصرفات أمه مرتبطة بذلك الشيء الذي لم تشر إليه أبدًا.. لكن تنتظر حدوثه.

تذكر "ونستون" الغرفة المعتمة عفنة الرائحة، التي كانوا يعيشون فيها، والتي كانت يمتلئ نصفها بسريرٍ ذي غطاءٍ أبيض. كما كان يوجد موقدٌ ورفٌ لحفظ الطعام. أما خارج الغرفة كان يوجد حوضٌ بُني لغسل الأواني، وكانت تشترك فيه أكثر من غرفة. وتذكر "ونستون" أيضًا أمه وهي محنية على الموقد تقلب شيئًا ما في القدر. كما تذكر أيضًا جوعه المستمر، والمشاجرات العنيفة المتكررة التي تقوم عندما يحين وقت الطعام، وسؤاله المتكرر بلهجةٍ متذمرةٍ عن سبب عدم وجود الطعام، وحينما كان يصرخ ويغضب عليها، تتذكر أيضًا نبرات صوته حينما كان يتوسل إليها ببكاءٍ يثير العطف والشفقة، للحصول على نصيبٍ أكبر من حقه. وكانت دائمًا ما تستسلم لذلك وتعطيه أكثر من حصته. فهو (الولد) ويجب أن يحصل على النصيب الأكبر. ومع ذلك كان كلما أخذ يطلب المزيد. وكانت ترجوه أمه عند كل وجبة ألا يكون أنانيًا وأن يدرك أن أخته مريضة وبحاجة أيضًا إلى الطعام. إلا أن حديثها كان بلا جدوى. فكان يصرخ غاضبًا إذا توقفت عن إعطائه المزيد من الطعام. وكثيرًا ما كان ينتزع من يديها القدر والمعلقة أو يخطف بعض القطع من طبق أخته. فعلى الرغم من إدراكه أن أمه وأخته قد يموتا جوعًا بسببه، إلا أنه كان لا يستطع كبح نفسه، بل كان يرى أن ذلك من حقه، فكان الجوع الذي ينهش أحشاؤه هو ما يضطره لذلك. وبين الوجبات كان دائمًا ما يسرق ما تضعه أمه من طعامٍ على الرف، إذا غفلت عن حراسته.

وفي يومٍ من الأيام تم توزيع حصة الشوكولاتة المقررة عليهم بعد انقطاعها لأسابيعٍ أو لشهور. تذكر "ونستون" بوضوح قطعة الشوكولاتة الثمينة صغيرة الحجم التي أُعطيت لثلاثتهم، كانت تزن أوقيتين - كانت لا تزال الأوقية مستخدمة تلك الأيام -. كان من المفترض أن تقسم هذه القطعة على ثلاثة، إلا أن "ونستون" راح يصرخ بأعلى صوته، يريد الاستحواذ على قطعة الشوكولاتة كاملة، لكن نهرته أمه وطلبت منه ألا يكون طماعًا، وجرى بينهما جدالٌ طويلٌ ومزعج يتخلله الصياح والنحيب والاحتجاجات والمساومات، أما أخته الضئيلة كانت متعلقة بأمها بكلتا يديها، تمامًا كما تتعلق صغار القرود بأمهاتهم، وهي تنظر إليه بعينين حزينتين. وفي النهاية قسمت أمه الشوكولاتة ثلاثة أرباع له وربع لأخته. أمسكت الصغيرة بقطعة الشوكولاتة محدقة بها.. لأنها لا تعرف ما هي، أما "ونستون" فكان يراقبها وفجأة قفز قفزة سريعة اختطف فيها القطعة من يد أخته وفر هاربًا.

وصاحت أمه:

- «ونستون، ونستون، عد إلى هنا، وأعد لأختك قطعة الشوكولاتة».

توقف "ونستون"، لكنه لم يعد لأمه، وكانت عيناها القلقتان تحدقان به، كانت تفكر في ذلك الشيء الموشك على الحدوث. وراحت أخته تعول بوهن عندما أدركت أنه قد سُلب منها شيءٌ ما. فضمتها الأم في صدرها وأحاطتها بذراعيها. كانت هذه الحركة توحي لـ "ونستون" أن أخته تموت، لكنه استدار وفر هاربًا غير مهتم بذلك، بينما بدأت قطعة الشوكولاتة تذوب في يده.

لم يستطع أن يرى أمه مرة أخرى.. فبعد أن انتهى من تناول الشوكولاتة أحس بالخزي من نفسه، وراح يتجول في الشوارع لساعاتٍ دون مقصد.. حتى نهشه الجوع فساقه إلى البيت. لكنه لم يجد أمه، فقد اختفت! وكانت عمليات الاختفاء أمرًا عاديًا في ذلك الوقت، فوجد الغرفة على حالها لم يُمس فيها شيء عدا أمه وأخته، فلم يأخذا شيئًا من ملابسهما، وحتى معطف أمه كان

مكانه.. وحتى هذا اليوم لم يتيقن أن كانت أمه قد ماتت أم لا. فمن المحتمل أن تكون قد أُرسلت إلى أحد معسكرات الأشغال الشاقة، أما أخته فمن المؤكد أن تكون قد نُقلت إلى إحدى مستعمرات الأطفال المشردين - مراكز الإصلاح - كما كان يُطلق عليها، والتي كانت قد زادت أعدادها بسبب الحرب الأهلية، أو ربما تكون برفقة أمها في معسكر الأشغال، أو تُركت في مكانٍ ما وحيدة لتموت جوعًا أو إهمالًا.

كان الحلم حيًا في ذهنه، خاصة حركة ذراعي أمه وهي تضم طفلتها بحنان، وهذه الحركة كان لها معانٍ كثيرة.. وعادت به الذاكرة إلى حلمٍ آخر كان قد راوده منذ شهرين، عندما رأى أمه في سفينةٍ تغرق والطفلة تتشبث بها، تمامًا كما كانت جالسة على حافة السرير البائس في البيت، وهو يراهما من ارتفاعٍ شاهق تغرقان.. وتغرقان.. في أعماقٍ سحيقة، لكنها كانت تنظر إليه بعينين ثابتتين عبر ظلمة المياه.

حكى "ونستون" لـ "جوليا" قصة اختفاء أمه، فراحت تتحرك في الفراش حتى أصبحت في وضعٍ أكثر راحة، ومن دون أن تفتح عينيها قالت بغموض:

- «أظن أنك كنت وغدًا صغيرًا في تلك الأيام.. فالأطفال جميعهم أوغاد».

- «نعم.. لكن النقطة المهمة في هذه القصة هي...».

لكنه توقف عن الكلام.. فلاحظ من صوت أنفساها أنها غاصت في نومها مرة أخرى، فكان يود مواصلة الحديث عن أمه. فما كان يتذكره عنها أنها كانت امرأة غير عادية ولم تكن امرأة ذكية، لكن كانت تتصف بالنبل والطهارة فكانت تتصرف وفق معايير أخلاقية خاصة بها. كانت مشاعرها ملكًا خاصًا لها ولا يمكن لأحد أن يؤثر عليها، ولم تعتقد أبدًا أن أي عمل مهما كان غير مؤثر، يمكن أن يكون عديم المعنى أو الجدوى.. وكانت تؤمن بأن إذا المرء أحب شخصًا، فعليه أن يخلص في حبه له، حتى ولم يكن لديه ما يقدمه له سوى ذلك الحب. لذلك عندما اختطف "ونستون" قطعة الشوكولاتة من يد أخته

فاحتضنتها لتعوضها عن ذلك حبًا وحنانًا، على الرغم من أن ذلك كان بلا جدوى ولم يغير من الأمر شيئًا، ولم يُعد للطفلة قطعة الشوكولاتة، ولم يحل دون موت الطفلة أو موت الأم، لكن بدا لها أن هذا أمرًا طبيعيًا، وهكذا فعلت المرأة اللاجئة مع طفلها، فقامت باحتضانه بذراعها رغم علمها أن ذراعيها غير قادرتين على حمايته من الرصاص، أكثر مما تفعل قصاصة من الورق. وأفظع ما قام به الحزب هو إقناع الناس بأن المشاعر والدوافع ليس لها قيمة، وفي نفس الوقت كان يسعى لتجريدهم من كل سلطة على العالم المادي. فعندما يصبح المرء في قبضة الحزب فلا جدوى من المشاعر على الإطلاق. فمهما حدث سيتبخر ويتبخر معه كل ما قام به، ولا يُسمع به أو بأفعاله من أحد، فيتم محوه نهائيًا من مجرى التاريخ. لكن لم يبد هذا أمرًا شديد الأهمية بالنسبة للناس الذين عاشوا قبل جيلين، لأنهم لم يسعوا لتغيير التاريخ، فقد كان لهم ولاءات خاصة، وكان كل ما يهمهم هي العلاقات الفردية. فأي حركة مهما كانت مثل دمعة أو عناق أو كلمة يواسي بها أحد على فراش الموت، كانت بالنسبة لهم تحمل قيمة كبيرة في ذاتها. فتنبه هنا فجأة أن العامة ما زالوا يعيشون على هذه الحال؛ فولاؤهم ليس لحزبٍ أو لدولة أو حتى لفكرة، إنما لبعضهم البعض. وللمرة الأولى في حياته، لم يشعر باحتكار نحو عامة الناس ولم يعد يعتبرهم قوة ساكنة، بل قوة كامنة ستبعث في الحياة ذات يوم، فتبث في العالم روحًا جديدة. لقد ظل عامة الناس بشرًا ولم تتحجر قلوبهم. فهم يتمسكون بعواطف فطرية، عليه أن يبذل مجهودًا كبيرًا جدًا حتى يكتسبها. وأثناء تجول هذه الأفكار بخاطرة، تذكر بشكلٍ لا صلة له بالموضوع، كيف دفع بقدمه منذ أسابيع قليلة يدًا مقطوعة على الرصيف إلى المجاري.. كما لو كانت عرق ورقة ملفوف.

وقال بصوتٍ عالٍ:

- «إن العامة هم البشر، أما نحن فلسنا من البشر في شيء».

قالت "جوليا" التي استيقظت على صوته:

- «ولماذا لسنا من البشر؟».

ففكر "ونستون" برهة وأجاب:

- «ألم يخطر لكِ أن أفضل ما نفعله هو أن نغادر هذه الغرفة قبل فوات الأوان ودون رجعة، وألا يرى أحدنا الآخر بعد اليوم؟».

فأجابت:

- «بلى يا عزيزي، لقد خطر لي ذلك مراتٍ عديدة، ومع ذلك لن أقدم على شيء من هذا القبيل».

فقال:

- «لقد كان الحظ حليفنا، لكنه لن يستمر طويلًا، وأنتِ ما زلتِ شابة وتبدين غضة وبريئة، وإذا ابتعدتِ عن أمثالي من الأشخاص، فسيُكتب لكِ أن تعيشي خمسين سنة أخرى».

فقالت:

- «لا، لقد فكرت في الأمر من جميع اتجاهاته، وقررت أنني سأفعل ما ستفعله أنت، لا تقنط، فأنا أعرف جيدًا طرق البقاء على قيد الحياة».

فقال:

- «قد نظل سويًا لستة أشهر أخرى، أو لسنة.. لا سبيل لمعرفة ذلك، لكننا سنفترق بالتأكيد في النهاية، هل تدركين كم سنشعر بالوحدة بعد ذلك؟ فعندما يتم القاء القبض علينا لن يستطيع أي منا مساعدة الآخر بأي شيء، وإذا اعترفت أنا فسوف تُعدمين رميًا بالرصاص.. وإذا رفضت الاعتراف فستلاقين نفس المصير.. الأمران سيان! وما من شيءٍ أستطيع قوله أو فعله، أو الامتناع عن قوله أو فعله ليؤخر موتك ولو لخمس دقائق. فلم يكن

باستطاعة أحدٍ منا أن يعرف ما إذا كان الآخر حيًا أم ميتًا، وسوف نعجز آنذاك عن فعل أي شيء، الأمر الوحيد الذي يهمنا حينها هو ألا يخون أحدنا الآخر في حين أن ذلك لن يغير من الأمر شيء».

فقالت "جوليا":

- «إذا كنت تقصد الاعتراف فهذا أمرٌ لابد منه، فالجميع يعترف.. فلا مناص من ذلك، وإلا ذاق أشد العذاب».

فقال:

- «لم أقصد هذا الاعتراف، فالاعتراف في حد ذاته ليس خيانة، لا أهمية لما تقولينه أو تفعلينه، الأهم هنا هو المشاعر، فالخيانة الحقيقية التي أعنيها هي أن يتمكنوا من جعلي أتوقف عن حبك».

فكرت "جوليا" في الأمر وقالت بشكلٍ قاطع:

- «لن يتمكنوا من ذلك، فهذا هو الشيء الوحيد الذي لا يقدرون عليه، فبإمكانهم إجبارك على الاعتراف بأي شيء يريدونه، لكن لا يمكنهم إجبارك على تصديقه، فليس لديهم سلطة الوصول إلى كيانك».

فقال وقد ظهر عليه الأمل:

- «حقًا ليس لديهم، فلا يستطيعون أن ينفذوا إلى قلبك. فإن استطاع المرء أن يشعر بأن بقاءه إنسانًا أمرًا يستحق التضحية من أجله. حتى لو لم يكن لذلك نتيجة، فإنه بذلك يكون قد هزمهم».

فكر "ونستون" في شاشة الرصد وفي عينيها التي لا تنام وأذنها التي لا تصم، فيستطيعون التجسس عليك ليلًا ونهارًا، فيمكنك خداعهم إذا احتفظت بوعيك. وعلى الرغم من مهاراتهم الفائقة فلم يتمكنوا أبدًا من الوصول إلى معرفة سر الوصول إلى ما يجول به خاطر الإنسان. وربما تقل

مصداقية هذا القول حينما يقع المرء في قبضتهم، فلا أحد يعلم ما الذي يجري داخل وزارة الحب، لكن تخمين ذلك أمر محتمل.. تعذيب، عقاقير هلوسة وأجهزة دقيقة تسجل ردود فعلك العصبية، وإنهاك تدرجي لقواك نتيجة الوحدة وقلة النوم، والاستجواب المتواصل.. فلا سبيل على إخفاء الحقائق على أي حال، لأنهم يستطيعون استخلاصها بالاستجواب أو انتزاعها بالتعذيب. ولكن إن كان هدفك أن تظل إنسانًا وليس أن تظل على قيد الحياة فالفرق بينهم شاسعًا. فهم لا يستطيعون تغيير مشاعرك، بل المرء نفسه لا يستطيع تغيير مشاعر نفسه، حتى إن أراد ذلك.. فبإمكانهم كشف أدق التفاصيل ومعرفة أقوال المرء وأفعاله، ولكن أعماق القلب تظل حصنًا منيعًا لأنه لا يمكن السير في أغوارها.. حتى على أصحابها.

الفصل الثامن

وأخيرًا وقع المحظور..

فقد وجد "ونستون" و"جوليا" نفسيهما يقفان في غرفةٍ مستطيلة مضاءة بأنوار خفيفة، وكانت شاشة الرصد تُبَث بصوتٍ خافت أشبه بالتمتمة، وكانت نعومة السجادة ذات الزرقة الداكنة، تُشعر المرء عندما يدوس عليها بأنه إنما يطأ مخملًا. وفي أقصى الغرفة كان "أوبراين" يجلس إلى مكتبٍ منكبًا على القراءة وفوق رأسه مصباحٌ يلقي عليه ظلالًا خضراء، وقد رضت على جانبي المكتب مجموعة من الأوراق. وعندما أدخلهما الخادم إلى الغرفة ظل "أوبراين" على حاله، ولم يكلف نفسه عناء النظر إليهما.

خفق قلب "ونستون" خفقًا شديدًا إلى حدٍ جعله يشك في قدرته على الكلام، وتوقف تفكيره عند كونهم فعلاها هو و"جوليا" ووقعا في المحظور. فذهابهما معًا إلى هذا المكان يُعد تهورًا وطيشًا وحماقة مستحكمة، على الرغم من أنهما سلكا طريقين مختلفين، ولم يتقابلا إلا عند باب منزل "أوبراين"، لكن مجرد وجودهما معًا في هذا المكان يحتاج أعصابًا فولاذية. فنادرًا ما يُتاح للمرء الدخول إلى منازل أعضاء الحزب الداخلي أو التجول في أحيائهم السكنية كانت أجواء أماكن سكنهم مختلفة بضخامتها بالإضافة إلى الرحابة والفخامة اللتين تطغيان على كل شيء، وروائح ما لذ وطاب من الطعام، والتبغ الجيد، والمصاعد التي تتحرك في هدوءٍ تام، وسرعة صعودًا ونزولًا، والخدم ذات السترات البيضاء مسرعين يروحون ويجيئون... باختصار كان كل شيء يبث الرهبة في النفس، على الرغم من أن "ونستون" كان لديه حُجة قوية تبرر مجيئه إلى هنا، فكلما خطا خطوة كان يشعر بالرهبة من أن يباغته حارس ذو ملابس سوداء من خلف أحد الأماكن، فيطلب منه أوراقه قبل أن يأمره بالانصراف. وعلى العكس فلقد قابلهم خادم "أوبراين" وسمح لهما بالدخول دون اعتراض. كان رجلًا ضئيل الجسم، ذو شعرٍ أسود يرتدي سُترة

بيضاء، وله وجهٌ يشبه الماس متجمد الملامح، يبدو وكأنه من أصلٍ صيني. تقدمهما سائرًا في طرقة كبيرة، أرضيتها مغطاة بسجادٍ وثير وجدرانه مغطاة بورقٍ أبيض اللون، وكل ما فيها فائق النظافة، وكان ذلك يزيد الروع في النفس. فكانت هذه أول مرة يرى فيها "ونستون" طرقة لا تعلو القذارة جدرانها، والسخام الناتج من احتكاك الأجسام البشرية التي تعبر الطرقات.

كان "أوبراين" يمسك بقصاصة من الورق بين أصابعه يقرأها بإمعان، وقد بدا أن وجهه الضخم الذي انكب به على الورقة، حتى ليستطيع المرء أن يرى منه خط الأنف، يشع ذكاءً ورهبة. مضى زهاء عشرين ثانية، جلس فيها دون أن يحرك ساكنًا، ثم جذب جهاز آلة التسجيل نحوه وأملى رسالة بلغة مختزلة تستخدم في الوزارات:

«تمت الموافقة على البنود: الأول، والخامس، والسابع، أما الاقتراح الوارد في البند السادس سخيف جدًا يشبه جريمة الفكر. يجب رفع عدد المكائن.. انتهت الرسالة».

ثم نهض من كرسيه بحركة بطيئة وجاء نحوهما عبر السجادة التي لا يُسمع وقع الأقدام عليها، وبدا أنه قد زالت عنه بعض من هيئته الرسمية بعد انتهائه من إملاء رسالته باللغة الجديدة. إلا أن وجهه كان أكثر تجهمًا من المعتاد، كما لو أنه انزعج من زيارتهما.

وكان الرعب الذي شعر به "ونستون" بالفعل قد خالطه ارتباكٌ وحيرة، إذ بدا له أن من الجائز تمامًا أنه قد ارتكب خطأً ينم عن حماقة خطيرة، فأي دليلٍ ملموس لديه على أن "أوبراين" متآمر سياسي؟ ليس لديه سوى وميض العينين وملاحظة وحيدة وغامضة، أما عدا ذلك فأوهام مبنية على حُلمٍ تراءى له، كما أنه لا يستطيع اللجوء إلى الادعاء بأنه جاء لاستعارة المعجم لأنه في هذه الحالة سيتعذر عليه تفسير سبب مرافقة "جوليا" له. وعندما مر "أوبراين" بشاشة الرصد تصرف وكأنما خطرت له فكرة، فتوقف ثم استدار

وضغط زرًا في الحائط، وفي الحال سمعت طقة حادة وتوقف الصوت الصادر عن الشاشة.

وهنا صدر عن "جوليا" صوت خافت إذ كبتت شهقة ذهول، ولم يكن "ونستون" أقل هلعًا ودهشة، وقد عجز من شدة دهشته، أن يمسك لسانه عن الكلام.

فسأل:

- «هل تستطيع إقفال الجهاز؟».

فقال "أوبراين":

- «نعم يمكنني ذلك، فنحن نتمتع بهذا الامتياز».

كان "أوبراين" يقف قبالتهما الآن، وبدا كأن قوامه المتين قد جثم على كل منهما، وكان التعبير الذي ارتسم على وجهه مستعصيًا على التفسير. لقد كان ينتظر بتجهم أن يبدأ "ونستون" الكلام، ولكن عن ماذا؟ فحتى هذه اللحظة كان يبدو كأنه رجل أعمال منهمكًا في شواغله ويضيق بمن يقاطعه.. وبعدما أُوقفت شاشة الرصد وخيم جو من الصمت الرهيب على الغرفة، وتتالت الثواني ثقيلة، وبصعوبة بالغة ظل "ونستون" مثبتًا عينيه على وجه "أوبراين".. بعدئذ، وعلى نحوٍ مفاجئ، أفتر وجه "أوبراين" المتجهم عما يمكن أن يكون شروعًا في ابتسامة، وبحركته المعهودة قام "أوبراين" بإعادة تثبيت نظارته.

وقال:

- «هل أبدأ بالكلام أم تبدأ أنت؟».

فسارع "ونستون" بقوله:

- «بل سأبدأ أنا... لكن قل لي هل أوقفت هذا الجهاز حقًا؟».

قال:

- «نعم، لقد تم إيقاف كل شيء وها نحن الآن قد أصبحنا وحدنا».

قال "ونستون":

- «لقد جئنا إلى هنا لأننا...».

ثم توقف عن الكلام بعدما أدرك وللمرة الأولى غموض دوافعه. ولأنه لم يكن علم حقًا نوع المساعدة التي يتوقعها من "أوبراين"، فقد كان من العسير عليه أن يفسر سبب قدومه إلى منزله، لكنه مع ذلك راح يكمل ما انقطع من كلامه وهو مدركًا أن ما سيقوله كان يبدو زعمًا واهيًا:

- «إننا نعتقد بأن مؤامرةً ما تحاك خيوطها، وبأن ثمة نوعًا من التنظيمات السرية تعمل ضد الحرب، وبأنك شريك فيها. ونحن نريد الانضمام إليها لأننا نضمر العداء للحزب ولا نؤمن بمبادئ الاشتراكية الإنجليزية، إننا مجرمو فكر وفاسقون. إنني لم أبح لك بهذا إلا لأننا نريد أن نضع نفسنا رهن تصرفك، فإذا أردت منا أن نجرم أنفسنا بأي شكلٍ من الأشكال فنحن على أتم الاستعداد لذلك».

وتوقف "ونستون" عن الكلام ونظر من فوق كتف "أوبراين" حينما أحس بأن الباب قد فُتح.. فإذا بخادمٍ ضئيل الجسم أصفر الوجه يدلف إلى الغرفة دون أن يطرق الباب حاملًا صينية عليها قنينة وبعض الكؤوس.

فقال "أوبراين" وهو جامد الملامح:

- «إن مارتن واحدٌ منَّا».

ثم راح يوجه كلامه للخادم:

- «هات الشراب إلى هنا يا مارتن، وضعه على المائدة المستديرة. هل لدينا ما يكفي من المقاعد؟ إذن يمكننا أن نجلس معًا ونتحدث في هدوء، ولتجلب لنفسك مقعدًا يا مارتن، فنحن مقبلون على عملٍ الآن، ويمكنك ألا تعتبر نفسك خادمًا خلال الدقائق العشر القادمة».

جلس الرجل بارتياح، ولكن ظلت هيئة الخادم تلازمه، هيئة خادم يتمتع بميزةٍ ما. نظر إليه "ونستون" بطرف عينيه. فاجأه تمامًا أن تكون حياة هذا الرجل كلها تمثيل، وشعر بأن هناك خطر في التخلي عن شخصيته المزعومة حتى للحظة واحدة.. أما "أوبراين" فأمسك دورق الخمر وصب في الكؤوس شرابًا أحمر داكن اللون.. قد أثار هذا السائل في "ونستون" ذكريات غامضة عن شيءٍ رآه منذ زمنٍ بعيدٍ مرسومًا على جدارٍ أو على لوحة إعلانات.. زجاجة ضخمة مكونة من مصابيحٍ كهربائية تتحرك صعودًا ونزولًا وتصب محتوياتها في كأس. وكان السائل أسود اللون عندما تنظر إليه من أعلى، ولكنه كان يتلألأ في الزجاجة كالياقوت، وتنبعث منه رائحة حلوة حامضية. رأى "جوليا" ترفع كأسها وتشمه باستغرابٍ واضح.

ارتسمت ابتسامة خافته على وجه "أوبراين" عندما رأى ذلك وقال:

- «إنه النبيذ، فلا شك أنكما قرأتما عنه في الكتب، ويؤسفني أن أعضاء الحزب الخارجي لا يحصلون عليه».

ثم ظهر على وجهه ملامح الجد والمهابة مرة أخرى ورفع كأسه قائلًا:

- «أعتقد أن علينا الآن أن نشرب نخب زعيمنا إيمانويل غولدشتاين».

رفع "ونستون" كأسه متلهفًا، فقد كان النبيذ شيئًا قرأ عنه وحلم به، وكان يرى أن مثله مثل الثقل الزجاجي وقصائد السيد "شارنغتون" شبه المنسية تنتمي إلى «الأيام الغابرة»، كما كان يروق له تسميتها في خواطره السرية. ولسببٍ ما.. كان يحسب دائمًا أن للنبيذ طعمًا شديد الحلاوة مثل مربى العليق، وأن له تأثيرًا مسكرًا على الفور. لكنه في واقع الأمر حينما رفع الكأس وتجرع ما فيها أحس بخيبة أمل واضحة، فالسنوات التي ظل فيها يعاقر الجن أفسدت حاسة التذوق لديه وجعلته لا يكاد يستسيغ شرابًا آخر، فوضع الكأس مكانها فارغة ثم قال:

- «إذن، فهنالك شخصٌ حقيقي اسمه غولدشتاين؟».

- «نعم، هنالك شخص حقيقي، وهو حي يرزق.. أما عن مكانه، فلا أعلم أين هو».

فسأل "ونستون":

- «وماذا عن المؤامرة المنظمة؟ أهي حقيقة؟ أم تراها مجرد اختلاق من شرطة الفكر؟».

فأجاب "أوبراين":

- «كلا، إنها موجودة فعلًا ونحن نطلق عليها حركة «الأخوة». لكن لن يتسنى لك أبدًا أن تعرف عنها أكثر من كونها موجودة وأنك تنتمي إليها، ولسوف أتطرق للكلام عن ذلك لاحقًا».

وتطلع إلى ساعته، وأردف قائلًا:

- «ليس من الحكمة حتى لأعضاء الحزب الداخلي أن يوقفوا شاشة الرصد لأكثر من نصف ساعة، وما كان ينبغي أن تأتيا معًا إلى هنا، وسيتعين عليكما أن تنصرفا كل على حدة».

ثم أشار برأسه نحو "جوليا" وقال:

- «أنتِ أيتها الرفيقة ستغادرين أولًا، لكن ما زال لدينا عشرون دقيقة يمكننا التصرف فيها كيفما نشاء، وسأسألكما بعض الأسئلة بصفة عامة، ما الذي أنتما على استعداد للقيام به؟».

فأجاب "ونستون":

- «إننا على استعدادٍ لعمل كل شيء».

استدار "أوبراين" قليلًا في كرسيه.. حتى أصبح في مواجهة "ونستون" تمامًا متجاهلًا بذلك "جوليا" تقريبًا، وكأنه أدرك بداهة أن "ونستون" يمكنه التحدث بالنيابة عنها.. وللحظة خفق جفنا عينيه، ثم أخذ يلقي أسئلته بصوتٍ منخفض تخلو نبراته من أي انفعال، وكأن ذلك روتين اعتاده أو نوع من الاستجوابات التي يعرف إجاباتها مسبقًا:

- «هل أنتما مستعدان لبذل حياتكما؟».
- «أجل».
- «وهل أنتما على استعدادٍ لاقتراف جريمة قتل؟».
- «أجل».
- «وهل أنتما على استعدادٍ للقيام بأعمالٍ تخريبية قد تودي بحياة مئات الأرواح البريئة؟».
- «أجل».
- «وهل أنتما على استعداد لخيانة وطنكما لحساب قوى أجنبية؟».
- «أجل».
- «وهل أنتما على استعدادٍ لاقتراف جرائم الغش والتزييف والابتزاز وإفساد عقول الأطفال، وتوزيع العقاقير المسببة للإدمان، وتشجيع البغاء ونشر الأمراض الجنسية، والإقدام على كل ما من شأنه أن يحطم معنويات الحزب ويوهن من سلطانه؟».
- «أجل».
- «وإذا افترضنا أن المصلحة تقتضي أن تلقيا بحمض الكبريت على وجه طفل، فهل لديكما الاستعداد لاقتراف مثل ذلك العمل؟».
- «أجل».
- «وهل أنتما مستعدان لأن تتنكرا وتمضيا بقية حياتكما كخادمين أو عاملين في أحواض بناء السفن؟».
- «أجل».
- «وهل أنتما على استعدادٍ للانتحار متى وإذا ما طلبنا منكما ذلك؟».
- «أجل».

- «وهل أنتما مستعدان، كلاكما.. لأن تنفصلا، بحيث لا يرى أحدكما الآخر مرة ثانية وإلى الأبد؟».

وهنا صرخت "جوليا" مقاطعة:

- «كلا».

أما "ونستون" فقد احتاج إلى وقتٍ أطول ليجيب، بل شعر أنه فقد القدرة على النطق. فقد كان يقلقل لسانه فلا يلفظ سوى حروف غير مفهومة، مجرد مقاطع مبسترة ومتداخلة، وظل يحاول حتى لفظها في النهاية، فقال:

- «كلا».

فقال "أوبراين":

- «لقد أحسنتما صنعًا بإخباري ذلك، فمن الضروري لنا أن نعرف كل شيء».

واستدار ناحية "جوليا" ثم أضاف بصوتٍ أكثر إيحائية:

- «هل تعلمين أنه حتى لو كتب له البقاء حيًا فإنه قد يصبح شخصًا مختلفًا غير الذي تعرفينه؟ إذ قد نضطر إلى إعطائه شخصية جديدة وذلك بتغيير وجهه وحركاته وشكل يديه، ولون شعره، بل وحتى صوته. وأنتِ نفسك ربما تصبحين شخصًا مختلفًا، ففي مقدور جراحينا أن يغيروا الأشخاص حتى ليتعذر معرفتهم، بل وقد نلجأ مضطرين أحيانًا إلى بتر عضو من أعضاء الجسم».

لم يستطع "ونستون" أن يمنع نفسه من النظر بطرف عينيه نظرة خاطفة إلى وجه "مارت" ذي القسمات المنغولية، والذي لم يكن يحمل أي ندبات ظاهرة. أما "جوليا" فقد ازداد وجهها شحوبًا وظهر ما فيه من نمش، لكنها ظلت ترمق "أوبراين" بنظرة جسورة، وتمتمت بكلماتٍ فهم منها أنها موافقة.

فقال "أوبراين":

- «حسنًا، لقد اتفقنا إذن».

وكان فوق المائدة علبة سجائر فضية اللون دفعها "أوبراين" نحوهما وهو شارد الذهن، بعدما استل سيجارة لنفسه، ثم نهض من مكانه وأخذ يذرع أرض الغرفة كما لو أنه يفكر بشكلٍ أفضل حينما يكون واقفًا. وكانت السجائر من النوع الفاخر جدًا، غليظة وملفوفة بشكلٍ جيد بورقٍ ناعم الملمس كالحرير.

تطلع "أوبراين" مرة ثانية إلى ساعته، ثم قال:

- «يحسن بك أن تعود إلى المطبخ يا مارتن، سأعيد تشغيل الشاشة. انظر مليًا إلى وجهي هذين الرفيقين قبل أن تنصرف، فسوف تراهما مرة ثانية، أما أنا فربما لن أراهما أبدًا».

حدق "مارتن" بوجيهما كما فعل عندما استقبلهما لدى الباب، ولم يبد عليه أي مظهر من مظاهر الود والصداقة، وكان يحاول أن يحفظ ملامحهما في ذاكرته، لكنه لم يكن مهتمًا بهما، أو هذا ما ظهر عليه، وتنبه "ونستون" إلى أن هذا الوجه الآلي لا يقدر على تغيير تعبيراته. انصرف "مارتن" دون أن يتفوه بكلمة، ولا حتى تحية وداع. أغلق الباب خلفه بهدوء. وما زال "أوبراين" يخطو في الغرفة ذهابًا وايابًا، وقد وضع إحدى يديه في جيب ثوبه الأسود، بينما كان يحمل في اليد الأخرى سيجارة وأخيرًا قال:

- «يجب عليكما أن تدركا أنكما ستقاتلان في الظلام، وستظلان دائما في الظلام، ستتلقيان الأوامر وكل ما عليكما فعله هو السمع والطاعة دون إبداء أي استفسار عن شيء، وسوف أرسل اليكما بعد فترة زمنية كتابًا يمكن من خلاله أن تفهما طبيعة المجتمع الذي نعيش فيه، والاستراتيجية التي نتبعها من أجل السيطرة عليه، وبعد أن تنتهيا من قراءة الكتاب ستصبحان عضوين في تنظيم الأخوة. ولن تعرفا أي شيء على الإطلاق سوى الأهداف العامة التي نعمل من أجلها، والمهام التي تُسند إليكما. وما أود تأكيده لكما.. هو أن حركة الأخوة موجودة،

لكن ما لم أستطع تأكيده لكما، ما إذا كانت تضم مئات أم ملايين الأعضاء.. وأما أنتما فمن خلال معلوماتكما الشخصية عن الحركة فلن تُقرا عدد الأعضاء بأكثر من عشرة أعضاء. فستقتصر اتصالاتكما على ثلاثة أو أربعة أعضاء، سيتم تغيرهم من وقتٍ لآخر، فيختفون ويحل محلهم آخرون، وأي أوامر ستتلقونها ستكون صادرة عني، وإذا تطلب الأمر الاتصال بكما، فسيكون ذلك من خلال "مارتن"، وإذا تم القبض عليكما في نهاية الأمر فسوف تعترفان فلا مفر من ذلك، وكل ما ستعترفان به هو كل ما ارتكبتماه من جرائم، ولن تستطيعا إفشاء معلومات عن أحدٍ سوى عن قلة قليلة لا أهمية لهم، لكنكما حتى لا تستطيعا أن تشيا بي، لأنني سأكون في عداد الموتى وربما أصبح شخصًا آخر بوجهٍ آخر».

وظل "أوبراين" يذرع الغرفة جيئة وذهابًا فوق السجادة الناعمة.. وبالرغم من ضخامة جسمه فقد كانت حركاته رشيقة، تلك الرشاقة التي بدت في حركة يده وهو يدسها في جيبه أو ينقل بها السيجارة بين أصابعه. وكان "أوبراين" قد ترك في نفسيهما انطباعًا يوحي بثقة بالنفس وإدراكًا للأمور مفعمًا بالسخرية فضلًا عن القوة. ورغم مظهره الذي يوحي بالجدية، لم تكن عقليته تتسم بأي تعصب أحادي الاتجاه أو تعالٍ. وحينما كان يأخذ في الحديث عن الاغتيال والانتحار والأمراض الجنسية والأطراف المبتورة والوجوه المغيرة، كان يشوب لهجته شيءٌ من التهكم، فكان يقول من بين ما يقول:

- «هذه أمور لا بد منها، إنها أمور يتعين علينا أن نؤديها دون أن تطرف لنا عين، ولكن ليس هذا هو ما سنقوم به حينما تصبح الحياة خليقة بأن تعاش».

وشعر "ونستون" بموجة إعجاب تقارب العبادة تجاه "أوبراين"، وفي هذه اللحظة كان قد تلاشى من مخيلته شبح "غولدشتاين».. وكان المرء

حينما ينظر إلى "أوبراين" ببنيانه القوي ووجهه ذي الملامح القاسية، الذي كان يبدو قبيحًا ومهذبًا في آنٍ معًا، لا يمكن أن يتصور أن مثل هذا الشخص تمكن هزيمته، فهو كفء لمواجهة كل مشكلة، وليس ثمة خطر لا يمكنه التنبؤ به، حتى "جوليا" أسرتها شخصيته، إذ تركت سيجارتها تنطفئ وهي تصغي إليه بجميع جوارحها، بينما كان "أوبراين" مستطردًا في حديثه:

- «لابد أنكما سمعتما شائعات حول حركة «الأخوة» ووجودها، ولا ريب في أنكما رسمتما لها صورة في مخيلتكما، وقد تكونان خلتماها عالمًا سريًا هائلًا من المتآمرين، يعقدون الاجتماعات خفية في الأقبية، وينقشون رسائلهم على الجدران ويتعارفون بكلماتٍ سرية أو بإشاراتٍ متفق عليها باليدين. لكن اعلموا أن شيئًا من هذا ليس له وجود، فأعضاء الحركة ليس لديهم أي وسيلة للتعارف ومن المستحيل على أي عضو أن يكشف هوية أكثر من بضعة أعضاء آخرين، وحتى "غولدشتاين" نفسه لو وقع في قبضة شرطة الفكر، فلن يكون بمقدوره أن يعطيهم قائمة كاملة بالأعضاء، أو أي معلومات تقودهم إلى القائمة الكاملة، فليس لمثل هذه الأئمة وجود، ولتعلما أن منظمة الأخوة لا يمكن استئصال شأفتها أبدًا، وذلك لأنها ليست منظمة بالمعنى المعروف للكلمة ولا يجمع بين أعضائها سوى فكرة تستعصي على التدمير، ولن تجدا شيئًا يشد من أزركما غير تلك الفكرة، كما لن تجدا تشجيعًا أو مواساة رفاقية من أحد، وحتى عندما تُعتَقَلان في النهاية فلن يمد لكما أحد يد العون، فنحن لا نقدم على ذلك أبدًا مع الأعضاء. وحينما يتبين لنا أن ضرورة قصوى تستوجب إسكات شخصٍ ما من الذين ألقي القبض عليهم، فإننا في العادة نقوم بتهريب شفرة حلاقة إلى زنزانة السجين. ويتوجب عليكما أن تعتادا على العيش بلا أمل، ودون انتظار لجني النتائج لأنكما ستناضلان لحينٍ من الزمن، ثم يلقى القبض عليكما فتعترفان وتقادان إلى الموت. تلك هي النتائج الوحيدة التي ستلمسانها

لأنه لا يتوقع أن تحدث أي تغييرات محسوسة في المستقبل القريب، وفي ظل هذه الحال نحن أموات ولا حياة لنا إلا في المستقبل الذي سوف نسهم في بنائه كذرات غبار أو كشظايا عظام، ولكن كم يبعد هذا المستقبل عن حاضرنا؟ لا أحد يعلم، فربما يأتي بعد آلاف السنين، وما علينا في وقتنا الراهن إلا أن نوسع دائرة انتشار فكرتنا شيئًا فشيئًا. ولأننا لن نستطيع العمل بصورة جماعية، فلا سبيل أمامنا إلا أن ننشر أفكارنا من فردٍ إلى فرد، ومن جيلٍ إلى جيل، وما من سبيلٍ غير هذا يمكن أن نسلكه في مواجهة شرطة الفكر».

عند هذا الحد توقف "أوبراين" وتطلع إلى ساعته للمرة الثالثة، ثم قال مخاطبًا "جوليا":

- «لقد حان وقت انصرافك أيتها الرفيقة، لكن مهلًا.. فما زالت القنينة ملآنة حتى نصفها».

ثم أترع الكؤوس ورفع كأسه قائلًا:

- «نخب من سنشرب هذه المرة؟».

قالها بنبرةٍ مفعمة بالتهكم والسخرية...

- «هل نشرب نخب الفوضى التي ستعم شرطة الفكر؟ أم نخب موت الأخ الكبير؟ أم نخب الإنسانية؟ أم نخب المستقبل؟».

فقال "ونستون":

- «بل نخب الماضي».

فأقره "أوبراين" برزانة على هذا قائلًا:

- «نعم.. إن الماضي أهم».

وعندما انتهوا من احتساء كؤوسهم نهضت "جوليا" استعدادًا للانصراف، فأخذ "أوبراين" علبة من أعلى الخزانة وناولها قرصًا أبيض، لتضعه في فمها قائلًا:

- «من المهم ألا يخرج المرء ورائحة الخمر تفوح من فمه، فلدى عمال المصاعد قوة ملاحظة فائقة».

وما إن أوصدت الباب خلفها حتى بدا على "أوبراين" وكأنه نسي أمرها. وعاد يذرع الغرفة مرة أو مرتين، ثم لم يلبث أن توقف مخاطبًا "ونستون":

- «ما زالت هنالك بعض التفاصيل التي يجب الاتفاق بشأنها، أعتقد بأن لديك مخبأ في مكانٍ ما، أليس كذلك؟».

فشرح له "ونستون" كل شيء عن غرفته التي استأجرها فوق حانوت السيد "شارنغتون».

فقال "أوبراين":

- «لا بأس بها حتى حين.. وسوف نتدبر لكما مكانًا آخر فيما بعد، فمن المهم أن يغير المرء مخبأه من حينٍ لآخر، ولسوف أرسل لك نسخة من الكتاب، كتاب "غولدشتاين" حالما يتيسر لي ذلك».

هنا لاحظ "ونستون" أن "أوبراين" نفسه يلفظ كلمة كتاب بنبرةٍ مميزة:

- «وقد لا أتمكن من الحصول على نسخٍ منه إلا بعد أيام، فالنسخ المتوفرة ليست بالكثرة التي تتصورها، فشرطة الفكر تتعقب النسخ وتتلفها فورًا، لكن ذلك لن يؤثر فينا، فالكتاب لا يمكن أن يفنى، فحتى إذا ما أتلفت النسخة الأخيرة منه فإن في وسعنا أن نعيد كتابته حرفًا.. حرفًا».

ثم أضاف:

- «هل تحمل حقيبة يد معك عادة إلى العمل؟».

أجاب "ونستون":

- «نعم... في العادة».
- «وما شكلها؟».
- «سوداء وقديمة جدًا، وذات حزامين».

- «حسنًا.. ذات صباح في المستقبل القريب، إذ لا يمكنني التحديد، ستجد بين رسائل عملك الصباحي رسالة تحتوي على أخطاءٍ مطبعية، وعليك أن تطلب إعادة إرسالها، وفي اليوم التالي سيتعين عليك أن تتوجه إلى عملك دون أن تحمل حقيبتك معك، وفي وقتٍ ما من النهار، وأثناء سيرك في الطريق، سيستوقفك رجلٌ وهو يقول: «أظن أن حقيبتك قد سقطت منك» وسيعطيك محفة، تحتوي على نسخة من كتاب غولدشتاين، يتعين عليك قراءتها وردها في غضون أسبوعين».

وساد الصمت لحظة قبل أن يكسره "أوبراين" بقوله:

- «أمامك دقيقتان ويحين موعد انصرافك، سوف نلتقي ثانية إذا قدر لنا أن نلتقي..».

ونظر "ونستون" إليه قائلًا بنبرة تودد:

- «في المكان الذي لا ظلام فيه».

فأومأ "أوبراين" برأسه دون أن يبدو عليه أي أثر للدهشة. وقال كما لو أنه أدرك ما يلمح إليه "ونستون":

- «نعم في المكان الذي لا ظلام فيه».

ثم أردف قائلًا:

- «والآن.. هل لديك ما تود قوله قبل انصرافك؟ أي رسالة؟ أي تساؤل؟».

فكر "ونستون" لحظة.. لم يكن لديه أي تساؤلات أخرى، كما لم يكن لديه الرغبة في التحدث عن شؤون عامة.. وبدلًا من أن يفكر في شيءٍ له صلة بـ "أوبراين" أو بحركة الأخوة. فكر في صورة مُركبة عن كل من الغرفة المعتمة التي قضت فيها أنه أيامها الأخيرة والغرفة الضيقة فوق حانوت "شارنغتون" والثقل الزجاجي، وصورة القضبان المحفورة في إطار اللوحة المصنوعة من خشب الورد، فقال بعفوية:

- «هل سمعت من قبل أنشودة يقول مطلعها.. تقول أجراس سانت كليمنت برتقال وليمون؟».

فأومأ "أوبراين" برأسه، وقال بنبرةٍ رزينة مكملًا المقطع:

- «تقول أجراس سانت كليمنت، برتقال وليمون..

فتقول أجراس سانت مارتن، أنت مدين لي بثلاث فارذن..

فتقول أجراس أولد ديلي، متى ستدفع لي؟

فتقول أجراس شورديتش، حينما أصبح ثريًا...».

فقال "ونستون" متعجبًا:

- «إنك تعرف البيت الأخير!».

- «نعم أعرفه، والآن حان وقت انصرافك. ولكن انتظر حتى أعطيك قرصًا لتزيل رائحة الفم».

عندما وقف "ونستون" مد له "أوبراين" يده ليصافحه، فكادت قبضته القوية تسحق عظام كف "ونستون".. وعند الباب التفت "ونستون" خلفه، لكن من الواضح أن "أوبراين" قد أخرجه من دائرة تفكيره، فكان "أوبراين" ينتظر خروجه ليُعيد تشغيل شاشة الرصد. ورأى "ونستون" من خلفه طاولة الكتابة بمصباحها ذي الظلة الخضراء وآلة التسجيل، وسلة التسجيل الممتلئة بالأوراق. لقد انتهى اللقاء.. وخطر في بال "ونستون" أن "أوبراين" سيعود لعمله الهام الذي يقوم به لصالح الحزب، والذي قطعته الزيارة في غضون ثوانٍ معدودة.

الفصل التاسع

أصبح "ونستون" أشبه (بالهلام) من شدة الإعياء، وكانت كلمة (هلام) هي أدق كلمة لتصف حالة جسمه، لقد جاءت هذه الكلمة إلى ذهنه تلقائيًا، فلم يكن جسده بضعف الهلام فحسب بل بشفافيته أيضًا، ودائما ما كان يشعر بأنه لو رفع يده فسيستطيع أن يرى الضوء من خلالهما. كما كان يبدو عليه أن الدماء قد جفت في عروقه، وأن ضمورًا ما حدث لغدده اللمفاوية جراء ما قام به من عملٍ شاق، فلم يبق فيه سوى هيكلٍ عظمي هش من الأعصاب والجلد والعظام، وبدا له أن كل شيء أصبح يترك أثرًا أضخم مما هو عليه في الواقع، فرداؤه أصبح يقرح كتفيه والرصيف يؤلم قدميه، بل إن بسط وطي راحة يده أصبح يحتاج جهدًا كبيرًا يجعل مفاصله تطقطق.

ظل "ونستون" يعمل لأكثر من تسع عشرة ساعة في اليوم، وعلى امتداد خمسة أيام.. وكان هذا شأن كل فرد آخر في الوزارة. والآن تم كل شيء ولم يعد لديه أي مهام من أي نوع، حزبية أو غير حزبية حتى صباح الغد، ومن ثم يمكنه أن يمضي ست ساعات في ملاذه الآمن وتسعًا في فراشه. تحت شمس الأصيل اللطيفة مشى "ونستون" على مهلٍ في شارعٍ قذر باتجاه حانوت السيد "شارنغتون"، وكان ينظر بعينين، عينٌ يترقب بها ظهور الدوريات.. وعينٌ نظر بها أمامه رغم أنه كان يثق ثقة عمياء في أنه لن يتعرض لأي خطر في هذا اليوم.. وكانت الحقيبة الثقيلة التي يحملها ترتطم بركبته مع كل خطوة يخطوها، فتسبب له ألمًا تسري وخزاته في كل ساقه؛ كانت تضم بداخلها الكتاب الذي أصبح في حوزته منذ ستة أيام، ولم يفتحه بعد أو حتى يلقي عليه نظرة.

في اليوم السادس من أسبوع الكراهية وبعد كل ما أقيم من فعاليات تمثلت في المواكب والخطب، والهتافات والأناشيد، والرايات والملصقات، والأفلام وتماثيل الشمع، ودق الطبول ونفخ الأبواق، ووقع أقدام الجنود،

صرير جنازير الدبابات وزئير الطائرات الكثيرة وإطلاق المدافع.. وبعد ستة أيام من هذه الفعاليات وعندما كانت نشوة الكراهية موشكة على بلوغ ذروتها، وعندما أصبح كره «أوراسيا» يغلي ويهيج.. مما جعل الجمهور في حالة لو استطاع معها أن يظفر بالألفي مجرم حرب أوراسي الذين كان من المقرر أن يُشنقوا علنًا في اليوم الأخير من أسبوع الكراهية، لمزقهم إربًا دون شك.. ولكن في هذه اللحظة أُعلن أن «أوقيانيا» لم تكن في حالة حرب مع «أوراسيا»! بل «أوقيانيا» في حرب مه «إستاسيا»، أما «أوراسيا» فحليفتها.

وطبعًا لم يعتبر الحزب أن تغييرًا ما قد حدث، فكل ما هنالك أنه تم الإعلان على نحوٍ مفاجئ، وفي كل صقع من أصقاع البلاد بأن «إستاسيا» لا «أوراسيا» هي العدو. وكان "ونستون"، في تلك اللحظة التي أعلن فيها هذا البيان، يشارك في تظاهرة بإحدى ساحات وسط «لندن»، كان ذلك خلال الليل ما جعل الوجوه البيضاء والرايات القرمزية تتلألأ في الأنوار المضيئة، وكانت الساحة تعج بآلاف من الناس، بينهم ألفٌ من أطفال المدارس يلبسون زي الجواسيس، وعلى منصة موشاة باللون القرمزي، وقف عضو من الحزب الداخلي يخطب ويهيج الجماهير.. رجلٌ نحيل ضئيل الجسم ذو ذراعين طويلتين لا تتناسبان مع جسمه، وجمجمة صلعاء تنتشر فوقها بصورة مبعثرة بضع خصلات هزيلة من الشعر، وقف بقامته القصيرة وهو يقبض على عنق الميكروفون بكف، فيما بكفه الأخرى التي تنتهي بها ذراعه ذات العظام الناتئة، يلوح في الهواء مهددًا ومتوعدًا. كان صوته يبدو رنانًا بفعل المكبر، وهو يدوي منددًا بالفظائع والمذابح، وأعمال الترحيل والإبعاد والسلب والنهب والاغتصاب، وتعذيب الأسرى وقصف المدنيين العُزّل وإلقاء المنشورات والدعايات الزائفة والاعتداءات وخرق المعاهدات، ولم يكن باستطاعة المرء وهو يصغي إليه إلا أن يصدقه، أو يقتنع بكلامه أو ينتابه سُعار من الغضب من هول ما يسمع.

كانت الصرخات الغاضبة تتعالى هادرة بين الفينة والأخرى من آلاف الحناجر، بلا قدرة على كبحها حتى تغدو مثل زئير الوحوش، فتطغى على صوت الخطيب، وعن أطفال المدارس كانت تصدر أعلى الصيحات وأكثرها وحشية. كان قد مضى زهاء عشرين دقيقة من الخطاب عندها شوهد رسول يشق طريقه إلى المنصة، ويدس قصاصة من الورق في يد الخطيب الذي قرأها بدوره على الفور، ودون أن يتوقف عن الخطابة، ورغم أنه لم يطرأ أدنى تغيير على نبرة صوته أو طريقة إلقائه، أو على مضمون خطابه، فقد وقع تغيير مفاجئ في المسميات، وسرعان ما فطنت الجماهير وأدركت حقيقة ما جرى، وهي حقيقة مفادها أن «أوقيانيا» إنما كانت في حرب مع «إستاسيا»! وفي اللحظة التالية ساد المكان حالة من الهرج والمرج بعدما أدركوا أن كل الرايات والملصقات التي زُينت بها الساحة كانت خاطئة! وكان نصفها يحمل صورًا مغلوطة. وصاح بعضهم بأن ذلك ضربًا من ضروب التخريب.. وبأن عملاء "غولدشتاين" هم الذين يقفون وراء هذا العمل، وإثر ذلك ساد جو من الفوضى والشغب حيث نزعت الملصقات عن الجدران ومزقت الرايات وديست بالأقدام، وبذل الجواسيس جهدًا مضنيًا لتسلق أسطح المنازل لتقطيع الأعلام التي كانت ترفرف فوق الأسطح متدلية من المداخن. ولكن في غضون دقيقتين أو ثلاث كان كل شيء قد انتهى، وراح الخطيب يواصل خطابه وهو لم يزل يقبض على عنق الميكروفون، وكتفاه محدوبتان إلى الأمام ويده الخالية تلوح في الهواء. وبعد دقيقة أخرى كانت الجماهير قد انخرطت من جديدٍ في صرخات غاضبة وحشية، وتواصل سُعار الكراهية تمامًا كما كان، عدا أن شيئًا واحدًا تغير، وهو الهدف الذي يصبون عليه جام كراهيتهم.

أما الشيء الذي كان له تأثيرٌ كبيرٌ على "ونستون" هو أن الخطيب كان ينتقل من سطرٍ لآخر، دون أن يكمل الجملة، وليس هذا فحسب، بل ودون توقف أو حتى خرق للقواعد النحوية، ولكنه تنبه في هذه اللحظة أن لديه أمورًا أخرى تشغله، ففي اللحظة التي عمت فيها الفوضى، وبينما كانت

الجماهير تمزق الملصقات، إذا برجلٍ لم ير "ونستون" وجهه يربت على كتفه قائلا:

- «عفوًا، أظن أن حقيبتك قد سقطت منك».

أخذ "ونستون" الحقيبة بتلقائية دون أن يتكلم. كان يعلم أن الأيام ستمضي قبل تتاح له فرثة النظر فيها. وبعد انتهاء الميرة اتجه إلى الوزارة مباشرة، رغم أن الساعة كانت قد اقتربت على الحادية عشرة ليلًا.. لقد فعل موظفو الوزارة كلهم مثلما فعل "ونستون" تنفيذًا للأوامر الصادرة من شاشة الرصد، رغم عدم ضرورة هذه الأوامر.

كان السبب الذي استدعي من أجله جميع الموظفين في هذه الساعة المتأخرة من الليل هو أن «أوقيانيا» قد باتت في حالة حرب مع «إستاسيا»، بل إن «أوقيانيا» كانت دائمًا، ولم تزل، في حربٍ مع «إستاسيا». وكان ذلك يعني أن جزءًا هائلًا من الأدبيات السياسية التي صدرت على مدى خمس سنوات قد أصبحت باطلة، ويتعين القيام بعملية تنقيح سريعة لكل التقارير والسجلات على اختلاف أنواعها، والجرائد والكتب والكتيبات والأفلام والأشرطة الصوتية والصور. ورغم أنه لم تصدر أي توجيهات، فقد كان معلومًا أن رؤساء الأقسام يعتزمون عدم الإبقاء على أي إشارة إلى الحرب مع «أوراسيا» أو التحالف مع «إستاسيا» في غضون أسبوعٍ واحد. لقد كانت المهمة جسيمة للغاية، لكن ما زاد الطين بلة هو أن هذه العمليات لم تكن تسمى بأسمائها الحقيقية، وكان كل شخص في قسم السجلات يعمل على مدار ثماني عشرة ساعة في اليوم والليلة، ولا ينعم سوى بساعتي نوم أو ثلاث. وقد جيء بالأغطية والفرش من الأقبية وبسطت في جميع الممرات كما أعدت وجبات سريعة تتألف من سندويتشات وقهوة النصر، يدور بها الخدم على عربات لتقديمها إلى الموظفين دون أن يبرحوا مكاتبهم. كان "ونستون" قبل كل مرة يذهب فيها لأخذ نوبة نوم، يحاول جاهدًا أن ينتهي من العمل المكدس فوق مكتبه، لكنه كان في كل مرة يعود مجهد الجسد والعينين ليجد مكتبه

وقد تكدس مرة أخرى بلفافات الورق التي كانت تغطي مكتبه مثل ندف الثلج، وتطمر جهاز الحاكي الكاتب حتى نصفه وتفيض على الأرض، مما يجعل مهمته الأولى رصها في كومة مرتبة حتى يعطي لنفسه حيزًا ليعمل. إلا أن أسوأ ما في الأمر هو أن العمل كان ميكانيكيًا محضًا، إذ غالبًا ما كان يكفي أن تستبدل اسمًا باسمٍ آخر، أما حينما يتعلق الأمر بتقارير مفصلة للأحداث فإنه كان يتطلب عناية وخيالًا، وحتى المعلومات الجغرافية التي يحتاج إليها المرء لنقل الحرب من جزءٍ من العالم إلى جزءٍ آخر تتطلب جهدًا جبارًا.

ومع حلول اليوم الثالث اشتد عليه ألم عينيه، وأصبح مضطرًا لمسح نظارته كل بضع دقائق. كان العمل أشبه بصراعٍ مضن لابد أن يحسمه. وكما تذكر "ونستون" أنه لم يكن يهمه أن كل كلمة يمليها إلى جهاز التسجيل وكل حرف يكتبه كان كذبة متعمدة، بل كان همه منصبه كباقي الموظفين، على أن تتم عملية التزوير بإتقان. وفي صباح اليوم السادس بدأ تدفق الأوراق يتراجع وأصبح يمر نصف ساعة ما بين كل لفافة من الورق وأخرى. وخفت حدة العمل في كل مكانٍ في نفس التوقيت وتنفس الجميع الصعداء حفية، لقد تم إنجاز عملًا هائلًا لم يتصوره أحد. وقد من صار المستحيل على أي إنسان الآن أن يثبت بالدليل الوثائقي أن حربًا مع «أوراسيا» قد حدثت في وقتٍ من الأوقات. وقد أُعلن بشكلٍ مفاجئ في الساعة الثانية عشرة أن جميع الموظفين أحرار حتى صباح اليوم التالي. كان "ونستون"، الذي ما يزال يحمل الحقيبة المحتوية على الكتاب فيضعها بين قدميه أثناء ساعات العمل وتحت جسمه أثناء نومه، قد مضى إلى البيت، وهناك حلق ذقنه وكاد ينام في الحمام رغم أن الماء لم يكن ساخنًا، وقرر الذهاب إلى المخبأ.

بشيءٍ من الصرير المثير للرغبة في مفاصله راح "ونستون" يصعد السلم المؤدي إلى غرفته الكائنة فوق حانوت السيد "شارنغتون». وحينما دلف إلى الغرفة أحس بإعياءٍ شديد، ولكنه لم يشعر بأية رغبة في النوم. فتح النافذة وأشعل موقد الزيت ووضع غلاية الماء على النار وراح ينتظر قدوم "جوليا".

وفي أثناء ذلك تذكر الكتاب فجلس في مقعدٍ بائس ذي ذراعين وفك حزامي الحقيبة.

أخرج منها مجلدًا أسود ثقيلًا، ملفوفًا بعناية، ولا يحمل اسمًا أو عنوانًا، وبدت طباعته أيضًا غير عادية. وكانت الصفحات مهترئة عند أطرافها لكن تقليبها لم يكن يحتاج إلى عناء كما لو أن أيد كثيرة قد تداولته. وكان عنوان الصفحة الأولى يقول ما يلي:

«حكم الأقلية الطاغية..

نظرية وتطبيقًا»

بقلم "إيمانويل غولدشتاين"

وراح "ونستون" يقرأ:

الفصل الأول

«الجهل هو القوة»..

عبر التاريخ المعروف للإنسان، بل وربما منذ نهاية العصر الحجري، كان هنالك ثلاث فئات من البشر، أو بالأحرى ثلاث طبقات في العالم.. «العليا، والوسطى، والدنيا»، وقد قسمت هذه الطبقات فيما بينها طبقات أخرى فرعية، وحملت أسماء مختلفة لا حصر لها ولا عد، أما النسب التي تمثلها وكذا مواقفها إزاء بعضها البعض فقد تباينت من عصرٍ لآخر، غير أن التركيبة الأساسية للمجتمع ظلت كما هي لم تتغير أبدًا، بل حتى بعد اندلاع الثورات العارمة وما أحدثته من تغييرات تبدو لا رجعة عنها، فإن ذلك النموذج يعود فيؤكد نفسه مثلما تفعل مروحة السفينة التي تعاود توازنها سواء أدرتها في هذا الاتجاه أو ذاك. وأما أهداف هذه الطبقات فكانت متضاربة ولا يمكن التوفيق بينها على الإطلاق...

وتوقف "ونستون" عن القراءة ريثما يستوعب حقيقة أنه أضحى يقرأ مرتاح البال وآمنًا على نفسه، وأن خصوصيته محفوظة، فليس هنالك شاشة رصد مسلطة عليه ولا أذن تسترق السمع من وراء حجاب، ولا هاجس

عصبي يجعله ينظر وراءه ويغطي بيده صفحة يقرأها. كانت نسمات الصيف العليلة تداعب وجنتيه، ومن مكانٍ بعيد كانت تتناهى لسمعه أصوات خافتة لأطفال في الشوارع، وأما في الغرفة نفسها فلم يكن هنالك غير صوت دقات الساعة، ولذا فقد استرخى في مقعده واضعًا رجله على حاجز المدفأة وأحس كما لو أنه في جنة الخلد. وفجأة وكما يفعل المرء بكتاب يدرك أنه لا بد أن يقرأه مرات ومرات، فقد راح "ونستون" يتصفح الكتاب سريعًا حتى بلغ الفصل الثالث منه فأخذ يقرأ:

الفصل الثالث

«الحرب هي السلام»..

إن انقسام العالم إلى ثلاث دول عظمى حدث كان يمكن التكهن به قبل منتصف القرن العشرين؛ فمع ابتلاع «روسيا» لـ «أوروبا»، وابتلاع «الولايات المتحدة» لـ «لإمبراطورية البريطانية»، فإن اثنتين من القوى العظمى الثلاث، هما «أوراسيا» و«أوقيانيا»، قد برزتا فعليًا إلى الوجود. أما القوة الثالثة وهي «إستاسيا»، فلم تظهر كوحدة مستقلة واضحة المعالم إلا بعد عقدٍ من الزمن تخلله اقتتال فوضوي، وكانت الحدود الفاصلة بين الدول العظمى الثلاث في بعض البقاع عشوائية بينما كانت في البعض الآخر تتباين حسب رجحان كفة كل دولة أثناء التحارب، وإن كانت في أغلب الأحيان تتبع خطوطًا جغرافية. وتتألف «أوراسيا» من تلك الأراضي الشاسعة شمال «أوروبا، وآسيا» والتي تمتد من «البرتغال» إلى «مضيق بيرينغ»، أما «أوقيانيا» فتضم الأميركتين وجزر المحيط الأطلنطي بما فيها الجزر البريطانية واستراليا والجزء الجنوبي من أفريقيا، في حين كانت «إستاسيا» أصغر مساحة من الدولتين الأخريين وذات حدودٍ غربية أقل تحديدًا، وتتألف من الصين والأقطار الواقعة جنوبها، ومن الجزر اليابانية وشطر كبير من منشوريا ومنغوليا وهضبة التبت، وكانت تتغير مساحتها حسب سير الحربية.

وكانت هذه الدول العظمى الثلاث في حالة حرب مستمرة مع تغير في التحالفات والعداءات، وعلى مدى الخمس والعشرين سنة الماضية لم تتوقف رحى الحرب، التي لم تعد ذلك الصراع المتهور الذي يهدد بقاء الجنس البشري كما كان عليه الحال في العقود الأولى من القرن العشرين، وإنما كانت حربًا ذات أهداف محدودة بين دولتين متحاربتين لا تملك أي منهما القدرة على تدمير غريمتها، ودون أن يكون لدى أي منهما سبب واضح للاقتتال، كما لم تكن بينهما خلافات أيديولوجية حقيقية. لكن هذا لا يعني أن سير الحرب أو الموقف منها قد أصبح أقل تعطشًا للدماء أو أكثر شهامة ونبلًا، بل على النقيض من ذلك، أصبحت الحرب أشبه بهستيريا متواصلة استشرت في جميع البلاد، وأصبح الشعب ينظر إلى جرائم الاغتصاب والسلب والنهب وذبح الأطفال وتحويل سكان الطرف المهزوم عن بكرة أبيهم إلى عبيد، والانتقام من الأسرى بشتى الوسائل التي قد تبلغ حد حرقهم أحياء أو غليهم في الماء، باعتبارها حقًا طبيعيًا ويستحق الثناء ما دام مرتكبوها هم الطرف الذي يؤيده الشعب وليس العدو. ولكن الحرب من ناحية أخرى لم تعد تشمل غير أعدادٍ محدودة للغاية من قواتٍ خاصة جيدة التدريب، لا تتسبب في خسائر فادحة مقارنة بالحروب السابقة. وكانت رحى الحرب حينما تدور فإنها تدور في مناطق حدودية غامضة لا يعرف المواطن العادي عنها غير تكهنات وتخمينات، أو حول القلاع العائمة التي تحرس نقاطًا استراتيجية في المضائق والموانئ البحرية. أما في المدن الكبرى فالحرب لا تعني أكثر من تناقض مستمر في السلع الاستهلاكية وسقوط القذائف الصاروخية التي قد تودي بحياة العشرات من الأشخاص من حينٍ لآخر. وفي واقع الأمر يمكن القول إن طبيعة الحرب قد تغيرت، أو إذا شئنا الدقة.. فإن الأسباب التي من أجلها تشن الحروب قد تغير ترتيبها على سلم الأولويات، فالدوافع التي كانت حاضرة حضورًا خافتًا في الحروب العظمى التي اندلعت في أوائل القرن العشرين باتت اليوم هي الدوافع الأبرز والمحركة لرحى الحروب.

ولكي نفهم طبيعة حروب اليوم – والتي ورغم أن خريطة التحالفات لا تفتأ تتغير كل بضع سنوات إنها جميعًا متشابهة – فعلى المرء أن يقر أولًا بأن الحرب لم تعد تحسم أي صراع، فما من دولة من بين هذه الدول العظمى الثلاث يمكن قهرها تمامًا حتى لو اجتمعت الدولتان الأخريان معًا، فهنالك توازن قوة بين ثلاثتهم فضلًا عن أن لكل واحدة منها دفاعاتها المنيعة؛ فبينما تحتمي «أوراسيا» بأراضيها البرية الشاسعة وتحتمي «أوقيانيا» بالمحيطين الأطلنطي والهادئ، فإن «إستاسيا» تحتمي بكثرة سكانها وتفانيهم في العمل، ثم ثانيًا لم يعد هنالك ذلك الشيء المحسوس الذي يستحق الاقتتال حوله. وفي ظل اقتصادات الاكتفاء الذاتي والتي يتوازن فيها الإنتاج والاستهلاك، فقد توقف التسابق على الأسواق والذي كان سببًا أساسيًا في نشوب الحروب في الماضي كما لم يعد التنافس على المواد الخام مسألة حياة أو موت، فكل دولة من هذه الدول العظمى الثلاث هي من الاتساع بحيث يمكنها تدبير احتياجاتها من هذه المواد من أراضيها ذاتها. وإذا كان لا بد للحرب من دوافع اقتصادية مباشرة، فقد أضحى ذلك ينحصر في الصراع من أجل الحصول على الأيدي العاملة. وفيما بين هذه الدول هنالك تخوم لا تخضع لسيطرة واحدة منها دون الأخريين بشكلٍ دائم، وهي بمثابة مناطق بينية رباعية الأضلاع تنتهي زواياها عند «طنجة، وبرازافيل، وداروين، وهونغ كونغ»، والتي تضم فيما بينها خُمس سكان الأرض، وتدور رحى صراع لا يتوقف بين القوى الثلاث من أجل السيطرة على هذه المناطق ذات الكثافة السكانية، إضافة إلى منطقة القطب الشمالي. ولم تستطع أي من هذه القوى فرض سيطرتها على كامل المنطقة المتنازع عليها، إذ تتقاسمها الدول فيما بينها على نحوٍ مستمر، وكانت فرصة اقتطاع هذا الشطر أو ذاك لصالح دولة ما، لا تسنح إلا بلجوء هذه الدولة لاستخدام الهجمات الخاطفة والمباغتة وهو الأمر الذي يفرض التغيرات الدائمة في التحالفات بين هذه الدول.

وتعتبر جميع المناطق المتنازع عليها غنية بالثروات، فمنها ما هو غني بالثروة المعدنية ومنها ما هو غني بالمنتجات الزراعية الهامة كالمطاط، والذي تضطر الدول ذات المناخات الباردة إلى إنتاجه صناعيًا بطرق باهظة التكاليف. وفضلًا عن ذلك كله فإن هذه المناطق تمتلك احتياطيًا لا ينفذ من العمالة الرخيصة، ومن ثم فإن أي قوة تسيطر على أفريقيا الاستوائية أو بلدان الشرق الأوسط أو الأرخبيل الأندونيسي، تمتلك أيضًا حق التصرف في مئات الملايين من العمالة الماهرة الرخيصة، وكان الحال يسوء بسكان هذه المناطق بحيث يصبحون أقرب إلى العبيد، إذ كانوا ينتقلون على نحوٍ دائم من يد قوة غازية ليد قوة أخرى، كما كانوا يستنفذون كالفحم والزيت في سباقات التسلح، وفي التنافس من أجل حيازة المزيد من الأراضي وامتلاك المزيد من الأيدي العاملة وإنتاج المزيد من السلاح، وهكذا دواليك.. وجدير بالملاحظة أن الاقتتال لم يكن يتعدى أطراف المناطق المتنازع عليها، ولذلك كانت حدود «أوراسيا» تمتد وتنحسر فيما بين حوض نهر الكونغو والساحل الشمالي للبحر الأبيض المتوسط. وأما جزر المحيط الهندي فهي محور نزاع دائم ما بين «أوقيانيا» و«إستاسيا»، تارة تؤول لهذه وتارة تؤول لتلك. وفي «منغوليا» لم يكن خط التقسيم بين «أوراسيا» و«إستاسيا» مستقرًا أبدًا، كما كانت القوى الثلاث تدعي ملكية أراضٍ شاسعة في المنطقة القطبية، والتي هي في واقع الأمر غير مأهولة ولم تستكشف بعد، ومع ذلك كله فقد كانت موازين القوى تظل متعادلة دائمًا كما تظل الأراضي التي تشكل قلب كل من القوى الثلاث حرمًا لا ينتهك. وعلاوة على ذلك فإن الأيدي العاملة للشعوب المستغلة حول خط الاستواء ليست ضرورية حقًا في الاقتصاد العالمي، وذلك لأنها لا تضيف شيئًا إلى ثروة العالم طالما أن كل ما تنتجه تبتلعه آلة الحرب، وما دام الهدف من وراء كل حرب أن تصبح الدولة في وضعية أفضل لشن حرب أخرى. ويعتبر ما ينتجه هؤلاء السكان المغلوبون على أمرهم بمثابة الوقود

للحرب. غير أنه لو فرض عدم وجود هذه الأيدي العاملة، فإن ذلك لن يحدث تغييرًا جوهريًا في تركيبة المجتمع الدولي، ومسألة حفاظه على وجوده.

إن الهدف الأساسي للحرب الحديثة (وفقًا لمبادئ ازدواجية التفكير، وهو هدف تعترف به الأدمغة الموجهة في الحزب الداخلي وتنكره في آنٍ واحد) هو الإفادة مما تنتجه الآلة دون رفع المستوى العام للمعيشة. ومنذ نهاية القرن التاسع عشر ظل التخلص من فائض السلع الاستهلاكية يمثل مشكلة كامنة في المجتمعات الصناعية، أما في الوقت الحاضر حيث لا ينال إلا قلة من الناس كفايتهم من الغذاء، فإن هذه المشكلة تصبح غير ملحة وربما لم تكن لتصبح ملحة حتى لو لم تكن عمليات التدمير العمدي قائمة على قدمٍ وساق. إن عالم اليوم عالم متهاوٍ جائع عارٍ مقارنة بعالم ما قبل 1914، بل وتصبح صورته أكثر قتامة إذا ما قورنت بصورة المستقبل الذي كانت تصبو إليه الشعوب في تلك الحقبة. ففي مطلع القرن العشرين كانت رؤية ومخيلة كل مثقف لمجتمع المستقبل تشيران إلى أن العالم سيبلغ مستوى لا يصدق من الترف والثراء والكفاءة – عالم متلألئ من الزجاج والفولاذ والأسمنت الأبيض ذي المناعة ضد الجراثيم. كان العلم والتكنولوجيا يتقدمان بسرعة مذهلة وكان من الطبيعي أن يظن الناس أن ذلك التقدم سيتواصل، ولكن خابت ظنونهم بسبب حالة الإفقار التي جلبتها على العالم سلسلة طويلة من الحروب والثورات من ناحية، ولأن التقدم العلمي والتقني يعتمد على الفكر التجريبي والذي لا مجال في مجتمع يسير وفق نسق صارم لأن يخرج عنه. وبصفة عامة يمكن القول بأن عالم اليوم أكثر بدائية مما كان عليه قبل خمسين سنة. صحيح أن تقدمًا قد حصل في بعض المجالات المتأخرة وأنه قد جرى اختراع بعض الآلات التي كانت دائمًا ذات صلة بالحروب وبعمليات التجسس، لكن الصحيح أيضًا أن التجارب والاختراعات قد أوقفت على نطاق واسع، كما أن العالم لم يبرأ بعد من الويلات التي خلفتها الحرب الذرية التي نشبت في خمسينيات القرن العشرين، وما زالت المخاطر التي رافقت

ظهور الآلة قائمة. فمنذ اللحظة التي ظهرت فيها الآلة للمرة الأولى بدا جليًا لكل ذي عقل أنه لم تعد ثمة حاجة إلى استعباد الناس، ومن ثم إلى فرض نظام طبقي لا يساوي بينهم. ولو أن الآلة كانت قد وظفت بعناية لإنجاز هذه الغاية، لأمكن استئصال شأفة الفقر والجهل والمرض خلال أجيال قليلة. وفي الواقع إن الآلة ورغم أنها لم تستخدم لهذه الغاية وإنما استخدمت في إنتاج ثروات يستحيل عدم توزيعها، قد أدت إلى رفع المستويات المعيشية لدى الإنسان العادي بدرجاتٍ هائلة على مدى خمسين سنة، تمتد من أواخر القرن التاسع عشر إلى أوائل القرن العشرين.

بيد أنه كان من الجلي أيضًا أن هذه الزيادة الهائلة في الثروة تمثل تهديدًا، أو بالأحرى تؤدي إلى تقويض المجتمع الطبقي، وفي عالم أصبح كل فرد فيه يعمل سويعات قلائل، ولديه ما يكفيه من الطعام ويسكن بيتًا مجهزًا بالسخان والثلاجة ويملك سيارة فارهة أو حتى طائرة تمثل تهديدًا، أو بالأحرى تؤدي إلى تقويض المجتمع الطبقي، وفي عالم أصبح كل فرد فيه يعمل سويعات قلائل ولديه ما يكفيه من الطعام ويسكن بيتًا مجهزًا بالسخان والثلاجة ويملك سيارة فارهة أو حتى طائرة، فإن أوضح بل وربما أهم أشكال عدم المساواة بين الناس تزول وتختفي. وإذا ما عمت تلك الثروة بين الناس فإنها لن تصبح وسيلة للتمييز بين الناس. ومما لا شك فيه أنه بالإمكان تخيل مجتمع تكون فيه الثروة، المتمثلة في حيازة الممتلكات الشخصية والكماليات، موزعة توزيعًا عادلًا، بينما تظل السلطة محصورة في أيدي طبقة قليلة صغيرة العدد تحظى بامتيازات. ولكن مجتمعًا مثل هذا المجتمع لا يكتب له أن ينعم بالاستقرار طويلًا على أرض الواقع، ذلك أنه إذا حظي جميع أفراد المجتمع وعلى السواء بالأمن والرفاه فإن العدد الأكبر من البشر الذين يخدرهم الفقر سيغدون مثقفين وسيتعلمون أن يفكروا لذواتهم، وعندما يتم لهم ذلك فإنهم، إن عاجلًا أو آجلًا، سيفطنون إلى أنه لا فائدة ترجى من الأقلية صاحبة الامتيازات وسيعملون على إزاحتها عن سدة السلطة. وبالتالي فإن المجتمع

الطبقي لا يمكن أن يستمر إلا مع الفقر والجهل. وأما العودة إلى المجتمع الزراعي، حسبما حلم به بعض المفكرين في بدايات القرن العشرين، فليس حلًا يمكن تطبيقه، إذ يتعارض ذلك مع الاتجاه نحو الاستخدام واسع النطاق للآلة والذي أصبح أمرًا شبه غريزي في جميع أنحاء العالم تقريبًا، وفضلًا عن ذلك فإن أي بلد يتخلف من الناحية الصناعية يصبح بالتالي عاجزًا من الناحية العسكرية، وعرضة لعمليات الهيمنة المباشرة أو غير المباشرة من قِبَل منافسيه الأكثر تقدمًا.

كما أنه لم يكن بالحل المرضي أن نبقي الجماهير تحت وطأة الفقر بتقليص ما ينتج من السلع، وهو ما حدث بصورة واضحة في آخر أطوار الرأسمالية ما بين 1920 و1940 حيث انهارت اقتصادات العددي من البلدان كما تركت مساحات من الأرض بغير استغلال، ولم يتراكم رأس المال وحيل بين أعداد غفيرة من الناس وبين العمل وتركوا ليعتمدوا على معونات الدولة التي كانت بالكاد تقيم أودهم، ولكن ذلك أيضًا قد أفضى إلى حالة من الوهن العسكري، ولأن حالة العوز التي نزلت بهم إثر ذلك لم يكن لها ما يبررها مما جعل ظهور المعارضة أمرًا محتومًا. وكانت المشكلة تكمن في كيفية جعل عجلة الصناعة تدور دون أن ينعكس ذلك زيادة على الثروة الحقيقية للعالم، ما يعني أنه يتعين الاستمرار في إنتاج السلع ولكن دون توزيعها، ولا سبيل لتحقيق هذه المعادلة على أرض الواقع إلا بالحرب المستمرة.

إن هدف الحرب الأساسي هو إنزال الدمار، ليس بالضرورة بحياة الناس، بل بنتاج العمل الإنساني، فالحرب هي السبيل لتبديد وإهدار موارد كان من شأنها لو استخدمت فيما ينفع الجماهير العريضة أن ترتد عليهم بالخير والرفاهية، وأن تجعلهم على المدى الطويل أكثر وعيًا وإدراكًا للأمور من حولهم. وحتى إذا لم يتم تدمير ما أنتج من أسلحة في حرب فعلية، فإن عملية تصنيعها تبقى في حد ذاتها طريقة لاستنفاد الجهد البشري دون إنتاج أي شيء يمكن أن يعود بالنفع على الناس؛ فبناء قلعة عائمة مثلًا يستلزم عملًا كان

يكفي لبناء المئات من سفن الشحن، وفي نهاية المطاف تتم إحالة القلعة التي التقاعد وتصبح غير صالحة للاستعمال دون أن تعود بأي نفع مادي على الإنسان، فيتم تجنيد طاقات هائلة أخرى لبناء قلعة أخرى. ومن حيث المبدأ فإن المجهود الحربي يتم التخطيط له دائمًا بحيث تلتهم الحرب كل فائضٍ قد يتبقى بعد تلبية الاحتياجات الأولية للسكان. وفي واقع الأمر فإن هذه الاحتياجات يتم تقديرها بأقل مما هي عليه، الأمر الذي يؤدي إلى وجود نقصٍ حاد في ضروريات الحياة، ومع ذلك ينظر إلى هذا الأمر على أنه ذو فائدة كبيرة. ومن السياسات المرسومة بعناية أيضًا سياسة الإبقاء حتى على الفئات المرضى عنها على شفا العوز والحاجة، ذلك أن ندرة السلع بصفة عامة تزد من أهمية الامتيازات الصغيرة التي يحظى بها هؤلاء، وبالتالي توسع الفروق بين فئة وأخرى. ومقارنة بالمعايير التي كانت سائدة في أوائل القرن العشرين فإنه يتبين أن حياة عضو الحزب الداخلي قد أصبحت حياة شظف وعناء، ومع ذلك فإن القليل من كماليات الحياة التي يتمتع بها مثل الشقة الفاخرة، والنوعية الجيدة لثيابه وطعامه وتبغه، فضلًا عن خدمه وسيارته الخاصة أو الطائرة الموضوعة تحت تصرفه، كل هذا يجعله وكأنه يعيش في عالمٍ مختلف عن العالم الذي يعيش فيه أعضاء الحزب الخارجي، والذين يتبين أنهم يتمتعون بامتيازات إذا ما قورنوا بالجماهير المسحوقة التي نطلق عليها اسم «العامة». ومن ثم يغدو الجو الاجتماعي أشبه بجو مدينة ضُرب عليها حصارٌ جعل حيازة قطعة من لحم الخيل بمثابة الخط الفاصل بين الثراء والفقر. وفي الوقت نفسه فإن إدراك المرء لكونه في حالة حرب ومن ثم تتهدده الأخطار يجعل من تسليم كل السلطات لحفنة صغيرة من الناس أمرًا طبيعيًا، وشرطًا محتومًا للبقاء على قيد الحياة.

كذلك سنرى أن الحرب لا تحدث الدمار المطلوب فحسب، بل تحدثه مصحوبًا بأثر نفسي. فمن حيث المبدأ يمكن بسهولة استنفاد الفائض في العالم ببناء المعابد والأهرامات أو بحفر خنادق ثم ردمها مرة ثانية، أو حتى

بإنتاج كميات هائلة من السلع ثم إضرام النار فيها، ولكن هذه الطريقة يمكن أن توفر الأساس الاقتصادي دون العاطفي للمجتمع الطبقي. وما يهم هنا ليست الحالة المعنوية للجماهير المهمشة التي لا وزن لمواقفها ما دامت تعمل بلا انقطاع، وإنما الحالة المعنوية للحزب نفسه، إذ من المفترض أن يكون أدنى أعضاء الحزب مرتبة كفؤًا ومجدًا في العمل، ويتمتع بقدرٍ محدودٍ من الوعي، ولكن من اللازم أيضًا أن يكون شخصًا سريع التصديق ومتعصبًا عن جهل لعقيدته وتتملكه مشاعر الخوف والكراهية والتملق والانتصارات الزائفة، وبعبارة أخرى يتعين أن تتوفر له عقلية تتلاءم مع حالة الحرب، وليس مهمًا أن تكون ثمة حرب تدور رحاها فعلًا.

ولأن تحقيق النصر الحاسم هو من باب المستحيل، فلا يهم أيضًا ما إذا كانت العمليات الحربية تسير على ما يرام أم لا، فالمهم هو أن تظل حالة الحرب قائمة وحسب. إن عملية إجهاد العقل التي يطالب الحزب أعضاءه بها والتي يمكن أن تتحقق بسهولة في أجواء الحرب، قد أصبحت الآن سمة عالمية، وكلما ارتفع المرء مرتبة في الحزب غدت هذه الصفة أكثر وضوحًا. ومما لا شك فيه أن هستيريا الحرب وكراهية العدو ومقته هي أمور تغدو أكثر قوة لدى أعضاء الحزب الداخلي منها لدى الآخرين، وبصفته يضطلع بمسؤوليات إدارية فإنه يتعين على عضو الحزب الداخلي أن يكون على بينة دائمًا مما إذا كان هذا النبأ أو ذاك من أنباء الحرب كاذبًا أم حقيقيًا، كما أنه غالبًا ما يدرك ما إذا كانت الحرب برمتها زائفة أو أنها غير قائمة أصلًا، أو أنها تُشن لغاياتٍ تختلف جذريًا عن الأهداف المعلنة: ولكن هذه المعرفة تغدو عديمة الأثر بتطبيق منهج التفكير المزدوج. وفي الوقت نفسه لا يمكن لعضو الحزب الداخلي أن يتزعزع إيمانه الغامض ولو للحظة بأن الحرب حقيقية وأنها ستنتهي حتمًا بانتصار «أوقيانيا» التي ستغدو سيدة العالم أجمع وبلا منازع.

إن أعضاء الحزب الداخلي جميعهم يؤمنون بهذا الفتح المنتظر إيمانًا راسخًا لا يتزعزع، ويعتقدون بأن تلك الغاي ستتحقق إما تدريجًا باحتلال المزيد من الأقطار، وما ينتج عنه من تراكم القوة وزيادة النفوذ، أو باكتشاف سلاح جديد لا رادع له. ولذلك يتواصل السباق نحو حيازة أسلحة جديدة دون هوادة، وهو ما يعتبر واحدًا من النشاطات القليلة التي يمكن أن يجد فيها صاحب العقل المبدع متنفسًا لطاقته. وفي الوقت الراهن لم يعد للعلم بمعناه القديم وجود في أوقيانيا، فمثلًا لا تتضمن اللغة الجديدة كلمة «العلم»، ناهيك عن أن منهج التفكير التجريبي الذي ارتكزت عليه كل المنجزات العلمية في الماضي يتعارض مع أهم مبادئ الاشتراكية الإنجليزية. بل حتى إن التقدم التقني لا يحدث إلا حينما يمكن توظيف منجزاته بطريقة أو أخرى لتقليص مساحة الحرية الإنسانية. أما فيما يخص المجالات الأخرى المفيدة، فالعالم إما أنه لا يزال يراوح مكانه وإما أنه يتراجع، فما زالت الحقول تحرث بمحاريث تجرها الماشية والكتب تؤلف بواسطة الآلة. أما في المجالات الحيوية ذات الأهمية مثل شؤون الحرب وشرطة التجسس، فإن المنهج التجريبي ما زال يلقى تشجيعًا أو على الأقل ما زال مقبولًا. وهنالك هدفان يضعهما الحزب نصب عينية هما الهيمنة على العالم كله بغزوه، والقضاء قضاء مبرمًا على كل إمكانية للتفكير المستقبل، ولذلك هنالك مسألتان هامتان يوجه الحزب حل اهتمامه لحلهما: الأولى هي كيف يمكنه اكتشاف ما يدور من أفكار في ذهن الفرد رغمًا عنه، والثانية كيف يمكنه إبادة مئات الملايين من الناس في غضون ثوان ودون سابق إنذار. وفي هاتين المسألتين ينحصر نطاق البحث العلمي ولا يتعداهما. وفي هذ الأيام نجد العالم إما أن يكون مزيجًا من الباحث المحقق وعالم النفس الذي يدرس بدقة لا متناهية معنى تعابير الوجه والإيماءات ونبرات الصوت كما يفحص آثار العقاقير التي تستل الحقيقة من أفواه المجرمين والعلاج بالصدمة والتنويم المغناطيسي والتعذيب الجسدي، أو أنه كيميائي أو فيزيائي أو بيولوجي يعني فقط بفروع

العلم ذات الصل بإزهاق حياة الإسنان. ففي المختبرات الضخمة بوزارة السلام وفي محطات التجارب السرية في مجاهل أدغال الغابات البرازيلية وفي صحراء استراليا، وفي الجزر المجهولة في منطقة القطب الجنوبي هنالك فرق من الخبراء يعملون دون كلل أو ملل. ففريق منهم يعني فقط بوضع خطط تمويل حروب المستقبل، وفريق آخر يعمل على تصميم قذائف صاروخية أكبر حجمًا ومتفجرات أقوى، ودروعًا لا يمكن للقنابل اختراقها، بينما الفريق الثالث يعمل على إنتاج غازات جديدة أشد فتكًا أو سموم قابلة للذوبان في ماء الأنهار، ويمكن إنتاجها بكمياتٍ تكفي للقضاء على الحياة النباتية في كل القارات، أو سلالات من جراثيم لديها مناعة ضد كافة الأجسام المضادة، وفريق آخر يسعى إلى صنع مركبة تشق لها نفقا تحت الأرض مثلما تشق الغواصة لها طريقًا تحت الماء، أو طائرة لا تحتاج إلى قاعدة كسفينة شراعية. وفريق يستكشف إمكانيات أبعد مثل تجميع أشعة الشمس عبر عدسات ضخمة معلقة على بعد آلاف الكيلومترات في الفضاء، أو إحداث هزات أرضية اصطناعية، أو رفع درجات مد البحر بزيادة درجة حرارة مركز الأرض.

ولكن ما من مشروع من هذه المشاريع قد أصبح وشيك التحقق، كما أن أيًا من القوى العظمى الثلاث لم تحرز تقدما ملحوظا على القوتين الآخر يين في مضمار التسلح. إلا أنه تجدر الإشارة إلى أن كلا من القوى الثلاث بحيازتها القنبلة الذرية قد أصبحت تمتلك سلاحًا أشد فتكًا من أي سلاح آخر يمكن اختراعه من خلال الأبحاث الجارية. وبالرغم من أن الحزب يدعي، كعادته، أن الفضل في صنع القنبلة الذرية يرجع إليه، فإن القنابل الذرية كانت قد سجلت أول ظهور لها في أربعينات القرن العشرين واستخدمت على نطاق واسع بعد عشر سنين من ذلك تقريبًا. وفي ذلك الوقت ألقيت مئات القنابل على المدن الصناعية الواقعة في كل من الجزء الأوروبي من روسيا وأوروبا الغربية وأمريكا الشمالية. وكان القصد من راء ذلك إقناع الفئات الحاكمة في جميع البلدان بأن إلقاء بضع قنابل أخرى يعني نهاية المجتمع المنظم ومن ثم

زوال سلطانهم. ولذلك ورغم أنه لم تبرم أي اتفاقيات رسمية، أو حتى يلمح إلى هذا الأمر، فقد أحجمت هذه القوى عن استخدام هذه القنابل. بيد أن هذه القوى الثلاث تابعت إنتاجها للقنابل الذرية وتخزينها انتظارًا للحظة الحاسمة التي يؤمن الجميع بأنها آتية إن عاجلًا أو آجلًا. وفي الوقت نفسه ظلت فنون الحرب لمدة بين ثلاثين وأربعين سنة تراوح مكانها، فكل ما هنالك هو أنه أصبح يعول على الحوامات أكثر مما سبق، كما أن الطائرات القاذفة تم استبدالها بقذائف ذاتية التوجيه (ذكية). كما حلت القلاع العائمة غير القابلة للغرق محل البوارج الحربية الضعيفة، وعدا ذلك لا يوجد تطور يذكر، فما زالت الدبابات والغواصات والزوارق والمدافع الرشاشة، بل وحتى البندقية العادية والقنابل اليدوية قيد الاستخدام. لكن وعلى الرغم مما كانت تشهده الحروب القديمة من معارك طاحنة لا نهاية لها تزهق فيها أرواح مئات الألوف أو الملايين من الأشخاص خلال بضعة أسابيع وهو ما كانت تتناقله الصحف وتعرضه شاشات الرصد، فإن مثل هذه المعارك اليائسة لم تعد تتكرر إطلاقًا.

ولم يحدث أبدًا أن أقدمت أي من الدول العظمى الثلاث على الدخول في مغامرة عسكرية قد تجلب عليها هزيمة ماحقة. وحينما تشن أي عمليات حربية واسعة النطاق فإن ذلك لا يأتي إلا على شكل هجمات مباغتة تشن ضد الدولة الحليفة، فالاستراتيجية التي تتبعها القوى الثلاث أو تدعي أنها تتبعها، واحدة، إذ ترتكز الخطة على مزيج من القتال والمساومة لشن ضربات غادرة في الوقت المناسب من أجل السيطرة على مجموعة من القواعد الاستراتيجية التي تحيط بواحدة أو أخرى من الدولتين المتنافستين، ثم توقيع معاهدة صداقة مع تلك الدولة والالتزام بالسلام معها لسنوات عديدة تكفي لإزالة ما لديها من شك وريبة. وخلال هذه السنوات يتم تحميل الصواريخ بالرؤوس النووية وتوجيهها نحو جميع القواعد الاستراتيجية حتى إذا ما سنحت الفرصة المنتظرة يتم إطلاقها جميعًا في آن واحد بحيث تترك

آثارًا تدميرية هائلة تجعل الرد الانتقامي أمرًا مستحيلًا، وبعيد ذلك يحين الوقت لعقد معاهدة صداقة مع الدولة الأخرى استعدادًا لشن هجوم مماثل عليها. ولسنا في حاجة للقول بأن هذا المخطط ما هو إلا حلم يقظة يتعذر تحقيقه على أرض الواقع، ناهيك عن أن القتال لم يكن يقع إلا في المناطق المتنازع عليها حول خط الاستواء والقطب: ولم تجرؤ أي من الدول الثلاث على غزو أراضي الدولتين الآخر يين. وهذا ما يفسر لنا السبب في أن الحدود بين الدول العظمى تكون في بعض الأماكن عشوائية تعسفية، فـ «أوراسيا» على سبيل المثال تستطيع بسهولة غزو الجزر البريطانية التي تعتبر جغرافيًا جزءًا من أوروبا، كما أن «أوقيانيا» تستطيع من ناحية أخرى زحزحة حدودها ناحية نهر الراين أو حتى الفستولا. بيد أن مثل هذا العمل سيعتبر انتهاكًا للمبدأ الذي تسير عليه جميع الأطراف، وإن كان مبدأ غير مكتوب، وهو مبدأ الوحدة الثقافية. وإذا فرضنا أن «أوقيانيا» قد استولت على تلك المناطق التي كانت تعرف في وقت من الأوقات بفرنسا وألمانيا، لاستجوب ذلك منها إما أن تبيد سكان هذه المناطق، وهي مهمة تعترضها صعاب جمة، أو أن تستوعب هؤلاء السكان البالغ تعدادهم مائة مليون نسمة والذين يقفون في نفس مستوى التطور التقني تقريبًا. وهذه هي المشكلة التي تواجه الدول العظمى الثلاث. ومن الضروري للغاية بالنسبة لهذه الدول ألا يوجد أي اتصال ما بين سكانها وبين الأجانب، فيما عدا، وإلى حد معين، أسرى الحرب والعبيد الملونين، ولم تكن حتى الدولة الحليف الرسمي في اللحظة الراهنة، تنجو من نظرة الشك والريبة القاتمتين. وباستثناء أسرى الحرب فإن المواطن العادي من مواطني «أوقيانيا» لا يرى مطلقًا أيًا من مواطني «أوراسيا» أو «إستاسيا»، كما يحظر عليه تعلم اللغات الأجنبية، فلو أنه سمح له بالاتصال بالأجانب لتبين له أنهم مخلوقات بشرية مثله وأن معظم ما قيل له عنهم لا يعدو كونه أكاذيب وافتراءات. وحينئذ ينكسر طوق العالم المغلق الذي يعيش فيه، ويتبدد جو الخوف والكراهية والتعصب للذات وهي ما ترتكز عليها روحه

المعنوية، ولذلك اتفقت الأطراف الثلاثة على أنه مهما تناوبت القوى بلادًا مثل إيران، أو مصر أو جاوة أو سيلان، فإن الحدود الرئيسية يجب ألا يخترقها شيء غير القنابل.

لكن وراء كل هذا تكمن حقيقة لم يجهر بها أحد وإن كانت مفهومة ضمنًا ويعمل بموجبها: وهي أن ظروف الحياة في الدول العظمى الثلاث متشابهة إلى حدٍ كبير، ففي «أوقيانيا» تسمى الفلسفة السائدة «الاشتراكية الإنجليزية»، وفي «أوراسيا» تسمى «البلشفية الجديدة»، وفي «إستاسيا» تُسمى باسم صيني يترجم عادة بمعنى «عبادة الموت»، وربما كان من الأفضل ترجمته بعبارة «محو الذات»، ومن غير المسموح به لمواطني «أوقيانيا» أن يعرفوا أي شيء عن عقائد الفلسفتين الأخريين، غير أنهم يلقنون أن هاتين الفلسفتين ليستا إلا عدوانًا وحشيًا على الأخلاق والذوق العام. والواقع أن هذه الفلسفات الثلاث تتمايز نظريًا فقط أما النظم الاجتماعية القائمة عليها فهي متماثلة لا يمكن التمييز بينها على الإطلاق، ففي كل منها يوجد البناء الهرمي ذاته وعبادة الزعيم الملهم والاقتصاد الذي يقوم على الحرب ومن أجل الحرب. ومن ثم يتبين أن الدول العظمى الثلاث لا تستطيع أن تقهر بعضها بعضًا فحسب، وإنما إن فعلت ذلك فلن تجني أي نتيجة أو ربح، بل بالعكس فما دامت هذه الدول في حالة صراع، فإن بعضها يشد إزر بعض مثل ثلاث حزم من القمح، وكما هي العادة فإن الفئات الحاكمة في كل من القوى الثلاث تدرك ولا تدرك في الوقت نفسه، حقيقة ما تفعله، فحياتهم مكرسة للاستيلاء على العالم، لكن هؤلاء يعلمون أيضًا أن من الضروري أن يظل أوار الحرب مشتعلًا إلى أجل غير مسمى دون أن تضع أوزارها ودون أن تحرز إحدى الدول نصرًا على دولة أخرى. وفي الوقت ذاته وبما أنه ليس ثمة خطر من استيلاء دولة على أخرى، فإنه يمكن إنكار وجود أية حقيقة، وهو عين ما ترتكز عليه النظم الفكرية للاشتراكية الإنجليزية وغريمتاها الأخريان. وهنا

يتعين علينا أن نكرر ما قلناه آنفًا من أن الحرب بعدما أصبحت مستمرة، فقد طرأت عليها تغيرات جوهرية.

ففي العصور الماضية كانت الحرب حدثًا لا بد أن ينتهي أن عاجلًا أو آجلًا وبنصر حاسم أو بهزيمة واندحار، وكانت الحرب إحدى القنوات الرئيسية التي تظل المجتمعات الإنسانية من خلالها على صلة بالواقع الخارجي. وفي جميع العصور كان الحكام يسعون إلى فرض رؤية زائفة عن العالم على رعاياهم، إلا أنهم لم يشجعوا أية أوهام يمكن أن تضعف الكفاءة العسكرية. وما دامت الهزيمة تعني فقدان الاستقلال أو تفضي إلى نتيجة غير مرغوب فيها، فيجب الاحتراز احترازًا جديًا من الوقوع في شراك الهزيمة. ومن الثابت أن الحقائق المادية لا يمكن تجاهلها، ففي الفلسفة أو الدين أو علم الأخلاق أو علم السياسة يمكن أن يكون حاصل اثنين واثنين هو خمسة ولكن حينما يتعلق الأمر بتصميم مدفع أو طائرة فلا بد أن يكون حاصل اثنين واثنين أربعة. ولقد كانت الأمم التي تفتقر إلى الكفاءة دائمًا تلحق بها الهزيمة إن عاجلًا أو آجلًا، وكان النضال لبلوغ هذه الكفاءة غاية تتعارض مع وجود الأوهام. وفضلًا عن ذلك، فلكي تبلغ هذه الكفاءة من الضروري أن تكون قادرًا على الاستفادة من الماضي والتعلم منه، وهذا يعني أن تكون لديك فكرة دقيقة عما حدث في الماضي. صحيح أن الصحف وكتب التاريخ عرضة للتحريف وتفتقد المصداقية عبر التاريخ، إلا أن التزوير الذي يمارس اليوم كان يستحيل وقوعه في الماضي. فقد غدت الحرب ضمانًا أكيدًا للسلامة، وهي بالنبة للفئات الحاكمة أهم الضمانات على الإطلاق. ولأن الحرب عرضة للخسارة والمكسب، فلا يمكن أن تظل فئة حاكمة في حل من أي مسؤولية.

أما عندما تصبح الحرب سجالًا مستمرًا، فإن خطورتها تنعدم، فاستمرار الحرب يقضي على ما يسمى بالضرورة الحربية. ويمكن أن تتوقف عجلة التقدم التقني كما يمكن نكران أكثر الحقائق وضوحًا أو تجاهلها. وكما رأينا فإن الأبحاث التي يمكن نعتها بأنها علمية ما زالت تجري خدمة لأغراض

الحرب وهي نوع من أحلام اليقظة، والإخفاق في تحقيق نتائجها ليس أمرًا ذا أهمية. بل وحتى ما يسمى بالكفاءة العسكرية لم تعد الحاجة ماسة إليها، ففي «أوقيانيا» لا يتصف بالكفاءة والفاعلية غير شرطة الفكر. ولما كان اندحار أي من الدول العظمى الثلاث أمرًا عزيز المنال، فقد غدت كل دولة في واقع الأمر بمثابة عالم قائم بذاته يمكن أن ينمو فيه الفكر المشوه والفاسد في أمان. وأما الواقع فإنه يمارس ضغوطاته من خلال متطلبات الحياة اليومية كالحاجة إلى المأكل والمشرب والمأوى والملبس، والحاجة إلى حفظ الحياة عن طريق اجتناب ابتلاع السم أو القفز من النوافذ العالية وما شابه ذلك من حاجات. وبين الحياة والموت، وبين اللذة والألم، ما زالت هنالك فروقات، لكن هذه الفروقات هي كل شيء. إن حالة الانعزال عن العالم والقطيعة مع الماضي التي يعيشها المواطن في «أوقيانيا» تجعله أشبه برجل معلق في الفضاء بين النجوم وقد سلب القدرة على تمييز الاتجاهات. أما الحكام في مثل هذه الدول فإنهم يتمتعون بسلطات مطلقة لم يبلغها أكثر الفراعنة أو القياصرة استبدادًا. وهم وإن كانوا يسعون مضطرين إلى الحيلولة دون موت رعاياهم بأعداد كبيرة تنذر بالخطر، كما أنهم مضطرين إلى البقاء على المستوى نفسه من التقنية العسكرية لمنافسيهم، فإنهم ما إن يبلغوا الحد الأدنى من أهدافهم حتى يشرعوا في لي عنق الحقيقة وصوغها في القالب الذي يشاؤونه.

لذلك فإن الحرب، إذا ما قيست بمعايير الحروب القديمة، هي مجرد خداع ودجل، بل هي أشبه بالمعارك التي تنشب بين حيوانين من الحيوانات المجترة، تأخذ قرونهما أثناء نطاحهما زاوية تجعل أحدهما عاجزًا عن إلحاق الأذى بالآخر. لكن بالرغم من هذا الزيف فإنها ليست خلوًا من المغزى، فهي تلتهم الفائض من السلع الاستهلاكية كما تسهم في الحفاظ على المناخ الفكري الخاص الذي يحتاج إليه المجتمع الطبقي. وكما سيتضح فيما بعد فإن الحرب قد أصبحت شأنًا داخليًا محضًا، ففي الماضي كانت الفئات الحاكمة في جميع الأقطار، ورغم إدراكهم لمصالحهم المشتركة ومن ثم سعيهم إلى

تحجيم مدى الخراب الذي تسببه الحروب، يقاتل بعضهم بعضًا وكان الغالب دائمًا ينهب المغلوب، أما في وقتنا الراهن فلم يعد الاقتتال ينشب بينهم مطلقًا، وإنما أصبحت كل فئة حاكمة تشن الحرب على رعاياها ولم يعد هدف الحرب هو الاستيلاء على الأراضي أو الحيلولة دون ذلك، وإنما الحفاظ على بنية المجتمع سليمة على ما هي عليه. ومن ثم فإن كلمة «الحرب» ذاتها باتت مضللة ولا تؤدي المعنى، وإذا شئنا الدقة يمكننا القول بأن الحرب لم تعد حربًا بعدما صارت إليه من ديمومة واستمرار. أما ذلك التأثير الذي ظلت تمارسه على البشرية فيما بين العصر الحجري وأوائل القرن العشرين فقد تلاشى ليحل محله شيء مختلف تمامًا، ولو أن الدول العظمى الثلاث كانت قد تواضعت، بدلًا من التناحر فيما بينها، على العيش في ظل سلامة دائم وحدود آمنة لا تتعرض لخروقات من هذه أو تلك لتحققت الغاية والمراد نفسيهما من حرب هذه الأيام، ففي هذه الحالة، كان كل طرف من الأطراف المتحاربة سيغدو عالمًا مكتفيًا بذاته ومتحررًا إلى الأبد من التأثير القوي للأخطار الخارجية، ولكان للسلام الحقيقي الدائم الأثر نفسه الذي تنتجه الحرب الدائمة. وهذا هو المعنى الحقيقي لشعار الحزب: الحرب هي السلام، بالرغم من أن الأغلبية الساحقة من أعضاء الحزب لا يفهمونه إلا فهمًا سطحيًا.

وقد توقف "ونستون" عن القراءة حينما تناهى إلى سمعه دوي قذيفة صاروخية أشبه بالرعد وقد سقطت في مكانٍ بعيد. بيد أن شعور "ونستون" البهيج بأن الكتاب المحظور بين يديه يؤنس وحدته وفي غرفة لا يوجد فيها شاشة رصد، ظل كما هو ولم يتأثر بذلك. حيث امتزج لديه الإحساس بالعزلة والأمان، وهي إحساسات جسدية، مع التعب الذي أصاب جسمه النحيل ونعومة الكرسي الذي يجلس عليه والنسيم الخفيف القادم من النافذة الذي كان يداعب وجنتيه. وأما الكتاب نفسه فقد خلب لبه، أو بعبارة أدق أعاد إليه الطمأنينة المفقودة. وبالرغم من أن الكتاب لم يأت بجديد وهو ما

يعتبر جزءًا من جاذبيته، فقد قال الكتاب ما كان "ونستون" سيقوله لو تسنى له أن ينظم شتات أفكاره معًا، إنه نتاج لعقل شبيه بعقله وإن كان يفوق عقله قوة وتنظيمًا ولا يسيطر عليه الخوف. وكان "ونستون" يتصور أن أفضل الكتب هي تلك التي تقول لك ما تعرفه بالفعل. ولم يكد "ونستون" يعود إلى الفصل الأول حتى تناهى إلى سمعه وقع خطى "جوليا" على درجات السلم فهب من مقعده واقفًا لاستقبالها. وما إن دلفت إلى الغرفة حتى ألقت بحقيبتها البنية فوق الأرض وألقت بنفسها بين ذراعيه، إذ كان قد انقضى على آخر لقاء ضمهما أسبوعٌ أو أكثر.

وقال "ونستون" بعدما انفكا من العناق:

- «لقد حصلت على الكتاب».

فقالت دون أن تبدي كثير اهتمام:

- «آه هل حصلت عليه فعلًا؟».

ثم جثت على ركبتيها بجانب الموقد لتعد القهوة.

ولم يعودا لموضوع الكتاب إلا بعد أن أمضيا نصف ساعة في الفراش معًا. كان المساء باردًا مما دفعهما لسحب الغطاء عليهما وكانت تسمع أصوات غناء مألوفة وأصوات احتكاك الأحذية بحجارة الرصيف فيما كانت المرأة ذات الذراعين المفتولين والتي رآها "ونستون" هناك في أول زيارة له للغرفة واقفة متسمرة في الباحة. إذ لا تمر ساعة دون أن يراها المرء تغدو وتجيء بين حوض الغسيل وحبل الغسيل، وتعض أحيانًا على مشاجب الغسيل حتى إذا انتهت منها انخرطت في أغنيتها المفعمة بالحيوية. وتمددت "جوليا" على جنبها وبدت على وشك الاستغراق في النوم، وأما "ونستون" فقد مد يده لالتقاط الكتاب الملقى فوق أرض الغرفة ثم جلس متكئًا إلى رأس السرير.

وقال:

- «يجب أن نقرأه، وأنتِ أيضًا، بل يجب أن يقرأه جميع أعضاء الأخوة».

فقالت وهي مغمضة عينيها:

- «اقرأه أنت، اقرأه بصوتٍ عالٍ، فهذه أفضل طريقة، ثم اشرح لي ما تقرأه».

كانت عقارب الساعة تشير إلى السادسة مساء، وهكذا كان لا يزال لديها ثلاث أو أربع ساعات، ولذا فقد وضع الكتاب فوق ركبتيه وراح يقرأ:

الفصل الأول

«الجهل هو القوة»..

عبر التاريخ المعروف للإنسان، بل وربما منذ نهاية العصر الحجري، كان هنالك ثلاث فئات من البشر أو بالأحرى ثلاث طبقات في العالم: العليا والوسطى والدنيا، وقد قسمت هذه الطبقات فيما بينها طبقات أخرى فرعية، وحملت أسماء مختلفة لا حصر لها و عد، أما النسب التي تمثلها وكذا مواقفها إزاء بعضها البعض فقد تباينت من عصر لآخر ، غير أن التركيبة الأساسية للمجتمع ظلت كما هي لم تتغير أبدًا، بل حتى بعد اندلاع الثورات العارمة وما أحدثته من تغييرات تبدو لا رجعة عنها، فإن ذلك النموذج يعود فيؤكد نفسه مثلما تفعل مروحة السفينة التي تعاود توازنها سواء أدرتها في هذا الاتجاه أو ذاك.

التفت "ونستون" وهو يقول:

- «هل أنتِ مستيقظة يا "جوليا"؟».

فأجابت "جوليا":

- «نعم يا حبيبي، إني مصغية لما تقول. استمر، إنه رائع».

فعاد إلى القراءة:

وأما أهداف هذه الطبقات فكانت متضاربة ولا يمكن التوفيق بينها على الإطلاق، فهدف الطبقة العليا هو البقاء حيث هي، وهدف الطبقة الوسطى هو الحلول محل الطبقة العليا، أما هدف الطبقة الدنيا، إن كان لها هدف. ذلك أن من الخصائص الثابتة لدى هذه الطبقة هي أنها تعيش مسحوقة

تحت وطأة مطالب الحياة اليومية فلا تعي شيئًا خارجها، هو إزالة كل الفوارق الطبقية وإنشاء مجتمع يكون فيه جميع الناس سواسية. وهكذا يتكرر عبر التاريخ ذلك النضال الذي يتشابه في خطوطه العريضة الرئيسية. ولآجال طويلة كانت الطبقة العليا تبدو ممسكة بزمام السلطة، ولكن إن عاجلًا أو آجلًا كان لا بد أن تأتي عليهم لحظة يفقدون فيها إما إيمانهم بأنفسهم وإما قدرتهم على الحكم بكفاءة أو الاثنين معًا. وحينئذ كان يطاح بهم من قبل الطبقة الوسطى التي تأخذ الطبقة الدنيا إلى صفها تحت دعاوي النضال من أجل تحقيق الحرية والعدل. ولكن ما إن تبلغ الطبقة الوسطى هدفها وهو السلطة، فإنها تزج بالطبقة الدنيا إلى وضعها القديم حيث الاسترقاق، وتصبح هي الطبقة العليا. وتتكون طبقة وسطى جديدة من إحدى الطبقتين الآخر يين أو كليهما معًا ليبدأ الصراع من جديد. ومن بين الطبقات الثلاث فإن الطبقة الدنيا هي الوحيدة التي لا تفلح أبدًا ولو مؤقتًا في بلوغ أهدافها، ولعله من قبيل المبالغة أن نقول إنه عبر التاريخ لم يحدث لها أي تقدم مادي يذكر. وحتى في أيامنا هذه، في فترة الانحطاط فإن الإنسان العادي يعتبر من الناحية المادية أحسن حالًا مما كان عليه قبل بضعة قرون مضت. غير أنه لا ازدياد الثروة ولا رقي السلوكيات ولا حركة الإصلاح أو الثورة حملت حلم المساواة بين بني الإنسان إلى الأمام ولو قيد أنملة، ومن وجهة نظر الطبقة الدنيا فإن أي تغيير تاريخي لا يعدو أن يكون مجرد تغيير في أسماء سادتها.

وفي أواخر القرن التاسع عشر بات تكرار هذا النهج جليًا لكثير من المراقبين، حتى أنه ظهرت مدارس فكرية تفسر التاريخ كمسارات دائرية، وحاولت الترويج لفكرة أن انعدام المساواة هو قانون من قوانين الحياة البشرية الذي لا يقبل التغيير. وبالطبع كان لهذا المذهب دائمًا أنصاره عبر التاريخ، وإن كان ثمة تغيير ملموس قد طرأ على الطريقة التي يقدم بها للناس في هذه الأيام، ففي الماضي كانت الحاجة إلى مجتمع طبقي معتقدًا محصورًا في الطبقة العليا حيث كان يروج لها الملوك والنبلاء والكهنة والمحامون ومن

شاكلهم ممن يعيشون عالة عليهم، وكانوا للتخفيف من وطأة هذا المعتقد، يطلقون وعودًا بالتعويض عن مآسي الحياة الدنيا في عالم خيالي يأتي بعد الموت. أما الطبقة الوسطى فكانت، إبان نضالها لبلوغ سدة الحكم، دائمًا ترفع شعارات مثل الحرية والعدل والإخاء طالما أنها لم تنته من نضالها في سبيل بلوغ السلطة. وأما الآن فإن مفهوم الأخوة الإنسانية يتعرض لهجمات من قبل أناس لم يبلغوا بعد سدة الحكم ولكنهم يأملون بلوغه في عهد قريب. وفي الماضي كانت الطبقة الوسطى تشعل الثورات تحت ستار المساواة، لكنها لم تلبث بعد بلوغ مأربها أن دشنت لطغيان جديد تقيمه على أنقاض الطغيان القديم الذي أطاحت به، ولذلك كانت المجموعات الجديدة التي ستحل محل الطبقة الوسطة تعلن سلفًا عن طغيانها. وأما الاشتراكية وهي نظرية ظهرت في أوائل القرن التاسع عشر، والتي كانت بمثابة الحلقة الأخيرة من سلسلة فكرية تعود بتاريخها إلى ثورات العبيد في العصور القديمة، فقد كانت لا تزال مخدوعة إلى حد بعيد بطوباوية العصور الغابرة. ولكن في كل شكل من أشكال الاشتراكية التي بدأت تظهر للوجود منذ 1900 وحتى وقتنا الراهن كان يتم التنكر صراحة لهدف إرساء دعائم مجتمع الحرية والمساواة أكثر فأكثر. وأما الحركات الجديدة التي ظهرت في منتصف القرن، كالانجسوك في «أوقيانيا»، والبلشفية الجديدة في «أوراسيا»، وعبادة الموت كما كانت تسمى في «إستاسيا»، فكانت تستهدف ترسيخ حالة اللا حرية واللا مساواة. وهذه الحركات الجديدة خرجت من عباءة حركات قديمة واحتفظت بأسمائها وادعت زيفًا اعتناقها لأيديولوجيا. وقد اجتمعت هذه الحركات على غاية واحدة وهي وقف كل تقدم وتجميد التاريخ عند لحظة تختارها، وهكذا أرادوا لبندول الساعة أن يهتز اهتزازاته المألوفة مرة أخرى ليتوقف بعدها للأبد. وكالعادة كان على الطبقة الوسطى أن تزيح الطبقة العليا وتحل محلها ولكن هذه المرة باستراتيجية واعية بحيث تتمكن الطبقة العليا الجديدة من الاحتفاظ بمركزها بصفة دائمة.

ويرجع ظهور هذه المذاهب الجديدة إلى تراكم المعرفة التاريخية ونمو الحس التاريخي وهما أمران لم يكن لهما وجود تقريبًا قبل القرن التاسع عشر، وهو ما جعل الحركة الدائرية للتاريخ مفهومة في الوقت الحاضر، أو بدا أنها كذلك، وبما أنها قد باتت مفهومة فهذا يعني أنه بات بالإمكان تغييرها. ولكن السبب الرئيسي الكامن وراء ظهور هذه المذاهب هو أنه منذ أوائل القرن العشرين غدت المساواة بين الناس أمرًا ممكنًا من الناحية العملية. صحيح أن الناس لم يكونوا متساوين في مواهبهم الطبيعية وصحيح أن المهام يجب توزيعها بطريقة يحابى فيها بعض الأفراد على حساب البعض، لكنه لم تعد ثمة حاجة فعلية إلى وجود الفروق الطبقية أو التفاوتات الكبيرة من ناحية الثروة. وفي العصور الأولى لم تكن الفوارق الطبقية أمرًا محتومًا فحسب، بل مرغوبًا فيه أيضًا، ذلك أن عدم المساواة كان هو ما تكبده الناس ثمنا للمدنية. ولكن مع تطور الإنتاج الآلي تبدلت الحال، إذ حتى لو أنه ما زال من الضروري للبشر أن يؤدوا أنواعًا متباينة من الأعمال، فإنه لم يعد من الضروري لهم أن يعيشوا عند مستويات اجتماعية واقتصادية متباينة، ومن ثم فإنه ومن وجهة نظر الطبقات الجديدة التي كانت قاب قوسين أو أدنى من القبض على زمام السلطة، فإن المساواة بين البشر لم تعد غاية سامية تستحق النضال من أجلها، وإنما خطرًا يجب تفاديه. وفي العصور الأكثر بدائية حينما كانت إقامة مجتمع العدل والسلام أمرًا غير ممكن، كان من اليسير على المرء أن يصدق مثل هذه الأفكار. إن فكرة الفردوس الأرضي الذي يعيش فيه كل الناس معًا كإخوة دون اللجوء إلى قوانين أو دون حاجة إلى التعب والمشقة، كانت تشغل الخيال البشري منذ آلاف السنين، وكان لهذه الرؤية الخيالية سلطان حتى على تلك الفئات التي كانت تفيد فعلًا من كل تغير تاريخي. ومن هذا أن أبناء الثورات الفرنسية والإنجليزية والأمريكية كانوا يؤمنون إلى حدٍ ما بما صاغوه من شعارات عن حقوق الإنسان وحرية التعبير والمساواة أمام القانون وما شابه ذلك، بل وكانت ذات تأثير على سلوكهم،

ولكن لم يكد العقد الرابع من القرن العشرين يحل حتى كانت كل التيارات الرئيسية للفكر السياسي قد أضحت سلطوية المنحى أو فاشية. كما أصبح الفردوس الأرضي عرضة لحملات التشويه بمجرد أن أصبح من الممكن تحقيقه. وباتت كل نظرية سياسية جديدة، أيًا كان الاسم الذي يطلق عليها، ترتد بالناس نحو التمييز والتصنيف إلى مراتب ودرجات. وفي ظل أجواء التشدد العام التي سيطرت على وجهات النظر في ثلاثينيات القرن العشرين، عادت الممارسات التي هجرت منذ مئات السنين مثل السجن بغير محاكمة، واسترقاق أسرى الحرب، وتنفيذ أحكام الإعدام علنًا، والتعذيب لانتزاع الاعترافات، واستخدام الرهائن، والتهجير القسري لشعوب بكاملها. ولم تعد كل هذه الممارسات شائعة الحدوث مرة أخرى فحسب، بل أصبحت أمورًا جائزة يدافع عنها من يدعون أنهم تنويريون وتقدميون.

ولم تظهر الانجسوك وما ينافسها من نظم أيديولوجية كنظريات سياسية مكتملة النضج إلا بعد عقد من الزمان سادته حروب خارجية وحروب أهلية، وثورات.. وثورات مضادة في جميع أنحاء العالم. ولكن هذه المذاهب سبقتها أنظمة متنوعة يطلق عليها في مجملها اسم الأنظمة الكليانية التي ظهرت في أوائل القرن العشرين، وكانت الخطوط العريضة للعالم الذي سينبثق من الفوضى السائدة واضحة وجلية منذ وقت طويل. وبالوضوح نفسه كان معروفًا أي نوع من الناس سيحكمون قبضتهم على العالم. ولم يعد خافيًا أن الارستقراطية الجديدة تتألف في أغلبها من بيروقراطيين وعلماء وفنيين وقادة نقابات عمالية وخبراء دعاية وعلماء اجتماع ومعلمين وصحافيين وسياسيين محترفين، وهؤلاء الناس الذين يعودون بأصولهم إلى الطبقة الوسطى التي يعتمد أفرادها على الرواتب، وكذلك إلى الفئة العليا من الطبقة العاملة، قد صهرهم معًا ووحدهم عالم الصناعة والحكومة المركزية، وهؤلاء إذا ما قورنوا بنظرائهم في العصور الغابرة لوجدناهم أقل جشعًا وأقل ميلًا للترف، وأكثر تعطشًا لبلوغ السلطة المطلقة، ولكن فوق كل

ذلك أكثر إدراكًا لما يقومون به وأشد تصميما على سحق معارضيهم وهذا الفرق الأخير كان أساسيًا. ذلك أنه بالمقارنة مع ما يوجد اليوم، فإن أنظمة الطغيان في الماضي كانت أقل كفاءة في استبدادها وتفتقر إلى التصميم على الفتك بالخصوم، كما أن الفئات الحاكمة كانت دائمًا واقعة تحت تأثير أفكار ليبرالية وتترك عن طيب خاطر هوامش للحرية في كل مكان، ولا تهتم إلا بالعمل الظاهر غير مبالية بما يدور في خواطر رعاياها. بل حتى الكنيسة الكاثوليكية في العصور الوسطى تعتبر متسامحة إذا ما قورنت بمعايير هذه الأيام، ومن بين أسباب ذلك أنه لم يكن تتوفر لأية حكومة في الماضي سلطة تمكنها من إبقاء مواطنيها تحت مراقبة دائمة. ولكن مع اختراع الطباعة أصبح من الأيسر التلاعب بالرأي العام، كما أن ظهور السينما والراديو قد دفعا بهذه العملية قدمًا، ومع اختراع التليفزيون وحصول ذلك التقدم التقني الذي جعل من الممكن الإرسال والاستقبال في آنٍ واحد وعلى جهازٍ واحد، فإن ذلك كان إيذانًا بنهاية ما يسمى بالحياة الخاصة، حيث بات بإمكان كل حكومة أن تضع كل مواطن، أو على الأقل كل مواطن له من الأهمية ما يجعله جديرًا بالملاحظة، تحت عين الشرطة لمدة أربع وعشرين ساعة في اليوم وتحت طائلة الدعاية الرسمية الموجهة مع عزله عن جميع قنوات الاتصال الأخرى . وللمرة الأولى في التاريخ يصبح بالإمكان فرض حالة من الإذعان المطلق لإرادة الدولة ومن الاتساق التام في الرأي حول جميع الموضوعات.

وعقب المد الثوري الذي شهدته الخمسينات والستينات من القرن العشرين، أعاد المجتمع تشكيل نفسه كما هي العادة في طبقات ثلاث هي العليا والوسطى والدنيا. لكن الطبقة العليا الجديدة وخلافًا لكل نظيراتها السابقات لم تعد تعمل بوحي من الغريزة بعدما عرفت ماذا يتعين عليها القيام به لحماية مركزها، كما أنها أدركت أن الركيزة الوحيدة الآمنة لحكم الأقلية هي فكرة الجماعية، فمثلًا يسهل الدفاع عن كل من الثروة والامتيازات حينما تكون ملكيتهما مشاعًا، وما سمي بإلغاء الملكية الخاصة

الذي حدث في منتصف القرن العشرين لم يكن يعني في واقع الأمر إلا تركيز الملكية وتجميعها في أيدي عدد أقل من ذي قبل، ولكن مع وجود فارق واحد بسيط ألا وهو أن المالكين الجدد قد اصبحوا مجموعة موحدة لا أفرادًا متفرقين، فعلى الصعيد الفردي لا يمتلك أي من أعضاء الحزب شيئًا، ما عدا بعض الممتلكات الشخصية التافهة. أما على الصعيد الجماعي فإن الحزب يملك كل شيء في «أوقيانيا» لأنه يهيمن على كل شيء ويتصرف في الإنتاج حسبما يراه مناسبًا لمصلحته. وقد تمكن الحزب في السنوات التي تلت الثورة من القفز إلى هذا المركز القيادي، وأصبح بلا منازع تقريبًا، وذلك لأن العملية برمتها قد قدمت باعتبارها عمل جماعي. لقد كان يفترض دائمًا أنه إذا انتزعت أملاك الرأسماليين فإن الاشتراكية ستعقب ذلك: وقد حدث فعلًا أن جرد الرأسماليون من ممتلكاتهم، فانتزعت منهم المصانع والمناجم والأراضي الزراعية والعقارات ووسائل النقل، ولأن هذه الأشياء لم تعد ممتلكات فردية، فقد كان من الواجب أن تصبح ممتلكات عامة. أما الانجسوك والتي خرجت من عباءة الحركة الاشتراكية القديمة وورثت عنها خطابها الأيديولوجي، فإنها نفذت في الواقع جوهر البرنامج الاشتراكي وهو ما أدى إلى ما خطط له الحزب مسبقًا ألا وهو أن انعدام المساواة أصبح واقعًا مكرسًا.

لكن مشكلة تكريس المجتمع الطبقي تظل أعمق وأشد تعقيدًا، إذ ليس هنالك غير أربع طرق لإزاحة فئة حاكمة عن سدة الحكم، فإما أن يتم قهرها من قبل عدو خارجي، أو أن تحكم بطريقة تعوزها الكفاءة وهو ما يدفع الجماهير للثورة، أو تسمح لمجموعة من الطبقة الوسطى القوية والساخطة بالتشكل والظهور، أو تتزعزع ثقتها بذاتها وتفقد الإرادة في الحكم، ولا تعمل هذه السباب منفصلة بعضها عن بعض، فغالبًا ما تجتمع معًا بدرجة أو أخرى. ومن ثم فإن الطبقة الحاكمة التي تستطيع حماية نفسها من هذه الأسباب جميعها، فإنها تضمن التربع على سدة الحكم مدى الحياة. ولذلك

يظل العامل الحاسم في نهاية المطاف هو الحالة الفكرية والعقلية وكيفية تصرف الطبقة الحاكمة ذاتها.

وبعد منتصف القرن العشرين زال الخطر، وبات يتعذر قهر أي من القوى الثلاث التي تتقاسم العالم الآن والتي لم يعد بالإمكان قهرها إلا عبر ما يسمى بالتغيرات الديموغرافية والتي بوسع أي حكومة تتمتع بسلطات واسعة أن تتلافاها بسهولة. أما الخطر الثاني فهو نظري فقط، فالجماهير لا تثور من تلقاء ذاتها مطلقًا، كما أنها لا تثور لمجرد تعرضها للاضطهاد، وما لم تتح لها إمكانية المقارنة بين أوضاعها الراهنة وبين أوضاع أخرى، فإنها لن تدرك أبدًا حقيقة كونها مضطهدة. إن الأزمات الاقتصادية التي كانت تتكرر في العصور القديمة لم يكن لها ما يبررها على الإطلاق، أما في أيامنا هذه فلا يسمح لها بالحدوث أصلًا، بيد أن هنالك أشكال خلل أخرى لا تقل عن ذلك خطرًا وإن كانت لا تصحبها نتائج سياسية وذلك لأنه لا سبيل أمام الناس للتعبير عن استيائهم. أما فيما يخص مشكلة فائض الانتاج التي ظهرت في مجتمعنا منذ اختراع الآلة فقد أمكن علاجها من خلال الحرب الدائمة (انظر الفصل الثالث)، والتي تفيد أيضًا في الإبقاء على الروح المعنوية العامة عند الحد المطلوب.

وهكذا فإن الخطر الحقيقي والوحيد من وجهة نظر حكامنا الحاليين يكمن في إمكانية انشطار فئة جديدة من أناس لديهم الكفاءة اللازمة وطاقة فائضة ومتعطشين إلى السلطة وانتشار روح ليبرالية تحررية ونمو نوازع شكوكية بين صفوفهم، ومن هنا يتبين أن الإشكالية إشكالية تثقيفية الطابع. إنها مشكلة صياغة وعي كل من الفئة المسيطرة والفئة الأخرى الأكبر التي تليها مباشرة في الأهمية والتي تتولى تنفيذ ما تعهد إليه بها الفئة المسيطرة. أما وعي الجماهير فيجب التأثير عليه بشكل سلبي.

ومما تقدم يستطيع المرء أن يستكنه، إن لم يكن يعرف بالفعل، التركيبة العامة لمجتمع «أوقيانيا»، فعلى قمة الهرم يأتي الأخ الكبير وهو

معصوم عن الخطأ ويتمتع بقدرة مطلقة، وكل نجاح وكل إنجاز وكل انتصار وكل اكتشاف علمي ينسب إليه، كما أن كل معرفة وكل حكمة وكل سعادة وفضيلة إنما يعزى الفضل فيها مباشرة إلى قيادته الرشيدة الملهمة. ولم يحدث أن رأى أحد الأخ الكبير، فهو وجه مطبوع على لوحة أو صوت يصدر عن شاشة الرصد، ويمكننا أن نكون على درجة قوية من اليقين بأنه لن يموت كما أن هنالك حالة من الشك تحوم بالفعل حول تاريخ مولده، إنه الشكل الذي اختار الحزب أن يظهر به أمام أعين العالم. وأما دوره فهو أن يكون جماع الحب والخوف والتبجيل، وهي مشاعر يسهل على الفرد أن يحسها نحو فرد آخر لا نحو منظمة ما. وبعد الأخ الكبير يأتي الحزب الداخلي الذي لا يزيد عدد أعضائه على ستة ملايين أو أقل من 2% من سكان أوقيانيا. ثم بعد ذلك يأتي الحزب الخارجي والذي إذا جاز لنا وصف الحزب الداخلي بأنه العقل المفكر للدولة، فإن الحزب الخارجي هو الأيدي العاملة فيها. وفي أسفل الهرم تأتي الجماهير الصماء التي ألفنا أن نسميها «البروليتاريا» والتي تمثل ما نسبته 85% من مجموع سكان أوقيانيا. وحسب تصنيفاتنا السابقة، فإن العامة هم الطبقة الدنيا لأن سكان المناطق الاستوائية المستعبدين، الذين تتداولهم أيدي الغزاة، لا يمثلون مكونًا أساسيًا أو ضروريًا في تركيبة المجتمع.

وبصفة عامة فإن عضوية هذه الطبقات الثلاث ليست وراثية، فالطفل الذي يولد لأبوين من أعضاء الحزب الداخلي لا يكتسب هذه العضوية تلقائيًا، ذلك أن القبول في أي من أجنحة الحزب الثلاثة يتحدد عبر اختبار يجري للمرء وهو في السادسة عشرة، كما أنه لا يسمح بحصول أي تمييز عنصري أو بهيمنة مقاطعة على أخرى، ولذلك ترى اليهود والزنوج وسكان أمريكا الجنوبية ذوي الأصول الهندية يشغلون أرفع المناصب بالحزب، ومن بين هؤلاء يجري دائمًا اختيار حكام الأقاليم. ولا يشعر سكان أي إقليم في «أوقيانيا» بأنهم مستعمرون أو أن شؤونهم تدار من قبل عاصمة بعيدة، فـ «أوقيانيا» بلا عاصمة، ورئيسها الفخري لا يعرف أحد مكانه. وليس في

«أوقيانيا» أي شكلٍ من أشكال المركزية باستثناء أن الإنجليزية هي اللغة الرئيسية واللغة الجديدة هي اللغة الرسمية. أما حكامها فلا تجمعهم آصرة دم بل يجمعهم الولاء لعقيدة مشتركة. نعم أن مجتمعنا ينتظم طبقة فوق طبقة بشكل صارم فيما يبدو للوهلة الأولى وكأنه يرتكز على أسس وراثية، وأضحى نادرًا في مجتمعنا أن يحدث حراك بين الطبقات مثلما كان الحال في ظل الرأسمالية أو حتى في عصر ما قبل التصنيع. وفيما بين جناحي الحزب يوجد قدرٌ معين من تبادل المقاعد بين الأعضاء ولكن بما يضمن استبعاد العناصر الضعيفة من الحزب الداخلي واستقطاب الطموحين من أعضاء الحزب الخارجي بترفيعهم إلى الحزب الداخلي. أما أفراد طبقة العامة فلا يسمح لهم في الواقع بنيل عضوية الحزب، وإذا خرج من بينهم أشخاص من ذوي المواهب الفذة والذين يمكن أن يكونوا نواة لإثارة القلاقل، فإن شرطة الفكر تترصدهم تمهيدًا لاستئصال شأفتهم. ولكن هذه الحالة ليست بالضرورة دائمة كما أنها ليست مسألة مبدأ. فالحزب ليس طبقة بالمعنى القديم لهذه الكلمة، ولا يهدف إلى نقل السلطة إلى أبنائه، وإذا تعذر عليه إبقاء الأشخاص الأقدر فوق قمة الهرم فإنه يصبح على أتم الاستعداد لأن يجند جيلًا كاملًا وجديدًا من بين صفوف العامة. وفي السنوات العصيبة التي مر بها الحزب كان لفكرة أن الحزب ليس بهيئة وراثية دور كبير في إبطال حجج المعارضة، فالاشتراكي القديم الذي درب على النضال ضد كل ما تفوح منه رائحة «التمايز الطبقي» كان يظن أن كل ما ليس وراثيًا لا دوام له، كما له يفطن هذا الصنف من الاشتراكيين إلى أن استمرار حكم الأقلية لا يستلزم أن يكون ماديًا، ولا هو استوقف نفسه للتفكير في أن الارستقراطيات الوراثية كانت دائمًا قصيرة العمر، بينما بقيت منظمات رعوية مثل الكنيسة الكاثوليكية مثلًا لمئات أو آلاف السنين. إن جوهر حكم القلة ليس وراثة الابن لأبيه، وإنما هو استمرارية رؤية للعالم وأسلوب حياة يفرضهما الموتى على الأحياء، وتظل الفئة الحاكمة حاكمة ما دامت قادرة على تعيين خلفائها. ولا

يهتم الحزب بإبقاء سلالة بعينها وإنما يهتم بتخليد مبادئه، فليس مهمًا من يتولى السلطة طالما أن التركيب الهرمي للمجتمع لن يمس وسيظل على ما هو عليه.

ومن هنا فإن جميع المعتقدات والعادات والأذواق والاتجاهات العقلية التي تميز عصرنا الحاضر قد حيكت بطريقة تبقي على هالة الغموض التي تظلل الحزب، كما تحول دون انكشاف الطبيعة الحقيقية لمجتمع اليوم، وهو ما يجعل التمرد أو أي خطوات تمهد له في الوقت الراهن أمرًا مستحيلًا. وأما عن البروليتاريا فلا خوف من ناحيتهم، فأفرادها، إذا ما تركوا وشأنهم، فإنهم سيستمرون من جيل إلى جيل ومن قرن إلى قرن يعملون ويتناسلون ويموتون، ليس دون أن يكون لديهم أدنى دافع للتمرد فحسب، بل ودون أن تكون لديهم القدرة على إدراك أن العالم يمكن أن يكون على غير ما هو عليه الآن. وهم لا يصبحون مصدر خطر إلا إذا بات التقدم الصناعي مرهونًا بتثقيفهم ثقافة عالية، ولكن لأن التنافس العسكري والاقتصادي لم يعد ذا أهمية، فإن مستوى التثقيف الشعبي آخذ فعلًا في التدهور، بل لقد أصبح الحزب ينظر نظرة لا مبالية إلى ما تعتنقه أو ترفضه العامة من أفكار، ولا يمانع في منحهم حرية فكرية طالما أنهم مجردون من القدرة على التفكير. وأما عضو الحزب فلا يمكن التسامح حيال أبسط الانحرافات في رأي حول أتفه الموضوعات.

إن عضو الحزب يعيش من يوم مولده حتى يوم مماته تحت بصر وسمع شرطة الفكر، فحتى حينما يكون في خلوة مع نفسه لا يستطيع الجزم بأنه كذلك، فأينما يكون؛ نائمًا أو مستيقظا، في عمله أو استراحته، في حمامه أو فراشه، فإنه موضوع تحت المراقبة دون أن ينبهه أحد إلى ذلك ودون أن يفطن إلى أنه تحت رقابة دقيقة. فلا شيء مما يفعل غير هام لدى شرطة الفكر التي يرقبه عملاؤها ليل نهار، فيراقبون سلوكه إزاء زوجته وأطفاله، ويرصدون حتى الكلمات التي يتلفظ بها في نومه، وتعبيرات وجهه حينما يكون بمفرده،

وحركاته المعهودة، بل ولا يفوتهم أن يفصحوا صداقاته ويراقبوه في أوقات نومه. وليس بوسع شرطة الفكر أن تكتشف أعماله السيئة فحسب، بل يمكنها أن تكشف عن أي غرابة في أطواره مهما كانت بسيطة، أو تغير في عاداته، أو أي لازمة عصبية قد تكون عرضًا من أعراض صراع داخلي. كما أنه لا يملك حرية الاختيار في أي شيء، ومن ناحية أخرى فإن تصرفاته ليست محكومة بقانون أو بأي قواعد سلوكية محددة المعالم، فليس هنالك قانون في أوقيانيا، فالأفكار والتصرفات التي، حينما تكتشف، تعني موتًا محققًا لفاعلها ليست ممنوعة رسميًا، وليست كل التصفيات الجسدية، والاعتقالات والتعذيب وأحكام السجن وعمليات التبخير عقابًا على جرائم ارتكبت فعلًا، بل هي مجرد استئصال لأشخاص قد يقترفون جرمًا في المستقبل. ولا يكفي أن يكون عضو الحزب ذا رأي سليم فحسب، بل يجب أن تكون غرائزه سليمة أيضًا. وكثير من المعتقدات التي يطلب منه أن يعتنقها والمواقف التي يتبناها ليست معلنة بوضوح، ولا يمكن إعلانها بغير فضح للمتناقضات الكامنة في الاشتراكية الإنجليزية وإذا كان الشخص بالفعل مخلصًا للحزب، ويسمى في اللغة الحديثة «حسن التفكير»، فإنه يعرف، في شتى الظروف وبدون حاجة إلى التفكير، ما هو المعتقد الصحيح أو ما هي العاطفة المرغوبة، وعلى أي حال فإن التدريب الذهني المدروس الذي يخضع له العضو في طفولته والذي يمكن اختصاره في مفردات اللغة الجديدة «إيقاف الجريمة، بياض السواد، ازدواجية التفكير»، يجعله يعزف بل ويعجز عن إمعان التفكير في أي موضوع.

ويفترض في عضو الحزب ألا يكون صاحب عواطف خاصة وألا يعتري حماسه أي فتور، كما يفترض أن تستحوذ عليه كراهية لا يفتر لها سعار إزاء أعداء الخارج وعملاء الداخل، وأن يشعر بنشوة النصر وأن يحقر ذاته أمام سلطان الحزب وحكمته. وأما ما يعتمل داخله من مشاعر استياء تتولد لديه بسبب حياة الشظف والعناء التي يعيشها فيتم توجيهها عمدًا نحو الخارج

وتبديدها بتلك الحيل المبتكرة خلال «دقيقتي الكراهية»، كما أن التأملات التي ربما تولد لدى العضو موقفًا ينزع للشك أو التمرد، يتم وأدها سلفًا بنظام الانضباط الداخلي الذي اكتسبه في طفولته وتَسمى إلى مراحل هذا الانضباط وأبسطها، والتي يمكن حتى تلقينها لصغار الأطفال، في اللغة الجديدة، بـ«إيقاف الجريمة». وهي تعني القدرة على وأد، كما لو كان بالغريزة، أي فكرة تنطوي على خطر، وتتضمن أيضًا عدم القدرة على فهم المتشابهات، وعدم القدرة على إدراك الأغلاط المنطقية، وإساءة فهم أبسط الحجج إذا كانت مناوئة للاشتراكية الإنجليزية، والتبرم والانزعاج من أي أفكار قد تؤدي إلى اتجاهات انحرافية عن مبادئ الحزب. جملة القول، إن كلمة «إيقاف الجريمة» تعني غباءً وقائيًا، وإن كانت كمية غباء غير كافية في هذا الصدد. وعلى النقيض فإن الولاء للحزب بكل ما تحمل الكلمة من معان يتطلب من المرء أن يتحكم تحكمًا تامًا في العمليات الفكرية التي تدور في ذهنه تمامًا مثلما يتحكم لاعب الأكروبات في جسمه. ويتفق المجتمع الأوقياني في نهاية الأمر على الإيمان بأن الأخ الكبير قادر على كل شيء وأن الحزب معصوم عن الخطأ، ولكن لما كان واقع الأمر يقول إن الأخ الكبير ليس قادرًا على كل شيء وأن الحزب ليس معصومًا عن الخطأ، فإن ثمة حاجة إلى مرونة دائمة في معالجة الحقائق، والكلمة الرئيسية في هذا الصدد هي «بياض السواد»، وهي مثلها مثل كثير من كلمات اللغة الجديدة ذات معنيين متناقضين، فإذا استعملت لوصف خصم، فإنها تعني عادة الادعاء في صفاقة بأن الأسود أبيض، بما يتناقض مع أبسط الحقائق، أما إذا استعملت مع عضو الحزب فهي تعني الرغبة الصادقة للقول بأن الأسود أبيض حينما يتطلب نظام الحزب ذلك. لكنها تعني أيضًا القدرة على الاعتقاد بأن الأسود أبيض، وأكثر من ذلك أن يعرف المرء أن الأسود أبيض وينسى تمامًا أنه كان يعتقد عكس ذلك من قبل، وهذا يتطلب تغييرًا مستمرًا للماضي من خلال نهج في التفكير

يحتوي الضدين معًا والذي يطلق عليه في اللغة الجديدة «ازدواجية التفكير».

إن تغيير الماضي ضروري لسببين، أولهما وهو ثانوي أو لنقل احترازي، أن عضو الحزب مثله مثل أي فرد من طبقة البروليتاريا يحتمل ظرف حياته الراهنة لأنه لا يملك معايير للمقارنة، إذ يجب أن ينقطع انقطاعًا كليًا عن الماضي تمامًا كما يجب أن ينقطع عن الأقطار الأجنبية لأن من الضروري بالنسبة إليه أن يؤمن بأنه أفضل حالًا من أسلافه وأن مستوى معيشته ورفاهيته في ارتفاع دائم، وأما السبب الأكثر أهمية لإعادة رسم الماضي فيكمن في الحاجة إلى حماية فكرة عصمة الحزب. ولا يتوقف ذلك عند مدرد تحديث وتعديل جميع الخطب والإحصائيات والسجلات بصفة دائمة ومتواصلة إثباتًا لأن تنبؤات الحزب كانت في جميع الأحوال صائبة فحسب، وإنما يمتد إلى اعتبار أي تغيير في مبادئ الحزب أو في الولاءات السياسية أمرًا غير مبول إطلاقًا وذلك لأن تغيير المرء لرأيه أو حتى لسياسته هو بمثابة إقرار بالضعف. فإذا كانت «أوراسيا» أو «إستاسيا» مثلًا، حسبما يصادف الأمر، هي عدو اليوم، فإن هذه الدولة يجب أن تظل دائمًا هي العدو. أما إذا انت حقائق الواقع تقول بغير ذلك، فحينئذ يجب تغيير هذه الحقائق، وهكذا تتواصل عملية إعادة كتابة التاريخ مرة بعد مرة وبلا توقف. ولا يقل هذا التزييف المتواصل للماضي، والذي تقوم عليه (وزارة الحقيقة) أهمية، عن الممارسات القمعية وأعمال الجاسوسية التي تقوم عليها وزارة الحب بالنسبة لاستقرار النظام.

إن قابلية تبديل الماضي هي العقيدة الرئيسية في الاشتراكية الإنجليزية، إذ يعتبر الحزب أن أحداث الماضي ليست بذات وجود موضوعي لأنها لا تعيش إلا بين صفحات السجلات المكتوبة وفي ذاكرة الإنسان، فالماضي هو ما تتفق عليه كل من السجلات والذاكرات، ولما كان الحزب يسيطر سيطرة تامة على السجلات كما على عقول أعضائه، فإن الماضي، تبعًا لذلك، هو ما يريده

الحزب وما يشاء أن يصنع منه. وتبعًا لذلك أيضًا وبالرغم من قابلية الماضي للتبديل، فإنه لم يتبدل قط في لحظة من اللحظات ذلك أنه عندما تعاد صياغته في القالب الذي تستلزمه متطلبات المرحلة الراهنة، فإن هذه الصياغة الجديدة تصبح هي الماضي ولا ماض سواه قد وجد. ويظل هذا مقبولًا حتى حينما يتعين تغير حادث بذاته، وهو غالبًا ما يحدث مرات عديدة في غضون سنة واحدة، وفي جميع هذه الأحوال يظل الحزب هو من يملك ناصية الحقيقة المطلقة، والحقيقة المطلقة في نظره لم تختلف يومًا عما هو عليه واقع الحال. ومن الواضح أن السيطرة على الماضي تتوقف قبل كل شيء على تدريب الذاكرة، وعملية التأكد من أن جميع السجلات المكتوبة تتفق مع الاعتقاد الصحيح المعتمد لا تعدو كونها مجرد عمل آلي. لكن من الضروري أن يتذكر المرء أن الأحداث وقعت بالطريقة المرغوبة. ولئن كان ضروريًا للمرء أن يعي تشكيل ذكرياته أو يعبث بالسجلات المكتوبة، فمن الضروري أيضًا أن ينسى أنه قد فعل هذا. وهذا الاحتيال يمكن أن يتعلمه المرء مثلما يتعلم أي طريقة ذهنية، وهو الأمر الذي يتعلمه غالبية أعضاء الحزب وبالأخص الأذكياء منهم والمخلصين للحزب، وكان يطلق على ذلك في اللغة القديمة «السيطرة على الحقيقة» بينما يطلق عليه في اللغة الجديدة «ازدواجية التفكير» على الرغم من أن ازدواجية التفكير تعني كثيرًا من الأشياء الأخرى أيضًا.

فازدواجية التفكير تعني القدرة على اعتناق معتقدين متناقضين في آنٍ واحد وقبولهما معًا. فالمفكر الحزبي يعرف الوجهة التي يجب أن تأخذها ذكرياته عند تغييرها، ويعرف بناء على ذلك أنه يتلاعب بالحقيقة، ولكنه بممارسة ازدواجية التفكير يقنع نفسه بأنه لم يدنس الحقيقة. ويتعين أن تجري هذه العملية عن وعي وإدراك وإلا تعذر تنفيذها بالدقة المطلوبة، كما ينبغي أن تتم بدون وعي أيضًا وإلا فإنها ستولد شعورًا بالزيف ومن ثم بالإثم. إن ازدواجية التفكير تقع في صميم مبادئ الاشتراكية الإنجليزية باعتبار أن

المنهج الرئيسي للحزب هو استخدام الخداع الواعي مع الاحتفاظ بثبات الغاية التي تظل محاطة بالصدق. ولذلك لا بد لعضو الحزب أن يكذب متعمدًا وهو يؤمن في قرارة نفسه بكذبه، وأن ينسى أي حقيقة باتت غير ملائمة، ثم عندما تمس الحاجة إليها مرة ثانية فإنهم يستدعونها من غياهب النسيان، وأن ينكروا وجود الحقيقة الموضوعية وأن يأخذوا بالحسبان ذلك الواقع الذي أنكروه. بل وحتى عند استعمال عبارة ازدواجية التفكير من الضروري أن يمارس المرء ازدواجية التفكير، ذلك أن المرء باستعماله هذه العبارة إنما يعترف بأنه إنما يتلاعب بالحقائق، فمع كل مرة يلجأ فيها المرء لازدواجية التفكير فإنه يطمس معرفة ما وهكذا دواليك حتى تتراكم الأكاذيب وتجثم فوق الحقيقة. وفي النهاية فقد استطاع الحزب من خلال ازدواجية التفكير أن يظل وربما سيظل لآلاف السنين ممسكًا بناصية التاريخ.

لقد هوت جميع الأقليات الحاكمة إما لأنها تحجرت أو لأنها باتت هشة. فإما أنها أصيبت بالبلادة والغطرسة وعجزت عن مواكبة الظروف المتغيرة مما أفضى بها إلى السقوط، أو أنها أصبحت ليبرالية جبانة وقدمت تنازلات عندما كان ينبغي عليها اللجوء للقوة ومن ثم سقطت أيضًا، بعبارة أخرى، لقد سقطت هذه الأقليات إما بوعي أو بدون وعي. وإنه لما يسجل للحزب أنه أوجد نظامًا فكريًا يمكن لهاتين الحالتين أن تتواجدا معًا في آن واحد. ولا يمكن أن تدوم للحزب هيمنة على أي أساس فكري غير هذا الأساس، فإذا أراد المرء أن يحكم وأن يستمر في الحكم فعليه أن يكون قادرًا على زعزعة الإحساس بالواقع. وذلك لأن سر أسرار الحكم هو جمع المرء بين إيمانه بأنه لا يخطئ وقدرته على التعلم من أخطاء الماضي.

وليس هنالك حاجة تدعو للقول بأن أكثر ممارسي ازدواجية التفكير دهاء هم أولئك الذين ابتدعوه ويدركون أنه منظومة فعالة للخداع العقلي. وفي مجتمعنا فإن أولئك الأكثر إدراكًا لما يحدث هم نفسهم الأكثر عجزًا عن رؤية العالم كما هو فعلًا. مجمل القول إنه كلما ازداد المرء فهمًا اتسعت هوة

الوهم، وكلما اتقد ذكاؤه كان أقل حكمة. والمثال الأوضح على ذلك هو حقيقة أن هستيريا الحرب تتأجج كما ارتقى المرء في السلم الاجتماعي، إذ لا يقف من الحرب موقفًا عقلانيًا إلا رعايا الأراضي المتنازع عليها، فالحرب لدى هؤلاء ما هي إلا إعصار يجاحهم جيئة وذهابًا، وهم لا يبالون البتة بأي الأطراف سينتصر في الحرب، لأنهم يدركون أن تغيير سادتهم لا يعني أكثر من أنهم سيؤدون نفس فروض الطاعة للسادة الجدد والذين سيسومونهم العذاب ذاته الذي كان سادتهم القدامى يسومونهم إياه. وأما العمال الأفضل حالًا من هؤلاء بقليل والذين نطلق عليهم «العامة» فلا يشعرون بالحرب إلا على نحو متقطع. ويمكن لهؤلاء حينما تدعو الضرورة أن ينخرطوا في نوبات من الخوف وسعار الكراهية، غير أنهم إذا تركوا وشأنهم فإنهم يصبحون قادرين على النسيان ولفترات طويلة أن ثمة حربًا تدور رحاها. أما الحماس الحقيقي للحرب فلا يوجد إلا في صفوف الحزب، وبالأخص في صفوف الحزب الداخلي حيث توجد تلك الفئة الأرسخ إيمانًا بغزو العالم واحتلاله رغم معرفتهم أن تحقق ذلك إن هو إلا وهم. ويعتبر مثل هذا الجمع الغريب بين الأضداد – المعرفة مع الجهل، والسخرية مع التعصب – هو من أخص الخصائص المميزة للمجتمع الأوقياني. وتزخر الأيديولوجية الرسمية بالمتناقضات حتى حينما لا يكون ثمة سبب فعلي يستدعي ذلك، وهكذا فإن الحزب يرفض كل مبدأ أيدته الحركة الاشتراكية في الأصل، بل ويحط من قدره وهو حينما يفعل ذلك فإنما يفعله باسم الاشتراكية، ويدعو الحزب لازدراء الطبقة العاملة ازدراء لم يسبق له مثيل في القرون الماضية وفي الوقت نفسه يلبس أعضاءه زيًا موحدًا كان في يوم من الأيام يميز العمال اليدويين، ولهذا السبب اختاره الحزب. ويعمل الحزب بصورة منهجية على تقويض دعائم التماسك الأسري، ويطلق على زعيمه اسم «الأخ الكبير» وهو رمز مباشر للولاء الأسري، بل وحتى أسماء الوزارات الأربع التي تحكمنا تبدي شيئًا من الصفاقة فيما تمارسه من قلب متعمد للحقائق، فوزارة السلام تعني بشؤون الحرب، و(وزارة الحقيقة)

مهمتها التزوير وخلق الأكاذيب، ووزارة الحب تسوم الناس العذاب، أما وزارة الوفرة فتعني بتجويع الناس حتى الموت. وليست مثل هذه المتناقضات عرضية كما أنها ليست نتاجًا لرياء عادي، بل هي ممارسات مدروسة ومخططة لازدواجية التفكير، ذلك أنه لا يمكن الاحتفاظ بالسلطة إلى الأبد إلا عبر التوفيق بين المتناقضات، وليس ثمة طريق آخر لكسر الحلقة القديمة. وإذا كان ينبغي تجنب المساواة بين البشر إلى الأبد، أي إذا كان على الطبقة العليا كما أسميناها أن تحتفظ بموقعها بصفة دائمة، فإن عليها السيطرة على الحالة الفكرية السائدة التي هي الجنون.

ولكن ثمة سؤال واحد تغاضينا عنه حتى الآن وهو: لماذا يجب تجنب المساواة بين البشر؟ وإذا افترضنا أن آليات العملية قد وصفت وصفًا دقيقًا، فما هو الدافع وراء هذا الجهد الضخم والمنظم بدقة وعناية من أجل تجميد التاريخ عند لحظة معينة في الزمن؟

وهنا نصل إلى سر الأسرار، فكما رأينا فإن هالة الغموض التي تحيط بالحزب وعلى الأخص بالحزب الداخلي تعتمد على ازدواجية التفكير، ولكن الأعمق من ذلك هو الدافع الأصلي والغريزة التي لم تكون مثار شك أبدًا والتي كانت الحافز الأول للقفز على السلطة وجاءت ازدواجية التفكير ثم شرطة الفكر وحالة الحرب الدائمة وجميع المظاهر الأخرى الضرورية التي ظهرت للوجود فيما بعد. ويتضمن هذا الدافع فعلًا من...

وهنا أصبح "ونستون" يشعر بالصمت كما يشعر المرء بصوتٍ جديد انبعث حوله، وخيل إليه أن "جوليا" كانت ساكنة الحركة لفترة طويلة، وكانت ترقد على جنبها وعارية من الخصر فما فوق، وقد توسدت راحة يدها وتدلت خصلة شعر بين عينيها بينما كان صدرها يعلو ويهبط على نحو بطيء ومنتظم، فناداها:

- "جوليا".

لم تحر جوابا.

- «جوليا، هل أنتِ مستيقظة؟».

ولكنها لم تجب أيضًا لأنها كانت قد راحت في نومٍ عميق، فأغلق الكتاب ثم وضعه بعناية على الأرض، ثم اضطجع ساحبًا الغطاء ليغطي "جوليا" ويندس إلى جانبها.

لكنه راح يفكر في أنه لم يعرف بعد السر النهائي، لقد فهم «كيف» ولكنه لم يفهم «لماذا»، فالفصل الأول شأنه شأن الفصل الثالث لم يأت بجديدٍ لم يكن يعرفه من قبل، فكل ما فعله هو أنه رتب له ما كان يعرفه بالفعل. لكنه بعد قراءته للفصلين بات واثقًا أكثر من ذي قبل أنه لم يكن مجنونًا، وأن وجود المرء بين أقلية حتى لو كانت هذه الأقلية تتألف من فردٍ واحدٍ فحسب لا يجعله مجنونًا، إذ هنالك حقيقة وكذب وإذا ما تمسكت بالحقيقة حتى لو كان في ذلك مواجهة للعالم أجمع، فإن هذا يعني أنك لست مجنونًا. وكانت صفرة الشمس الغاربة تنسل عبر النافذة وتسقط على الوسادة، فأغمض "ونستون" عينيه، وكان شعاع الشمس على وجهه فضلًا عن جسد الفتاة الناعم الذي يلامس جسده، قد ولد لديه إحساسًا بالثقة ورغبة في النوم. كان يشعر بالأمان وبأن كل شيء على ما يرام، ولذلك فقد راح في نومٍ عميقٍ وهو يتمتم بعبارة: «سلامة العقل ليست مسألة إحصائية» والتي كان يشعر بأنها تنطوي على حكمة بالغة وعميقة.

وحينما استيقظ كان يحس وكأنه قد نام وقتًا طويلًا، ولكن نظرة واحدة ألقاها على الساعة عتيقة الطراز أكدت له أن الساعة لم تتجاوز الثامنة والنصف بعد. ولذلك فقد أخذته سنة من النوم، ثم أفاق على ذاك الغناء المألوف المنبعث من الساحة التي تطل عليها الغرفة:

«كان حلمًا مقطوع الرجاء..
مر كيوم من نيسان..
ولكن بنظرة وكلمة وأحلام أثاروها..
استلب مني فؤادي»..

كان يبدو أن هذه الأغنية التافهة قد حافظت على شعبيتها وانتشارها، لقد كان المرء أينما ذهب يسمعها، بل لقد فاقت أغنية الكراهية نفسها. استيقظت "جوليا" على الصوت وتمطت بتلذذ ثم نهضت من الفراش. وقالت:

- «إنني جائعة، دعنا نعد بعض القهوة. يا للعنة! لقد انطفأ الموقد وبرد الماء».

ورفعت الموقد وهزته بيدها وقالت:

- «لقد نفد منه الزيت».

- أظن أنه يمكننا الحصول على بعض الزيت من "شارنغتون" العجوز.

ثم أضافت قائلة:

- «الشيء المضحك أنني تأكدت من أنه كان ملآن، سألبس ثيابي، إذ يبدو أن الطقس قد ازداد برودة».

ونهض "ونستون" أيضًا ولبس ثيابه، وكان ذلك الصوت الذي لا يلحق به الكلل أو الملل يواصل الغناء:

«يقولون إن الزمن يداوي كل الجراح..
يقولون إن المرء بوسعه أن ينسى دائمًا..
بيد أن الابتسامات والدموع عبر السنين..
ما تزال إلى الآن تقطع نياط قلبي!»..

اتجه "ونستون" نحو النافذة بينما كان يشد حزامه. لا بد أن الشمس قد توارت خلف البيوت إذ كان ضوؤها قد انحسر عن الساحة، وكانت الحجارة مبتلة كما لو كانت قد غسلت لتوها، بل لقد خامره شعور بأن السماء نفسها قد غسلت أيضًا فقد كانت زرقتها التي بين أعمدة المداخن نضرة شاحبة. وكانت المرأة صاحبة هذا الصوت تذرع الساحة جيئة وذهابًا بلا كلل أو ملل، فتارة تغني وأخرى تلزم الصمت لكنها كانت دائمًا تعلق مزيدًا

من حفاضات الأطفال. وتساءل "ونستون" في نفسه عما إذا كانت تزاول الغسيل كمهنة من أجل كسب قوتها، أو أنها كانت مجرد خادمة لعشرين أو ثلاثين حفيدًا. كانت "جوليا" قد جاءت لتقف إلى جانبه، وراحا معًا يحملقان إلى الأسفل وقد خلب لبهما القوام القوي لهذه المرأة. وعندما تطلع إلى المرأة بهيئتها المميزة وذراعيها الغليظتين وهما تمتدان حتى تطالا حبل الغسيل، وردفيها البارزين ككفل حصان، أدرك وللمرة الأولى أن هذه المرأة جميلة. ولم يكن قد خطر بباله من قبل أن امرأة في الخمسين أخذ جسمها أبعادًا هائلة جراء حمل الأطفال، ثم تصلب بعدئذ واخشوشن بالعمل حتى قسى مثل لفتة شائخة، يمكن أن تكون جميلة. لكنها كانت جميلة. ولم لا؟ إن بين جسمها الصلب الذي ضاعت خطوطه مثل صخرة من الجرانيت وجلدها الأحمر الخشن، علاقة تشبه تلك التي بين تاج الوردة وكأسها. فلماذا ينبغي أن تكون الثمرة في مرتبة أدنى من مرتبة الزهرة؟

وحينئذ غمغم "ونستون":

- «إنها جميلة».

وأضافت "جوليا":

- «إن عرض ردفيها يبلغ مترًا كاملًا».

فقال "ونستون":

- «هذا هو سر جمالها».

وأمسك بخصر "جوليا" اللدن ثم أحاطه بذراعه، والتصق به جسمها من ردفيها حتى ركبتيها. لكن "ونستون" كان يعلم أن ما يقومان به لا يمكن أن يثمر طفلًا، فهذا هو الشيء الوحيد الذي لا يمكنهما فعله. ولم يكن بإمكانهما الإفصاح عن هذا السر لأحد إلا بكلمة يتلفظ بها من عقل إلى عقل. أما المرأة التي كانت في الساحة فلا عقل لها، فهي لا تملك سوى ذراعين مفتولتين وقلبٍ حار ورحم خصب. وتساءل "ونستون" عن عدد الأطفال الذين أنجبتهم، ربما أنجبت خمسة عشر طفلًا، لا شك أنها مرت بازدهار عابر وسريع، ربما لسنة

من الزمن، ازدهار وجمال وردة برية، ثم انتفخت فجأة مثل ثمرة جيدة فأصبحت صلبة حمراء خشنة، بعدئذ غدت حياتها عبارة عن أشواط متواصلة من الغسيل والتنظيف والرتق والطهو والكن والتلميع لأطفالها أولًا ثم لأحفادها فيما بعد وعلى مدى ثلاثين سنة متصلة ومع ذلك فهي لا تزال تغني. ولقد امتزجت مشاعر التبجيل الغامض التي أحسها "ونستون" نحوها مع المشهد الشاحب للسماء الخالية من الغيوم والممتدة لما وراء أعمدة المداخن إلى مسافات لا نهاية لها. وقد لفت نظره أن السماء التي تظلل الجميع واحدة سواء كان ذلك في «أوراسيا» أو «إستاسيا» أو حتى هنا في «أوقيانيا»، كما أن الناس الذين تظللهم السماء يتشابهون إلى حدٍ كبيرٍ أينما كانوا، ففي جميع أنحاء العالم يعيش مئات ألوف من ملايين الأشخاص على هذا المنوال، حيث يجهل بعضهم وجود بعض، وتفصل بينهم جدران من الكراهية والأكاذيب ومع ذلك فإنهم متماثلين. أناس لم يتعلموا أبدًا كيف يفكرون ولكنهم يختزنون في قلوبهم وبطونهم وعضلاتهم القدرة التي يمكن في يوم من الأيام أن تقلب نظام العالم. فإذا كان هناك أمل فإنه يكمن في العامة! ومن دون أن يكمل قراءة الكتاب أدرك أن تلك لا بد أن تكون رسالة "غولدشتاين" الأخيرة. إن المستقبل ملك العامة، وتساءل "ونستون": هل يمكنني أن أضمن أنهم عندما يحين وقتهم ويمسكون بزمام أمور العالم، فإن العالم الذي سينشؤونه لن يكون غريبًا عليّ كهذا العالم الذي يهيمن عليه الحزب؟ أجل سيكون كذلك لأنه، على الأقل، سيكون عالم العقل. فحيثما توجد المساواة يوجد العقل، ولسوف يحدث ذلك إن عاجلًا أو آجلًا. سوف تتحول القوة إلى وعي. إن العامة خالدون، وهذه حقيقة لا يمكن أن يرقى إليك شك حينما ينظر المرء إلى القوام الراسخ للمرأة التي في الساحة. لا بد أنهم سيستيقظون في نهاية الأمر، وإلى أن يحدث ذلك، وبالرغم من أنه قد لا يحدث إلا بعد مضي ألف سنة، فإنهم سيبقون أحياء رغم كل الظروف مثل الطيور تنقل الحيوية من جسم إلى جسم دون أن يتمكن الحزب من تقاسمها معهم أو حتى قتلها.

وقال "ونستون":

- «هل تذكرين العصفور الذي كان يغني لنا يوم التقينا عند طرف الغابة؟».

فقالت "جوليا":

- «إنه لم يكن يغني لنا بل كان يغني لنفسه، وربما ليس لهذا السبب أيضًا، بل لقد كان يغني لمجرد الغناء

إن الطيور تغني والعامة تغني بيد أن الحزب لم يغن. وفي جميع أنحاء العالم، في «لندن، ونيويورك، وأفريقيا، والبرازيل»، وفي الأراضي المحرمة الواقعة وراء الحدود والتي يلفها الغموض وفي شوارع «باريس، وبرلين» وفي قرى السهول الروسية الشاسعة وفي أسواق «اليابان، والصين» – في كل مكان تنتصب شبيهات هذه المرأة ذات القوام الصلب الذي لا يكل أو يمل واللائي تضخمت أجسادهن من جراء العمل وإنجاب الأطفال والكدح من المهد إلى اللحد ومع ذلك يغنين. ومن أصلاب هؤلاء سيخرج حتمًا جيل واع. فإذا كنا من الموات، فإن المستقبل لهم، إلا أنه من الممكن لنا المشاركة في ذلك المستقبل إذا استطعنا إبقاء العقل منا حيًا كما يبقون هم أجسادهم حية، ونقلنا العقيدة السرية التي مفادها أن اثنين واثنين يساويان أربعة إلى القادم من الأجيال».

وقال "ونستون":

- «إننا نحن الأموات».

فردت "جوليا" بصوتٍ كأنه الصدى:

- «إننا نحن الأموات».

فقال صوت حديدي ينبعث من خلفهما:

- «إنكما أنتما ميتان!».

فانتفضا وانفصل واحدهما عن الآخر، وشعر "ونستون" أن الدم تجمد في عروقه، ورأى البياض حول حدقتي عيني "جوليا" وشحب وجهها كله، حتى أن بقايا الصباغ الأحمر التي على وجنتيها قد برزتا وكأنهما غير متصلتين بالبشرة التي تحتهما.

وكرر الصوت الحديدي:

- «إنكما لميتان».

وهمست "جوليا":

- «إن الصوت يأتي من وراء اللوحة».

فقال الصوت:

- «أجل إنه يأتي من وراء اللوحة، اثبتا مكانكما ولا تتحركا حتى يصدر لكما أمرًا آخر».

إنها بداية النهاية، إنها بداية النهاية! لم يكن باستطاعتهما أن يفعلا أي شيء غير أن يحدق أحدهما في الآخر، ولم تخطر ببالهما فكرة أن ينجوا بحياتهما ويغادرا المنزل قبل فوات الأوان، فلا يعقل أن يتصورا أن بوسعهما عصيان الصوت الحديدي الصادر من الجدار. ثم سمعا صوت فرقعة تلاه صوت زجاج يتهشم، لقد سقطت اللوحة على الأرض كاشفة شاشة الرصد المخبأة وراءها.

قالت "جوليا":

- «إنهم يروننا الآن».

فقال الصوت:

- «إننا نراكما الآن. قفا في منتصف الغرفة وليدر كل منكما ظهره للآخر، وليضع يديه خلف رأسه ولا يمسس أحدكما الآخر».

ولم يمسس أحدهما الآخر ومع ذلك ظل "ونستون" يشعر وكأن جسد "جوليا" يرتجف، أو ربما كان جسده هو الذي يرتجف. وقد استطاع بشق الأنفس أن يمنع أسنانه من أن تصر صريرًا، لكن ركبتيه كانتا خارجتين عن

سيطرته، ثم سمعا وقع أقدام قوية في داخل المنزل وخارجه، وبدا أن الساحة قد اكتظت بالرجال وأن شيئًا ما يتم جره على الأحجار وتوقفت المرأة عن الغناء فجأة...

وسُمع صوت طقطقة وكأن حوض الغسيل قد قُذف به عبر الساحة وأعقب ذلك جلبة من الهتافات الغاضبة التي انتهت بصرخات ألم.

وقال "ونستون":

- «إن البيت محاصر».

فقال الصوت:

- «إن البيت محاصر».

وسمع "ونستون" "جوليا" تصر على أسنانها وتقول:

- «أعتقد أنه يحسن بنا أن يودع كل منا الآخر».

فقال الصوت:

- «يحسن بكما أن يودع كل منكما الآخر».

ثم سمعا صوتًا آخر يختلف تمامًا عن الصوت الحديدي، وكان صوتًا رقيقًا مهذبًا وبدا لـ "ونستون" أنه سمعه من قبل هو يقول:

- «وبالمناسبة، وما دمنا بصدد هذا الموضوع، فها هي شمعة تستنير بها في الطريق إلى الفراش، وها هي مقصلة تحز عنقك!».

وسمع "ونستون" صوت شيء يتهشم خلفه ويقع على الفراش، لقد برز رأس سلم من النافذة وبدا أن شخصًا ما يتسلقه للدخول عبر النافذة. وارتفع وقع أقدام على درج المنزل ولم تمر لحظات حتى أصبحت الغرفة غاصة برجال أشداء يرتدون بزات سوداء وأحذية ذات نعالٍ حديدية ويلوحون بهراوات في أيديهم.

ولم يعد "ونستون" يرتجف، بل حتى لم يكن يحرك عينيه. كان الشيء الوحيد الذي يهمه هو أن يحتفظ بسكونه لئلا يعطي أحدهم حجة لضربه! وتوقف قبالته رجلٌ ذو فكٍ يشبه فك مصارع حيث كان فمه كشق مفتوح،

وراح يلوح بهراوته واضعًا إياها بين إبهامه وسبابته. والتقت عينا "ونستون" عيني هذا الرجل وكان شعور "ونستون" بالعري، وبيديه المرفوعتين خلف رأسه وبوجهه وجسده المكشوفين شعورًا لا يحتمل. ولعق الرجل شفتيه بلسانه ثم سمع صوت فرقعة آخر، لقد تناول أحدهم الثقل الزجاجي من فوق المنضدة ثم ألقى به فوق حجر المدفأة فتهشم.

وتدحرجت قطعة المرجان على الأرض، وكانت ضئيلة جدًا. بعدئذ سمع شهقة وخبطة خلفه، ثم وعلى الفور تلقى ضربة عنيفة على كاحله كادت تفقده توازنه، بينما كان رجل آخر يلكم "جوليا" في بطنها فارتمت على الأرض وهي تلهث محاولة تنشق للهواء، لكن "ونستون" لم يجسر على الالتفات قيد أنملة، وإن كان وجهها المزرق الشاحب واللاهث يأتي أحيانًا في نطاق رؤيته. ورغم حالة الذعر التي استولت عليه فقد كان الألم الذي يشعر به أقل حدة من ذلك الذي كانت تحسه وهي تحاول استعادة أنفاسها. كان يدرك مدى الألم المضني الذي تتعرض له ولكنه ذلك الألم الذي لا يشعر به المرء ما دام عاجزًا عن التقاط أنفاسه. عندئذٍ انكب رجلان على "جوليا" ثم رفعاها من ركبتيها وكتفيها وحملاها خارج الغرفة كأنها كيسٌ من الخيش. واستطاع "ونستون" أن يرى وجهها بلمحة خاطفة، كان وجهها منكفئا شاحب اللون مغلق العينين، بينما كانت آثار الصباغ الأحمر لا زالت عالقة بوجنتيها وكان هذا هو آخر ما رآه منها. أما هو فقد بقي واقفًا وكأن على رأسه الطير، ولم يكن قد ضربه أحد بعد. لكن ثمة أفكار أخرى كانت تنبجس بسرعة في خاطره، فتساءل عما إذا كانوا قد ألقوا القبض على السيد "شارنغتون"، وعما فعلوه بالمرأة التي كانت في الساحة. ودهش لإحساسه بالحاجة الماسة إلى التبول مع أنه لم يكن قد انقضى غير ساعتين أو ثلاث على تبوله آخر مرة، كما هاله أن الساعة كانت تشير إلى التاسعة مساء بينما كانت الأنوار ما زالت مضاءة على غير العادة في ذلك الوقت من أغسطس، وتساءل عما إذا كان هو و"جوليا"

قد أخطأ تقدير الوقت وناما حتى التاسعة من صباح اليوم التالي، لكنه لم يتابع هذه الفكرة لأنها لم تكن ذات فائدة.

وبعدئذٍ سمع "ونستون" وقع خطى أخف على الأرض، إنه السيد "شارنغتون" وقد دلف إلى الغرفة، وللتو بدت علامات الخضوع على وجوه الرجال ذوي الزي الأسود، كما بدا أن ثمة تغيرًا قد طرأ على هيئة السيد "شارنغتون" الذي وقعت عيناه على شظايا الثقل الزجاجي، فقال بحدة:

- «اجمعوا هذه الشظايا».

وانحنى أحد الرجال منفذًا الأمر. وكانت لهجة أحياء «لندن» الفقيرة قد اختفت لديه، وفي الحال أدرك "ونستون" من هو صاحب الصوت الذي كان يصدر عن الشاشة منذ دقائق. كان السيد "شارنغتون" لا يزال يرتدي معطفه المخملي العتيق ولكن شعره الأبيض. كان قد صار أسود، كما لم يكن يرتدي نظارته. وحدج "ونستون" بنظرة حادة كما لو أنه يتحقق من هويته، ثم لم يعره بالًا بعد ذلك. وفطن "ونستون" إلى أن ثمة تغييرًا قد طرأ على السيد "شارنغتون"، فقد غدا منتصب القامة وبدا أن جسمه قد أصبح أكثر امتلاء. أما وجهه فلم يطرأ عليه غير تغييرات طفيفة لكنها مع ذلك غيرت ملامحه تغييرًا كاملًا، فقد بدا حاجباه أقل كثافة، واختفت التجاعيد من وجهه، لقد تغيرت كل تقاسيم وجهه بل حتى أنفه قد بدا أقصر مما كان عليه. إنه وجه بارد يوحي بأن صاحبه لا يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره، وسرعان ما تنبه "ونستون" أنه ولأول مرة في حياته يرى رأي العين عنصرًا من عناصر شرطة الفكر.

الجزء الثالث

الفصل الأول

لم يعرف أين هو، كان يُفترض أنه في وزارة الحب، لكن كيف له أن يتحقق من ذلك.

كان في زنزانة عالية السقف لا نوافذ لها، جدران من البورسلين الأبيض اللامع. كانت الزنزانة غارقة في ضوءٍ بارد صادر عن مصابيح مخيفة، كما كان هناك طنين مستمر.. ظن "ونستون" أن له علاقة بفتحات التهوية بالزنزانة. وعلى امتداد جدران الزنزانة كان هناك مقعد خشبي مستطيل، كان عرضه يكفي للجلوس عليه بصعوبة، وفي الجانب المقابل للباب كان هناك مرحاض بلا كرسي يستعمل لقضاء الحاجة، وكان يوجد شاشة رصد في كل جدار من جدران الزنزانة.

كان "ونستون" يعاني من ألمٍ حادٍ في بطنه، لازمه منذ ألقوا به في الشاحنة الصغيرة المغلقة التي انطلقت به بعيدًا. لكنه كان جائعًا جدًا. فقد مر أربع وعشرون أو ست وثلاثون ساعة على آخر مرة تناول فيها الطعام. إنه لا يعرف ولن يعرف أبدًا إذا ما تم اعتقاله صباحًا أم مساءً.

جلس "ونستون" على المقعد في حالة من السكون التام.. وعقد ذراعيه حول ركبتيه، فقد تعلم أن يجلس ساكنًا، فأدرك تمامًا أن أي حركة يأتي بها تجعل صوتًا يصدر من الشاشة ينهاه عن ذلك. اشتد عليه الجوع.. ومع ذلك لم يشته سوى كسرة خبز، تذكر حينها أن لديه بعضًا منها في جيب معطفه، كان يشعر بها تخز ساقه من حينٍ لآخر، وبعد تردد كثير، غلب إحساس الجوع الخوف بداخله، فدس يده في جيبه. فلم يلبث أن يقوم بذلك حتى صدر صوت من الشاشة:

- «سميث! سميث "ونستون" 6079، أخرج يدك من جيبك، هذا غير مسموح به في الزنزانة».

جلس ساكنًا من جديد ويداه معقودتان على ركبتيه. وتذكر أنهم ذهبوا به إلى مكانٍ آخر قبل أن يأتوا به إلى هنا، ربما كان سجنًا عاديًا أو مركز توقيف تستخدمه الدوريات، لكنه لم يتمكن من معرفة كم من الوقت أمضي هناك، فلم يكن بمقدوره قياس الوقت. كان مكانًا صاخبًا تفوح منه روائح كريهة. كانت الزنزانة هناك تشبه هذه الزنزانة، لكنها شديدة القذارة ومزدحمة بعشرة أشخاص أو خمسة عشر شخصًا. كان أكثر هؤلاء من المجرمين العاديين وقليلهم من السجناء السياسيين. فكان أيضًا هناك جالسًا في صمت.. مسندًا ظهره إلى الحائط فيما كانت تزاحمه أجساد قذرة، وعلى الرغم من استحواذ الخوف والألم عليه إلا أنه استطاع ملاحظة الفارق الواضح بين تصرفات السجناء من أعضاء الحزب، وتصرفات السجناء العاديين، فالسجناء الحزبيون كانوا يلزمون الصمت ويبدو عليهم الخوف والرعب، أما السجناء العاديون فكانوا غير مهتمين بأحد، وكان يقذفون الحراس بأبشع الشتائم، ويقاتلون قتالًا عنيفًا عند حجز متعلقاتهم، ويكتبون كلمات بذيئة على الأرض، ويأكلون طعامًا مهربًا يخرجونه من مخابئ سرية في ملابسهم، بل كانوا يصرخون في الشاشات عندما تصدر أوامر باستعادة النظام، فكان البعض منهم على علاقة بالحراس، فينادونهم بأسمائهم، ويحصلون على السجائر من خلال ثقوب التجسس في الباب، كما كان الحراس يعاملون المجرمين العاديين بصبرٍ وتسامح، حتى حينما كانت الظروف تقتضي الغلظة معهم. وكانت دائمًا ما تدور بينهم أحاديث عن معسكرات الأشغال الشاقة، وهي المكان الذي يذهب إليها أغلبية السجناء. كان الوضع هناك لا بأس به إذا استطاع السجين تكوين علاقات جيدة، وأن يعرف كيف يُصرف أموره داخل المعسكر. فكانت الكثير من الممارسات تتفشى في تلك المعسكرات كالرشوة والمحاباة والعربدة بجميع أشكالها،

والشذوذ الجنسي والدعارة. بل كان يتم الحصول على الكحول عن طريق تقطيره من البطاطا بشكلٍ غير مشروع، ولم يستطع أحد أن يحظى بهذه الثقة سوى المجرمين العاديين وخاصة القتلة وأفراد العصابات، والذين كانوا يمثلون شكلًا من أشكال الأرستقراطية. أما السجناء السياسيون فكان يُعهد إليهم جميع الأعمال القذرة.

لاحظ "ونستون" أن جميع السجناء يأتون إلى السجن أو يخرجون منه في حركة لا تتوقف، فمنهم تجار المخدرات وتجار السوق السوداء ومدمنو الخمر والعاهرات. وكان يصل مدمني الخمر إلى حالة من الانفلات تضطر بقية السجناء إلى التدخل والسيطرة عليهم، كما يذكر أن أربعة من الحراس جاءوا بامرأة ضخمة، يناهز عمرها الستين وذات شعرٍ أشيب ونهدين كبيرين، وكانت تقاومهم بعنفٍ وتصرخ فيهم وهم يجرونها إلى الزنزانة من أطرافها الأربعة، انتزعوا حذاءها الذي كانت تركلهم به، ثم دفعوها بعنف فسقطت فوق "ونستون" وكادت تكسر عظامه، لكنها نهضت واندفعت نحو باب الزنزانة وهي تلعن وتسب في الحراس بأفظع الألفاظ، وحينما انتبهت إلى أنها كانت تجلس على شيءٍ غير مستوٍ انزلقت عن ركبة "ونستون" إلى المقعد قائلة:

- «عفوًا يا عزيزي! لم أقصد أن أجلس عليك، لقد دفعني الأوباش هنا، إنهم لا يعرفون كيفية التعامل مع سيدة، أليس كذلك؟».

توقفت عن الكلام وضربت على صدرها بيدها للتجشؤ وقالت:

- «معذرة! فلست في حالة طبيعية».

انحنت إلى الأمام وتقيأت على الأرض.

قالت وهي مغمضة العينين ومستندة إلى الخلف:

- «هذا أفضل.. أقول دائمًا عليك ألا تبقيه في معدتك، يجب إخراجه قبل أن يمر عليه وقتٌ طويل».

هدأت قليلًا ثم استدارت لتلقي عليه نظرة أخرى، وبدا أنها تميل إليه.. فأحاطته بذراعها وجذبته نحوها، فغمرت وجهه بأنفاسها المشبعة برائحة البيرة والقيء.

قالت:

- «ما اسمك يا عزيزي؟».

قال "ونستون":

- «سميث».

فقالت:

- «سميث؟ يا للعجب! اسمي سميث أيضًا. ثم أضافت بنبرة حانية.. قد أكون أمك».

قال "ونستون" في نفسه إنها يمكن أن تكون أمه فعلًا. فكانت في مثل عمرها وبنيتها، وإن كان طرأ عليها بعض التغيير بعد عشرين سنه أمضتها في معسكر الأشغال الشاقة.

لم يتحدث إليه أحدٌ غيرها، فكان المساجين العاديون يتجاهلون السجناء السياسيين إلى حدٍ يثير الدهشة، بل وكانوا يعاملونهم بنوعٍ من الازدراء واللامبالاة، وكان السجناء السياسيين دائمي الصمت.. يخشون التحدث مع أيٍ من المجرمين العاديين، كما كانوا أشد خشية من التحدث بعضهم البعض. فمرة واحدة استرق السمع إلى حديثٍ دار بين سجينتين حزبيتين فلم يفهم منه سوى أنه يدور حول ما يسمي بالغرفة (101) لكنه لم يدرك معنى ذلك. لعلهم أتو به إلى هنا قبل ساعتين أو ثلاث ساعات. لايزال الألم ينهش بطنه، لكنه كان يشتد حينًا ويخف حينًا آخر، فكان نطاق تفكيره يتسع أو يضيق تبعًا لذلك، فعندما يشتد عليه الألم كان لا يفكر إلا في الألم فقط ورغبته في الطعام، أما عندما يخف الألم فكان يتملكه الرعب. فقد مرت عليه لحظات كان يتخيل فيها ما سيحدث له بشكلٍ ملموس جدًا، إلى حدٍ جعل ضربات قلبه تتزايد وتتوقف أنفاسه. كان يتخيل الهراوات وهي

تحطم مرفقيه والأحذية ذات النعال الحديدية وهي تهشم ساقيه، كما تخيل نفسه وهو يُسحل على الأرض ويصرخ طالبًا الرحمة بعد تهشم أسنانه. لم يفكر في "جوليا" مطلقًا فلم يكن قادرًا على تركيز أفكاره عليها. لقد أحبها ولن يخونها! (ولكن هذا الحب كان مجرد حقيقة يعرفها كمعرفته مبادئ الرياضيات)، فلذلك لم يشعر بحب نحوها ولم يفكر فيما كان يحدث لها.. فكان يفكر في "أوبراين" أكثر منها.. بشيءٍ من الأمل، فلابد أن "أوبراين" علم بأمر اعتقاله. لكنه تذكر أن حركة «الأخوة» لا تنقذ أعضاءها، إلا أن يمكنهم أن يهربوا إليه شفرة الحلاقة ليضع بها حدًا لآلامه. وتصور أن خمس ثوانٍ تكفي لأن يمزق نفسه بالشفرة وببرودة حارقة، بل إن الأصابع الممسكة بالشفرة ستتقطع حتى العظام هي الأخرى قبل أن يندفع إليه الحراس لمنعه من ذلك. كان كل شيء يرتد إلى جسده المريض الذي كان يرتجف عند أدني قدر من الألم. لم يكن واثقًا من قدرته على استخدام الشفرة حتى إن أتيحت له الفرصة لاستخدامها، لقد كان من الطبيعي لديه أن يستمر على قيد الحياة من لحظةٍ لأخرى، وأن يقبل بعشر دقائق أخرى من الحياة حتى عندما يكون واثقًا من أن تعذيبها ينتظره عند نهايتها.

كان أحيانًا يحاول إحصاء عدد بلاطات الخزف الأبيض على جدران الزنزانة، وعلى الرغم من سهولة الأمر، إلا إنه لم يوفق في ذلك. وكان يفكر كثيرًا في مكان وجوده أو معرفة الوقت، أهو ليل أم نهار. فأحيانًا كان يشعر بأن ضوء النهار يملأ الكون خارج الزنزانة، وأحيانًا أخرى في نفس الوقت يشعر أن الظلام يخيم على العالم بالخارج. كان يعرف بغريزته أن الأنوار لا تطفأ أبدًا في هذا المكان. إنه المكان الذي لا ظلمة فيه، والآن فقط أدرك ما الذي جعل "أوبراين" يفهم تلميحه عن هذا المكان الذي لا ظلام فيه. ففي وزارة الحب لا يوجد نوافذ، وزنزانته ربما تكون في قلب البناية أو عند الحائط الخارجي، وقد تكون في الطابق العاشر تحت الأرض أو في الطابق الثلاثين فوق

الأرض. وانتقل "ونستون" بمخيلته من مكانٍ لآخر محاولًا أن يقرر بإحساسه ما إذا كانت زنزانته معلقة في الهواء أم مدفونة في الأعماق تحت الأرض.

سمع وقع أقدام في خارج الزنزانة، وانفتح الباب الفولاذي وكان له صرير، دخل من الباب ضابطٌ شاب ذو قامةٍ عالية، يرتدي ملابس سوداء لامعة من الجلد. أما وجهه الشاحب ذو الملامح الحادة فبدا أشبه بقناعٍ من الشمع. أشار للحراس في الخارج بأن يحضروا السجين الذي كان معهم. أدخلوه الزنزانة وهو يجرر قدميه، فكان الشاعر "إمبلفورث"، ثم غادروا وأغلقوا الباب خلفهم. قام "إمبلفورث" في التنقل بين أطراف الزنزانة.. وكأنه يبحث عن مخرج، وبعد ذلك أخد يتجول في الزنزانة ذهابًا وإيابًا ولم ينتبه إلى وجود "ونستون" رغم أن عينيه كانتا تحدقان في الجدار الذي يستند عليه "ونستون". كان "إمبلفورث" حافي القدمين، وكانت أصابع قدميه الكبيرة تخرج من جوربه المهترئ ولحيته الكثيفة تغطي وجهه مسبغة عليه منظرًا وحشيًا متماشيًا مع ضخامة جسده وحركاته العصبية.

تخلى "ونستون" عن سباته عازمًا على الحديث مع "إمبلفورث" مهما بلغت العواقب. فربما كان هو من يحمل إليه شفرة الحلاقة.

فناداه:

- «إمبلفورث».

لم تصدر أي صيحة من شاشة الرصد، توقف "إمبلفورث" وتركزت نظراته على "ونستون".

قال:

- «آه سميث. أنت أيضًا».
- «لماذا أتو بك إلى هنا؟».
- «في الحقيقة...».

قال ذلك وهو يجلس قلقًا على المقعد أمام "ونستون"، إنه جرمٌ واحدٌ لا غير.

- «هل ارتكبته؟».
- «يبدو كذلك».

وضع يده على جبينه ضاغطًا عليه، وكأنه يحاول تذكر شيئًا ما.

ثم قال بغموض:

- «إن مثل هذه الأشياء ممكنة الحدوث، فيمكنني أن أحدد لك حادثًا، فربما يكون هو سبب الإتيان بي إلى هنا، إنه بلا شك حماقة مني. فقد كنا نعمل في إنتاج قصائد كبلنج وتركت كلمة «الله» في نهاية أحد الأبيات، فكان يجب تركها للحفاظ على القافية».

وأضاف وهو ساخطًا:

- «فكان من المستحيل تغيير البيت الشعري، وقد حاولت التفكير في بديل على مدى أيام، لكن دون جدوى».

تغيرت تعابير وجهه.. غاب عنها الغضب وبدا عليه السرور للحظة. ظهر عليه نوع من الدفء الفكري، فرحة المتحذلق الذي اكتشف حقيقة لا قيمة لها.

واستكمل حديثه قائلًا:

- «هل خطر ببالك أن تاريخ اللغة الإنجليزية كله حددته حقيقة أن اللغة الإنجليزية تفتقر إلى القوافي والأوزان؟».

فلم يخطر ذلك السؤال على بال "ونستون" مطلقًا، فمن في ظروفه لا يهتم بذلك.

فسأله "ونستون":

- «هل تعرف في أي وقت من اليوم نحن الآن؟».

جفل "إمبلفورث" للحظة وقال:

- «قلّما فكرت في ذلك، إنني حتى لا أذكر منذ كم يوم تم اعتقالي؟ منذ يومين أم ثلاثة؟».

وراح ينتقل بعينيه بين جوانب الغرفة آملًا في أن يجد نافذة، ثم أضاف:

- «لا فرق بين الليل والنهار في هذا المكان، ولا أعرف كيف يمكن للمرء أن يُقدر الزمن فيه».

واستمر حديثهما لبضع دقائق، ودون سببٍ واضح صدر عن الشاشة صوت يأمرهم بالتزام الصمت... فعاد "ونستون" لسكونه وعقد ذراعيه حول ركبتيه. أما "إمبلفورث" فكان من الصعب عليه أن يجلس بارتياح على المقعد بسبب ضخامة بنيانه، وراح يتململ في جلسته ناقلًا يده من ركبته هذه إلى تلك. إلا أن صدر عن الشاشة صوتٌ يأمره بالسكون. مر وهما على هذه الحال عشرون دقيقة، ساعة.. من الصعب تقدير ذلك، ومن جديد سُمع صوت أحذية في الخارج، تقلصت أحشاء "ونستون". قريبًا، قريبًا جدًا.. ربما خلال خمس دقائق، ربما الآن سوف يكون معنى هذه الخطوات أن دوره قد حان.

فُتح الباب ليدخل منه الضابط الشاب ذو الوجه المتجهم. وقام بالإشارة إلى "إمبلفورث" قائلًا للحارث:

- «الغرفة101».

ونهض "إمبلفورث" ومشى مهرولًا بين يدي الحراس، وقدا بدا عليه الاضطراب.. رغم أنه لم يدرك ماذا يراد به.

ثم مضى الوقت طويلًا على "ونستون". وعاوده ألم معدته. وبدأت أفكاره تدور في حلقة مفرغة، فلم يفكر إلا في ستة أمور ألا وهي: ألم معدته، كسرة الخبز التي في جيبه، الدم والصراخ، "أوبراين"، "جوليا"، وأخيرًا شفرة الحلاقة. تقلصت أحشاؤه من جديد عندما سمع وقع الأقدام يقترب، وعندما انفتح الباب.. هبت موجة باردة من العرق. دخل "بارسونز" الزنزانة. كان مرتديًا بنطلونه الكاكي القصير وقميصه الرياضي.

نسي "ونستون" نفسه من المفاجأة وقال مشدوهًا:

- «أنت هنا؟!».

ألفى "بارسونز" على "ونستون" لا اهتمام فيها، ولا حتى مفاجأة. بل بؤس فقط! راح يمشي في الزنزانة جيئة وذهابًا بخطوات متقافزة. كان من الواضح أنه لا يستطيع البقاء ساكنًا. وكان ارتجاف ركبتيه السمينتين يظهر كلما استقامت ساقه. كانت عيناه مفتوحتين واسعتين، كأنه لم يستطع منع نفسه من التحديق في شيءٍ غير بعيد كثيرًا عنه.

قال "ونستون":

- «لما أتو بك إلى هنا؟».

فقال "بارسونز" منتحبًا:

- «جريمة فكر».

كانت نبرة صوته توحي بإقرارٍ كامل بارتكابه الجريمة، وبرعبٍ يسيطر عليه كلما تذكر أنه وقع تحت طائلة هذا الاتهام، ثم وقف أمام "ونستون" وكأنه يحتكم إليه:

- «أتظن أنهم سيطلقون عليّ الرصاص؟ هل تظن هذا يا صديقي؟ إنهم لا يطلقون النار عليك إذا لم تكن فعلت شيئًا حقًا.. إنها مجرد أفكار، أفكار لا يستطيع المرء منع نفسه عنها، أعرف أنهم يمنحون المرء محاكمة منصفة. نعم إنني أثق فيهم في هذا الأمر. سوف يطلعون على سجلي، أليس كذلك؟ أنت تعرف أي رجل كنته. لم أكن شخصًا سيئًا، لست ذكيًا بطبيعة الحال، لكنني مخلص، لقد بذلت قصارى جهدي من أجل الحزب.. ألم أفعل ذلك؟ سوف أنا خمس سنوات، ألا تظن ذلك؟ بل ربما عشر سنوات؟ من الممكن أن شخصًا مثلي يجعل نفسه مفيدًا تمامًا في معسكر العمل.. ولن يطلقون النار عليّ لأنني ضللت سواء السبيل مرة واحدة فقط».

قال "ونستون":

- «هل أنت مذنب؟».

فأجابه "بارسونز" باكيًا وهو ينظر إلى الشاشة بخضوع:

- «مذنب بالطبع. وهل تظن أن الحزب يعتقل شخصًا بريئًا؟».

وهنا بدا وجهه الشبيه بالضفدع أكثر هدوءًا، بل وارتسمت عليه علامات الاستقامة الزائفة، ثم أردف متأثرًا:

- «إن جريمة الفكر جريمة شنيعة، إنها غادرة، فتوقع بك دون أن تشعر. أتدري كيف أوقعت بي؟ أثناء نومي! نعم أثناء نومي. لقد كنت أؤدي عملي بنشاط، ولم يخطر ببالي قط أن مثل هذه الأفكار السوداء تختبئ في عقلي الباطن. ثم رحت أتكلم في نومي. هل تعرف ماذا سمعوني أقول؟ خفض صوته مثلما يفعل من يكون مضطرًا للتلفظ بألفاظ نابية.. قلت: «يسقط الأخ الأكبر»، نعم لقد قلتها ورددتها على ما يبدو. بيني وبينك يا صديقي فأنا سعيد لأنهم اعتقلوني قبل أن أمضي إلى ما يتجاوز ذلك. هل تدري ما أنتوي قوله عندما أمتثل أمام المحكمة؟ سأقول لهم شكرًا، أشكركم أنكم أنقذتموني قبل أن يفوت الأوان».

قال "ونستون":

- «من الذي وشي بك؟».

قال "بارسونز" بنبرةٍ حزينة متفاخرة:

- «ابنتي الصغيرة، لقد سمعتني من ثقب الباب وهي تسترق السمع. فقامت بإبلاغ الدوريات في اليوم التالي. إنها ذكية رغم عدم تجاوزها السابعة. لست ناقمًا عليها بل إنني فخورٌ بها. فهذا دليل على أنني أنشأتها على الروح القويمة وغرست فيها الولاء».

ثم بدا مضطربًا.. فتارة يقف وأخرى يجلس وهو يمد بصره نحو المرحاض ثم خلع سرواله فجأة وهو يقول:

- «معذرة أيها العجوز لم أحتمل الانتظار أكثر من ذلك!».

ألقى بمؤخرته على المرحاض، فغطى "ونستون" وجهه بيديه، إلا أن صوتًا أنبعث من الشاشة:

- «سميث ونستون، سميث6079 أكشف عن وجهك، فهذا غير مسموح به في الزنزانة».

فكشف "ونستون" عن وجهه، ولكنه انتبه بعد أن أفرغ "ونستون" ما في أحشائه وبصورة فجة تثير الاشمئزاز أن بلوعة المرحاض لا تعمل، مما جعل الزنزانة تغض برائحة بغيضة ونتنة لساعات.

وأخيرًا ذهب "بارسونز"، فالكثير من السجناء يجيئون ويذهبون دون أن يشعر بما آل إليه مصيرهم، ومنهم امرأة استدعيت إلى الغرفة101 فشحب لونها، وارتعدت فرائسها لسماعها ذلك. مر الوقت.. ويجب أن يكون صار بعد الظهر إذا كانوا أتو به إلى هذا المكان ليلًا، أو أنهم أتو به في الصبح فصار الوقت منصف الليل الآن. كان في الزنزانة ستة سجناء رجال ونساء جلسوا جميعًا في صمتٍ تام بلا حراك. وكان يجلس قبالة "ونستون" رجلٌ أشبه بحيوانٍ زاحف له أسنانٌ بارزة وبلا ذقن، كما كانت أوداجه منتفخة كما لو أنه يحتجز بعض الطعام في فمه، وكان ينتقل بعينيه بين السجناء خلسة، حتى إذا التقت عيناه بعيني أحدٍ منهم فيشيح بوجهه سريعًا.

فُتح الباب مرة أخرى وأتوا بسجينٍ آخر أطلق مظهره القشعريرة في جسد "ونستون"، كان شخصًا عاديًا مظهرة مزرٍ، يمكن أن يكون مهندسًا أو فنيًا من نوعٍ ما، لكن وجهه كان نحيلًا بشكلٍ مخيف. كان يشبه الجمجمة، كما بدا أن فمه وعينيه غير متناسبين مع باقي وجهه، وبدت عيناه مليئتين بكرهٍ قاتل لا يهدأ، يضمره لشخص أو شيءٍ ما.

جلس الرجل على المقعد بالقرب من "ونستون"، لكن لم يتطلع إليه "ونستون" مرة ثانية، وإن كان وجهه المعذب الأشبه بالجمجمة قد انطبع في مخيلته، وكأنه يقف أمام عينيه مباشرة. وفجأة أدرك "ونستون" السر وراء هذا النحول، لقد كان الرجل يتضور جوعًا. ويبدو أن جميع السجناء في

الزنزانة قد فهموا ذلك في الوقت نفسه. وبدت علامات التململ الطفيف على امتداد المقعد المثبت على الجدار. فظلت عينا الرجل حليق ذقن تحملقان في الرجل ذي الوجه الشبيه بالجمجمة، ثم تشيحان بعيدًا عنه شاعرتين بالذنب، ثم تعودان إليه وكأن شيئًا يجذبهما إليه، ولا تستطيعان مقاومته. وسرعان ما بدا يململ في جلسته، ثم نهض واجتاز الزنزانة بخطى مضطربة، ودس يده في جيبه ليخرج كسرة خبز قدمها إلى الرجل ذي الوجه الشبيه بالجمجمة بشيءٍ من الارتباك.

وسريعًا ما انبعث زئيرٌ غاضب يصم الآذان من شاشة الرصد، فقز الرجل منتفخ الأوداج عائدًا إلى مكانه، في حين كان الرجل ذو الوجه الشبيه بالجمجمة قد سحب يده ووضعها خلف ظهره، وكأنه يريد أن يري العالم أنه رفض ما قُدم له.

فزأر الصوت:

- «بامستيد! بامستيد رقم 2713، اترك كسرة الخبز تسقط على الأرض».

فانصاع الرجل للأمر وترك كسرة الخبز تسقط على الأرض.

وصاح الصوت مرة أخرى:

- «اثبت مكانك، وانظر نحو الباب ولا تتحرك».

أطاع الرجل الأوامر مرة أخرى.. وكانت أوداجه ترتجف من الفزع. انفتح الباب، دخل الضابط الشاب ثم تنحى جانبًا، فظهر حارس قصير مكين له ذراعان وكتفان هائلان. وقف الحارس أمام الرجل حليق الذقن، وبإشارة من الضابط سدد إليه ضربة مخيفة، صب قوته كلها فيها فأصابه في وجهه مباشرة. بدا أن قوة الضربة قد اقتلعت الرجل من على الأرض.. تطوح جسده عبر الزنزانة، ثم اصطدم بقاعدة المرحاض، ظل راقدًا برهة وكأنه مصعوق، بينما كان فمه وأنفه ينزفان، ولم يصدر عنه سوى أنينًا خافتًا يبدو أنه لا يشعر بهما. ثم تدحرج حتى رفع نفسه من الأرض مستندًا على يديه وركبتيه.

ووسط دمه النازف ولعابه السائل رأى "ونستون" فكي الرجل يرتطمان بالأرض.

ظل السجناء جالسين في سكونٍ تام، كانت أيديهم معقودة على ركبهم، وعاد الرجل حليق الذقن إلى مكانه في المقعد من جديد، وقد تورم والتهب أحد صدغيه حتى أصبح أشبه بكتلة هلامية بلون الكرز مع فتحة سوداء في منتصفها. كان الدم يسيل فوق الأفرول الخاص به من حينٍ لآخر. وظلت عيناه الرماديتان تتنقلان من وجهٍ لآخر، وفيها إحساس بالذنب أكثر من ذي قبل، كما لو أنه يحاول اكتشاف مقدار ازدراء الآخرين له بعد هذا الإذلال.

انفتح الباب مرة أخرى، وأشار الضابط إلى السجين ذي الوجه الشبيه بالجمجمة قائلًا:

- «إلى الغرفة 101».

صدر عن "ونستون" شهقة، وبدا عليه الاضطراب وخر السجين راكعًا على ركبتيه، ويداه مضمومتان إلى صدره وراح يصرخ متوسلًا:

- «أيها الرفيق.. أيها الضابط.. أتوسل إليك ألا تأخذني إلى ذلك المكان. فقد اعترفت بكل شيء، ماذا تريدون معرفته غير ذلك؟ فلم يعد لدي ما أعترف به. قل لي بماذا تريدني أن أعترف وأنا مستعد لأي اعتراف على الفور، أو اكتب الاعتراف وأنا سأوقع عليه حالًا.. لكن لا تأخذني إلى الغرفة 101».

قال الضابط:

- «الغرفة101».

لاحظ "ونستون" أن وجه الرجل الشاحب قد تحول إلى اللون الأخضر بشكل لا يصدق.

راح السجين يصيح متوسلًا:

- «افعلوا بي ما شئتم، أنتم تجوعونني منذ أسابيع، اقتلوني، أطلقوا عليّ الرصاص، أشنقوني، احكموا عليّ بالسجن

خمسة وعشرين عامًا، هل تريدون أن أشي بشخصٍ آخر؟ قولوا اسمه فقط، وسوف أقول لكم أي شيء تريدون سماعه. فلا أبالي بمن يكون أو بما قد تفعلوه به. إن لدي زوجة وثلاثة أطفال أكبرهم لم يبلغ السادسة، يمكنكم أخذهم جميعًا وذبحهم أمام عيني وسوف أقف متفرجًا عليهم، لكن لا تأخذوني إلى الغرفة101».

قال الضابط مكررًا:

- «إلى الغرفة 101».

تلفت الرجل حوله بجنونٍ وأخذ يتطلع في السجناء الآخرين، وكأنه يفكر في وضع ضحية أخرى مكانه، واستقرت عيناه على الرجل ذي الأوداج المنتفخة، فمد ذراعه النحيل تجاهه صائحًا:

- «هذا هو الذي يجب أن تأخذوه.. إنكم لم تسمعوا ما كان يقوله بعدما هشمت الضربة أسنانه، امنحوني الفرصة لأقول لكم كل كلمة قالها. إنه الشخص الذي يقف ضد الحزب وليس أنا».

تقدم الحراس نحوه، فارتفع صوته حتى صار عويلًا:

- «إنكم لم تسمعوا ما قاله، لقد حدث شيءٌ ما للشاشة، إنه الشخص الذي تريدونه، خذوه هو، واتركوني».

انحنى حارسان ليسحباه من ذراعيه، ولكنه انبطح أرضًا وأحكم قبضته على أحد القوائم الحديدية للمقعد، وأصدر عويلًا دون كلمات كحيوان. أمسك به الحارسان وحاولا أن يجعلاه يفك قبضته عن المقعد، لكنه تشبث به بقوة مدهشة. أما السجناء الآخرون كان ينظرون أمامهم دون التفات، توقف عويل الرجل. فلم تعد لديه طاقة إلا للتشبث بالقائم الحديدي. ثم دوت صرخة مختلفة. لقد كسرت ركلة من حذاء أحد الحارسين أصابع إحدى يديه، أوقفاه على قدميه وجرجراه إلى الخارج.

فقال الضابط:

- «إلى الغرفة 101».

سار معهم الرجل منكس الرأس، يترنح وهو ممسك بيده المسحوقة وقد استسلم تمامًا.

مر وقتٌ طويلٌ. إن كانوا قد أخذو الرجل ذا الوجه الشبيه بالجمجمة منتصف الليل، فقد حل الصباح الآن. وإن كانوا أخذوه في الصباح فقد حل بعد الظهر الآن. كان "ونستون" وحيدًا، وقد مضى عدة ساعات وحيدًا، كان الألم الذي سببه له الجلوس طويلًا على المقعد شديدًا لدرجة جعلته يُكثر القيام والمشي في الزنزانة، دون أي اعتراض من الشاشة.

كانت كسرة الخبز الذي ألقى بها الرجل ذي الأوداج المنتفخة ما زالت مكانها.. في البداية كانت تحرضه نفسه على التقاطها، لكنه كان يقاوم ذلك، أما الآن فقد اشتد عليه العطش وصار فمه لزجًا وكريه الرائحة، وقد أصابه الطنين المستمر والضوء الأبيض الذي لا ينطفئ، بدوارٍ أحس أن رأسه قد أصبح مجوفًا، وكان ينهض كلما اشتد عليه ألم عظامه، ثم يعاود الجلوس سريعا بسبب الدوار الذي جعله غير متأكد إن كانت قدماه ستحملانه أم لا. فكان يداعبه الأمل عندما يفكر في "أوبراين" أو في شفرة الحلاقة، كان يعتقد أنهم سيهربون له الشفرة في الطعام، إن كانوا سيقدمون له الطعام. وقليلًا ما كان يفكر في "جوليا"، فلابد أنها تُعذب في مكانٍ ما، وربما كان عذابها مضاعف، بل ربما تكون تصرخ من الألم المبرح الذي تشعر به في هذه اللحظة.. وقال في نفسه: «لو استطعت إنقاذ "جوليا" بمضاعفة ألمي، فهل كنت أفعلها؟ نعم كنت أقبل». لكنه كان قرارًا ذهنيًا فقط اتخذه لأنه يرتكز أن عليه اتخاذه. قرارًا لم يحسه. ففي المقام الأول لا يملك المرء أن يشعر بشيءٍ سوى الألم أو انتظار الألم. ثم هل من الممكن أن يرغب المرء في أن يزداد له ألمه وهو يُعذب لأي سببٍ من الأسباب؟ لكنه لم يتوصل بعد لإجابة هذا السؤال.

سمع "ونستون" وقع الأقدام مرة أخرى وكانت تقترب من الزنزانة، وفُتح الباب ودخل "أوبراين"».

هب "ونستون" واقفًا على قدميه عندما رآه، فقد كانت مفاجئة شديدة جعلته ينسى وجود شاشة الرصد وصاح:

- «حتى أنت وقعت في قبضتهم».

فقال "أوبراين" بسخرية:

- «لقد وقعت في قبضتهم منذ زمنٍ بعيد».

وتنحى جانبًا ليظهر من خلفه حارس عريض المنكبين يمسك هراوة طويلة سوداء في يده.

وقال "أوبراين":

- «لقد كنت تعرف مصيرك، فلا تخدع نفسك، فكنت تعرف ذلك دائمًا».

والآن أدرك "ونستون" كل شيء.. لكن لا فائدة من التفكير في ذلك. وفي هذه اللحظان لم ير من العالم سوى الهراوة بيد الحارس الذي قد يهوي بها على أي مكانٍ في جسده، على رأسه، أو صوان أذنه، أو على ذراعه، أو على مرفقه..

فقد هوى بها على مرفقه، فخر "ونستون" على ركبتيه وكاد أن يفقد صوابه، وقد أمسك مرفقه باليد الأخرى، وبدا له كل شيء باللون الأصفر. فلم يكن يصدق أن ضربة واحدة يمكن أن تسبب له هذا الألم الشديد. أفاق قليلًا وزال اللون الأصفر، فلاحظ أن الحارسين ينظران إليه بازدراء، وكان الحارس يضحك من تلويه على الأرض، وهنا فقط اتضحت إجابة السؤال! فلا يمكن لأي سبب من الأسباب أن يتمنى المرء زيادة الألم، فشيئًا واحدًا فقط هو ما يستطيع المرء أن يتمناه إزاء الألم، وهو أن يتوقف.. لا شيء في العالم أسوأ من الألم الجسدي. لا بطولة في مواجهة الألم ولا أبطال، هذا ما كان يفكر فيه وهو يتلوى ألمًا على الأرض ممسكًا بذراعه اليسرى التي أعجزتها الضربة.

الفصل الثاني

أفاق "ونستون" فوجد نفسه مستلقيًا على سريرٍ يشبه أسِرة المعسكرات، ولكنه كان أكثر ارتفاعًا، وكان مقيد الأطراف حتى لا يستطيع الحركة، وضوءٌ مسلطٌ عليه، وكان أكثر سطوعًا من المعتاد. كان "أوبراين" يقف بجانبه ناظرًا إليه باهتمام، وفي الناحية الأخرى يقف رجلٌ برداءٍ أبيض، حاملًا في يده حقنة.

لم يع "ونستون" ما حوله إلا تدريجيًا، كان يشعر وكأنه يسبح صاعدًا إلى فضاء هذه الغرفة قادمًا من عالمٍ آخر، من أعماق مياه سحيقة تحتها، أما بالنسبة لِكَم مر عليه من وقت فهذا أمرٌ يجهله تمامًا، فلم يعد ير ليلًا ولا نهار منذ أن تم اعتقاله، بالإضافة إلى ذلك كانت ذاكرته متقطعة، فكثيرًا ما كان يُصاب وعيه بالشلل التام، بما في ذلك الوعي الذي قد ينتاب المرء في نومه، ثم يدب فيه الوعي من جديد بعد فاصل زمني ما. ولكن هل كان يستمر هذا الفاصل لأيام أم لأسابيع أم لمجرد ثوانٍ، فهذا الأمر لم يستطع إدراكه.

كانت تلك الضربة التي تلقاها على مرفقه هي بداية الكابوس الذي سيخوضه، وقد أدرك ان تلك الضربة ما هي إلا تمهيدًا واستجوابًا عاديًا يمر به كل السجناء. فهناك سلسلة طويلة من جرائم التجسس والتخريب وما يشبه ذلك. لابد أن يعترف بها كل السجناء، فكانت الاعترافات أمرًا شكليًا، لكن التعذيب كان أمرًا حقيقيًا. وكان قادرًا على تذكر عدد المرات التي تعرض فيها للضرب، وكم استمر ذلك الضرب، كان ثمة خمسة أو ستة رجال بملابسٍ سوداء ينهالون عليه معًا، أحيانًا بقبضاتهم وأحيانًا أخرى بهراوات، وبقضبانٍ حديدية وبالأحذية، مرت عليه أوقات كان يتدحرج على الأرض وكأنه حيوانٌ يتلوى بجسده لتفادي الضرب لكن دون جدوى، وكان ذلك يدفعهم لمزيدٍ من الضرب على ضلوعه وبطنه، ومرفقيه وساقيه، وخصيتيه وعموده الفقري، وكثيرًا ما كان يشعر أن ما يؤلمه ليس شدة الضرب، وإنما

عجزه عن أن يفقد وعيه.. وأحيانًا أخرى كانت تخذله شجاعته فيبكي طالبًا الرحمة، حتى قبل أن يبدأ الضرب.. فكانت مجرد رؤيته لاستعدادهم لتوجيه الضرب إليه كان كافيًا لجعله يعترف بجرائم حقيقية أو خيالية، وأحيانًا ما كانت تمر أوقات أخرى يكون مصممًا في بدايته على ألا يعترف بشيء ولا تخرج منه كلمة إلا شهقة الألم، وفي أوقات أخرى كانت يتخلى عن عزمه هذا تحت تأثير الضرب وهو يقول لنفسه: «سوف أعترف، ولكن ليس الآن، يجب أن أتحمل الألم حتى يصبح الألم غير محتمل، ثلاث ضربات أخرى، ضربتان أخريان وسوف أعترف لهم بكل ما يريدون». وأحيانًا كان يُضرب حتى تعجز ساقه عن حمله، فيرتمي فوق أرضية الزنزانة ككيس بطاطس، ثم يُترك لبضع ساعات ليستريح من أثر الضرب ليعودوا لتعذيبه من جديد. وكان هناك أيضًا فترات نقاهة أطول، لكنه لم يكن يتذكرها لأنه كان يقضيها نائمًا أو فاقدًا للوعي، فهو يذكر زنزانته.. فكانت لا تضم إلا سريرًا خشبي ورفًا بارزًا من أحد حوائطها، وحوض غسيل من القصدير ووجبات من الحساء والخبز مصحوبة أحيانًا بالقهوة، ويتذكر حلاقًا فظًا كان يأتي فيحلق ذهنه ويقص شعره، ورجالًا غلاظ القلوب بثياب بيض كانوا يقيسون له النبض ويفحصون أعصابه، ويفتحون عينيه ويمررون أصابعهم الخشنة على جسده بحثًا عن كسورٍ في عظامه ثم يحقنونه بإبر لكي ينام.

قلت وتيرة عمليات التعذيب التي يخضع لها، حتى أصبحت مصدر رعب وتهديد أصبح رعبًا يُهدد بإعادته إليه في أي لحظة عندما تكون إجابته غير مُرضية. لم يعد يستجوبه الآن الأشرار في ملابس سود، إنما رجال من مثقفي الحزب، رجال صغار الحجم لهم حركات سريعة ونظارات لامعة، كانوا يتناوبون العمل عليه فيستمر استجوابهم له في المرة الواحدة عشر أو اثنتي عشرة ساعة. وكان هؤلاء المحققون الأخيرون يعرّضونه لألمٍ خفيفٍ متواصل، لأنهم لم يعتمدوا على الألم كوسيلة رئيسية لانتزاع الاعترافات. فكانوا يصفعونه على وجهه ويلوون أذنيه ويشدون شعره ويرغمونه على

الوقوف على ساقٍ واحدة، ولا يسمحون له بقضاء حاجته، ويسلطون أضواء قوية على عينيه حتى تدمع، لكن هدفهم من كل ذلك لم يكن إلا إذلاله وتحطيم قدرته على الجدال والمناقشة. وكان الاستجواب المتواصل هو سلاحهم الفعلي، فكان استجوابًا لا رحمة فيه ولا هوادة، فكانوا يبدلون أقواله عن مواضعها ويحورونها وينصبون له الفخاخ في كل سؤال، ويمسكون عليه كل ما يظهر أنه أكاذيب أو تناقضات في أقواله حتى أنه كان ينخرط في بكاءٍ شديدٍ لشعوره بالخزي كما من شعوره بالإجهاد العصبي. وأحيانًا ما كان يبكي عشرات المرات في جلسة التحقيق الواحدة، وفي معظم الأوقات كانوا يشتمونه بأبشع الألفاظ ويهددونه في كل مرة تبدو عليه علامات التلكؤ في إجابته، بأنهم سيسلمونه إلى الحراس مرة ثانية، لكنهم كانوا في أحيانٍ أخرى يغيرون لهجتهم فجأة وينادونه بالرفيق ويناشدونه باسم الاشتراكية الإنجليزية والأخ الأكبر، ويسألونه وعلى وجوههم مظاهر الأسف، إذا كان لديه ولاءٌ للحزب ما يكفي لجعله يتوب عما بدر عنه من آثام إزاء الحزب. وعندما كانت أعصابه تنهار وتتمزق بسبب طول التحقيق، كان مجرد مناشدتهم له بمثل هذه الكلمات تجعله ينخرط في بكاءٍ حار، وفي النهاية صارت هذه الأصوات المناكدة أكثر تحطيمًا له من أحذية الحراس وقبضاتهم، لقد أصبح عبارة عن فمٍ ينطق ويدٍ توقع على كل ما هو مطلوب منه، وصار همه متركزًا على اكتشاف ما يريدون منه الاعتراف به، ثم الاعتراف به سريعًا قبل أن يبدأ إيذاؤه من جديد. فقد اعترف باغتيال عدد من أعضاء الحزب البارزين وتوزيع المنشورات التي تحرض على الفتنة واختلاس الأموال العامة، وبيع أسرار عسكرية واعتراف بالاشتراك في عمليات التخريب بجميع أنواعها، وأنه كان عميلًا مأجورًا لحكومة «إستاسيا» منذ عام 1968، وبأنه كان مؤمنًا بالله ومعجبًا بالرأسمالية، وبأنه قد انزلق إلى الشذوذ الجنسي، كما أقر بقتل زوجته على الرغم من أنه يعرف كما يعرف المحققون أنها لا تزال على قيد الحياة. واعترف أيضًا بأنه ظل لسنواتٍ على اتصالٍ شخصي مع

"غولدشتاين"، وبأنه كان عضوًا بمنظمة سرية تضم كل الأشخاص الذين يعرفهم. لقد كان من الأسهل عليه أن يعترف بكل شيء وأن يورط كل شخص يعرفه، أضف إلى ذلك أن ما قاله كان صحيحًا من زاويةٍ ما، فقد كان معاديًا للحزب ومن وجهة نظر الحزب، لا فرق بين التفكير في الإثم وبين ارتكابه.

كانت لديه أيضًا ذكرياتٌ من نوعٍ آخر، ذكريات قائمة من غير اتصال بينها، كصورٍ يحيطها السواد من كل ناحية، فيذكر أنه كان جالسًا في زنزانته لا يعرف إن كانت مظلمة أو مضيئة، لأنه لم يكن يستطيع أن يميز فيها شيئًا غير زوجين من الأعين وعلى مقربة منه.. كانت هناك آلة تدق دقاتٍ بطيئة ومنتظمة، وكانت العينان تتسعان وتزدادان بريقًا، وفجأة أحس بأنه طار من مقعده وغاص في هاتين العينين اللتين ابتلعتاه.

كان مقيدًا في كرسي ومحاطًا بلوحاتٍ ذات مؤشراتٍ تحت أضواءٍ ساطعة، وكان رجلٌ بثيابٍ بيضاء يقرأ هذه المؤشرات. سُمع وقع أقدام في الخارج.. انفتح الباب، دخل الضابط ذو الوجه الشمعي وخلفه اثنان من الحراس.

قال الضابط:

- «الغرفة 101».

لم يلتفت إليه الرجل ذو الرداء الأبيض، ولم ينظر أيضًا إلى "ونستون" فكان ينظر في المؤشرات فقط.. وكان من ذكرياته أيضًا أنه كان يتدحرج في ممرٍ طويلٍ فسيح، مليء بأضواءٍ ساطعة وتتعالى فيه الضحكات، وكان يصيح أثناء التعذيب يصيح بأعلى صوته معترفًا بكل شيء، بما في ذلك.. تلك الأشياء التي نجح في إخفائها تحت التعذيب، كان يروي قصة حياته كاملة أمام جمهورٍ من المستمعين يعرف تلك القصة أصلًا. وكان معه الحارسان وبقية المستجوبين والرجال ذي الثياب البيضاء، و"أوبراين"، و"جوليا"، والسيد "شارنغتون"، كانوا جميعهم يرافقونه عبر الممر وهم يطلقون الضحكات، لقد كان هناك شيء مخيف يحمله له المستقبل، لكن ذلك الشيء لم يعد له

وجود ومن ثم لن يحدث، إذ أصبح كل شيء على ما يرام، فلم يعد هناك مزيد من الألم بعد أن كشف لهم تفاصيل حياته التي فهموها فغفروا له.

كان ينظر للأعلى راقدًا على سريرٍ خشبيٍ شبه واثق من أنه قد سمع صوت "أوبراين". كان طوال فترة الاستجواب لديه شعور أن "أوبراين" كان لا يزال واقفًا عند مرفقه، خارج مجال رؤيته، رغم إنه لم يره أبدًا. كان "أوبراين" هو من يدير كل شيء، كان يطلق الحراس على "ونستون" وهو الذي يمنعهم من قتله كما كان هو الذي يقرر متى يجب أن يصرخ "ونستون" ألمًا، ومتى يجب أن يأخذ قسطًا من الراحة، ومتى يجب إطعامه، ومتى يجب أن ينام، ومتى يجب حقنه في ذراعه بالأدوية، كان هو الذي يطرح الأسئلة ويوحي إليه بالإجابات. كان هو المعذب والحامي، كان هو المستجوب والصديق. وذات مرة سمع "ونستون" صوتًا لا يذكر هل أتاه ذلك الصوت خلال تخديره أم أثناء نومه العادي، أو حتى في لحظة يقظة كاملة، صوتًا يهمس في أذنه قائلًا:

- «لا تخف يا "ونستون" أنت تحت رعايتي، فأنا أحيطك برعايتي منذ سبع سنوات، والآن قد حانت اللحظة الحاسمة، سوف أنقذك وسأجعلك نموذجًا يُحتذى به».

لم يتأكد "ونستون" من أن هذا الصوت هو صوت "أوبراين"، ولكنه كان نفس الصوت الذي سمعه في الحلم يقول له:

- «سوف نلتقي في مكانٍ لا ظلمة فيه».

لم يستطع "ونستون" أن يتذكر متى بدأ استجوابه أو متى ينتهي، مرت فترة من الظلمة، ثم أتت الزنزانة، أو الغرفة حيث يمدد الآن على سرير. كان ممددًا على ظهره وغير قادر على الحركة، كان جسده مثبتًا على السرير عند كل مفصل من مفاصله، بل حتى رأسه كان مثبتًا. وكان "أوبراين" ينظر إليه نظرة حزينة بعض الشيء، فكان وجهه الذي رآه "ونستون" من الأسفل يبدو خشنًا ويبدو عليه الإرهاق.. كما توجد انتفاخات تحت عينيه، وتمتد التجاعيد فيما بين الأنف والذقن توحي بالإعياء. كان "أوبراين" أكبر سنًا مما

كان يظنه "ونستون"، ربما كان في الثامنة والأربعين أو الخمسين، وتحت يده ذلك القرص الذي يتصل به ذراع وحوله أرقام.

قال "أوبراين":

- «لقد قلت لك إننا إذا التقينا ثانية فسيكون لقاؤنا هنا».

فأجاب "ونستون":

- «أجل».

ومن غير أي إنذار سوى حركة خفيفة من يد "أوبراين" غمرت موجة ألم جسد "ونستون"، كان ألمًا مخيفًا، لم يفهم ماذا يحدث له، ومع ذلك كان يشعر أنه يتعرض لأذى مميت، ولم يكن "ونستون" يعلم إن كان ما يحدث له حقيقيًا أم غير حقيقي، إلا أن جسده كان يتلوى ومفاصله كانت تتمزق ببطء، ومع أن العرق كان يتفصد من جبينه إلا إنه كان يخشى أن ينقصم عموده الفقري، كما كان يصر على أسنانه ويتنفس من أنفه بصعوبةٍ بالغة محاولًا التزام الصمت قدر المستطاع.

قال "أوبراين" وهو يراقب وجهه:

- «لعلك تخشى أن يتحطم جزء من جسمك بعد لحظات، ولا بد أن تخوفك يتركز على عمودك الفقري، وتخيل الفقرات وهي تتفكك وينسكب منها النخاع، إن هذا ما تظنه واقعًا، أليس كذلك يا "ونستون"؟».

لم يُجب "ونستون"، أرجع "أوبراين" المفتاح الذي على القرص المرقم، فتراجعت موجة الألم بسرعة تعادل سرعة مجيئها تقريبًا.

قال "أوبراين":

- «هذه كانت أربعون، وأن ترى الأرقام على القرص تصل إلى مائة. عليك أن تتذكر خلال حديثنا أنني قادر على إلحاق الألم بك بأي طريقة، أو حتى إذا بدا ذكاؤك أقل من مستواه الحقيقي فسوف تصيح ألمًا على الفور. هل تفهم ذلك؟».

قال "ونستون":

- «أجل».

صارت هيئة "أوبراين" أقل قساوة. صحح وضع نظارته على عينيه بعناية، وخطا خطوة أو خطوتين في الغرفة. وعندما تكلم من جديد كان صوته لطيفًا صبورًا. كانت له هيئة طبيب أو معلم أو حتى كاهن حريص على الشرح والإقناع بدلًا من العقاب.

قال:

- «إنني أتعب نفسي معك لأنك تستحق العناء، أنت تعرف مشكلتك تمامًا.. أنت تعرفها منذ سنوات، لكنك رفضتها. أنت مختلٌ عقليًا، وتعاني من فقدانٍ بالذاكرة، ولا تستطيع تذكر الأحداث الحقيقية، ومع ذلك توهم نفسك أنك تذكر أحداثًا أخرى على الرغم من أنها لم تحدث، ولحسن حظك فهذا المرض يمكن شفاؤه، فأنت لم تحاول أن تعالج نفسك لأنك لا تريد ذلك، بل ولم يكن لديك استعداد لبذل أي جهد في سبيل ذلك، وإنني على يقين بأنك متمسك بمرضك هذا حتى هذه اللحظة معتبره فضيلة. وسأضرب لك مثلًا الآن: "في اللحظة الراهنة مع أي دولة تتحارب أوقيانيا؟»".

فأجاب "ونستون":

- «عند اعتقالي كانت أوقيانيا في حالة حرب مع إستاسيا».

- حسنًا.. وكانت أوقيانيا في حالة حرب دائمة مع إستاسيا، أليس كذلك؟».

أخد "ونستون" نفسًا عميقًا، وفتح فمه لكنه لم ينطق بشيء، فلم يستطع رفع عينيه عن القرص.

- «الحقيقة لو سمحت يا "ونستون"، الحقيقة التي تؤمن بها، قل ما تذكره».

- «أذكر أنه قبل أسبوعٍ واحدٍ من اعتقالي، لم نكن في حالة حرب مع إستاسيا على الإطلاق، وإنما كنا في تحالف معها، وأن رحى الحرب كانت تدور بيننا وبين «أوراسيا»، وقد استمر ذلك لأربع سنوات، لكن قبل ذلك...».

وهنا استوقفه "أوبراين" بإشارةٍ من يده..

- «مثال آخر.. منذ بضع سنوات، كان لديك وهم خطير جدًا في الحقيقة. لقد كان الرجال الثلاثة وهم "جونز، وآرونسون، ورادرفورد"، الذين كانوا من أعضاء الحزب ثم تم إعدامهم جزاء الخيانة والأعمال التخريبية التي ارتكبوها بعد إدلائهم باعترافاتٍ كاملة، لم يرتكبوا أيًا من هذه الجرائم، وكنت تؤمن بأنك حصلت على الدليل الدامغ الذي يثبت أن كل اعترافاتهم كانت غير حقيقية، وفي ذهنك صورة توهمت أنك قد أمسكت بها في يدك. إنها صورة تشبه ذلك».

وأبرز "أوبراين" أمام عيني "ونستون" قصاصة من جريدة لثوانٍ..

كانت صورة لا مجال للشك في هويتها، كانت هي الصورة نفسها. كانت نسخة أخرى من صورة "جونز، وآرونسون، ورادرفورد" في اجتماع الحزب في نيويورك. الصورة التي رآها منذ أحد عشر عامًا فأحرقها على الفور، ظلت هذه الصورة أمامه للحظة، ثم غابت عنه، ولكنه قد رآها لا شك في ذلك! بذل جهدًا معذبًا يائسًا حتى يحرر النصف الأعلى من جسده. كانت الحركة مسافة سنتيمتر واحد في أي اتجاه أمرًا مستحيلًا. لقد نسي حتى القرص في هذه اللحظة. كان كل ما أراده هو أن يمسك تلك الصورة بين أصابعه من جديد. أو أن يراها على الأقل.

صاح قائلًا:

- «إنها موجودة!».

فقال "أوبراين":

- «لا، ليست موجودة».

سار "أوبراين" في الغرفة إلى أن وصل للجدار المقابل حيث يوجد ثقب الذاكرة، رفع "أوبراين" الغطاء وألقى بالصورة.. فالتهمتها ألسنة اللهب، وهنا استدار "أوبراين" مبتعدًا عن الجدار قائلًا:

- «الآن أصبحت رمادًا، بل حتى ليست رمادًا، بل ذرات من الغبار، فلم تعد موجودة الآن، ولم يكن لها وجود على الإطلاق».

فقال "ونستون":

- «لكنها كانت موجودة، بل لاتزال موجودة، إنها حية في الذاكرة، وانا أذكرها كما تذكرها أنت».

فقال "أوبراين":

- «أنا لا أذكرها».

وهنا غاص قلب "ونستون" بين أضلعه فهذه هي ازدواجية الفكر التي قرأ عنها، وسرعان ما سيطر عليه يأس قاتل. فلو استطاع أن يتأكد من أن "أوبراين" كاذب، فلا أهمية للأمر أبدًا. لكن من الممكن أن يكون "أوبراين" قد نسي الصورة حقًا، وإن كان الأمر كذلك، فسرعان ما سينسى إنكاره تذكر وجود الصورة، وسينسى أنه نسي، فكيف يتأكد المرء من أن الأمر لم يكن إلا خداعًا بسيطًا؟ ربما يمكن لمثل هذا التشوش أن يحدث حقيقة في العقل، وكانت هذه الفكرة هي التي قهرته.

كان "أوبراين" واقفًا ينظر إليه نظرة تأملية، وظهرت عليه هيئة معلمٍ صابر على طالب مشاكس، لكنه واعد..

قال:

- «هناك شعار من شعارات الحزب متعلق بالسيطرة على الماضي. هل يمكنك أن تقوله من فضلك؟».

قال "ونستون" الشعار مطيعًا:

- «من يتحكم بالماضي يتحكم بالمستقبل. ومن يتحكم بالحاضر يتحكم بالماضي».

وباستحسان هز "أوبراين" رأسه وقال:

- «من يتحكم بالحاضر يتحكم بالماضي.. في رأيك أنت يا "ونستون"، فهل للماضي وجود حقيقي؟».

مرة أخرى شعر "ونستون" بالعجز يغمره من رأسه حتى أخمص قدميه، ومد عينيه إلى القرص ولم يكن يدري إذا كانت الإجابة بنعم أو لا، هي التي ستنجيه من هذا الألم، بل لم يدرك ما هي الإجابة التي يعتقد أنها صحيحة.

ابتسم "أوبراين" ابتسامة خفيفة وقال:

- «أنت لست عالم في الماورائيات يا "ونستون"، ولم تفكر حتى الآن فيما هو المقصود بكلمة وجود. سوف أطرح السؤال بشكلٍ آخر: هل الماضي موجود كشيءٍ ملموس ويشغل حيزًا من الفراغ؟ هل يوجد في مكانٍ ما، عالم يتألف من أجسامٍ صلبة مثلًا، لايزال الماضي يحدث فيه؟».

- «لا».

- «إذًا أين يوجد الماضي إن كان له وجود في الأصل؟».

- «مدون في السجلات».

- «في السجلات وفي...؟».

- «في العقل وفي ذكريات البشر».

- «حسنًا جدًا في الذاكرة. إننا... أعني الحزب، نسيطر على السجلات، ونسيطر على جميع الذاكرات، ومن ثم فإننا نحكم في الماضي، أليس كذلك؟».

وهنا صرخ "ونستون" وقد نسي القرص:

- «ولكن كيف يمكنكم منع الناس من تذكر الأشياء؟ إنه عملٌ لا إرادي حتى أن المرء نفسه لا يستطيع السيطرة على ذاكرته،

فكيف تستطيعون أنتم السيطرة على الذاكرة؟ إنكم لا تستطيعون السيطرة على ذاكرتي».

عادت القسوة على وجه "أوبراين" من جديد.. وضع يده على القرص وقال:

- «على العكس أنت الذي لم تسيطر على ذاكرتك، وهذا ما أتى بك إلى هنا. أنت هنا لأنك فشلت في التواضع وفي الانضباط النفسي. إنك لم تتقن عملية الخضوع وهي ثمن العقل.. لقد فضلت أن تكون مجنونًا ووضعت نفسك وسط أقلية مكونة من شخصٍ واحد، وحده العقل المنضبط هو الذي يستطيع رؤية الحقيقة يا "ونستون". لقد ظننت أن الواقع شيء موضوعي خارجي قائم بذاته، كما تظن أن طبيعة الواقع طبيعة بديهية بذاتها، وعندما تضلل ذاتك وتوهمها إنك ترى شيئًا ما.. فإنك تتوهم أن الآخرين يرون نفس الشيء، لكنني أقول لك يا "ونستون" إن الواقع ليس له وجود خارجي، إن الواقع موجودًا داخل العقل البشري، ولا يوجد مكانٌ آخر. إنه ليس موجودًا في العقل الفردي المُعرض للوقوع في الأخطاء، كما أنه ينتهي بانتهاء صاحبه، إنه لا يوجد إلا في عقل الحزب الذي يتسم بأنه جماعي وخالد.. وما يعتبره الحزب حقيقة فهو الحقيقة لا شك فيها، ومن المستحيل أن ترى الحقيقة إلا بالنظر من خلال عيني الحزب. تلك هي الحقيقة التي يجب أن تتعلمها من جديد يا "ونستون"، وهذا يحتاج منك أن تدمر ذاتك، وهو أمر يتطلب قوة الإرادة، يجب أن تذل نفسك وتقهرها حتى يمكنك أن تكون عاقلًا.

توقف لحظات قليلة وكأنه يريد إعطاء الوقت الكافي لما قاله حتى يستقر في ذهن "ونستون". ثم استكمل حديثه قائلًا:

- «هل تتذكر ما كتبته في مذكراتك؟ الحرية هي حرية القول إن اثنين واثنين يساويان أربعة؟».

مد "أوبراين" يده اليسرى.. طوى إبهامه وأظهر أربع أصابع ممدودة..

- «كم إصبع هذه يا "ونستون"؟».
- «أربع».
- «وإذا قال الحزب إنها خمس وليست أربعًا... فكم يكون عددها؟».
- «أربع».

انتهت تلك الكلمات بنوبة من الألم، قفزت إبرة المؤشر حتى الخامسة والخمسين. بدا العرق يتفصد من كل أجزاء جسمه وأخد الهواء يتدفق إلى رئتيه فيخرج أنينًا يمنعه حتى من أن يصر على أسنانه.. ظل "أوبراين" ناظرًا إليه مادًا أصابعه الأربع، أعاد المفتاح إلى الخلف تراجع الألم قليلًا.

وسأل:

- «كم إصبعًا ترى يا "ونستون"؟».
- «أربع».

قفزت الإبرة إلى الستين..

- «كم إصبعًا ترى يا "ونستون"؟».
- «أربعًا.. أربعًا.. ماذا أقول غير ذلك؟ أربعًا».

قفزت الإبرة مرة أخرى ولكن "ونستون" لم يهتم بذلك، فقد كان يهتم بالأصابع الأربع وهذا الوجه الغليظ الصارم، كانت تنصب أمام عينيه الأصابع الأربع وكأنها أعمدة ضخمة تهتز وسط جوٍ غائم، لكنها مع ذلك كانت وبلا شك أربعًا.

- «كم إصبعًا يا "ونستون"؟».
- «أربعًا! أوقف هذا الألم عني. لما تستمر في تعذيبي؟ أربعًا.. أربعًا.

- «كم إصبعًا يا "ونستون"؟».
- «إذًا خمسًا! خمسًا! خمسًا!».
- «لا يا "ونستون" فهذا لن يفيدك، إنك تكذب لأنك ما زلت تعتقد أنها أربع. كم إصبعًا ترى لو سمحت؟».
- «أربعًا! خمسًا! أربعًا.. الرقم الذي تريده، لكن أرجوك أوقف هذا الألم».

وفجأة وجد "ونستون" نفسه جاسًا وذراع "أوبراين" تحيط كتفيه. لعله فقد الوعي للحظات، وقد حُلت الأحزمة التي تشد جسمه وشعر بموجة برد قارس تسري في جسده حتى أن أوصاله كانت ترتجف وأسنانه تصطك، ودموعه تنهمر على خديه. تعلق بـ "أوبراين" وكأنه طفلٌ صغير، والعجيب أن تلك الذراع الثقيلة على كتفيه أشعرته بالراحة. فكان لديه إحساس بأن "أوبراين" هو حاميه، وأن الألم كان أتيًا من الخارج، من مصدرٍ آخر، وأن "أوبراين" هو الذي أنقذه منه.

قال "أوبراين" بلطف:

- «إنك بطيء التعلم يا ونستون».

قال "ونستون" منتخبًا:

- «وماذا أفعل؟ كيف أتجنب رؤية ما هو أمام عيني؟ إن اثنين واثنين يساويان أربعة».

قال "أوبراين":

- «أحيانًا يساويان أربعة يا "ونستون"، وأحيانًا أخرى يساويان خمسة، وقد يساويان ثلاثة أيضًا، وفي أحيان أخرى يساويان أربعة وخمسة وثلاثة في آنٍ واحد.. يجب أن تحاول بمزيدٍ من الجدية والجهد، فليس من السهل أن تصبح سليم العقل».

استلقى "ونستون" على السرير وشُدّ وثاقه من جديد، لكن الألم قد تراجع وتوقف الارتعاش، وقد حل محله إحساسًا بالضعف والبرد. أشار

"أوبراين" للرجل ذي المعطف الأبيض الذي كان واقفًا لا يتحرك طوال تلك العملية، فتقدم الرجل ومال على "ونستون" يفحص عينيه ويقيس نبضه، ووضع سماعة على صدره وراح ينقر هنا وهناك، ثم أومأ برأسه إلى "أوبراين".

قال "أوبراين":

- «من جديد».

تدفق الألم في جسد "ونستون" من جديد، كان المؤشر قد بلغ السبعين أو الخامسة والسبعين. أغمض "ونستون" عينيه هذه المرة، كان يعرف أن الأصابع ما زالت مرفوعة، وإنها لا تزال أربع. ما كان مهمًا الآن أن يبقي على قيد الحياة إلى أن تنتهي هذه النوبة من الألم، فلم يعد يعرف إن كان يصرخ من الألم أم أنه يتألم في صمت، فتح "ونستون" عينيه بعدما خفت حدة الألم مرة أخرى، حيث كان "أوبراين" قد سحب الذراع للخلف.

- «كم إصبعًا يا "ونستون"؟».

- «أربعًا، أظن أنها أربع، سأحاول أن أراها خمسًا إن استطعت، إنني أحاول فعلًا أن أراها خمس».

- «أترغب يا "ونستون" أن تقنعني بأنك تراها خمس، أما أنك فعلًا تراها خمس؟».

- «أرغب أن أراها فعلًا خمس».

فقال "أوبراين":

- «إذًا مرة أخرى».

وهذه المرة قفز المؤشر إلى الثمانين أو التسعين درجة، ولم يستطع "ونستون" تذكر سبب الألم. وتخيل أن هناك غابة من الأصابع تتراقص أمام عينيه، ويتداخل بعضها في بعض.. ويتوارى بعضها وراء بعض.. ثم يعود ويظهر، وكان يحاول أن يعدها دون أن يعرف لماذا، لكنه كان يعرف أنه مستحيل أن يعدها، وذلك بسبب الطبيعة الغامضة التي تتلبس الخمسة والأربعة. زال الألم مرة أخرى. وفتح عينيه.. فوجد أنه لا يزال يرى نفس

الشيء، عددٌ لا يُحصى من الأصابع، مثل أشجار متحركة، كان لا يزال متدفقًا في كل اتجاه.. أصابع تتقاطع ثم تتقاطع من جديد.. أغمض عينيه مرة أخرى:

- «كم إصبعًا أرْفَع الآن يا "ونستون"؟».
- «لا أدري! لا أدري! سوف تقتلني إذا فعلت هذا من جديد. أربعًا، خمسًا، ستًا.. صدقًا لا أدري».

قال "أوبراين":

- «هذا أفضل».

غرست إبرة في ذراع "ونستون" فشعر معها بدفءٍ مريحٍ يسري في جسده حتى نسي الألم، فتح عينيه ونظر إلى "أوبراين" شاكرًا. أحس أن قلبه يتحرك عندما شاهد ذلك الوجه الغليظ القميء شديد الذكاء الذي يمتلئ بالتغضنات. لو كان يستطيع الحركة.. لمد يده ووضعها على ذراع "أوبراين". لم يحبه من قبل هذا الحب العميق الذي يشعره نحوه الآن، ليس لأنه أوقف الألم فقط، بل إنه نفس الشعور القديم.. فلا يهم إن كان "أوبراين" صديقًا أم عدو. فـ"أوبراين" هو الشخص الذي يمكنه أن يتحدث معه، فالمرء لا يهمه أن يحبه الناس بقدر ما يهمه أن يفهموه، نعم.. إن "أوبراين" قد عذبه إلى حد الجنون، بل إنه كان واثقًا من أن "أوبراين" كان على وشك إرساله إلى الموت. لكن كل ذلك لا يهم، فما يجمع بينهم أعمق من الصداقة، إنها الحميمية، وعلى الرغم أنهما لا يمكنهما تبادل الحديث معًا، إلا إنه لابد أن يأتي اليوم الذي يلتقيان فيه ويتحدثان كما يشاءان. كان "أوبراين" ينظر إليه وعلى وجهه تعبيٌر يوحي بأن الفكرة نفسها يمكن ان تكون في ذهنه الآن، وعندما تكلم "أوبراين" كانت نبرة صوته هينة حوارية!

قال:

- «هل تعرف أين أنت الآن يا "ونستون"؟».
- «لست أدري! لكن أستطيع التخمين، في وزارة الحب».
- «وهل تعرف كم من الوقت مر عليك هنا؟».

- «لا أدري قد تكون أيام.. أسابيع، شهور.. أظنها شهور.
- «ولماذا نأتي بالناس إلى هنا؟».
- «لجعلهم يعترفون».
- «لا، ليس هذا هو السبب الحقيقي، حاول مرة أخرى».
- «لمعاقبتهم».

فصرخ فيه "أوبراين":

- «لا».

وتغيرت نبرة صوته تمامًا وارتسمت على وجهه علامات الغضب وقال:

- «كلا، إننا لا نأتي بأحدٍ إلى هنا كي ننتزع منه اعترافًا أو نعاقبه. هل تريد أن تعرف لماذا أتينا بك إلى هنا؟ لنشفيك من علتك، لنجعلك سليم العقل.. هل فهمت يا "ونستون"، فلا يأتي أحد إلى هنا ويخرج قبل أن يُشفى تمامًا من علته. إننا لا نهتم بالجرائم الحمقاء التي ارتكبتها، فالحزب لا يهمه ما تقوم به من أفعالٍ مكشوفة، إنما يهتم أكثر بما يدور في عقلك من أفكار، نحن لا نحطم أعدائنا فحسب، بل نغير ما بأنفسهم. هل تفهم ماذا أعني بذلك؟»

كان "أوبراين" منحنيًا فوق "ونستون".. ولشدة قربه منه بدا وجهه ضخمًا وشديد القبح، لأن "ونستون" كان ينظر إليه من أسفل. غير أنه كان مليئًا بعظمة مجنونة، بعنفٍ مختل.. انقبض قلب "ونستون" من جديد. ولو استطاع لاختفى في ذلك السرير. كان متأكدًا أن "أوبراين" سيدير المفتاح مرة أخرى من شدة إثارته. لكن "أوبراين" استدار مبتعدًا عنه، سار في الغرفة خطوتين ثم استكمل حديثه بقدرٍ أقل من الشدة:

- «أول شيء يجب عليك فهمه.. هو أنه لا وجود للاستشهاد في هذا المكان، لابد إنك قرأت عن الاضطهاد الديني في الماضي، والذي تم ممارسته في العصور الوسطى تحت مسمى محاكم

التفتيش التي فشلت فشلًا ذريعًا. لقد أُنشئت هذه المحاكم لاستئصال الهراطقة، لكن انتهى الأمر بتأييدها، فمقابل كل هرطق أحرقته ظهر آلاف الهراطقة. فلماذا حدث ذلك؟ لأن تلك المحاكم كانت تقتل أعداءها علنًا وتُجهز عليهم قبل أن يتوبوا، وفي الواقع كانت تحرقهم لأنهم لم يُظهروا ندامتهم أو يُعلنوا توبتهم، ولذلك كان الناس يُحرقون لأنهم رفضوا التخلي عن مبادئهم، وبالطبع كان المجد يؤول إلى الضحية بينما يبقى الخزي من نصيب المحقق.. وفي القرن العشرين ظهر ما يسمى بالحكم الاستبدادي، فكان هناك النازيون الألمان والشيوعيون الروس، فكان سجلهم حافلًا بقسوة تفوق محاكم التفتيش ضد معارضيهم، ومع ذلك كانوا يظنون أنهم يتعلمون من أخطاء الماضي، فكانوا يدركون أنه لا ينبغي عليهم أن يجعلوا من خصومهم شهداء. ولذلك كانوا لا يقدمون ضحاياهم للمحاكمات العلنية إلا بعد أن يتأكدوا من تحطيم كرامتهم وإذلالهم. فكانوا ينهكون قواهم بالتعذيب ويعزلونهم عن العالم الخارجي، حتى يتحولوا إلى مسوخٍ ذليلة وحقيرة، فيعترفون بكل ما يُقال لهم ويوصمون أنفسهم بالعار، ويتهم بعضهم بعضًا، ويختبئ بعضهم خلف بعض، ويبكون طالبين الرأفة. لكن نفس الشيء كان يحدث من جديد، بعد سنواتٍ طويلة.. صار الأموات شهداء ونُسي كل ما أصابهم من خزي. والسؤال هنا: لماذا حدث ذلك؟ والجواب هو: أولًا؛ لأن الاعترافات التي أدلو بها كانت كاذبة وتنتزع منهم بالقوة، أما نحن، فلا نرتكب تلك الأخطاء. فكل الاعترافات التي تتم هنا صحيحة، إننا نجعلها كذلك. ثم إننا لا نسمح للأموات بأن ينهضوا لمواجهتنا من جديد، عليك أن تكف عن تخيل أن المستقبل سوف ينتقم لك يا "ونستون".. لن يسمع عنك المستقبل أبدًا. سوف تُمحى من التاريخ. سنحولك إلى غاز ونطلقك في الهواء، سنجعلك

نسيًا منسيًا ولن يبقى منك شيء، لا اسمًا في سجل ولا أثر في ذاكرة حية، ستُمحى كل علاقة لك بالماضي كما بالمستقبل، وستصبح وكأنك لم تكن.

قال "ونستون" في مرارة:

- «ولما إذًا التعذيب؟».

توقف "أوبراين"، وكأنه سمع تساؤل "ونستون"، اقترب بوجهه البشع وقد ضيق عينيه قليلًا، وقال:

- «إنك تفكر في لماذا نتجشم عناء استجوابك، طالما انتوينا القضاء عليك؟، وطالما لا شيء مما تقوله أو تفعله يمكن أن يغير من الأمر شيء، هذا ما يدور بذهنك، أليس كذلك؟

فأجاب "ونستون":

- «نعم».

ابتسم "أوبراين" ابتسامة خفيفة:

- «أنت الخلل الذي شق النموذج العام، أنت غلطة يجب إزالتها. ألم أقل لك الآن إننا مختلفون عن طغاة الماضي؟ نحن لا نرضى بالطاعة السلبية أو حتى الخضوع، وعندما تستسلم في نهاية الأمر يجب أن يكون ذلك نابعًا من إرادتك الحرة. إننا لا نحطم الضال الذي يقاومنا، بل نسعى لأن نغيره ونسيطر على عقله الباطن ونعيد تكوينه. إننا نبدد كل الشرور والأوهام، ونجعله في صف الحزب ليس ظاهريًا فحسب، وإنما قلبًا وقالبًا. إننا نجعله واحدًا مننا قبل أن نقتله. ولا نسامح أبدًا أي فكرة خاطئة في أي مكان في العالم مهما كانت سرية وضعيفة، وحتى في لحظة الموت، لا تسنح بأي شكلٍ من أشكال الانحراف. ففي الماضي كان الهرطقي يسير إلى المحرقة وهو لا يزال هرطوقيًا.. مجاهرًا بهرطقته، مباهيًا بها.. بل إن ضحية التطهيرات الروسية كان قادرًا أيضًا على المحافظة

على تمرده في رأسه عندما كان يسير في الممر منتظرًا الرصاصة التي تقتله. أما نحن فإننا نصل بالعقل إلى الكمال قبل أن ندمره. كان الأمر الصادر عن طغاة الزمن القديم يقول: «لا تفعل»، وكان الأمر الصادر عن الشموليين يقول: «عليك أن تفعل، أما أمرنا نحن فهو: «كن».. ولم يحدث أن وقف ضدنا أحدٌ ممن نأتي بهم إلى هنا، لأن كل من يأتي إلى هنا يخضع لغسيل دماغ. حتى هؤلاء الخونة الذين اعتقدت براءتهم، "جونز، وآرونسون، وراذرفورد"، حتى هؤلاء دمرناهم في النهاية. لقد شاركت بنفسي في استجوابهم ورأيتهم وهم ينهارون ويتذللون وينتحبون، لم يكن مصدر كل هذا الخوف والألم، بل كان شعورهم بالأسف والندم على ما فعلوه. وعندما انتهينا من تطهيرهم كانوا قد تحولوا إلى هياكلٍ بشرية لم يبق منها سوى الأسى على ما بدر منها من جرائمٍ في حق الحزب، وحب الأخ الأكبر لدرجة أنهم توسلوا إلينا لنطلق عليهم الرصاص ليموتوا بعقولٍ نظيفة».

أصبح صوت "أوبراين" هادئًا. وكان ذلك التسامي، الحماسة المجنونة، لا يزال ظاهرًا على وجهه. إنه لا يتظاهر بالأمر، قال "ونستون" في نفسه، أن "أوبراين" ليس منافقًا، بل هو مؤمنٌ بكل كلمة قالها. لكن كل ما آذاه أكثر من غيره هو إدراكه أنه أقل من ذهني. راح "ونستون" يراقب "أوبراين" صاحب القوام المهيب وهو يغدو ويروح في الغرفة، فلاحظ أن "أوبراين" يتفوق عليه في كل شيء. فلم تخطر فكرة على بال "ونستون" إلا كان "أوبراين" على علمٍ بها، وعرف كيف أن يفصلها تفصيلًا، لقد احتوى عقل "ونستون" بعقله. وطالما الأمر كذلك.. كيف يمكن أن يكون "أوبراين" مجنونًا؟ لا شك في إنني أنا المجنون. توقف "أوبراين" عن السير فجأة، ونظر إلى "ونستون" وقال بصرامة:

- «لا تتخيل أنك تستطيع إنقاذ نفسك يا "ونستون"، مهما كان استسلامك لنا كاملًا. فلم ينحرف أحد عن الصواب وأبقينا على حياته. فعليك أن تعرف جيدًا أنه حتى لو اخترنا لك أن تعيش إلى أن ينقضي أجلك بشكل طبيعي، فلن يمكنك أن تفلت من قبضتنا، وستعيش بهذا العذاب طول عمرك. إننا سنسحقك لدرجة إنك لا تستطيع أن تعود بحياتك كما كانت، وستحدث لك أشياء لا يمكنك أن تُشفى منها حتى لو عشت ألف عام. ولن تستطيع أن تشعر بما يشعر به الأحياء مطلقًا. فسيموت كل شيء بداخلك، ولن تستطيع أن تحب أو تكون صداقات أو أن تستمتع بحياتك، فستكون أجوف لا تستطيع الضحك أو حب الاستطلاع أو الشجاعة، أو الاستقامة، فسنعصرك حتى تصبح خاويًا من كل شيء، ثم نملأك بأنفسنا».

وهنا توقف "أوبراين" وأشار للرجل ذي المعطف الأبيض، أحس "ونستون" بجهازٍ ثقيلٍ قد دُفع إلى مكانٍ ما خلف رأسه. جلس "أوبراين" بجوار السرير فأصبح وجهه محاذيًا لوجه "ونستون". وقال آمرًا الرجل ذي المعطف الأبيض:

- «ثلاثة آلاف».

أحس "ونستون" في الحال بأن وسادتين ناعمتين مبللتين قليلًا تلتصقان بصدغيه، فشعر بالخوف، وأحس بالألم يسري في جسده، إنه نوعٌ جديدٌ من الألم. وضع "أوبراين" يده على يد "ونستون" مطمئنًا إياه:

- «لا تخف، فلن يؤذيك الألم هذه المرة، ولكن ابق عينيك مثبتتين على عيني».

وفي تلك اللحظة أحس "ونستون" بانفجارٍ مدوٍ أو ما بدا أنه انفجار، ومع ذلك لم يكن واثقًا إن كان سمع صوتًا أم لا. فلا شك أنه رأى وميض ضوء يعمي الأبصار. لم يصبه ألم. ولكنه شعر وكأنه سقط على ظهره.. صحيح أنه

كان مستلقيًا على ظهره أصلًا، لكن إحساسًا غريبًا انتابه، فأحس وكأنه أطيح به إلى هذا الوضع. لقد أطاحت به ضربة مخيفة من دون ألم. لكن أحس بشيءٍ ما حدث داخل رأسه.. وعندما استعادت عيناه القدرة على التركيز.. فتذكر من هو وأين وعرف الوجه الذي كان يحملق فيه، غير أنه أحس وكأنما قطعة من رأسه قد انتزعت انتزاعًا، فأحدثت فراغًا واسعًا.

قال "أوبراين":

- «لن يدوم هذا طويلًا.. لكن انظر في عينيّ، ضد أي دولة تحارب «أوقيانيا» الآن؟».

فكر "ونستون" قليلًا، فاستوعب ما المقصود بـ «أوقيانيا»، وأنه أحد مواطني «أوقيانيا»، كما تذكر «إستاسيا، وأوراسيا»، لكنه لم يعرف من كان في حربٍ مع من، بل إنه لم يكن يعلم أصلا أن هناك حرب.

فأجاب:

- «لا أذكر».

فقال "أوبراين

- «إن أوقيانيا في حالة حرب مع إستاسيا. منذ بداية حياتك ومنذ بداية الحزب، ومنذ بداية التاريخ وهذه الحرب متواصلة دون توقف، فهل تذكر ذلك؟».

- «نعم».

- «لقد قمت يا "ونستون" منذ أحد عشر عامًا باختلاق خرافة عن ثلاثة رجال كانوا قد حُكم عليهم بالموت بسبب خيانتهم، وزعمت أنك قد رأيت قصاصة من الورق تثبت براءتهم، فهذه القصاصة لم يكن لها وجود وأنت الذي اخترعتها وأمنت بها، فهل تذكر هذه اللحظة التي اخترعت فيها هذه الخرافة؟».

- «نعم».

- «منذ فترة قصيرة رفعت يدي إليك، فرأيت خمس أصابع، هل تذكر ذلك؟».

- «**نعم**».

رفع "أوبراين" أصابع كف يده اليسرى وأخفى الإبهام وسأله:

- «إنها خمس أصابع، فهل تراها خمس أصابع؟».

- «**نعم**».

لقد رأي حقًا خمس أصابع للحظة قبل أن يتغير المشهد الذي في عقله. رأس خمس أصابع لا عيب فيها ولا تشوه، ثم عاد كل شيءٍ طبيعي، وبدأت تسيطر عليه مشاعر الخوف والكراهية والحيرة. لكن لفترة لم يدرك مدتها، ربما كانت لحظات من اليقين المشرق، كان فيها إيحاء جديد من إيحاءات "أوبراين" يملأ جزءًا من الفراغ الذي في رأسه ويصبح حقيقة مطلقة، لحظات يمكن فيها أن يكون اثنان واثنان يساويان ثلاثة أو خمسة على حسب متطلبات الأمر. وبمجرد أن رفع "أوبراين" يده من فوق رأسه حتى انزاح ذلك الكابوس. رغم أنه لم يستطع أن يستعيده ثانية، فقد ظل يذكره كما يذكر المرء واقعة حية حدثت له منذ فترة بعيدة، كان فيها شخصًا مختلفًا.

قال "أوبراين":

- «الآن تستطيع أن ترى أن ما حدثتك به ممكن».

فأجاب "ونستون":

- «**نعم**».

نهض "أوبراين" واقفًا.. وقد بدا عليه علامات الرضا. رأى "ونستون" من فوق كتفه اليسرى أن الرجل ذا المعطف الأبيض يكسر أمبول ويسحب مكبس الحقنة إلى الخلف. استدار "أوبراين" إلى "ونستون" وصحح وضع نظارته على أنفه بطريقته المعهودة قائلًا:

- «هل تتذكر ما كتبته في مذكراتك من أنه لا يهمك أن أكون صديقًا أو عدو ما دمت على الأقل شخصًا يفهمك ويمكنك التحدث

إليه؟ لقد كنت محقًا في ذلك. فإنني أجد متعة في الحديث معك. فعقلك يعجبني، إنه يشبه عقلي، إلا إنه مجنون. تستطيع أن تطرح عليّ بعض الأسئلة قبل أن تنتهي هذه الجلسة إذا أردت».

- «أي سؤال أريد؟».
- «نعم أي سؤال».

لاحظ "أوبراين" أن عيني "ونستون" متجهتين تجاه القرص المدرج، فطمأنه أنه قد فصل عنه التيار. وقال له:

- «ما هو سؤالك الأول؟».

قال "ونستون":

- «ماذا فعلتم بـ "جوليا"؟».

ابتسم "أوبراين" من جديد:

- «لقد خانتك يا "ونستون"، سريعًا ودون تحفظ. فلم أر في حياتي شخصًا يعود إلى رشده بهذه السرعة إلا نادرًا، ولو رأيتها الآن فلن تعرفها. فقلد زال وزنها وتطهرت من التمرد والخداع والجهل والميول الجنسية، فقد حدث لها تحول تام وأصبحت نموذجًا يحتذى به ويدرس».

- «هل عذبتموها؟».

لم يجب "أوبراين" عن هذا السؤال بل قال:

- «السؤال الثاني؟».
- «هل للأخ الأكبر وجود؟».
- «لا شك أنه موجود، وكذلك الحزب موجود، فيتجسد الحزب في الأخ الأكبر».
- «وهل هو موجود مثلي، كما أنه موجود وبالشكل ذاته؟».

فأجابه "أوبراين":

- «إنك غير موجود».

ومن جديد غمر "ونستون" إحساس بالعجز، كان يعرف، أو كان قادرًا على تخيل الحجج التي تثبت إنه موجود. لكن لا جدوى منها، فهي لعب بالكلمات لا أكثر. أفلا تحتوي عبارة: «أنت لست موجودًا»، على سخفٍ منطقي؟ لكن ما الفائدة من قول ذلك؟ أحس بانسحاقٍ في ذهنه عندما فكر بالحجج المجنونة التي لا إجابة لها، والتي سوف يدمره بها "أوبراين".

قال بإعياء:

- «أعتقد أنني موجود، إنني أعي ذاتي، لقد ولدت وسوف أموت، ولي ذراعان وساقان، وأشغل حيزًا من الفراغ ولا يستطيع جسم آخر أن يشغل الحجم نفسه في الوقت نفسه. بهذا المعني أسأل: هل للأخ الأكبر وجود؟».
- «ليس لما تقول أي أهمية، إنه موجود».
- «هل سيموت الأخ الأكبر في يومٍ من الأيام؟».
- «طبعًا لا، كيف يمكن أن يموت؟ السؤال التالي».
- «هل لحركة الأخوة وجود؟».
- «هذا ما لن تعرفه أبدًا يا "ونستون"، فحتى لو قررنا إطلاق سراحك عندما نفرغ منك. وإن كان لك أن تعيش حتى تبلغ تسعين عامًا فلن تعرف أبدًا إن كانت إجابة هذا السؤال بنعم أم لا، وما دمت حيًا سيظل هذا السؤال هو اللغز المحير الذي لن تجد له حلًا».

رقد "ونستون" صامتًا لبعض الوقت، وراح صدره يعلو ويهبط أسرع قليلًا من السابق. فلم يطرح بعد السؤال الذي خطر بباله أولًا، وكان عليه أن يوجه هذا السؤال أولًا لكن لسانه لم يطاوعه. أما "أوبراين" فقد ارتسمت

على وجهه بعض السخرية، حتى نظارته بدت وكأنها اكتسبت لمعة ساخرة. وفجأة شعر "ونستون" بأن "أوبراين" يدرك ما يدور في ذهنه، ولابد أنه على دراية بالسؤال الذي ينتوي طرحه، ومع تلك الفكرة خرجت الكلمات من فمه:

- «ما هي الغرفة101؟».

لم يتغير التعبير الذي ارتسم على وجه "أوبراين"، وأجابه بجفاف:

- «أنت تعرف ما هي الغرفة101 يا "ونستون"، والكل يعرف ما في الغرفة 101».

رفع "أوبراين" إصبعه مشيرًا إلى الرجل ذي المعطف الأبيض. فمن الواضح أن الجلسة قد انتهت. وانغرست إبرة في ذراع "ونستون"، فغرق في نومٍ عميقٍ على الفور..

الفصل الثالث

قال "أوبراين":

- «لكي تتم إعادة تأهليك وخلقك من جديد، فلابد وأن تمر بثلاث مراحل وهي التعلم، ثم الفهم، ثم القبول. وقد آن الأوان لدخولك المرحلة الثانية».

كان "ونستون" ممدًا على ظهره على السرير كعادته، وكانت الأربطة التي تشده أقل استحكامًا. فعلى الرغم من أنه ظل مقيدًا، إلا أنه كان يستطيع تحريك ركبتيه قليلًا، وصار قادرًا على تحريك رأسه من جانبٍ لآخر وأن يرفع ذراعيه حتى المرفقين. كما لم يعد القرص المُدرج مخيفًا مثلما كان في السابق، لقد أصبح قادرًا على تفادي الآلام التي يبثها في جسده طالما لديه سرعة بديهة. لم يكن "أوبراين" يحرك مفتاح القرص إلا عندما يبدي "ونستون" قدرًا من الغباء، وكثير من الأحيان كانا يمضيان الجلسة كاملة بدون استخدام القرص. لم يستطع "ونستون" تذكر عدد الجلسات، كما كانت تمتد الفترات الفاصلة بين الجلسات أيامًا، وأحيانًا قد تكون ساعة أو ساعتين.

قال "أوبراين":

- «من المؤكد أنك سألت نفسك، بل قد سألتني فعليًا وأنت ممدد على هذا السرير عن السبب الذي يجعل وزارة الحب تهدر هذا الوقت والجهد وتتحمل هذا العناء من أجلك، بل عندما كنت حرًا طليقًا كنت تقف حائرًا أمام هذا السؤال. لقد استطعت فهم آليات المجتمع الذي تعيش فيه لكنك عجزت عن فهم الدوافع الكامنة خلف تلك الآليات. هل تتذكر عندما كتبت في مذكراتك: «أفهم كيف، ولا أفهم لماذا». وقد بدأ الشك يتسرب إلى عقلك عندما بدأت التفكير في السبب. وقد قرأت كتاب "غولدشتاين" أو

أجزاء منه على الأقل، فهل وجدت فيه شيئًا لم تكن تعرفه بالفعل؟».

فسأله "ونستون":

- «وهل قرأته أنت؟».

فأجاب "أوبراين":

- «بل كتبته، ولكي أكون أكثر دقة، فقد اشتركت في وضعه، فأنت تعرف أنه لا أحد يؤلف كتابًا بمفرده».

- «وهل ما يقوله الكتاب صحيح؟».

فأجابه "أوبراين":

- «من حيث الوصف، نعم.. أما عن البرنامج الذي يضعه بعد ذلك فهراء. ذلك التراكم السري للمعرفة والنشر التدريجي للاستنارة الذي يؤدي في النهاية إلى ثورة البروليتاريا والإطاحة بالحزب، كل هذا هُراء لن يتمرد البروليتاريون أبدًا، ولا بعد ألف ولا مليون عام، هم لا يستطيعون ذلك، ولست مضطرًا لإخبارك بالسبب، فأنت تعرفه. وإذا كانت قد راودتك بعض الأفكار عن الانتفاض العنيف، فعليك أن تقلع عنها، فلا سبيل للإطاحة بالحزب، فالحزب مستمر إلى الأبد، وعليك أن تجعل هذا الاعتقاد نقطة الانطلاق لأفكارك».

وهنا اقترب "أوبراين" من "ونستون" وراح يردد:

- «إلى الأبد، إلى الأبد.. والآن علينا أن نعود للسؤال.. كيف، ولماذا.. إنك تدرك تماما كيف يحتفظ الحزب بالسلطة، ولكن قل لي لماذا نتمسك بالسلطة؟ ما هي دوافعنا؟ لماذا نريد السلطة؟ هيا، تكلم».

لكن "ونستون" ظل صامتًا...

لم يتكلم "ونستون" للحظة أو لحظتين، وغمره شعور بالإعياء واليأس، ولا حظ أن بريق الحماس المجنون قد عاد إلى عيني "أوبراين". كان "ونستون" يعرف مسبقًا ما سيقوله "أوبراين". سيقول إن الحزب لا يريد السلطة من أجل مصالحة هو، بل من أجل مصالح الأكثرية. وإنه سعى إلى السلطة لأن العامة مخلوقات هشة ضعيفة تتسم بالجبن، ولا يمكنها تحمل مسؤولية الحرية أو مواجهة الحقيقة، فلابد من حكمها وخداعها بطريقةٍ ممنهجة من قِبل آخرين أقوى منهم، وعلى البشرية أن تختار ما بين الحرية والسعادة. وأن الأغلبية البشرية ستختار السعادة وتفضلها على الحرية. إن الحزب هو الوصي الأبدي للمستضعفين، وإنه يضحي بسعادته من أجل الآخرين، لكن أكثر ما يخيف "ونستون" هو إيمان "أوبراين" بتلك الحجج والمبررات التي يسوقها إليه، ويمكنك أن ترى هذا مرتسمًا على وجهه. إن "أوبراين" يعرف كل شيء عن حقيقة هذا العالم، بل ويعرف أكثر من "ونستون" ألف مرة. ويعرف ما تعانيه المخلوقات البشرية من إذلالٍ وانحطاط وبأية أكاذيب وأساليب بربرية يبقيها الحزب على ما هي عليه. كان "أوبراين" يفهم كل ذلك فهمًا جيدًا، ومع ذلك لم يكن لذلك أهمية، فكل شيء صار مبررًا باسم الغاية النهائية. وتساءل "ونستون" في نفسه: «ماذا تستطيع أن تفعل إيذاء هذا المجنون، إنه أذكى منك، يصغي جيدًا إلى حججك لكنه يتمسك بجنونه؟».

قال "ونستون" بوهن:

- «إنكم تحكموننا من أجل مصلحتنا وفي سبيل منفعتنا، فأنتم تؤمنون أن البشر لا يصلحون لحكم أنفسهم بأنفسهم وبالتالي...».

توقف "ونستون" عن الكلام، فقد سرت في جسده وخزات ألم شديد، كان "أوبراين" قد حرك مفتاح القرص حتى وصل المؤشر لخمسة وثلاثين.

قال "أوبراين":

- «كانت هذه حماقة منك يا "ونستون"، يجب أن تكون أعقل من أن تقول هذا الكلام».

سحب ذراع القرص إلى مكانه ثم قال:

- والآن سأجيب لك عن سؤالي: إن الحزب يريد السلطة لنفسه ولا يهتم بمصالح الآخرين، إننا مهتمون بالسلطة فحسب، لسنا مهتمين بالثروة أو الرفاهية أو العمر المديد أو السعادة. السلطة وحدها السلطة الخالصة. وستفهم الآن معني السلطة الخالصة. نحن مختلفون عن أي قلة حكمت في الماضي حيث أننا نعرف ما نفعله جيدًا. فقد كان كل من سبقونا بمن فيهم من يشبهوننا منافقين جبناء. لقد اقترب النازيون الألمان والشيوعيون الروس منا اقترابًا شديدًا من حيث الأساليب، لكنهم لم يملكوا شجاعة الاعتراف بدوافعهم. لقد تظاهروا، بل ربما اعتقدوا أنهم بلغوا السلطة وهم لها كارهون، وأنهم لم يبقوا فيها إلا لفترةٍ محدودة، وإنه لم يعد يفصلهم شيء عن الفردوس الموعود الذي يحيا فيه الناس أحرارًا متساوين.. إننا لا نشبه هؤلاء. نحن نعرف أن لا أحد يمسك زمام السلطة وهو ينتوي التخلي عنها. ليست السلطة أداة بل هي غاية لا يقيم المرء ديكتاتورية حتى يحني ثورة.. يقوم المرء بثورة حتى يبني حكمًا ديكتاتوريًا، دافع الاضطهاد هو الاضطهاد، ودافع التعذيب هو التعذيب، ودافع السلطة هو السلطة، هل بدأت تفهمني الآن؟».

فوجئ "ونستون" مثلما فوجئ من قبل بالإرهاق والتعب على وجه "أوبراين"، كان وجهًا قويًا ممتلئًا، قاسي الملامح، مفعمًا بالذكاء وبنوعٍ من العاطفة المكبوتة التي يعجز المرء نحوها، إلا أن علامات التعب كانت ظاهرة عليه، فكانت فيه انتفاخات تحت العين، وكان الجلد مرتخيًا عند الوجنتين. مال عليه "أوبراين" قاصدًا تقريب وجهه المُتعب، قال:

- «أنت تفكر في وجهي المتعب العجوز، وإنني أحدثك عن السلطة.. لكنني غير قادر على منع شيخوخة جسدي. ألا تستطيع أن تفهم يا "ونستون" أن الفرد ما هو إلا خلية؟ وأن انحلال الخلية ما هو إلا تجديد لنشاط الكائن الحي.. هل تموت عندما تقوم بقص أظافرك؟».

ابتعد "ونستون" عن السرير وراح يتمشى في الغرفة ذهابًا وإيابًا، مرة أخرى واضعًا يده في جيبه، ثم قال:

- «نحن كهنة السلطة، والله هو السلطة، لكن السلطة الآن لا تعني لك إلا مجرد كلمة. وقد حان الوقت لتكون لنفسك فكرة عن معنى السلطة.. أول شيء يجب عليك إدراكه هو أن السلطة جماعية، ولا يمتلك الفرد السلطة إلا عندما يكف عن كونه فردًا. أنت تعرف شعار الحزب القائل «العبودية هي الحرية». فهل خطر ببالك من قبل أنه يمكن قلب هذا الشعار ليصبح «الحرية هي العبودية». فعندنا يصبح الإنسان وحيدًا وحرًا، دائمًا ما يُقهر ويُغلب. ويجب أن يكون الأمر كذلك لأن الموت هو القدر المحتوم على كل إنسان. والموت هو أكبر الهزائم على الإطلاق.. أما إذا استطاع المرء الوصول إلى الخضوع الكامل المطلق، وإذا استطاع الاندماج بالحزب بحيث يصبح هو الحزب فإنه يُمنح القوة والخلود.. أما الأمر الثاني الذي عليك إدراكه هو أن السلطة سلطان على البشر، على أجسامهم وعقولهم قبل أي شيء. أما أن يكون لك سلطان على المادة، وهي الواقع الخارجي كما تسميه، فليس بالأمر الهام، فنحن نسيطر على المادة سيطرة مطلقة».

تجاهل "ونستون" القرص للحظة، وحاول أن يستوي جالسًا فوق السرير.. إلا أنه شعر بألمٍ يمزق أوصاله على إثر تلك المحاولة.

صاح "ونستون" قائلًا:

- «لكن كيف تسيطرون على المادة؟ إنكم لا تستطيعون حتى السيطرة على الطقس أو قانون الجاذبية. بالإضافة إلى الأمراض والألم والموت...».

أسكته "أوبراين" بإشارةٍ من يده وقال:

- «إننا نسيطر على المادة لأننا نسيطر على العقل.. فالواقع موجود داخل الجمجمة، سوف تتعلم تدريجيًا يا "ونستون". لا شيء لا نستطيع فعله. الاختفاء عن الأنظار، رفع الأشياء في الهواء بقوة الذهن.. أي شيء! أستطيع أن أجعل أرض هذه الغرفة تطفو كما تطفو فقاعة من الصابون إذا أردت ذلك. وأنا لا أريد ذلك لأن الحزب لا يريده. فيجب عليك التخلص من أفكار القرن التاسع عشر هذه فيما يتعلق بقوانين الطبيعة. نحن من يضع قوانين الطبيعة».

- «لكنكم لا تستطيعون فعل ذلك.. بل أنكم لستم سادة هذا الكوكب. فماذا عن أوراسيا وإستاسيا؟ لم تستطيعوا هزيمتهما حتى الآن؟».

فأجاب "أوبراين":

- «لا يهمنا ذلك، لأننا سوف نهزمها حين يناسبنا ذلك، حتى إن لم نفعل فهذا لن يعنينا بشيء، فباستطاعتنا إقصاءها خارج الوجود ونمحي كل أثرٍ لها في الأذهان، بحيث تصبح «أوقيانيا» هي العالم كله».

فقال "ونستون":

- «ولكن العالم ليس إلا ذرة غبار وخُلق الإنسان عاجزًا، منذ متى وهو موجود؟ لقد ظلت الأرض لملايين السنين غير مأهولة».

فقال "أوبراين":

- «هراء، إن عمر الأرض مثل عمرنا، فهي ليست أقدم منا، كيف تكون أقدم؟ فما من شيء يوجد إلا من خلال الإدراك الإنساني».

- «لكن الصخور مليئة بعظام حيوانات منقرضة، كالماموث والماستودون وزواحف عملاقة، كانت تعيش هنا قبل أن يسمع أحد عن الإنسان بزمنٍ طويل».

- «هل رأيت هذه العظام يا "ونستون"؟ بالطبع لا. لقد اخترعها علماء البيولوجيا في القرن التاسع عشر. لم يكن شيء موجود قبل الإنسان.. ولن يكون شيء موجودًا بعد الإنسان، إذا انتهى وجود الإنسان فعلًا. لا شيء موجود خارج الإنسان».

- «لكن الكون موجود خارجنا، انظر إلى النجوم! منها ما هو بعيد ملايين السنوات الضوئية. إنها خارج متناولنا إلى الأبد».

قال "أوبراين" بغير اهتمام:

- «وما هي النجوم؟ إنها مجرد شذرات نار على مسافة بعيدة بضعة كيلومترات، ويمكننا الوصول إليها إذا أردنا ذلك، كما بوسعنا أن نجعها ثابتة في مكانها، فالأرض هي مركز الكون والشمس والنجوم تدور حولها».

تحرك "ونستون" حركة تنم عن رفضه، فلم يقل شيئًا، فتابع "أوبراين" كلامه وكأنه يجيب على اعتراض "ونستون" الذي لم يفصح عنه:

- «لا شك أن ما قلته لا ينطبق على بعض الحالات، فعندما نبحر في عرض المحيطات، أو نتنبأ بخسوف للقمر، فإننا نجد أنه من الأنسب أن نفترض أن الأرض تدور حول الشمس، وأن النجوم تبعد عنا ملايين الملايين الكيلومترات، لكن ما أهمية ذلك؟ أتظن إننا نعجز عن وضع نظام مزدوج للفلك؟ فتصبح النجوم قريبة أو

بعيدة حسب ما هو مطلوب. أتظن أن علماء الرياضيات لدينا لا يقدرون على ذلك؟ أنسيت ازدواجية الفكر؟».

انكمش "ونستون" فوق سريره، فكانت الإجابة السريعة تسحقه سحقًا كهراوة.. لكنه كان يعرف إنه على حق.. لابد أن هناك طريقة لإظهار زيف الاعتقاد بأن لا شيء يوجد خارج ذهن الإنسان، ألم يتم إثبات زيف ذلك منذ زمنٍ بعيد؟ بل إن هناك مسمى لذلك، ولكنه نسيه! ظهرت ابتسامة خفيفة على فم "أوبراين" وهو ينظر إليه وقال له:

- «قلت لك يا "ونستون" إنك لست قويًا في الماورائيات. إن الكلمة التي تحاول تذكرها هي «نظرية الأنا»، ولكنك مخطئ.. فهذه ليست «نظرية الأنا»، يمكنك أن تسميها «نظرية الأنا الجماعية». لكن ذلك أمرٌ مختلف، إنه عكس ما تقول».

ثم أضاف وقد تغيرت لهجته:

- «كل هذا خروج عن الموضوع.. إن السلطة الحقيقية التي يتوجب عليك القتال من أجل الوصول إليها، ليست السلطة على الأشياء بل على الإنسان».

ثم توقف عن الكلام واتخذ هيئة المعلم حينما يسأل تلميذًا واعدًا:

- «كيف يؤكد إنسان سلطته على إنسان آخر يا "ونستون"؟».

وقال "ونستون" بعد تفكير:

- «بجعله يقاسي الألم».

فرد "أوبراين":

- «بالضبط، بتعريضه للألم. فالطاعة ليست كافية إن لم تتألم، فكيف تكون واثقًا من أنه يطيع إرادتك أنت لا إرادته هو؟ فالسلطة هي إنزال الألم والإذلال بالآخر. السلطة هي تمزيق عقول البشر إلى أشلاء ثم جمعها مرة أخرى وإعادتها في قوالبٍ جديدة من

اختيارنا. هل بدأت تفهم العالم الذي نصنعه؟ إنه على النقيض تمامًا ليوتوبيا المدينة الفاضلة التي تخيلها المصلحون في الماضي، إنه عالم من الخداع والعذاب، عالم يسحق الناس فيه بعضهم بعضًا، عالم يزداد قسوة كلما ازداد نقاء، فالتقدم في عالمنا هو التقدم نحو مزيدٍ من الألم. زعمت الحضارات القديمة أنها كانت قائمة على الحب أو العدل. أما حضارتنا فقائمة على الكره. ولن يكون في عالمنا مكانًا إلا لمشاعر الخوف والغضب والانتصار واحتقار الذات. وسوف ندمر كل شيء آخر، كل شيء.. نحن الآن نحكم عادات التفكير التي ظلت منذ ما قبل الثورة. ولقد قطعنا الصلة الرابطة بين الطفل وأبويه، وبين الرجل والرجل، وبين الرجل والمرأة. ما عاد يجرؤ أحد على الثقة بزوجته أو طفله أو صديقه، أما في المستقبل، فلن يكون هناك زوجات أو أصدقاء. سوف يؤخذ الأطفال من أمهاتهم لحظة الولادة، مثلما يأخذ المرء البيض من تحت الدجاجة. وسوف يتم القضاء على الغريزة الجنسية. وسوف يصبح الإنجاب طقسًا سنويًا مثله مثل تجديد بطاقة الإعاشة. وسوف نلغي الرعشة الجنسية. إن أطباء الأعصاب عاكفون الآن على هذا الموضوع. لن يبقى وفاءً إلا للحزب. ولن يبقى حب إلا للأخ الأكبر، ولن يبقى ضحك إلا عند الانتصار على عدوٍ مهزوم. ولن يبقى فن، ولا أدب، ولا علم.. وعندما تصبح قدرتنا كلية، فلن نكون في حاجة إلى العلم. ولن يبقي من تمييز بين الجمال والقبح. لن يبقى فضول، ولا استمتاع بالحياة نفسها. سوف تُدمر كل مباهج الحياة، لا تنسى هذا يا "ونستون". إن الرغبة في السلطة ستظل موجودة على الدوام، وسيكبر دائمًا، ويزداد اتقانًا. وستظل دائمًا في كل لحظة، تلك النشوة بالنصر، ولذة سحق العدو المحور العاجز. وإذا

كنت تريد أن تستشرف صورة المستقبل، تخيل حذاءً يدوس ويدمغ وجه الإنسان إلى أبد الآبدين».

وهنا توقف "أوبراين" عن الكلام وكأنه يتوقع من "ونستون" أن يتكلم، ولكن "ونستون" كان قد حاول الانكماش على نفسه، ولم يستطع أن يتلفظ بكلمة، وبدا له وكأن قلبه قد تجمد، فاستكمل "أوبراين" حديثه قائلًا:

- «وعليك أن تتذكر يا "ونستون" أن هذا سوف يستمر إلى الأبد. سوف يظل الوجه حتى يُداس دائمًا. وسوف يظل الهرطوقي عدو للمجتمع حتى يُهزم ويُذل مرة بعد مرة. وكل ما مررت به منذ اعتقالك سوف يستمر وأسوأ منه أيضًا، التجسس، والخيانات، والاعتقالات، والتعذيب، والإعدامات، والاختفاءات، فلن تتوقف أبدًا.. سيكون عالمًا من الرعب بقدر ما هو عالم من الانتصار. وكلما صار الحزب أقوى، صار أقل تسامحًا؛ فكلما ضعفت المعارضة كلما اشتد الطغيان! أما "غولدشتاين"، فسيُقهر ويُوصم بالعار ويصبح محط سخرية، وسيتم البصق عليه في كل يوم، بل في كل لحظة، ومع ذلك سيبقي موجودًا وستبقى هرطقاته. وستظل هذه التمثيلية الدرامية التي مثلتها معك على مدى السبع سنوات، سيُعاد تمثيلها مرة تلو الأخرى وجيلًا بعد جيل، وبأشكالٍ أكثر دهاء، وسنجعل المهرطق دائمًا تحت رحمتنا يعاني من الألم، محطمًا ومحتقرًا وفي النهاية سيأتي من نفسه نادمًا بعد أن انتصر على نفسه السيئة، ويركع طالبًا العفو والصفح. هذا هو العالم الذي نعده يا "ونستون"، عالم مصنوع من انتصار بعد انتصار، وفوز بعد فوز. ضغط لا ينتهي، ضغط على عصب السلطة. أرى الآن أنك بدأت تدرك كيف سيكون هذا العالم. لكن ما ستفعله في النهاية يتجاوز الفهم. فسوف تقبله وتُرحب به، وستُصبح جزءًا منه».

استعاد "ونستون" عافيته واستجمع شتات أمره، فقال بصوتٍ واهن:

- «لا تستطيعون».

- «ماذا تعني بهذا الكلام يا "ونستون"؟».

- «إنكم لا تستطيعون خلق هذا العالم الآن، هذا حلم، هذا مستحيل».

- «لماذا؟».

- «مستحيل أن تُقيم حضارة على الخوف والكراهية والقسوة، فإن وجدت هذه الحضارة فلا يمكن أن تستمر».

- «ولما لا؟».

- «لأنها ستكون خالية من الحيوية، ولذلك ستنهار من داخلها».

- «هذا هراء، إنك تحت تأثير الاعتقاد بأن الكراهية تستنزف طاقات الإنسان أكثر مما يفعل الحب، فلم ذلك؟ ولو افترضنا أن اعتقادك صحيح، فما أهمية ذلك؟ ولو افترضنا أننا أردنا استهلاك أنفسنا بشكلٍ أسرع. ولو افترضنا أننا أسرعنا وتيرة الحياة الإنسانية، بحيث يشيخ الرجل في عمر الثلاثين، فما أهمية ذلك؟ ألا تستطيع أن تفهم أن موت الفرد ليس موتًا ما دام الحزب خالدًا؟».

وكالعادة أصاب صوت "أوبراين" "ونستون" بحالة من العجز واليأس، ثم إنه كان مذعورًا من أن إصراره على مخالفة "أوبراين" سيجعله يحرك مفتاح القرص من جديد. لكنه لم يستطع أن يستمر على صمته. عاد "ونستون" لهجومه لكن بصوتٍ خافت وحججٍ واهية، وخوفٍ مما قاله "أوبراين":

- «لا أدري ولا أبالي! سوف تفشلون على أية حال، سوف يهزمكم شيئًا ما، سوف تهزمكم الحياة».

- «نحن نتحكم بالحياة يا "ونستون" على كل المستويات، إنك تتخيل أن هناك شيئًا يسمى الطبيعة البشرية سيغضبها ما نفعله فتنقلب علينا. ولكن ما لا تعرفه هو أننا نعيد خلق الطبيعة البشرية، فالإنسان قابل للتحول بشكلٍ غير محدود. أو لعلك عدت إلى فكرتك القديمة القائلة إن البروليتاريين، أو العبيد سوف ينهضون فيطيحون بنا، لكن هذا من اختلاق عقلك أنت. إنهم عاجزون مثل الحيوانات. البشرية هي الحزب. والآخرون في الخارج لا أهمية لهم».

- «لا أبالي! لكن سيهزمونكم في النهاية. سوف يرون حقيقتكم عاجلًا أو أجلًا. وسوف يمزقونكم إربًا، إربًا».

- «هل لديك دليل على ذلك؟ أو أي سبب يحتم ذلك؟».

- «لا، لكنني أعتقد ذلك، إنني على يقين بفشلكم، ففي هذا العالم شيء لا أدري طبيعته، ربما يكون روحًا أو مبدأ، لن تتغلبوا عليه مطلقًا».

- «هل تؤمن بالله يا "ونستون"؟».

- «لا».

- «فما هو إذًا المبدأ الذي يهزمنا؟».

- «لا أدري! ربما روح الإنسان».

- «وهل تعتبر نفسك إنسانًا؟».

- «أجل».

- «إذا كنت إنسانًا يا "ونستون"، فإنك الإنسان الأخير، فقد انقرض نوعك، ونحن الوارثون. هل تعلم أنك وحيد في هذا العالم؟ أنت خارج التاريخ. أنت غير موجود».

ثم تغيرت هيئته وقال بخشونة:

- «وتعتبر نفسك متفوقًا علينا من الناحية الأخلاقية، بكل ما لدينا من أكاذيب وقسوة!».

- «نعم أرى نفسي كذلك».

هنا صمت "أوبراين" ولم ينطق، سُمع صوتان آخران يتكلمان. أدرك "ونستون" أن أحد الصوتين كان صوته هو، كان تسجيلًا له ليلة انضمامه لحزب الأخوة عندما تحدث مع "أوبراين"، فسمع نفسه وهو يعد بأن يكذب ويسرق، ويزور ويقتل، ويشجع على تعاطي المخدرات والدعارة، ونشر الأمراض التناسلية ويشوه وجوه الأطفال. أشار "ونستون" بيده إشارة تدل على نفاد صبره، كما لو أنه يقول له إن هذا التظاهر الذي تدعيه لا داعي له. ثم أدار مفتاحًا فأوقف الصوت.

قال:

- «انهض من السرير».

زالت الأربطة التي تشده من تلقاء نفسها، فنزل "ونستون" عن السرير ووقف مترنحًا..

قال "أوبراين":

- «أنت آخر إنسان، وأنت حارس الروح البشرية، سوف ترى نفسك على حقيقتها.. انزع ملابسك».

فك "ونستون" الرباط الذي يمسك ثيابه، لم يكن قادرًا على تذكر أنه قد خلع ثيابه من وقت اعتقاله أم لا. وكان المعطف يخفي تحته خرق قذرة صفراء بالية، يبدو عليها أنها بقايا ملابس داخلية. وما إن خلعها ووقف عاريًا حتى رأى مرآة ذات ثلاثة أوجه في أقصى الغرفة، فاقترب منها.. ثم توقف مفزوعًا.. فانطلقت منه صرخة لا إرادية.

قال "أوبراين":

- «تابع سيرك.. وقف بين جناحي المرآة حتى ترى الجانب الآخر من نفسك».

توقف "ونستون" لهول ما رأى فأصابه الذعر! رأى في المرآة هيكلًا عظميًا محني الظهر رمادي اللون، أخافته هذه الهيئة كثيرًا وأكثر ما أصابه بالفزع هو إدراكه أن هذه هيئته هو، فاقترب أكثر من المرآة، فبدا وجهه ناتئة عظامه، كان يشبه وجه طائر حبيس بائس، كان له جبهة عريضة ممتدة حتى فروة الرأس الصلعاء، وأنف معقوف وعظام وجنتيه محطمتين، وترتكز عليهما عينان تشعان خوفًا وحذرًا، وكان الخدان مجعدين وفمه غائر للداخل، كان لا شك لديه أن هذا وجهه هو ولكنه أحس أنه تغير أكثر مما تغير هو من داخله. فما سجله من انفعالات تختلف عما هو يشعر به الآن. لقد تساقط شعر رأسه، وظن للوهلة الأولى أنه شاب أيضًا، لكن جمجمته هي التي أصبحت رمادية. وبخلاف وجهه وكفيه فقد رأى جسمه كله رماديًا وقد علقت به أقذار قديمة، وكانت تنتشر في جميع أنحاء جسمه وتحت هذه الأقذار نبات جروح ملتهبة، وكانت دوالي ساقه ملتهبة وقد تشقق عنها الجلد، لقد أفزعه الهزال الذي أصاب جسده. لقد ضاق قفصه الصدري حتى أصبح كهيكلٍ عظمي، ونحلت ساقاه حتى أصبحت ركبتاه أغلظ من فخذيه، وهنا أدرك ما قصده "أوبراين" عندما قال حتى تري الجانب الآخر من نفسك. كان تقوس العمود الفقري مريعًا. وكانت الكتفان النحيلتان مندفعتين إلى الأمام حيث بدا الصدر مجوفًا. كما بدت الرقبة كأنها منحنية انحناء مضاعف تنوء تحت وزن الجمجمة. كان يمكنه تخمين أن هذا جسد رجل في الستين مصاب بمرض خبيث.

قال "أوبراين":

- «كنت ترى أن وجهي الذي يمثل وجه الحزب الداخلي عجوزًا مُرهقًا. فكيف ترى وجهك الآن؟».

أمسك "أوبراين" بكتف "ونستون" وأداره حتى أصبح مواجهًا له وقال:

- «انظر إلى حالتك الآن، انظر إلى القذارة المتراكمة على جسدك كله، انظر إلى الأوساخ بين أصابع قدميك، انظر إلى تلك

القرحة على ساقك. هل تعلم أن رائحتك كرائحة معزة نتنة؟ لعلك لم تلاحظ ذلك، انظر إلى الهزال الذي أصابك، هل تراه؟ يمكنني أن أمسك كتفك بإبهامي وسبابتي ويمكنني أيضًا كسر رقبتك مثل جزرة. هل تعلم إنك خسرت خمسة وعشرين كيلو جرامًا من وزنك منذ أن تم اعتقالك؟ حتى شعر رأسك يتساقط بغزارة...».

فانتزع خصلة من رأس "ونستون" وأراه إياها:

- افتح فمك، لم يبق في فمك إلا أحد عشر سنًا. هل تذكر عددها عندما أتيت إلينا؟ بل إن البقية الباقية تتساقط أيضًا».

وأمسك سنًا من أسنان "ونستون" وانتزعها من جذورها، فشعر "ونستون" بألمٍ شديدٍ في فكه، ثم رمى "أوبراين" السن على أرض الزنزانة. وقال:

- «أنت تهترئ وتتآكل، فلم تعد إلا كيسًا من القاذورات، انظر إلى المرآة مرة أخرى، هل ترى ذلك الشيء الذي يواجهك؟ إنه آخر إنسان.. وإن كنت إنسانًا، فهذه هي الإنسانية. ارتد ثيابك الآن».

وببطءٍ شديد وبحركة متخشبة بدأ "ونستون" يرتدي ثيابه، ولم ينتبه حتى هذه اللحظة إلى ما وصل إليه من الضعف والهزال. ولم يكن يفكر في شيء سوى أنه أمضى في هذا المكان أطول مما يتصور. وفجأة انتابه شعور بالحزن على جسده البالي وهو يرتدي ملابسه، وقبل أن يدرك ما يفعله، انهار على الكرسي الصغير إلى جانب السرير وانفجر باكيًا، لقد أدرك مدي قبحه وبشاعته، فجلس مثل كومة من العظام ملفوفة في خرقة بالية.. وراح يبكي تحت الضوء الساطع، ولم يكن قادرًا على منع نفسه من البكاء. وضع "أوبراين" يده على كتفه بلطفٍ وقال:

- «لن يدوم هذا الحال إلى الأبد، يمكنك أن تنجو بنفسك إن شئت ذلك، كل شيء معتمد على إرادتك أنت».

فقال "ونستون" وهو ينتحب:

- «أنت فعلت ذلك.. أنت الذي أوصلتني إلى هذه الحال».

فرد "أوبراين":

- «لا يا "ونستون"، أنت الذي فعلت ذلك في نفسك عندما وقفت في مواجهة الحزب، فكل ذلك نتيجة لجرمك الأول، فكل ما حدث لك كنت تتوقعه من البداية».

توقف للحظة ثم استكمل حديثه قائلًا:

- «لقد ضربناك يا "ونستون" وحطمناك! وقد رأيت ما وصل إليه جسدك الآن، إن عقلك أيضًا قد وصل لتلك الحالة، ولا أظن أنه بقي لديك شيء من كبريائك، لقد تعرضت للركل والجلد والإهانة، لقد صرخت متألمًا، وقد تدحرجت على الأرض متقلبًا في دمك وقيئك. وبكيت طالبًا الرحمة، وخُنت كل شخص وكل شيء تعرفه، هل يوجد صنف من الذل والإهانة لم يصبك على أيدينا؟».

توقف "ونستون" عن النحيب.. لكن الدموع لم تتوقف، وظلت تنهمر من عينيه، ونظر إلى "أوبراين" وهو يقول:

- «لكنني لم أخن جوليا».

فنظر إليه "أوبراين" نظرة تفكير وقال:

- «هذا صحيح تمامًا. أنت لم تخن جوليا».

وعاد الاحترام الغريب الذي يكنه "ونستون" لـ "أوبراين" يغمر قلبه من جديد. وقال محدثًا نفسه: «كم هو ذكي، كم هو ذكي! لم يفشل "أوبراين" ولو لمرة واحدة في فهم ما يُقال له، لو كان شخصًا آخر مكانه لأجاب مسرعًا، إن "ونستون" قد خان "جوليا" بالفعل، فلا يوجد شيء لم يستطع "أوبراين" انتزاعه مني من التعذيب، فأخبرهم عن كل شيء يعرفه عنها، وعن عاداتها، وشخصيتها، وحياتها السابقة، أعترف لهم بأدق التفاصيل، وبكل شيء حدث في لقاءاتهما، وكل ما قالته له وكل ما قاله لها، وبالوجبات المهربة من السوق السوداء وبزناهما، وبتآمرهما الغامض ضد الحزب. لكنه قال إنه لم يخن

"جوليا" لإدراكه أنه لا يزال محافظًا على حبها، فقد ظلت مشاعره نحوها كما هي، وقد فهم "أوبراين" ما يقصده دون شرح.

سأل "ونستون":

- «قل لي.. متى سيطلقون النار عليّ؟».

قال "أوبراين":

- «عليك أن تنتظر طويلًا، فأنت حالة صعبة. لكن لا تفقد الأمل، فالجميع يشقى عاجلًا أو أجلًا. وسوف نطلق عليك الرصاص في النهاية».

الفصل الرابع

تحسنت حالة "ونستون" الصحية بشكلٍ ملحوظ. فازداد جسمه قوة وامتلأ يومًا بعد يوم. إن جاز الكلام عن الأيام.

ظل الضوء الباهر والطنين مستمرين كما كان الحال من قبل، لكن توفرت سبل الراحة في الزنزانة أكثر بقليل من ذي قبل، فكان لديه وسادة وفراش على السرير الخشبي، ووضعوا له كرسي، وسمحوا له بالاستحمام بشكلٍ منتظم في حوضٍ معدني، بل وأعطوه ماءً دافئًا للاغتسال، كما أمدوه بملابس داخلية وأفرول، وعالجوا التهاب الدوالي في ساقه، وخلعوا ما تبقى من أسنانٍ وأعطوا له طقم أسنان صناعية.

وقد مر على هذه الحال أسابيع.. بل شهور، وأصبح قادرًا على أن يحصي الأيام والليالي لو شاء ذلك، فكانت تُقدم له وجبات منتظمة من الطعام، فكان يتناول ثلاث وجبات خلال الأربع وعشرين ساعة، وكان يقدم له طعامًا جيدًا جدًا، فكان يقدم له لحم في الوجبة الثالثة، بل وأعطوه علبة من السجائر ذات مرة، وكان الحارس الصامت دائمًا ما يعطي له الثقاب لأنه لم يكن لديه، وقد أصيب بنوبةٍ حادة من السعال عند أول محاولة للتدخين، لكنه تغلب على ذلك وراح يدخن نصف سيجارة عقب كل وجبة.

أعطوا له لوحًا أبيض مع قلمٍ رصاص مربوط في زاويته. لم يستخدم هذا اللوح في بداية الأمر، فكان في حالة سُبات تام حتى عند استيقاظه، وكان يستلقي في الفترة ما بين الوجبة والأخرى دون حراك، نائما أحيانًا ومستيقظًا أحيانًا أخرى. لكنه كان غارقًا في أحلام يقظة غامضة، كان صعبًا عليه أن يفتح عينيه خلالها، فقد اعتاد منذ زمنٍ أن ينام تحت الضوء القوي المسلط على وجهه، وكان يتخلل هذه الساعات الطوال أحلامٌ كثيرة، كانت سعيدة في معظمها، فكثيرًا ما كان يحلم إنه في "الريف الذهبي" وأحيانًا أخري يحلم بأنه جالس وسط أطلال ضخمة تنعكس عليها أشعة الشمس، ومعه أمه

و"جوليا" و"أوبراين" ولا يفعلون شيئًا سوى الجلوس تحت أشعة الشمس والحديث في أمورٍ عادية، وكانت أفكاره في يقظته تدور أيضًا حول هذه الأحلام. يبدو أنه قد فقد القدرة على بذل أي مجهود عقلي بعد أن زال عنه الألم الذي كان بمثابة حافزًا له على التفكير، ومع ذلك فلم يشعر بالضجر أو بالرغبة في الحديث إلى أحد، او حتى في التلهي بأي شيء، فكل ما كان يأمله هو أن يبقى وحيدًا لا يضربه أو يستجوبه أحد، وأن يحصل على ما يكفيه من الطعام وأن يسمح له بتنظيف جسمه.

وبالتدريج صار ينام وقت أقل، لكنه لم يشعر بأي دافع للنهوض من السرير، كان كل ما يهمه أن يستلقي في هدوء ويشعر بالقوة تزداد في جسده، فكان يتحسس جسمه بأصابعه ليتأكد من نمو عضلاته واستدارتها واشتداد جلده ليس خداعًا بصريًا، وكان متيقن أن جسمه قد امتلأ وأن فخذيه أصبحا أغلظ من ركبتيه. ثم بدأ في ممارسة الرياضة وقد شعر بالنفور أول الأمر، ولكن لم يمض وقتٌ طويل حتى استطاع أن يمشي ثلاثة كيلومترات ذهابًا وإيابًا في زنزانته، وصارت كتفاه المنحنيتين أكثر استقامة. حاول القيام بتمرينات أكثر صعوبة، فأحس بالصدمة والمذلة عندما وجد نفسه غير قادرٍ علي القيام بها، فلم يكن قادرًا إلا على المشي.. لم يستطع حمل كرسيه بذراعين ممدودتين إلى الأمام، ولم يستطع الوقوف على ساقٍ واحدة دون أن يقع، وكان إذا جلس على عقبيه فأحس بألمٍ شديدٍ في فخذيه وساقيه، إلى حدٍ يجعله لم يستطع الوقوف. وكان إذا انبطح على بطنه لم يستطع رفع جسمه عن الأرض سنتيمتر واحد، لكنه تمكن بعد ذلك بعد بضعة أيام، وأصبح يتباهى بجسمه ممنيًا نفسه بأن وجهه بدأ يعود إلى طبيعته، لكنه كان يتذكر ذلك الوجه المملوء بالتجاعيد الذي رأه في المراية أول مرة عندما يتحسس رأسه الأصلع. أصبح عقله أكثر نشاطًا، فكان يجلس على سريره الخشبي مسندًا ظهره على الجدار، واضعًا اللوح على ركبتيه. لقد انتوى على إعادة تثقيف نفسه.

مما لا شك فيه إنه كان قد قرر الاستسلام، ولكن في واقع الأمر إنه كان على استعدادٍ تام للاستسلام حتى قبل فترة من اتخاذه لهذا القرار. فمنذ دخوله إلى وزارة الحب، بل منذ أن وقف هو و"جوليا" متسمرين في مكانهما، حينما انبعث ذلك الصوت من شاشة الرصد يملي عليهما ما يفعلانه، كان قد أدرك مدى سخافة وحماقة وقوفه في مواجهة الحزب، فقد أدرك الآن أنه وعلى مدى سبع سنوات كانت شرطة الفكر تراقبه مثل خنفساء تحت عدسة مكبرة، وإنهم كانوا يسجلون عليه كل حركة يأتي بها وكل كلمة ينطقها، ولم يعجزوا عن استنتاج ما يدور في ذهنه من أفكار، بل وقد حرصوا على إعادة ذرة الغبار البيضاء التي وضعها على غلاف مفكرته. لقد أسمعوه تسجيلات بصوته، وعرضو عليه صوره، وكان بعض منها صور له مع "جوليا". وقد توصل في النهاية إلى أنه لم يعد قادرا على عداء الحزب وأن الحزب دائمًا على حق، فكيف يُعقل أن يكون العقل الجماعي الخالد على خطأ؟ وبأي معايير خارجية يمكن تقييم أحكامه؟ إن لسلامة العقل مقاييس إحصائية، ويقتصر الأمر كله على تعلم كيفية التفكير كما يفكرون فقط!

شعر بالقلم غليظًا بين يديه.. بدأ في تسجيل الأفكار التي كانت تدور في رأسه، فكتب بأحرفٍ كبيرة غير واضحة:

«الحرية هي العبودية»..

ثم كتب تحتها دون توقف:

اثنان واثنان يساويان خمسة.

وهنا أحس بحالة من الجمود تسيطر على عقله، حتى أصبح عاجزًا عن التركيز لخوفه من شيءٍ ما. كان يعلم ما سيأتي بعد ذلك، لكنه عجز عن تذكره الآن، وعندما تذكره لم يأت ذلك من تلقاء نفسه بل بفعل قدرته على تقدير ما هو من المفترض أن يكون. فكتب:

«الله هو السلطة»..

لقد تقبل كل شيء، وتوصل إلى أن الماضي قابل للتغير رغم إنه لم يتغير أبدًا. كما اقتنع أيضًا بأن «أوقيانيا» في حالة حرب مع «إستاسيا»، وأنها كانت في حربٍ دائمة معها، وأن "جونز، وآرونسون، وراذرفورد"، قد ارتكبوا الجرائم التي اتهموا بها، وبأنه لم ير أبدًا قصاصة الورق التي تُبرئهم، فهذه الصورة ليس لها وجودن وكانت من اختراعه، وتذكر أحداث متناقضة لكنه اعتبرها ذكريات زائفة ناتجة عن خداع الذات، كما أدرك سهولة الأمر، فلم يكن ليستسلم حتى وجد أن كل شيء يأتي من تلقاء نفسه. فالأمر يشبه من يسير مع التيار بدلًا من معاكسته. ولم يتغير شيء في ذلك إلا موقفه: فما كان مقرر سلفًا فسيحدث على أي حال! فأصبح لا يعرف السبب الذي جعله يتمرد أصلًا، كان كل شيء سهلًا إلا...!

فيمكن أي شيء أن يكون صحيحًا، فلا شيء يسمى قانون الطبيعة، وقانون الجاذبية عبارة عن عبث، ألم يقل "أوبراين": «إنه لو أراد، لجعل أرضية هذه العرفة تطفو كفقاعة الصابون». وأدرك "ونستون" الموضوع كالتالي: «إذا فكر "أوبراين" في أن يجعل أرض الغرفة تطفو، وفكرت أنا على نحوٍ متزامن في إنني أراه يفعل ذلك، فإن الأمر يحدث فعلًا». وفجأة لمعت فكرة في رأسه: «فالأمر لا يحدث بل نتخيله. هذه هلوسة». لكنه دفع هذه الفكرة سريعًا من مخيلته على الرغم من أن المغالطة واضحة وجلية، إنه يفترض أن هناك عالم حقيقي موجود في مكانٍ ما خارج النفس تقع فيه الحوادث الحقيقية، ولكن كيف يمكن أن يوجد عالم مثل هذا العالم؟ وما المعرفة الموجودة لدينا إلا تلك الأمور التي تأتي من عقولنا؟ إن ما يحدث، يحدث في العقل، هو ما يحدث فعلًا.

لم يجد صعوبة في التخلص من هذه المغالطة، كما لم يتهدده خطر طالما هو لن يفصح عنها، لكنه خلص إلى أنه ما كان ينبغي عليه أن تخطر بباله هذه المغالطة. كما ينبغي على العقل أن يكون كبقعة عمياء عندنا تأتي له تلك الأفكار الخطرة. وهذه العملية يجب أن تحدث تلقائيًا بفعل الغريزة، أو «إيقاف الجريمة»، كما تسمى في اللغة الجديدة.

وعكف على تمرين نفسه على إيقاف الجريمة، وراح يطرح على نفسه فرضيات مثل: يقول الحزب إن الأرض مستوية، ويقول إن الثلج أثقل من الماء، ثم بدأ يدرب نفسه علي ألا يري أو يفهم ما يساق من براهين تخالف هذه الفرضيات، لم يكن أمرًا سهلًا، لأنه كان يتطلب قدرات هائلة على التحكم في العقل والذكاء، ولذلك كانت المسائل الحسابية الناشئة مثل «اثنان واثنان يساويان خمسة»، كانت أبعد من أن يتخيلها عقله، وكانت تتطلب شكلًا من أشكال رياضة العقل وقدرة على استخدام المنطق إلى أقصى الحدود. وفي نفس الوقت التعامي عن أوضح المغالطات المنطقية. ولذلك كان الغباء لازمًا لزوم الذكاء بل صعب اكتسابه.

فكان عقلة يتساءل طيلة هذه الفترة عن مدى قرب لحظة إطلاق النار عليه. كان "أوبراين" قد قال له:

- «كل شيء معتمد عليك".

لكنه كان يدرك أنه ليس في استطاعته أن يفعل ما يقرب هذا الأمر. قد تأتي بعد عشر دقائق من الآن، أو بعد عشر سنوات، وقد يبقونه في هذا السجن الانفرادي لسنوات، وربما يرسلونه إلى معسكر العمل أيضًا. وقد يطلقون سراحه فترة من الزمن كما يفعلون أحيانًا، كما يمكن أن يعيدوا مسرحية اعتقاله واستجوابه قبل أن يطلقوا عليه الرصاص. وكان أكثر شيء متأكدًا منه هو أن الموت سيأتيه بغتة، فقد كان تقليد عندهم لكنه غير معلن، أن يطلقوا على المرء الرصاص من الخلف. ودائمًا في مؤخرة الرأس، من دون سابق إنذار أثناء سيره من زنزانته إلى أخرى عبر أحد الممرات.

ذات يوم، وإن كانت عبارة ذات يوم ليست بالتعبير الصحيح، فحدث ذلك تقريبًا في منتصف الليل، حينما استغرق في حلم غريب، فقد رأى أنه يسير عبر الممرات مترقبًا أن تأتيه الرصاصة في أي لحظة، لكنه علم أنها ستأتيه في لحظةٍ أخرى. وهنا شعر بارتياح، وهدأت شكوكه وزالت مخاوفه وآلامه، وتوقف عن الجدل، كان جسده قويًا معافى، وكان المشي سهلًا عليه، سار مسرورًا بخفة حركته، فلم يعد يسير في ممرات وزارة الحب الضيقة وإنما

في مرجٍ واسع تحت أشعة الشمس، حتى ظن أنه وقع تحت تأثير جرعة من المخدرات. لقد رأى أنه يسير تحت أشعة الشمس في الريف الذهبي، فوق الحشائش الخضراء التي كان يشعر بها عندما يخطو عليها بقدميه، كانت أغصان أشجار الدردار تتمايل عند أطراف هذا المرج، وينساب تحتها جدولٌ من الماء يسبح فيه بعض السمك النهري.

أجفل فجأة وقد جاءته صدمة ذعر، تصبب منه العرق على امتداد عموده الفقري، سمع نفسه يصيح بصوتٍ مرتفع:

- «جوليا.. جوليا.. جوليا.. حبيبتي، جوليا!».

أصيب بحالة من الهذيان جعلته يتخيل أن "جوليا" أمامه. لم تكم موجودة معه فحسب، بل في داخله وأصبحت جزءًا من كيانه، وأحس في تلك اللحظة بحبٍ غامرٍ نحوها، لم يشعر به عندما كانا طليقين معًا، كما أحس أنها لا تزال على قيدِ الحياة وإنها بحاجة إلى مساعدته.

استلقى في سريره محاولًا أن يُهدئ من روعه، متسائلًا ما الذي فعله؟ كم سنة أضاف إلى مدة حبسه نتيجة لحظة الضعف هذه؟ سوف يسمع بعد لحظة وقع الأقدام في الخارج، فلا يمكن أن يتركوا هذ الأمر دون عقاب، وسوف يدركون الآن أن لم يكونوا أدركوا من قبل أنه قد خرق الاتفاق الذي أبرمه معهم. إنه يطيع الحزب حقًا، لكن قلبه ما زال يكرهه. لقد كان في الماضي يخفي عقلًا ضالًا وراء مظهر من مظاهر الانصياع للحزب. أما الآن فقد ارتد على عقبيه، فقد استسلم بعقله، وكان يتمنى أن يظل قلبه كما هو، ولا يمسه شيء. كان يدرك أنه مخطئ، ولكنه فضّل أن يتمسك بهذا الخطأ، فلا فائدة من التراجع، ولابد أنهم سيتنبهون لذلك ولا شك أن "أوبراين" سينتبه إليه، فقد اعترف بكل شيء في هذه الصرخة حينما صرخ مناديًا على "جوليا". وعليه أن يبدأ الطريق الذي قطعه من جديد، وقد يستغرق ذلك سنوات، مسح بيده على وجهه محاولًا أن يألف الشكل الجديد، كانت على وجنته تجاعيد عميقة، أحس بأن عظام وجنتيه صارتان حادتين، وصار أنفه مسطحًا، ثم أنه أصبح لديه أسنان جديدة كاملة بعد آخر مرة رأى فيها نفسه في المرآة،

فليس سهلًا على المرء أن يخفي ما في قلبه عندما لا يعرف كيف هو شكل وجهه، ومع ذلك فإن مجرد السيطرة على تعبيرات الوجه لم تعد كافية لإخفاء أي سر، فقد أدرك للمرة الأولى أنه إذا أراد الاحتفاظ بسر، فعليه أن يخفيه عن نفسه أيضًا، وألا يتركه يطفو أبدًا على سطح الوعي في أي شكل أو تحت أي مسمى، إلا في اللحظة التي يحتاج إليه فيها. ومن الآن فصاعدًا عليه ألا يفكر تفكيرًا صحيحًا فحسب، بل عليه أن يشعر بشكلٍ صحيح وأن يحلم على نحوٍ صحيح، وعليه أن يحتفظ بكرهه في داخله طوال الوقت، مثل جسم مادي جزء من كيانه ولكنه لا يتصل بباقي أعضاء جسمه.

لا شك أنهم سيطلقون عليه الرصاص يومًا ما، لكن لم يستطع تحديد ذلك اليوم، لكن يمكن تخمين ذلك قبل وقوعه بثوانٍ قليلة، فهم دائمًا ما يطلقون الرصاص من الخلف أثناء السير في الممر، عشر ثوان ستكون كافية بقلب عالمه الداخلي رأسًا على عقب، ففجأة ودون إنذار ودون أن يتوقف عن السير وبدون أن يطرأ تغيير على تعابير وجهه يسقط القناع الذي يرتديه وتمتلئ نفسه بكراهية أشبه بلهيبٍ مستمر، وفي هذه اللحظة تقريبًا تنطلق الرصاصة.. إما قبل الأوان أو بعد فواته، سيمزقون عقله أشلاء قبل أن يتمكنوا من إصلاحه. وبذلك يكون التفكير الضال قد أفلت دون عقاب أو توبة، وأصبح بعيدًا عن متناولهم. وهم بذلك يكونون قد تسببوا في إحداث ثغرة في نموذجهم تنفي عنهم ما يدّعون من كمال، لقد رأى أن الحرية أن يموت وهو يكرههم.

أغمض عينيه، كان هذا أكثر صعوبة من تقبّل أي انضباط عقلي. كان أمرًا متعلقًا بالحظ من شأن نفسه بتشويه نفسه. عليه أن يغطس في أقذر الأقذار. وتساءل في نفسه: «أي شيء أكثر تقززًا للنفس على الإطلاق؟»، وهنا جال بخاطره الأخ الأكبر بوجهه الهائل الضخم - فكان يعتقد أن عرضه يبلغ مترًا، لأنه كان يراه كذلك على الملصقات - وشارباه الأسودان الكثيفان، وعيناه اللتان تلاحقان المرء أينما ذهب.. فما هي مشاعره تجاه الأخ الأكبر؟ سمع وقع

أقدام في الممر. انفتح الباب الفولاذي محدثًا صريرًا قويًا، دخل "أوبراين" إلى الزنزانة يتبعه الشاب ذو الوجه الشمعي والحارس ذو الزي الأسود.

قال "أوبراين":

- «انهض يا "ونستون" وتعال إلى هنا».

وقف "ونستون" أمامه.. فقبض "أوبراين" على كتفي "ونستون" بيديه القويتين، ونظر إليه بإمعانٍ وقال له:

- «أنت تعتزم خداعي، هذه حماقة منك، قف أمامي منتصب القامة وانظر إلى عينيّ».

توقف عن الكلام لحظة ثم تابع يقول بنبرةٍ أكثر لطفًا:

- «أنت تتحسن، بينما هناك بعض الأخطاء الطفيفة من الناحية الفكرية، أما من الناحية العاطفية فقد فشلت في إحراز تقدم يُذكر. قل لي يا "ونستون" من غير كذب، وتذكر إنني قادر على اكتشاف الكذب... ما هي مشاعرك الحقيقية تجاه الأخ الأكبر؟».

- «أكرهه».

فقال "أوبراين":

- «تكرهه؟ جيد. لقد حان الوقت لتخطو الخطوة الأخيرة. يجب أن تحب الأخ الأكبر، فلا يكفي أن تطيعه وأنت لا تحبه».

دفع "ونستون" نحو الحارس دفعة خفيفة وقال:

- «خذوه إلى الغرفة101».

الفصل الخامس

خلال كل مرحلة من مراحل حبسه كان يعرف أو كان يتخيل أنه يعرف إنه موجود داخل أقبية البناية الخالية من النوافذ، فكان يحس بتغييرات طفيفة في الضغط الجوي، فالزنزانة التي يضربه فيها الحراس كانت تحت سطح الأرض، والغرفة التي استجوبه فيها "أوبراين" كانت فوق سطح الأرض، أما الغرفة التي يقيم بها الآن فتقع في أعمق نقطة يمكن بلوغها تحت الأرض.

كانت هذه الغرفة أكثر اتساعًا من معظم الزنزانات التي نزل بها. لكنه لم يلاحظ ما يحيط به. كان كل ما لاحظه هو وجود طاولتين صغيرتين أمامه مباشرة. وكانت كل واحدة منهما مغطاة بقماشٍ أخضر، كانت إحداهما على مسافة متر أو مترين منه أما الأخرى فكانت أبعد منها.. بالقرب من الباب، أما هو فكان مقيدًا في مقعد يجعله عاجزًا عن تحريك أي من أطرافه ما عدا رأسه. كما كان هناك ما يشبه الضمادة تمسك برأسه من الخلف تجبره على النظر أمامه مباشرة، ولا تجعله يلتفت يمينًا أو يسارًا.

كان وحيدًا لحظة من الزمن، ثم انفتح الباب ودخل "أوبراين" وقال:

- «سألتني من قبل ماذا في الغرفة 101.. وقلت لك إنك تعرف الإجابة، الجميع يعرف الإجابة.. الشيء الذي في الغرفة101 هو أسوأ شيء في العالم».

انفتح الباب مرة أخرى ودخل حارسٌ حاملًا شيئًا مصنوعًا من الأسلاك، صندوق أو سلة من نوعٍ ما، وضع الحارس السلة على الطاولة البعيدة، ولأن "أوبراين" كان واقفًا أمامه فحجب عنه رؤية هذا الشيء أو التحقق منه.

وقال "أوبراين":

- «إن أسوأ شيء في العالم يختلف من شخصٍ إلى شخص، فقد يكون لدى البعض هو الدفن حيًا أو الموت حرقًا، أو غرقًا، أو بواسطة الخازوق، أو غير ذلك من أشكال الموت الشنيع، ومع ذلك تظل هناك حالات يكون فيها أسوأ ما في العالم هي أشياء تافهة لا تؤدي إلى الموت».

تحرك "أوبراين" بعض الشيء ليتمكن "ونستون" من رؤية الشيء الذي على الطاولة. كان قفصًا مستطيلًا من الأسلاك له مقبض من أعلى ليسهل حمله، وكان مثبتًا على مقدمته شيءٌ يشبه قناع المبارزة، وعلى الرغم من أن المسافة كانت حوالي ثلاثة أو أربعة أمتار، إلا أنه استطاع ملاحظة أن القفص مقسومًا نصفين بشكلٍ طولي، وفي كل قسم منهما جرذ.

قال "أوبراين":

- «في حالتك أنت، أسوأ شيء في العالم هو الجرذان».

سرت رعشة منذرة في جسد "ونستون"، خوفًا لم يكن متأكدًا من سببه بمجرد رؤيته للقفص، لكن عندما فهم ذلك الشيء المثبت على مقدمة القفص غاص قلبه بين ضلوعه وأحس أن أمعاءه تتقطع.. صاح بصوتٍ مرتفع متكسر:

- «أنت لا تستطيع فعل ذلك، لا تستطيع، لا تستطيع، هذا مستحيل!».

قال "أوبراين":

- «هل تتذكر حالة الرعب التي كانت تنتابك أثناء أحلامك، حينما كنت ترى جدارًا أسود، وتسمع زئيرًا في أذنيك، كان هناك شيء مخيف وراء الجدار، وكنت تعرف إنك تعرف ما هو ذلك الشيء إلا أنك لم تجرؤ على الكشف عنه. إنها الجرذان التي كانت في الجانب الآخر من الجدار».

قال "ونستون" وهو يجاهد للسيطرة على صوت:

- «أوبراين، أنت تعرف أن هذا غير ضروري. فما الذي تريده مني؟».

لم يعطه "أوبراين" جوابًا مباشرًا، وعندما تكلم.. تكلم بطريقة المعلم التي يستخدمها أحيانًا، راح ينظر بعيدًا مفكرًا، كأنه يخاطب حشدًا موجودًا خلف "ونستون":

- «لم يكن الألم وحده كافيًا على الدوم، فهناك حالات يستطيع المرء تحمل الألم فيها، ولو أدى ذلك إلى الموت. لكن هناك شيء لدى كل شخص لا سبيل لاحتماله، شيء لا يمكن التفكير فيه، لا علاقة للشجاعة أو الجبن بهذا الأمر، فالتعلق بحبل عند سقوطك من ارتفاعٍ شاهق ليس جبنًا، وإذا خرجت من أعماق المياه ليس جبنًا أن تملأً رئتيك بالهواء، فهذه أفعال غريزية لا يمكن كبحها، وهذا ينطبق على الجرذان، فهو أمر لا يُحتمل بالنسبةِ لك، إنه نوعٌ من الضغط لا يمكنك احتماله حتى إذا أردت ذلك، وحينها ستفعل ما يُطلب منك».

فقال "ونستون":

- «ولكنك لم تقل لي ماذا تريد مني؟ كيف تريدني أن أفعل شيئًا لا أعلمه؟».

حمل "أوبراين" القفص ووضعه على الطاولة الأقرب بحرصٍ شديد، أصبح "ونستون" قادرًا على سماح خرير دمه في أذنيه، وأحس أنه جالسًا منفردًا في قلب صحراء قاحلة يغمرها ضوء الشمس، وتتردد في أرجائها أصداء أصوات الجرذان، كل ذلك رغم أن القفص يبعد عنه أكثر من مترين، لقد كانا جرذين ضخمين وفي عمر تصبح فيه الجرذان شرسة بنية اللون.

قال "أوبراين" وهو لا يزال مخاطبًا الحشد الغير مرئي:

- «رغم أن الجرذان من القوارض إلا أنها أيضًا من آكلات اللحوم، ولابد أنك سمعت عما يحدث في الأحياء الفقيرة من هذه المدينة. ففي بعض الشوارع لا تجرؤ امرأة على ترك صغيرها بمفرده ولو لخمس دقائق، لأن الجرذان ستهاجمه، وتلتهمه حتى العظام خلال دقائق، بل إنها أيضًا تهاجم المرضى والمحتضرين على فراش الموت، وهي في ذلك تُظهر ذكاءً مذهلًا في معرفة متى يكون الإنسان عاجزًا ولا يستطيع الدفاع عن نفسه».

صدرت من القفص صيحات حادة، أحس "ونستون" وكأنها آتية من مكانٍ بعيد. كان الجرذان يتقاتلان، ويحاول كل منهما الوصول إلى الآخر عبر الحاجز. سمع أيضًا زفرة يأس عميقة، وأحس أنها صادرة من خارج نفسه.

حمل "أوبراين" القفص وضغط على شيءٍ فيه، فسمع "ونستون" صوت طقطقة حادة، بذل "ونستون" مجهودًا كبيرًا لتحرير نفسه من المقعد المقيد عليه ولكن دون فائدة، فكل جزء فيه مقيد حتى رأسه كان مثبتًا على نحوٍ لا يسمح له بأي حركة. قرب "أوبراين" القفص منه.. فصار على مسافة متر من وجه "ونستون".

قال "أوبراين":

- «لقد ضغطت على المزلاج الأول. وأنت تفهم ألية هذا القفص، فالقناع سينطبق على رأسك تمامًا، وسوف تنطلق هذه القوارض الجائعة منه كالرصاصة، هل رأيت جرذًا يقفز في الهواء من قبل؟ فسيقفز على وجهك وينهشه، وأحيانًا ينقض على العينين أولًا، وأحيانًا أخرى يثقب الوجنتين ليلتهم اللسان».

أصبح القفص قريبًا من "ونستون" وبدأ يسمع صرخات متتابعة حادة، أحس أنها تحدث فوق رأسه، ولكنه كان يقاوم الذعر الذي سيطر عليه باستماتة، فيجب أن يفكر، أن يفكر في جزءٍ من الثانية الذي تبقى له، فالتفكير هو الأمل الوحيد، وفجأة نفذت إلى خياشيمه رائحة نتنة منبعثة من الجرذان، فشعر باشمئزازٍ شديد، كاد يفقد الوعي.. صار كل شيء حوله أسود، أحس أنه أصابه مسٌ من الجنون فراح يصرخ كحيوانٍ يئن، فقد خطرت له فكرة أخرجته من هذه الأجواء حالكة السواد مفاداها أن السبيل الوحيد لإنقاذ نفسه هو أن يأتي بشخصٍ آخر يحول بينه وبين الجرذان.

اقترب الحجاب من "ونستون" فحجب عنه رؤية أي شخصٍ آخر، وأصبح باب القفص لا يبعد عنه كثيرًا. وكان الجرذان يعرفان ما هما مقدمين عليه، فبينما كان أحدهما يقفز في الهواء لأعلى ولأسفل، كان الآخر يقف ممسكًا بالقضبان، وهو يتشمم الهواء بشراسة. كان "ونستون" قادرًا على

رؤية شعر الجرذين الطويل، وأسنانهما الصفراء. فعاد الرعب يسيطر عليه من جديد وتملكه شعور باليأس وجمود في التفكير.

كان القناع يقترب من وجهه، ومس السلك المعدني وجنتيه، وهنا بدا له أن هناك بصيصًا من الأمل لكنه جاء بعد فوات الأوان، وفجأة أدرك أن شخص واحد فقط هو الذي يمكن أن يحيل عليه هذا العقاب، أو جسم واحد يمكنه أن يضعه حائل بينه وبين الجرذين، وراح يصرخ على الفور كالمجنون:

- «افعلوا ذلك بـ "جوليا"، افعلوا ذلك بـ "جوليا" ليس بي، إنما بـ "جوليا"، فأنا لا أهتم بها ولا بما تفعلونه بها، مزقوا وجهها، انزعوا لحمه من عظامها. ليس أنا، "جوليا"، ليس أنا».

شعر بأنه يسقط إلى أعماقٍ سحيقة بعيدًا عن الجرذين، كان لا يزال مثبتًا إلى المقعد، لكنه كان يشعر أنه يسقط إلى الأسفل، عبر الجدران، عبر المحيطات، عبر الأجواء العليا، وشعر أنه يندفع عبر الفضاء الخارجي وعبر المسافات الفاصلة بين النجوم بعيدًا، بعيدًا عن الجرذين حتى أصبح ما بينه وبينهما بضع السنوات الضوئية. لكن "أوبراين" كان لا يزال إلى جانبه. ولا يزال السلك المعدني البارد ملامسًا لوجنتيه، لكنه سمع عبر الظلمة المحيطة به صوت طقطقة معدنية آخر، وأدرك أن باب القفص قد أُغلق ولم يُفتح..

الفصل السادس.

كان مقهى شجرة الكستناء خاليًا من رواده، وكانت أشعة الشمس تتسرب من النافذة فتسقط على الطاولات المليئة بالغبار. كانت الساعة الثالثة بعد الظهر، وهي ساعة الاستراحة الوحيدة، وكانت مقطوعة موسيقية خفيفة تُبث عبر شاشات الرصد.

كان "ونستون" جالسًا في زاويته المعتادة محدقًا في كأسه الفارغ. وكان يلقي نظرة خاطفة من حينٍ لآخر على الوجه الضخم الذي ينظر إليه من الجدار المقابل، وكانت العبارة المعهودة التي تحت الصورة تقول: «الأخ الكبير يراقبك». ودون أن يطلب أحد ذلك أتى النادل وملأ الكأس بجن النصر، ثم وضع فيها بضع قطراتٍ من زجاجة أخرى، كانت نقاطًا من السكرين المُنكّه بالقرنفل وتلك كانت ميزة المقهى.

كان "ونستون" مصغيًا إلى الشاشة، كانت تبث موسيقي فقط، لكن كان من المحتمل أن تتحول في أي لحظة لبث النشرة الخاصة التي تصدرها وزارة السلام، فكانت الأنباء الآتية من الجبهة الأفريقية أنباء مقلقة، وكانت تشغل بال "ونستون" ليل نهار، فالجيش الأوراسي - كانت «أوقيانيا» في حالة حرب مع «أوراسيا» في ذلك الوقت، بل كانت دائمًا في حربٍ معها - يزحف جنوبًا بسرعة مذهلة. فلم تحدد نشرة الظهيرة منطقة بعينها، لكن من المحتمل أن يكون ميدان المعركة عند مصب نهر الكونغو، ولذلك كانت «برازافيل» و«ليوبولدفيل» في خطر، فلم يكن المرء بحاجة إلى التطلع إلى الخريطة ليدرك مدى الخطر الذي يعنيه ذلك التطور، لم يقتصر الأمر على فقدان مستعمرات أفريقيا الوسطى فحسب، بل إن «أوقيانيا» نفسها أصبحت مهددة للمرة الأولى منذ بداية الحرب.

أثارت هذه الأنباء عاطفة "ونستون"، لم يكن خوف، وإنما نوعًا من الاستثارة الغير محددة التي تلاشت سريعًا، توقف "ونستون" عن التفكير في

الحرب، ففي هذه الأيام لم يكن قادرًا على تركيز ذهنه في موضوعٍ واحد أكثر من لحظات قليلة، رفع كأسه فتجرعها مرة واحدة، وكما يحدث كل مرة جعله الجن يرتعد، بل ويتقيأ قليلًا أيضًا، فكان شراب الجن هذا من النوع القوي فلم يلطف السكرين والقرنفل من رائحته القوية الممرضة، والأسوأ من هذا أن رائحة الجن كانت تلازمه ليل نهار، كانت مختلطة في ذهنه برائحة هؤلاء الـ...

لم يجرؤ على ذكر أسماءهم في العلن أو حتى في ذهنه، بل لم يستطع تصورهم في مخيلته، كانوا شيئًا غائمًا يحوم حول وجهه وتنفذ رائحته إلى أنفه. ومع تغلغل الشراب في جسمه راح يتجشأ عبر شفتيه القرمزيتين. كان قد امتلأ جسمه بعد أن تم إطلاق صراحه واستعاد لونه القديم، بل غلظت ملامحه أيضًا واكتسبت وجنتاه وأنفه لونًا أحمر خشنًا. جاء النادل مرة أخرى دون أن يطلبه أحد حاملًا رقعة الشطرنج، والعدد الأخير من «صحيفة التايمز»، مفتوحة على صفحة مسائل الشطرنج، وعندما رأى كأس "ونستون" فارغة فأحضر زجاجة الجن وملأ له الكأس، لم يكن النادل بحاجة لتلقي أوامر من "ونستون" فقد عرف عادته، فرقعة الشطرنج دائمًا في انتظاره والطاولة في زاوية المقهى محجوزة له، وحتى حينما يمتلئ المقهى برواده، فكان يجلس بمفرده لأنه ما من أحدٍ كان يرغب في مشاطرته طاولته.

لم يكن يعبأ بعدد الكؤوس التي يحتسيها، كانوا يقدمون له على فتراتٍ منتظمة قصاصة ورق قذرة يقولون إنها فاتورة، ولكنه كان دائمًا يشعر أنهم يتهاونون معه في السعر، بالرغم من أن الأمر لم يكن ذا أهمية، لو كان عكس ذلك، فلديه فائض من المال هذه الأيام، بل إن لديه أيضًا وظيفة شكلية أعلى أجرًا من وظيفته القديمة.

توقفت الموسيقي المنبعثة من شاشة الرصد، ليحل محلها صوتٌ بشري. رفع "ونستون" رأسه ليصغي له، لم يكن أنباء من الجبهة، بل كان مجرد بيان

من وزارة الوفرة عن الخطة الثلاثية العاشرة، فقد حققت فائضًا في نصيب الفرد من أربطة الأحذية بنسبة 98%..

راح يفكر في حل مسألة الشطرنج ثم بدأ بترتيب الأحجار على رقعة الشطرنج، بدأ بتحريك القطع، وكانت نهاية خداعه قائمة على حركة حصانين «الأبيض يتحرك فيُميت الملك الأسود بحركتين». رفع "ونستون" رأسه ناظرًا إلى صورة الأخ الأكبر: الأبيض ينتصر دائمًا دون استثناء، وكأن ذلك مُعد سلفًا، بل لم يحدث أبدًا أن فاز الأسود في تاريخ اللعبة كله. ألا يرمز ذلك لانتصار الخير على الشر دائمًا وأبدًا؟

توقف الصوت المنبعث من الشاشة لحظة.. ثم قال بنبرةٍ مختلفة وجدية أكثر:

- «لقد تم إبلاغكم بانتظار إعلانًا مهمًا عند الثالثة والربع..

إنها أنباء في غاية الأهمية. أحرصوا على عدم تفويتها. الثالثة والربع».

عادت الموسيقى الخفيفة مرة أخرى...

خفق قلب "ونستون". إن ذلك تنبيه عن أنباءٍ قادمة من الجبهة، وأحس بغريزته أن أخبار سيئة ستأتي. كانت فكرة هزيمة ساحقة لـ «أوقيانيا» في أفريقيا لا تغيب عن ذهنه لحظة واحدة، بل تصور جيش «أوراسيا» وهو يجتاح الحدود الأوقيانية التي لم تُخترق من قبل، فيتجه جنوبًا داخل أفريقيا بأعدادٍ هائلة كالنمل. فسأل نفسه: «لماذا لم يكن تطويق الجيش بطريقة أو بأخري ممكنًا؟»، كان الساحل الغربي لأفريقيا جليًا في ذهنه، أمسك بالحصان الأبيض وحركه عبر الرقعة، تلك هي النقطة المناسبة، وحتى عندما رأى الجحافل السود مندفعة جنوبًا، كان يرى قوة أخرى تجمعت على نحوٍ سريٍ غامض، فانبثقت فجأة في مؤخرة ذلك الجيش، وقطعت اتصالاته البحرية والبرية، وشعر بأن مجرد رغبته في حدوث ذلك يمكن أن تأتي بهذه القوة إلى عالم الوجود، ولكن يجب على هذه القوة أن تتحرك سريعًا، فإن تمكنوا من السيطرة على أفريقيا كلها، وإذا كانت لديهم قواعد جوية

وغواصات في أقصى جنوب أفريقيا، فسوف يقطعون أوصال «أوقيانيا» إلى قسمين، ولربما أدى ذلك إلى انحدار «أوقيانيا» انحدارًا نهائيًا، وإعادة رسم خريطة العالم والقضاء على الحزب. أخذ نفسًا عميقًا.. كان خليطًا غريبًا من المشاعر أو بالأحرى كطبقات متعاقبة من المشاعر، بحيث لا يمكن للمرء تحديد أيها فوق وأيها تحت لكنها كانت متصارعة بداخله.

بعد أن زالت عنه هذه النوبة، أعاد الحصان الأبيض إلى مكانه، لكنه لم يستطع التركيز، على دراسة جديدة لمسألة الشطرنج في تلك اللحظة. فقد أحاطت به أفكاره مرة أخرى ووجد نفسه يخط بإصبعه على الطاولة المغطاة بالغبار: 2+2=

لقد قالت له "جوليا" ذات مرة: «إنهم لا يستطيعون التغلغل إلى كيانك»، لكن "أوبراين" قال له: «ما يحدث لك هنا شيء دائم إلى الأبد»، كان هذا كلامًا صحيحًا، فما يقوم به المرء من أفعال وما يحدث له من خطوب تظل ملازمة له، ولا يمكنه التخلص من آثارها، إن شيئًا قد قُتل بداخلك وأُحْرِق ثم عُولج موضعه بالكي.

لقد رأى "جوليا" وتحدث معها أيضًا، لم يكن في هذا خطرًا، فقد أدرك بغريزته أنهم لن يهتموا بأفعاله الآن، وقد كان قادرًا على ترتيب لقاءً ثانيًا بها، لو كان أي منهما مهتمًا بذلك، فكان لقاؤهما الأول مصادفة، كان ذلك في الحديقة في يوم شديد البرودة وكانت الأرض صلبة كالحديد، وكانت الحشائش شبه ميتة ولم يكن سوى القليل من براعم الزعفران التي شقت طريقها صاعدة لأعلى فتمزقها الريح. كان "ونستون" يُسرع الخطى وتجمدت يداه ودمعت عيناه من شدة الريح عندما رآها على مسافة عشرة أمتار، تفاجأ بأنها قد تغيرت على نحوٍ غير محدد، ومر كل منهما بالآخر دون أي إشارة، لكنه استدار وتبعها لأنه كان يعرف أن ما من خطر في ذلك، وما من أحد يهتم بهما. لكنها ظلت صامتة وتابعت سيرها عبر الحشائش دون أن تهتم به، وبعد ذلك قامت بالسير ببطء حتى يتمكن من اللحاق بها وكانا قد بلغا حينها مجموعة

من الأشجار العارية التي لم تصلح للاختفاء أو الاحتماء بها من الريح، وأخيرًا توقفا، كان الجو قارس البرودة والريح تُحدث حفيفًا بين الأغصان وتمزق البراعم الصغيرة، فاقترب منها "ونستون" وأحاط خصرها بذراعيه.

لا يوجد شاشة رصد هنا، لكن لا شك في وجود ميكروفونات خبيثة، ثم أن رؤيتهما هنا ممكنة أيضًا، لكن لم يكن ذلك مهمًا، لا شيء مهم! استطاعا أن يستلقيا على الأرض إذ رغبا أن يعاودا اتصالهما الجنسي، واقشعر جسده عندما خطر بباله ذلك الشيء. لم تتجاوب معه "جوليا" حين أحاط خصرها بذراعه كما أنها لم تحاول تخليص نفسها منه، ومن هنا أدرك التغير الذي طرأ عليها، أصبح وجهها أكثر شحوبًا وكما أسدلت شعرها على جزءٍ من ندبةٍ طويل، ولم يكن ذلك هو كل ما تغير بها، فأصبح خصرها أكثر امتلاءً وتيبسًا. فتذكر كيف شارك في حمل جثة من تحت الأنقاض بعد انفجار قذيفة صاروخية، وتذكر كيف أصابته الدهشة ليس لثقل وزن الجثة فحسب، بل لتصلبها.. فكانت أشبه بالحجر وليس بلحمٍ آدمي، أحس أن جسد "جوليا" أصبح شبيه بذلك! كما شعر أن نسيج جلدها أصبح مختلفًا عما كان عليه.

لم يحاول "ونستون" أن يُقَبِّلها، كما لم يتفوه أي منهما بكلمة، وعندما سارا فوق العشب عائدين نظرت إليه لأول مرة نظرة وكانت نظرة كره وازدراء. لكن "ونستون" لم يعرف إن كان كرهها هذا نتيجة الماضي أو نتيجة وجهها المنتفخ، وعينيها الدامعتين بفعل الرياح. جلسا على مقعدين حديديين جنبًا إلى جنب لكن دون أن يقترب أحدهما من الآخر، وكانت كلما أوشكت على الكلام تراجعت.. وسحقت بقدمها غصنًا يابسًا بدلًا من ذلك. قالت بغير اهتمام:

- «لقد خنتك».

قال لها:

- «وأنا أيضًا خنتك».

فرمقته بنظرة كره شديدة وقالت:

- «إنهم يهددونك أحيانًا بشيءٍ لا تستطيع احتماله أو حتى تخيله. وعند ذلك تقول: «لا تفعلوا بي ذلك، افعلوا بأي شخص آخر، وتتظاهر بعد ذلك أنها مجرد حيلة ليكفوا عن تعذيبك وأنك لا تقصده حقًا. لكن العكس صحيح. فإنك كنت تعني ما تقول وكنت تظن أن هذا هو السبيل الوحيد لنجاتك، ولا تهتم بما يعانيه الشخص الآخر، إنك لا تهتم إلا بنفسك».

قال مرددًا كلماتها كصدى صوت:

- «إنك لا تهتم إلا بنفسك».

أكملت "جوليا":

- «وبعد ذلك لا تعود تشعر نفس المشاعر التي كنت تكنها من قبل لهذا الشخص».

قال مرددًا كصدى صوت:

- «إنك لا تعود تشعر بنفس المشاعر».

بدا لهما أن لا شيءٍ آخر يمكن أن يقولاه. عصفت بهما الريح مرة أخرى، وشعرا بالضيق من جلوسهما الصامت، بالإضافة إلى أن جلوسهما هكذا دون حركة يجمد أطرافهما من شدة برودة الطقس، لذلك نهضت "جوليا" لتنصرف مبررة ذلك بأنها تريد اللحاق بالقطار.

قال:

- «يجب أن نلتقي ثانية».

فقالت:

- «أجل، يجب أن نلتقي ثانية».

تبعها مترددًا.. متأخرًا عنها نصف خطوة.. لم يتحدثا ثانية. أسرعت الخطى لكيلا تجعله يمشي بجانبها إلا أنها لم تحاول التخلص منه، كان قد قرر مصاحبتها إلى محطة القطار، لكنه أحس فجأة أن اللحاق بـ "جوليا" في هذا البرد القارس أمر لا معنى له، وغير محتمل، وتملكته رغبة في التوقف عن

متابعة "جوليا" والعودة إلى مقهى شجرة الكستناء الذي لم يشعر نحوه بمثل هذا الانجذاب من قبل، فأحس بالحنين إلى طاولته التي في الزاوية وفوقها الصحيفة ورقعة الشطرنج، وكأس الجن الممتلئة دائمًا، بالإضافة إلى ذلك فالمكان سوف يكون دافئًا، وفي اللحظة التالية سمح لمجموعة من الأشخاص بالمرور لتفصل بينهما، ثم قام بمحاولة فاترة للحاق بها ثم عدل عن الفكرة واستدار وانطلق في الاتجاه المعاكس، نظر خلفه بعد أن اجتاز خمسين مترًا لم يستطع تمييزها على الرغم من عدم ازدحام الشارع، فيمكن أن تكون أي شخص من عشرة أشخاص رآهم في الشارع، ولعل جسدها الذي امتلأ وتيبس لم يعد ممكنًا تمييزه من الخلف.

فقد تذكر قولها:

- «حينما كانوا يعذبوك كنت تعني ما تقول». ورأى أنها محقة، فهو لم يكتف بذلك فحسب، بل تمنى حدوثه، تمنى لو أنها هي التي تعرضت للجرذان لا هو».

وفي تلك اللحظة دخل إلى المقهى واتخذ مقعده، وأصغى إلى شاشة الرصد، فكان هناك تغييرًا قد طرأ على الموسيقي التي تبثها في نغمةٍ تهكمية هازئة بدأت تتخللها، ثم سمع صوتًا لم يدرك إن كان من ذاكرته أم من شاشة الرصد، فكان الصوت يقول:

«تحت شجرة الكستناء ذات الأغصان الوارفة..

بعتك وبعتني!».

اغرورقت عيناه بالدموع، لاحظ النادل أن الكأس فارغة فعاد بزجاجة الجن.

رفع "ونستون" كأسه فكانت رائحتها الكريهة تزداد سوءًا، ولكنها كانت هي ملاذه الوحيد، فأصبحت حياته ومماته وسلواه، فكل ليلة ينام عليها ويستيقظ عليها كل صباح. فنادرًا ما كان يستيقظ قبل الحادية عشرة، فيجد جفونه ملتصقة ببعضها وحلقه ملتهب وألمًا حادًا في ظهره، فكان من

المستحيل أن ينهض لولا زجاجة الجن والكأس الموضوعين بجوار سريره. كان يجلس ساعات النهار وعلامات الوجوم على وجهه، والزجاجة في يديه مصغيًا لشاشة الرصد. فكان يجلس في مقهى شجرة الكستناء بدءًا من الثالثة عصرًا، حتى ساعة الإغلاق وكأنه جزءًا منها، لم يهتم أحد به أو بأفعاله، فلم يعد يوقظه دوي الصافرات، وما عادت شاشة الرصد تزعجه بما تبثه، لكنه أحيانًا ما كان يذهب إلى مكتبه المغطى بالغبار مرتين أسبوعيًا في وزارة الحقيقة، ليقوم بالقليل من العمل، أو ما يسمى عمل. فكان قد عُين في عضوية لجنة فرعية منبثقة من لجنة فرعية، كانت أيضًا قد انبثقت من عددٍ لا حصر له من اللجان التي شُكلت لمعالجة الصعوبات الطفيفة التي تواجه عمليه تصنيف الطبعة الحادية عشرة من قاموس اللغة الجديدة. وكان أعضاء هذه اللجنة منهمكين في إعداد «التقرير المؤقت» كما يسمونه. لكنه لم يستطع تحديد موضوع هذا التقرير، فذلك الأمر لم يدركه أحدٌ أبدًا، فكان شيئًا يتعلق بما إذا كان يجب وضع الفاصلة بداخل الأقواس أم خارجها. وكان هناك أربعة أشخاص آخرون يشاركوه في هذه اللجنة، وكان حالهم مثل حاله. كانت تمر عليهم أيامٌ يجتمعون فيها ثم ينفض اجتماعهم سريعًا، إذ يعترف أحدهم للآخر صراحة أن لا شيء يمكن أن يفعلوه حقًا، وكانت تمر عليهم أيام أخرى ينكبون على عملهم بحماس، يتظاهرون بأنهم يُدخلون بعض التعديلات الدقيقة ويقومون بصياغة مذكرات طويلة لا نهاية لها. ثم يشتد النقاش بينهم حول ما يفترض أنهم يتناقشون حوله حتى يصبح مبهمًا، وتدور بينهم مساومات دقيقة على التعريفات حتى يخرجون عن الموضوع ويتشاجرون ويهددون بعض باللجوء إلى السلطات العليا. ثم تنفذ طاقتهم ويخيم عليهم الصمت فيجلسون حول الطاولة ينظر بعضهم إلى بعضٍ بعينين مطفأتين كأشباحٍ تتلاشى عند بزوغ الفجر.

صمتت الشاشة لحظة.. فرفع "ونستون" رأسه. لعله يكون في ذلك إشارة لقرب موعد نشرة الأخبار، ولكن خاب ظنه، فكان مجرد تغيير للموسيقي،

كانت خريطة أفريقيا مرتسمة في مخيلته، وكانت تحركات الجيوش تأخذ أشكالًا هندسية عليها، فهناك سهمٌ أسود ينطلق رأسيًا إلى الجنوب، وآخر أبيض ينطلق أفقيًا إلى الشرق، ويقطع مؤخرة السهم الأول، وكان يريد "ونستون" بذلك طمأنة نفسه، فرفع رأسه ونظر إلى الوجه الذي بالصورة وسأل نفسه: «هل يُعقل أن السهم الثاني لم يكن موجود؟».

لكن ولمرة أخرى فتر اهتمامه بذلك الأمر، فتناول جرعة من الجن، وأخذ الحصان الأبيض وقام بتحريكها حركة ارتجالية ثم أدرك عدم صحتها.

وفجأة جالت في باله الذكرى مرة أخرى، فرأى غرفة بها سريرٌ ضخم مضاءة بالشموع، بينما كان في التاسعة أو العاشرة من عمره، جالسًا على الأرض ويلعب بحجر النرد، وكان يضحك ضحكًا هستيريًا، وكانت أمه تجلس أمامه وتضحك هي الأخرى.

لابد أن ذلك حدث قبل شهر من اختفاء أمه، كانت لحظة وئام، لحظة يُنسى فيها الجوع الذي ينهش بطنه فيستيقظ حبه القديم لأمه استيقاظًا مؤقتًا. تذكر ذلك اليوم جيدًا، كان يومًا عاصفًا ماطرًا، فكان ماء المطر يجري فوق زجاج النافذة من الخارج بينما ضوء الغرفة كان خافتًا حيث يصعب القراءة. أصبح ضجر الطفلين في الغرفة المظلمة غير محتمل. بكى "ونستون" وانتحب طالبًا الطعام لكن دون جدوى، ثم بدأ يجوب الغرفة وهو يركل القواطع الخشبية بقدمه حتى ضج الجيران واحتجوا على ذلك الصخب، بينما انخرطت الطفلة الصغيرة في البكاء بشكلٍ متقطع وأخيرًا قالت أمه: «كن عاقلًا، وسأشتري لك لعبة. لعبة جميلة، سوف تحبها». ثم خرجت من المنزل تحت المطر وذهب إلى متجرٍ صغيرٍ بالقرب منهم كان لا يزال مفتوحًا، ثم عادت إليه بعلبة من الكرتون تحتوي على لعبة السلم والثعبان. وهو لايزال يتذكر رائحة الكرتون المصنوع منه هذه اللعبة، فكانت أدوات اللعبة في حالة يُرثى لها، فاللوح كان مشققًا وحجرا النرد المصنوعان من الخشب كانا غير منتظمين في تقطيعهما. نظر "ونستون" إلى اللعبة بلا اهتمام. وهنا أضاءت

أمه شمعة وجلسا على الأرض يلعبان معًا. وسرعان ما انخرط "ونستون" في ضحكٍ هستيري حينما رأى الثعبان يتسلق السلم حتى يسقط، ثم يعيد الكرة مرة أخرى وهكذا. لقد لعبا ثماني جولات، وربح كل منهما أربع منها. أما أخته الصغيرة، أصغر كثيرًا من أن تفهم موضوع اللعبة، فجلست مستندة إلى الوسادة، ضاحكة على ضحكهما. وهكذا أمضى أمسية سعيدة مثل الذي كان يمضيها في طفولته الأولى.

أبعد "ونستون" هذه الذكرى عن ذهنه، فقد كانت ذكرى زائفة، مثل التي تزعجه من حينٍ لآخر، فبعضها حدث وأخرى لم تحدث. استدار نحو رقعة الشطرنج فأخذ الحصان الأبيض مرة أخرى، وفي هذه اللحظة سقط الحصان من يده على الرقعة محدثًا صوتًا عاليًا، أما هو فقد انتفض كما لو وخزه دبوسًا.

اخترق صوت البوق عنان السماء، أخيرًا نشرة الأخبار. إنه النصر، فنفير البوق يعني النصر عندما يسبق الأنباء، أصيب جميع رواد المقهى بالصدمة، حتى العاملين في المقهى وقفو في أماكنهم وأساغوا السمع.

أعقب نفير البوق جلبة وضجيج من الحضور، كما كان هناك دوي صوت صادر من شاشة الرصد، لكن الأصوات التي صدرت من الخناجر قد طغت عليه. وسرت الأخبار بين الناس ومن شارع إلى شارع كالنار في الهشيم، كما سمع "ونستون" بعض العبارات التي تأكد منها أن الأمور تسير كما تصور. فقد عرف أن أسطولًا ضخمًا تم حشده في سرية قد أصاب مؤخرة العدو إصابة قاتلة، لقد قطع السهم الأبيض مؤخرة السهم الأسود. استطاع "ونستون" أن يلتقط من هذا الضجيج بعض العبارات:

«كانت مناورة استراتيجية بارعة».

«تم تحقيق الانسجام التام بين القنوات»

«انحدار تام للعدو».

«نصف مليون أسير».

«السيطرة الكاملة على أفريقيا».
«قربت الحرب على نهايتها».
«إنه أعظم نصر في التاريخ».
«النصر، النصر، النصر!».

تحركت قدما "ونستون" حركات عصبية متشنجة تحت الطاولة. لم يتحرك من مكانه، لكن عقله كاد أن يجري.. يجري.. ويجري بسرعة. فتخيل نفسه يجري مع الجماهير التي كان هتافها يصم الآذان، نظر "ونستون" مرة أخرى إلى صورة الأخ الأكبر الذي كان يقف شامخًا والعالم تحت قدميه! الصخرة التي تحطمت عليها الجحافل الأسيوية فخارت قواها. فبدأ يفكر أنه منذ عشر دقائق كان قلبه حائرًا بين أن الأنباء القادمة من الجبهة ستكون أنباء نصر أو هزيمة. لقد طرأ عليه تغيرٌ كثير منذ دخوله وزارة الحب. ومع ذلك لم يحدث التغير النهائي الذي لا مفر منه حتى الآن.

ما زال الصوت المنبعث من الشاشة يروى قصة الأسرى والغنائم والمذابح، ولكن خفت حدة الهتاف في الخارج، وبدأ عمال المقهى العودة إلى عملهم، واتجه النادل نحو "ونستون" وملأ له الكأس، لكن لم ينتبه "ونستون" لذلك، فكان هائم في حلم بهيج، لم يركض فيه مع الراكضين ولا يهتف مع الهاتفين. وإنما عاد في حلمه إلى وزارة الحب، وقد غفر له كل شيء، وأصبح قلبه صافيًا كالثلج الأبيض. ثم تخيل نفسه داخل قفص الاتهام أمام الجماهير يعترف بكل صغيرة وكبيرة، وقد وشى بكل شخص يعرفه، وسرعان ما رأى نفسه سائرًا في الممر ذي البلاط الأبيض، شاعرًا وكأنه يمشي في ضياء الشمس، وبجواره حارس مُسلح. وحينها أصابته تلك الرصاصة التي لا طالما انتظرها لتمزق دماغه.

نظر "ونستون" في الوجه الضخم بإمعان، فقد احتاج أربعين عامًا حتى يفهم معنى الابتسامة التي كان يفيها الأخ الأكبر تحت شاربه الأسود: «فقد رانت على ذهني غشاوة سوداء أحالت بيني وبين فهمي، بالإضافة إلى ذلك العناد الغير المبرر الذي أبعدني عن ذلك الصدر المحب». انحدرت من عينيه دمعتان وكان يقول لنفسه: «لا بأس، فكل شيء على ما يُرام وها قد انتصرت على نفسي وأصبحت أحب الأخ الأكبر».



ج.م.ع

الإسكندرية

Email: mazagelkotob@gmail.com

Mobile: 01024541339